كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

مشاكل الثقافة المعاصرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا شك أن مشاكل الثقافة المعاصرة تفاقمت في معظم بلدان العالم، وبين أممه المختلفة، بل اختلفت اختلافات جذرية عما كانت تسمى «مشاكل الثقافة المعاصرة» في النصف الثاني من القرن العشرين. إذا كان المثل القائل «ربَّ ضارةٍ نافعة» صادقاً، فقد

يصدق بالمقابل القول «رب نافعةٍ ضارَّة». إن ما لا ريب فيه أن الإنترنت من جهة، والفضائيات التلفزيونية من جهة ثانية، جعلا المسافات تضيق، والحدود الجغرافية تنعدم، والثقافات تتفاعل، والرقابة تضمحل. ولكن هذه الميزات الرائعة نفسها حكمت على الثقافة العميقة بالاضمحلال النسبي، ذلك لأن هواية المطالعة لدى الأجيال الصاعدة انكمشت أمام اجتياح شغف الإنترنت والفضائيات، فأصبحت المعرفة عامة، وغلبت على أقسام الجامعات أسئلةُ الاحتمالات في الامتحانات، وهي تصحح عن طريق الكومبيوتر، بغض النظر عن المقال الإنشائي والتذوق والتحليل. ومهما كانت «كمية» المعرفة مذهلة في ضخامتها وسرعة الحصول عليها، وهي من دون شك عظيمة، إلا أن «نوعية» جرعة الثقافة، ومدى تمثلها وهضمها ببطء، إنما بثبات، أصبح أدنى من قبل. ولنسأل أنفسنا بكل صراحة: هل يحظى الشعر الحديث بالقدر نفسه من الاهتمام الذي كان يحظى به في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي؟

وهل ما زالت الفلسفة تجذب أجيال الشباب كما في عهد الماركسية والوجودية؟

لا نريد أن نوغل في الأسئلة، ولا نرغب في التوسع لنشمل جميع الأجناس، لأن النسب متفاوتة، كما أنها تتباين بين دول غربية وأخرى من العالم النامي. ولكن، يمكننا الاستنتاج: إن الازدهار الجماهيري أصبح للفنون والآداب الشعبية، خاصة في العالم الثالث، وذلك تأثراً بوسائل الاتصال الجماهيري والإعلام الذي يروِّج لصور وأخبار النجوم، سواء في السينما والتلفزيون، أو في الرياضة. من جهة أخرى. هناك تراجع في اتساع تأثير الطليعية والتجريب في الفن التشكيلي والموسيقا والمسرح والسينما المستقلة. أليس السؤال مشروعاً: أين البدائل أو الروافد

اليوم لمسرح جيرزي غروتوفسكي وجوزيف شاينا وكانتور البولنديين، جو تشيكن وجورج كوتس الأمريكيين، يوجينيو باريا الإيطالي/ الدانماركي، بيتر بروك وجون ديكستر وكليفورد ويليامز البريطانيين، بيتر شتاين الألماني، جيروم سافاري وروجيه بلانشون الفرنسيين؟

أين الروافد أو البدائل لسينما أنغمار برغمان السويدي، وأندريه فايدا وزانوسي البولنديين، جان- لوك غودار وألن رينيه الفرنسيين، أنطونيوني وفيلليني وبازوليني الإيطاليين، جوزيف لوزي وتوني ريتشاردسون البريطانيين؟

يمكننا في ميدان الأدب العربي الحديث أن ننتقل إلى مجال القصة القصيرة، فنتساءل هل من بديل لزكريا تامر وحيدر حيدر السوريين؟

وهل من بديل لإدوارد الخراط المصري؟

وهل ظهرت قامة مثل جبرا إبراهيم جبرا؟ وهل هناك استمرار لأدب يشابه أدب غسان كنفاني؟

وهل استطاعت أديبة أن توازن بين الجماهيرية والفنية كما فعلت غادة السمان؟

لا أقطع بأن المستقبل واعد، وأنه سيحفل بإبداعات إنسانية جميلة، بل أميل بطبعي إلى التفاؤل بأن الحياة تستمر، وأن لكل جيل كتابه وتجاربه. لكن ما أقصد التنويه إليه هو صعوبة المرحلة الحالية التي يعيشها الإبداع الثقافي في بعض فروعه، والتجريبي منها خاصة، في العقد الأول من الألفية الثالثة. إذا نحن اعترفنا بوجود مشكلة أو مشاكل، فإن الخطوة التالية ستكون تشخيص أعراضها، وتحليل أسبابها. ثم سيأتي، من دون شك، العثور على العلاج المناسب، أي استنباط إجابات ناجعة لمشاكل الثقافة المعاصرة.

ربما كانت المشاكل الاقتصادية المتفاقمة بسبب التضخم المالي في بعض بلداننا، وانهيارات البورصة في بعض بلداننا الأخرى، من الأسباب الرئيسة لانكماش الاهتمام بالآداب والفنون. وربما كانت المشاكل السياسية المتنامية بشكل يهدد الأمن والاستقرار والحرية، وينذر بحروب يمكن أن تصل إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل، من الأسباب الرئيسة الأخرى. هذا، وتضاف أيضاً مشاكل سياسية من طرازين آخرين. الأول منهما يمكن تلخيصه بخيبة الأمل الشعبية من عدالة ما يسمى اعتباطاً «المجتمع الدولي»، وهيمنة ما يسمى «الكيل بمعيارين»، مما يعني بكلمات أخرى إجهاض الحلم العربي بالوحدة، بل أحلام العالم الثالث بأسره بما فيه معظم أفريقيا وأمريكا اللاتينية، ومصرع المبادئ المفجع عن سابق قصد وتصميم على حساب هوس تحقيق المصالح.

في الخمسينيات والستينيات، عاش جيلنا حلم الوحدة القومية، وعندما داهم الفشل الوحدة السورية/المصرية بمؤامرات مدروسة، ظلَّ هناك تمسك وقناعة صامدة وقوية بالوحدة الثقافية، وحدة التراث، ووحدة الموقف، ووحدة الأمل بمستقبل نتعاضد فيه، ونتكاتف لنشكل قوة يحسب لها حساب عالمياً، خاصة وأننا نملك موارد نفطية ومالية واقتصادية وبشرية وإبداعية لا يستهان بها. أصبح من المعروف أن القوى العظمى تتحرك بناءً على مصالحها النفعية الآنية الضيقة، والفوائد المرجوة لها من النفط والاقتصاد بشكل خاص، وبغض النظر عن اعتبارات المبادئ التي كان النظام العالمي القديم يلوح بها، لتبقى المبادئ الموعودة -بما فيها الوعد بنظام عالمي جديد، لم نلحظ اختلافه البين عن النظام العالمي القديم- مجرد شعارات تلوى أعناقها لتناسب قرارات استعراض القوة، واستخدامها المفرط بذرائع كثيراً ما يثبت زيفها وبطلانها فيما بعد.

أما الطراز الثاني فهو الإحباط الناجم عن عدم التغيير، أو التغيير شديد البطء، في أنظمة الحكم في العالم الثالث عموماً، وبالتالي عدم تكيف الثوابت المتكلسة مع ضرورات المتغيرات الطارئة، أي بكلمات أخرى انعدام المرونة أمام الأزمات العاصفة والمفاجئة، لنقص ملموس في نصح وإرشاد «مجموعات المفكرين والباحثين» Think tanks واتخاذ قرارات حاسمة، قد تكون نابعة من مواقف عادلة، إلا أنها لا تأخذ بعين الاعتبار جميع المخاطر المحتملة.

النتيجة الحتمية هي انقسام أوسع بين هواة الثقافة والفنون القلائل، وبين الأغلبية العازفة عن الثقافة والفنون باتجاهيهما الجادين، والمقبلة على المعلوماتية والفضائيات للتسلية والاطلاع العابر السريع فحسب.

من ناحية أخرى، فإن الأخطار الثلاثة المتفاقمة، والتي ينظر إليها على أنها تهدد المجتمع والسياسة والاقتصاد، إنما تهدد بالمستوى نفسه الثقافة والحياة الاجتماعية المتنوّرة والمعتدلة. هذه الأخطار تتلخص بالنقاط التالية: التطرف (أو التعصب،) الإرهاب (بشكله المختلف من وجهة نظر شعوب العالم الثالث عن المناضلين من أجل الحرية،) والطائفية (وهي تمتد من صراع خفي بين الأديان إلى صراع خفي بين طوائف تلك الأديان، يمكن أن يهدد الكيانات القومية بالتمزق، وبالتالي بمزيد من الضعف والانقسام).

لكن أسئلة الثقافة المعاصرة تطرح أكثر من أي وقت مضى مسألة الديمقراطية، أو الشورى بمصطلحنا الإسلامي. كما تطرح مسألة ترابط الحرية والالتزام لدى الأديب والفنان المعاصر، بمعنى أنه «يقود» و«لا يقاد». أيضاً، يتجدد السؤال الثقافي المهم حول جدارة الخصوصية والتعددية، ومن ثم تحطيم الأنماط الثابتة stereotype، وعدم تبني الأشكال المألوفة والمتعارف عليها. ويبقى

السـؤال الأخير هو سؤال البدايـة المضمر نفسه: كيف يستطيع المبدع في أي جنس من أجناس الإبداع، سواء الأدبية أم الفنية، إنتاج أعمال ذات قيمة طليعية وخالدة في آن معاً؟

وكيف يتمكن من حسن توصيلها إلى أكبر قدر ممكن من الجمهور العريض من دون تنازلات تذكر؟

بالتالي، كيف يستطيع أن يدحض المبدع التناظر والتشابه والانسياق للموضة أو الاندماج بالقطيع، ليحقق فرادة وتميزاً؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلمة العدد

أصل وانتشار وتطور الكتابة المسمارية

د. علي القيم
رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أين ومتى ولدت الكتابة المسمارية؟ سؤال قديم جديد مازال يطرح نفسه، على ضوء كل جديد في عالم الاكتشافات الأثرية في الوطن العربي والعالم القديم، ومن خلال متابعة متأنية على مدى سنوات طويلة، أستطيع إعطاء إجابة دقيقة نوعاً ما.

لقد وجد في أوروك أو ما يعرف في وقتنا الحاضر باسم «الوركاء» في جنوب بلاد مابين النهرين، مجموعة من قطع طينية تمَّ تجفيفها،

حملت رموزاً مختلفة وتعود إلى آلاف السنين، وبعد دراستها من قبل مجموعة من علماء اللغات القديمة، الألمان في عام ١٩٣٦، تبين أنها نصوص كتابات (ما قبل المسمارية) واعتمد عليها فيما بعد في دراسة آلاف النصوص المشابهة لها، والمكتشفة في العقود اللاحقة.

استناداً إلى ما تمّ من دراسات أثرية ولغوية، فإن الرقم والنصوص الكتابية، يمكن تقسيمها إلى مجموعتين، الأولى أقدم كرموز لغوية، وتمثل فترة (أوروك الرابع) الواقعة بين (٣٢٠٠و٣١٠٠) قبل الميلاد، والثانية أحدث وتمثل فترة (أوروك الثالث) الواقعة بين (٣٠٠٠ و٢٩٠٠) قبل الميلاد، وعليه يمكن بشكل تقديري تحديد الزمان والمكان لولادة اللغة المسمارية التي انتشرت فيما بعد في باقي بلاد ما بين النهرين، سابقة أنواعاً أخرى من الكتابات مثل العيلامية القديمة (عيلام تقع غرب نهر دجلة) وسوسا في إيران التي كانت لها كتاباتها، والهيروغليفية المصرية، التي لم يتم توثيقها قبل سنة ٢٩٠٠قبل الميلاد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد تأثرت الكتابة العيلامية القديمة بتلك الرافدية، وربما قامت الرافدية بإعطاء فكرة نظام الرموز إلى المصرية التي كان لها كيان ونظام ورموز خاصة بها، وعليه يمكن القول بثقة أكيدة (حتى يثبت العكس أو نكتشف الجديد) أن «أوروك» هي المدينة التي ولدت فيها المسمارية القديمة، ومما يدعم أهمية «أوروك» ذلك الانتشار السريع لهذه اللغة، حيث اكتشف في مواقع عديدة رقيمات تعود لفترة «أوروك الثالث» ومن أهم هذه المواقع «جمدة نصر» التي تقع شمال أوروك، بالقرب من بابل التي ولدت لاحقاً.

إن ما اكتشف من رقيمات كتابية، أظهرت لنا عدة أشكال حيوانية يمكن أن تعطي عدة احتمالات، فهي تشرح ما يشاهد، وهي بالتالي لا تعبّر بالضرورة عن

لغة، وهذا ما يحاول الدارسون والباحثون فهمه والبحث فيه، فهذه الرقيمات يمكن أن تقوم مقام فكرة كوسيلة تسجيل وإحصاء على سبيل المثال، وخلال ما تمَّ من دراسات خلال العقدين الماضيين، توضحت حقيقة تطور الكتابة المسمارية التي كانت، أو ولدت نتيجة لمتطلبات المجتمع المدني الذي شهد تطوراً متسارعاً آنذاك في جنوب بلاد مابين النهرين بعد منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وخير مثال، مانجده في «أوروك» فقد كانت ولادة الكتابة كولادة المدن، تطورت بتطور المجتمع لتلبي حاجاته، وخاصة الاقتصادية منها.

* * *

لقد ركزت الدراسات على جوانب مهمة من حياة المجتمع، من خلال الأختام والأوزان التي كانت دوماً الجانب الأهم في حياة الشعوب وتطورها، لقد استعملت القطع النقدية في السابق، وهذا يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد خلال العصر الحجري الحديث، وكانت غالباً قطعاً طينية، وأحياناً حجرية على اختلاف أشكالها، وكانت تصنع حسب قياسات معينة، وبحلول الألف الرابع قبل الميلاد، أبصرت الأختام المستديرة والمسطحة النور، التي صعب في البداية معرفة استعمالاتها، وبتطور المجتمع، وطرق تصنيع هذه القطع، سهل معرفة وظائفها حيث أن كل قطعة من هذه القطع كانت تقوم مقام عملية حسابية لمواد تمَّ إحصاؤها، فنجد هذه القطع المثقوبة، موضوعة معاً من خلال خيط يصل فيما بينها، يغلق في نهايته بالطين الذي تمَّ ختمه، وهذه الطريقة الأولى، أما الثانية فهي وضع هذه القطع في علبة من الطين التي يتم ختمها وإغلاقها وكان ذلك عبارة عن ضمان توثيق لهذه القطع.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد تطور استعمال الختم بتطور المجتمعات خلال الألف الرابع قبل الميلاد، فتطور الحياة الاجتماعية لقصور ومعابد تلك المدن، فرض تطور المجتمع بأكمله، وبالتالي كل الوسائل التي رافقت نمو المجتمعات المدنية، لقد انتشرت القطع النقدية على مساحة جغرافية واسعة، لكن تركزت في ثلاث مناطق خلال الألف الرابع قبل الميلاد، في أوروك، جنوب بلاد ما بين النهرين، وسوسا في إيران، وحبوبة كبيرة في شمال سورية، ومن خلال ما اكتشف في «أوروك» تبين بأن هذه القطع قد وجدت وعرفت قبل ٣٢٠٠ قبل الميلاد، في المدينة نفسها،وقد اتضح التطور الذي طرأ على النظام المحاسبي آنذاك، وهو ما يتلخص في إلغاء استخدام الظرف، واستبدال ذلك بطريقة أحدث وهي تنفيذ رموز هذه القطع على الغلاف الخارجي الذي يمثل بكل ما فيه من رموز محتويات الداخل والذي اتخذ شكلاً مسطحاً ذا زوايا، وهذا ما عرف بالرقيم الذي حمل رموزاً وأشكالاً أحدثت تغيراً جذرياً في تطور شكل الكتابة.

ARCHIVE
http://Archive.Sakhrit.com

دراسات كثيرة قام بها علماء اللغات القديمة حول تطور الكتابة والمراحل التي مرّت بها، وشملت هذه الدراسات مراحل ما قبل التاريخ، التي قدّر عدد الألواح المكتشفة منها بنحو (٥٠٠) لوح وجدت في أوروك على اختلاف تأريخها الزمني المرتبط بمراحل الكتابة، وتبين أن هناك (١٢٠٠) رمز، استعملت في قسم كبير من هذه الألواح الكتابية وخاصة في المرحلة الأقدم، ومع مرور الزمن تمَّ اختصار هذه الرموز إلى (٣٠٠) رمز، عرفت وتداولت لدى اللغات المختلفة التي عرفت من الشرق العربي القديم وقد كان يتم ترتيب وحفظ هذه الرقم بعدة طرق، فكان الكتّاب يرتبونها إما بحسب الشكل أو بحسب المعنى أو أحياناً حسب ما تحتوي من مفاهيم.

إن أكثر هذه النصوص كانت مضامينها حسابية، و١٠٪ منها فقط كانت نصوصاً معجمية، حوت رموزاً لحيوانات وأسماء أشخاص وأشياء أخرى، وقد استمرت هذه النصوص تكتب بهذه الطريقة لفترات طويلة، فقد عرفت خلال فترة «أوروك الرابعة» وما بعدها، واعتبرت وسيلة تقليدية تتعلق بالكتابة وممارستها، وقد طرأت تغيرات على أسلوب الكتابة أو ما استعمل في تنفيذها، وكانت تتم بوساطة أداة مدببة، تنفذ ما يراد كتابته على الرقيم، وتعطي بالنتيجة رمزاً محدداً، وتطورت هذه الأداة خلال الألف الثالث قبل الميلاد لتنتهي بقسم مثلثي يرسم خطوطاً ينتهي كل منها بما يطلق عليه «القمع».

وعليه يظهر لدينا تطور الكتابة التدريجي، من رموز تفتقد إلى الشكل المستقيم إلى رموز مستقيمة ومتقنة بآن واحد، وهذا ما أدى فيما بعد إلى الاستغناء عن إعطاء شكل أو رسم لما يراد قوله، والاستعاضة عن ذلك برموز تجريدية، قدمت الفرصة للاستعانة بنظام اتصال آخر وهو(الألفاظ).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد لوحظ خلال القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد في «آكاد» في بلاد ما بين النهرين، وجود اتجاه خاص، يقوم على تدريب الكتبة على اتباع نظام كتابة، تصبح الرموز معه متطابقة، نتيجة لحاجة الدولة إلى التماس نظام متوافق، يشمل المجالات المختلفة، تظهر من خلاله المعلومات برموز كتابة متساوية نوعاً ما.

• • •

وبحلول الألف الثاني قبل الميلاد، ظهرت عدة اتجاهات ومدارس كتابة، لكل منها خاصيتها التي أثرت على المناطق المحيطة بها، وبالتالي أخذت تتطور

وتؤثر في بيئات مختلفة مثل: الأناضول وسورية من جهة، والآشورية والبابلية من جهة أخرى، وقد طرأت عدة تغيرات على الكتابة، فقد كانت الرموز تظهر من خلال نظام تقسيم الرقيم إلى جداول تؤلف خانات، وتلك الرموز هي التي تشكل النص، إلا أن هذا النظام قد تطور بمرور الزمن، ففي البدء كان يتم تنظيم الخانات بشكل أفقي، من اليمين إلى اليسار، وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وتحديداً فترة (لوغال زاغيزي) (٢٣٥٠ قبل الميلاد) في أوروك، تغيّرت وضعية كتابة الرقيمات لتصبح أعمدة متوازية تضم خانات، وتقرأ من اليسار إلى اليمين، وقد استعمل نظام الخانات منذ فترة (٢٤٠٠ قبل الميلاد) خلال فترة ماقبل السلالات، وبدأ يزول تدريجياً، إلا أنه استعمل لعدة قرون، وقد ساعد على قراءة الرقيمات كبيرة الحجم.

لقد شهدت هذه الطريقة عدة تعديلات خلال فترات تاريخية متباينة وربما كان ذلك نتيجة رغبة أو ميل محرري النصوص إلى تغيير اتجاه الكتابة، ربما بشكل تدريجي،ولكنه لم يشمل كل الكتابات، بل انحصر في الرقيمات، لأن النصوص التي وجدت على التماثيل أو الأختام، بقيت على حالها،ولم تطرأ عليها التغيرات، وكذلك طريقة القراءة التي بقيت كما كانت في السابق.

إن أية وسيلة اتصال كتابية - حتى نستطيع أن نطلق عليها اسم «لغة»- يجب أن يتوافر فيها عدة عناصر أو نقاط مهمة من قواعد وصيغ تعيننا على تقديم المعلومة بشكل مقبول ومنطقي، وهذا ما لا نجده ملموساً في نصوص الرقيمات، فمن الممكن فهم نص ما كفكرة عامة من دون التمكن من التعمق فيه، على سبيل المثال: يمكن أن نفهم موضوعاً حول الحيوانات ولكننا لن نتمكن من

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

معرفة مصدرها ولا المكان الذي سترسل إليه النصوص كونها لا تعبرَ عن ذلك صراحة.

لقد قدَّمت الكتابة إبداعا مهماً جداً في تاريخها، وهو إمكانية لفظ الرموز التي أعطت صورة أوضح للمعلومات المدونة على الرقيمات، وقد أسهم اللفظ في إغناء المعلومات المقروءة، فإنها كانت تميز بين الجمع والمفرد وبين ما كان متعلقاً بقواعد كتابية أو لغوية، ومما يميز الكتابة السومرية أن المقطع الصوتي يحلَ في أكثر الأحيان محل الكلمة، وهذا ما أدى إلى نشوء صعوبات من نوع آخر، وهي إمكانية حصول أخطاء عن طريق اللفظ، مثال ذلك: كلمة (TI) تي تعني (سهم) وكلمة (TIL) تيل تعني (حياة) ولهما لفظ واحد، واعتماد الكتّاب أو محرري النصوص على اللفظ لا على الكلمة المدونة، قد سهّل الوقوع في الأخطاء عن طريق الألفاظ المتشابهة، وهكذا فإن الشعوب كافة، بكل ما قدَمته من رقم كتابية، قد اتخذت مساراً مشابهاً مع اختلاف البنية اللغوية لكل منها مثل الآكادية والإبلائية والعيلامية والحورية والحثية التي استخدمت الرقم خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، وانتشرت في أنحاء الشرق الأدنى، إضافة إلى توسع انتشار الآكادية كلغة، لتصبح اللغة العالمية لتلك الفترة، والمتداولة في قصور الشرق.

• • •

من جديد ظهرت مشكلة الكتابة والمقاطع الصوتية، باكتشاف الأرشيف الملكي في إبلا (تل مرديخ) الواقع إلى الجنوب من مدينة حلب بنحو /٥٥/كم، وقبله اكتشاف رقم ماري (تل الحريري) وبعدهما رقم تل البيدر في شمال سورية، لقد

تطورت الكتابة بتطور المدنيّة في بلاد الرافدين، خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، لتلبي حاجات المجتمع الذي كان يشهد تطوراً مستمراً خلال تلك الحقبة، وتوجب على المجتمعات اتباع نظام كتابي يتوافق وحاجات كل مدينة (اقتصادياً وإداريا) وقد تأثرت هذه الكتابات ببعضها البعض، وهذا ما لاحظناه في مواقع (فا- ٥) و(أبو صلابيخ) وأرشيف (إبلا) آكاد، مع مراعاة اختلاف بعض المقاطع الصوتية والاستعمالات اللغوية، التي خلقت بعض العقبات أمام الإبلائيين والآكاديين فيما بعد.

سبب هذه الصعوبات، نتج عن أن الإبلائية والآكادية لم تستطيعا تطويع السومرية لقواعدهما اللغوية، وخاصة فيما يتعلق باللفظ، لذلك كانت لغة إبلا المكتوبة تعجز عن نقل اللغة المتحدث بها، وعليه فإن من أحرف لغة إبلا المكتوبة احتملت العديد من الألفاظ، ونظراً لغلبة الطابع الاقتصادي على ما وجد في أرشيف إبلا من رقم مسمارية،ولا يعرف بشكل دقيق ما هي احتمالات لفظ هذه الرقم ولكننا نستطيع معرفة معناها عن طريق ما يقابلها في السومرية، وهناك رقماً أخرى تمثل اعتقادات دينية ونصوصاً قانونية، كتبت جميعها بلغة إبلا المحلية، التي استعملت طريقة المقاطع الصوتية.

على الرغم من أن اللغات التي ظهرت في إبلا وماري وتل البيدر، قد أخذت عن السومرية في عدة أوجه، إلا أن لكل منها قواعد وأصول اختصت بها على حدة، وبناء على ذلك من المحتمل أن الكتابة الإبلائية تعود إلى نهاية الفترة التي تسبق عهد (صارغون الآكادي- ٢٣٥٠ قبل الميلاد). وهو ما دلّت عليه الرقم المسمارية والطريقة التي كتبت بها.

فقد عرفت إبلا رقيمات بأحجام وأشكال مختلفة (كبيرة- مستديرة - صغيرة - مربعة) مقسمة إلى جداول وخانات تبدأ من اليمين إلى اليسار، متابعة إلى القسم الخلفي للرقيم الذي يحتوي في جدوله الأخير معلومات حسابية، أو ذات أهمية، ليتمكن القارئ من تمييزها وقراءتها بسرعة وسهولة.

خلال الألف الثاني قبل الميلاد، انتشر استعمال الرقم الكتابية المسمارية في المدن الأشورية والفلسطينية، وكانت اللغة الآكادية هي اللغة الرسمية، وهذا ما دلّ عليه مجموعات كبيرة من الرقم التي اكتشفت في آلالاخ (تل عطشانة) في شمال سورية (القرون ١٧ - ١٥ قبيل الميلاد) وايمار (مسكنة- سورية) (والقرون ١٥- ١٣) قبل الميلاد، ورقم تل العمارنة في مصر، حتى ولادة الأبجدية في أوغاريت (رأس الشمرة) على الساحل السوري خلال (القرون ١٤- ١٢ قبل الميلاد)، إلى جانب ما كان مستعملاً في كتابة الرقم من لغات سومرية وآكادية وحورية.

لقد استمر استعمال الرقيم الطيني في كتابة الأبجدية الأوغاريتية بالطريقة التقليدية، لكن بدلاً من استعمال مئات الرموز والإشارات الكتابية، استعمل الأوغاريتيون / ٣٠ / رمزاً، كل منها يمثل مقطعاً صوتياً، وكان هذا بداية عظيمة لاختراع أبجدية مبسطة، وهذه الأبجدية الحدث، في تاريخ البشرية، لا تمثل ما نقصده اليوم بمدلول «أبجدية» لأن الأوغاريتية اكتفت باستعمال الحروف من دون التطرق إلى الألفاظ.

على الرغم من ظهور الأبجدية وانتشارها السريع في مناطق كثيرة من المشرق القديم، فقد استمر الناس باستعمال الرقيم المقطعي، سواء خلال سقوط الإمبراطوريات الكبرى مثل: البابلية- الأشورية، مع الإشارة إلى انتشار اللغة

الآرامية التي عرفت في أوائل الألف الأول قبل الميلاد، وبقيت لفترات طويلة لغة التجارة العالمية في العالم القديم، وبقي استعمال الكتابة المسمارية كتراث من الماضي يمثل حضارة غابرة، وأصبح نظام الكتابة نظاماً مبسطاً انتشر في الشرق الأدنى، مثل: الفينيقية التي جاءت بعد الأبجدية الأوغاريتية (القرن ١٢ قبل الميلاد) والآرامية (القرن التاسع قبل الميلاد)، وآخر ما وصلنا من رقم مسمارية كان رقيماً يعود بتاريخه إلى (٧٤-٧٥) بعد الميلاد، ويمثل موضوعاً فلكياً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كوليت الخوري: مسيرة مجد وطن لقرن من الزمن

د. إسماعيل مروة ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عندما نبحث عن المدى في سيرة رائدة يتحول المدى إلى ملحق بها.
قالت.. عاشت.. كتبت ذات يوم (أنا والمدى..).

كان البداية والمدى امتداد لهب من الأدب الراقي الذي يتسع أمامه المدى ولا يحـده هي كوليت الخوري الأديبة المختلفة عطاءً، المختلفة أدباً، المختلفة تنوعـاً، المختلفة انتماءً، المختلفة جذوراً.. هي أشبه الناس برؤبة بن العجاج عندمـا سئل عن شاعريته، فظن من كلامه أنـه أشعر من والده، وحين علل

✿ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

ذلك قال: أنا شاعر بن شاعر، وهو- أي رؤبة- شاعر بن مُفْحَم، وتروى القصة عن غير شاعر في تاريخنا..

ليلى وكوليت حرتان

وهي أشبه العربيات بليلى الأخيلية التي ما غالبت شاعراً إلا غلبته، فقد امتلكت ناصية الكلمة والتعبير، وكانت ولا تزال القادرة على دخول أعماق اللفظ، باللطف تارة والاقتدار تارة أخرى، وحين وقفت ليلى أمام عبد الملك بن مروان، وكانت قد تقدمت بها السنّ مازحها عبد الملك قائلاً: لا أدري ماذا أحب فيك توبة (أي توبة بن الحميّر الشاعر حبيبها) حتى أحبك كل هذا الحب، فقالت ليلى: هو ما أحبه المؤمنون فولّوك أمرهم وصرت أميراً للمؤمنين.. في دمشق، في قصر الخليفة قال عبد الملك وأجابت ليلى في دمشق، وغير بعيد تقول كوليت الخوري ويستمع الآخرون.

إن أي كتابة عن كوليت الخوري تظلمها ولا تعطيها حقها لأنها معنا، وأنا أتمنى أن يبقى الكتّاب ظالمين لها أكبر قدر من الزمن، لتبقى روحها معرشة وموجودة أصالة تغمر نفوسنا ووجودنا بياسمينة دمشقية كثيراً ما اتشحت بالسواد، لكنها كانت الجوابة التي يتحول سوادها إلى ألق يبرق كل ساعة.. سوادها وحده يجمع الناس حول مائدة الفكر.. وكأن شاعرنا الكبير محمد الحريري عناها في حديثه عن المعلم حين قال:

سقراط رب الفلسفة
مائدة الفكر منصوبة
نريد أن نظلمك
نريد أن نستحي من إعطائك حقك ومكانتك

كوليت وفارس الخوري

كوليت الخوري حلم يلوح أمام ناظري منذ نحو أربعين عاماً عندما سمعت اسمها أول مرة، ولست أدري السبب الذي يجعل صورتها دوماً مقرونة بالسياسة والعلم والأدب والصالونات، لكن ما لم أكن أتخيله أو أحلم به هو أن أقف إلى جانبها، وأقبل يدها المستخرجة ذات لحظة من وطنية من أحد سادة الوطنية ونجبائها فارس الخوري.. ما صافحتها.. ما قبلت يدها إلا استشعرت تلك اليد التي تسعفنا دوماً بالمثال عن الوحدة الوطنية..! أليس من حقها أن تفاخر بأنها وطنية ابنة وطني، وبأنها أديبة من سلالة أدب؟

أليس من حقها أن تعانق المجد كل لحظة وهي ترى وتسمع اسم فارس الخوري في كل مكان وعلى كل لسان، وعند استحضار أي حالة عن الوحدة الوطنية والتسامح؟ ففي مقارعة الاستعمار فارس الخوري..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي حب الإسلام فارس الخوري.

وفي متابعة أحوال الناس والمسيحيين ضمناً فارس الخوري.

عذراً سيدة القلم والحضور الآسر.. فأنت بما ملكتِ أولاً، وما ملكتِ ثانياً، وما تشكلين أخيراً.. متنٌ من متون الوطن، ولن تكوني هامشاً أبداً، ولن يستخرج سجل الوطن إلا وأنت كلمة مصبوغة بالورد الدمشقي تفوح منها روائح الياسمين الزكية، تلفحنا سمرتها الآسرة الفتّانة.

كوليت الخوري أمي

أمي اسمها خديجة، لم تفك الحرف إلا في القرآن الكريم لدراسة الكتاب عند الشيخ (سلمون) كما أخبرتنا، لكنها كانت تقرأ القرآن إلى درجة تقترب من الاستظهار.. سمراء داكنة.. طيبة كما لا أتخيل.. ما داعبتها يوماً أو قسوت بكلمة- وما أكثر ما فعلت- حتى تتراقص ذقنها وتبدأ بكاءً لا أعرف مصدره وكأن عينيها موصولتان بسحب السماء.. وحين ألحّ تتوقف.. تبتسم..

وينتقل الألم إلى دواخلها ليعتصرها دون أن تشعرني..

ماتت أمي خديجة قبل عشرة أعوام.. في الحادي والعشرين من آذار يوم عيد الأم لم تشأ أن تسرق بهجة الاحتفال، وغادرت بعد أن أتمت المراسم.. ماتت ولم تغادرني فقد كنت المخصوص بوداعها تحت التراب، وكنت آخر من أسكن جبينها قبلة لن تفارقني.. وبقي هذا الإحساس طاغياً إلى أن شاركت كوليت الخوري أقسى اللحظات، وحين سألتها عن أمر قالت بالحرف وقد لا تذكر (إسماعيل نارة تعبانة.. أمي وبنتي وأختي وحبيبتي..) احتقرت كل شيء يومها، كما أختصر أنا وزيادة عشرات الأضعاف.. وحين وقفت بقامتها وأسودها لتودع كل هؤلاء في شخص نارة... احتضنت حفيدتها بحب استطاع اختصار كل شيء، ومنها تعلمت يومها كيف يمكن للإنسان أن يختصر اللوعة في بحة صوت أو نظرة لا يستوعبها المدى..

من كوليت خوري تعلمت صبر اللوعة في لحظة الفجيعة والألم، عرفت معنى أن يكون الحبل ملتفاً على عنق طري، والبسمة تعلو وجهاً أترع بالحزن.. شربت حزنها وحدها وتحولت إلى كتلة من الحزن الذي يفيض حباً على الآخر.. أرأيت الجدة تتابع بعينيها حفيدتها وتعدّها للسفر، وتنظر من شرفتها لتطمئن أنها مع أصدقائها؟!

الصور تملأ المكان. ومساحة الودّ لا تختفي وقد عجز الحزن عن تلوينها بالقتام.. تشرق كوليت غداً وتبقى مشرقة، ويرتمي إليها وينتمي الباحث عن أمومة قادرة على تحمل اللوعة في طريق طويلة من السفر المتعب.

حضور الوطن وامتداده

قد لا أكون مغالياً إن قلت: إن تفاصيل حياة كوليت وبيتها وكل ما عاشته ورأته وسمعته وشاركت فيه يحضر في كتاباتها وحياتها وتصرفاتها.. بانسجام تام استطاعت أن تكون ذاتها التي يرتبط الآخر بها، وبتصالح مطلق ووفاء قلّ مثيله استطاعت كوليت أن تخلد أسرة كانت صاحبة إسهام وطني عالٍ، فكرّست ما كان يمكن أن يفيدها من وقت لتصنع تمثالاً من مواقف وحب فارس الخوري لوطنه.. قد يكون فارس الخوري من الشخصيات السورية القليلة الفاعلة بقوة في تاريخ سورية، واسمه لا يزال متردداً على ألسنة الناس- حتى الصغار منهم- ومع هذا أرادت السيدة كوليت أن تقدم صورة قلمية لا تشبه غيرها ليس للجد وحده، بل لسورية وتاريخها ودمشق ورجالاتها، فقدمت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه الرحلة البانورامية سياسياً واقتصادياً وثقافياً، فحضر الجد الفارس فارساً، لكنه حضر ضمن تكوين الوطن كله.. وبذلك استطاعت أديبتنا أن تعلمنا كيفية الخروج من الذاتي إلى العام وقد حوّلت الحياة الشخصية إلى أوراق، والأوراق تحمل تاريخ الوطن بمجموعة الأشخاص فمنحت الوطن كثيراً من العناية، وكانت وفية للجد فخلقت حالة من التطابق بين الحدث والوطن والشخص وكل ذلك كان بحب نادر دون أن يأخذ الجد ودوره الرائد من مكانة كوليت الخوري ونداوة كلمتها، وحرارة حياتها المتألقة أبداً في وطن وضعته فوق الجميع، ووضعها في الجوهر المضيء منه.

الفارس يخاطب ممتدحه: «إذا كنت تريد حقاً أن ترضيني وتبعث السرور إلى نفسي فاكتب عن القضية التي ندافع عنها لا عن الأشخاص الذين يتولون هذا الدفاع».

وقال ظافر القاسمي عنه: «فارس الخوري وليد القرون، لم يكن يشبهه أحد ممن عرفت من الرجال، وقد تمضي القرون ولا يرزق العالم العربي من يماثله أو يدانيه.. لقد كان فارس الخوري أمة وحده، ويقيني أن جماعة من الناس ينبغي أن تتوافر على وضع تاريخه الفريد لا لتمجيده وتخليده فهو غني عن التمجيد والتخليد، لكن وفاء لرجل تتمنى أي أمة في الأرض لو كان أحد بنيها..».

وقالت الفارسة كوليت: أعتقد أنه آن لهذا الفارس الذي أسهم بأقواله وأعماله وخطبه ونضاله في إحياء مرحلة من تاريخنا، والذي أمتناه بعد موته بصمتنا.. آن لهذا الفارس أن يترجل..

آن لهذا الفارس الذي خبأت طفولتي في عباءته الواسعة فجعل مني أديبة.

آن لهذا الفارس أن يتنفس من جديد في حروفي وفي الكلمات..».

هذا الفارس النبيل، والفارس الشيخ الجليل، والفارس الخوري من النادرين الذين أعطوا السياسة بعداً من الفروسية والنبل يغيب عنا ولا يزال حاضراً ولا تتحول أوراقه إلى جزء من حياتنا وتاريخنا الذي يلازمنا..!

علمتني كوليت كيف تتجاوز حدود الذات والجد لتعانق شام والوطن، ولتصل حدوداً غير مرئية فتجاوزت حدود الوطن.

الخطر المحدق والأهازيج والجلاء

على هذا المنبر الأحد ١٥ نيسان ٢٠٠٧ راحت خيوط الحرير تغزل لسرد قصة الجلاء، لتكون المحاضرة قصة للجلاء وأي قصة؟ قصة مناضلين ووطن، قصة حب وحياة، شام منطلقها والوطن غايتها

وخاتمتهـا، طوقتها كوليت الخـوري بأزرار الياسمين، وصاغتها بالعبـارة الأنيقة التي لا تشبه عبارة أخـرى في تاريخنا، وأنّى لها أن تشبه غيرهـا وأنت أمام الوطن المجدول بأرواحنـا ودمائنا؟ أنّى لهـا ونحن نقضي أعمارنـا في محاولات حثيثـة للوصول إلى عتبة مـن عتباته المقدسـة؟ وحين ينقضي الأجـل، وقبل أن نندب مـن رقدتنا الأبدية حظنا، يأتينا صوت الوطن مطمئناً: لا تخف يا ولدي أنت في سويداء شام..!

ومن شام؟ ومن هذا المكان الحلم بالنسبة لي والذي رافق تكويني هو ومكتبة الظاهرية انطلقت شرارة القصة، وأي قصة؟

إنهـا قصة واقـع تاريخـي لا يتبدل.. وموقـف شخصي لم يتبـدل.. كذلك عبّرت كوليت.

الجلاء حلم ياسمينة

لا يدرك معنى الإلحـاح في موضوع إلا ذاك الـذي عانـى من أجل هـذا الموضوع، فدمشق لدى نزار قباني كانت الهوى الذباح الذي أغناه بقدر ما أتعبه، خلده بمقدار ما أرهقه.. وشام لدى غيره هوى مضن، يسهر الليـل راجياً أن تأتيه كلمة مـن شام، أو أن يتسلل إلى سمعه صوت من شام، وكلما أمعن الهوى الشآمي في الذات خرجت هذه الذات لديه لتكون صورة لا تتبدل ولا تحافظ على هيئة واحدة..!

والوطـن والجلاء عنـد كوليت الخوري لم يكـن موضوعاً يطرح مرة واحدة ثم يفقد معنـاه وضرورته، فمن أوراق فارس الخوري وإلى «ويبقـى الوطـن فـوق الجميع» كانت أديبتـا ملكيـة عامة للوطـن وتحولت إلى ياسمينـة دمشقية تفوح عطـراً ووطنية ما دامت الحياة.

«ستون سنة وأكثر
بحلوها ومرّها
كم من الآمال انطفأت منذ سنة ١٩٤٦
كم من الأقنعة سقطت
كم من التماثيل هوت
وكم من المبادئ تزعزعت
لكن إيمان الناس بقي راسخاً مع يوم الجلاء
ومنذ ذلك اليوم
كلما انشقت آفاقنا عن حدث وطني
نعم منذ ذلك التاريخ منذ يوم الجلاء ٤٦
كلما انشقت آفاقنا عن أي حدث من تلك الأحداث المعدودة
التي تكتب في سجل تاريخنا بالنور
شعرنا بعيد الجلاء يفتح للحدث الوطني ذراعيه
كالأب المتشوق إلى أبنائه
هذا الذي حملناه في قلوبنا، وفي إيماننا، وفي شرايين أقلامنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إحدى وستين سنة..

ما من حرف كتبناه إلا وكان مغمساً بذكرى

الجلاء، يحمل في ثناياه نكهة الحرية

عدنا لنحتفل به

وأمام دهشتنا

نحن الذين حملنا على كتفينا السنوات

الطوال.. فتسربت أيامنا الرديئة إلى هاماتنا

خيوطاً رمادية..

نحن الذين هرمنا

أمام دهشتنا هتف مبتسماً

يا أصدقائي

الوطنية لا تهرم.. الوطنية لا تشيخ

لأن الناس يتوارثونها رمز حماسة ونضارة وإيمان

جيلاً بعد جيل

وقرناً إثر قرن»

هكذا تتحول كوليت الخوري إلى ياسمينة دمشقية لا يطولها الهرم، يكفي أن يصل إليها ندى الصباح الدمشقي ليعطر غرتها ويمنحها مزيداً من الألق والجمال والقدرة على العطاء.. وحين تقرأ علينا أديبتنا قصة الجلاء فإنها تؤنسن هذه القصة.

تخرج مفهوم القتال والثورة والجلاء من الأسطرة إلى الواقع من الأحلام إلى الحقائق

وعلى حجارة دمشق في أزقتها، بين كنائسها ومساجدها أترك الذاكرة تروي لأسجل شهادة الجلاء اليوم في ذاكرة كلها تعتق الزمن وصار أكثر جمالاً فمن عدوى تعتق الذاكرة عندها..

«نحن شعب ذاق المرارة مراراً عبر التاريخ، وعرف المغتصب والمحتل والمعتدي لكننا شعب ناضل على الدوام

وكان دائماً في النهاية ينتصر

لأنه لابد للحق من أن ينتصر في النهاية

«فالحق- كما قال فارس الخوري في سان فرانسيسكو عندما قصفت دمشق- الحق شعلة من نار كلما ضُربت ازدادت انتشاراً».

ونحن أصحاب حق

قد يتغير المغتصب أو المعتدي

وفي الواقع تغيرت أساليب الاستعمار

وتغيرت الظروف

لكننا نحن لم نتغير

نحن أصحاب حق في جميع الظروف

ونبقى أصحاب حق مهما تبدلت الظروف

مثلما حققوا الجلاء بوحدتهم الوطنية وتضامنهم

نحن اليوم

بتلاحمنا وتضامننا

والتفافنا حول رئيسنا الشاب الشجاع الأبي الراقي

نحن بوقوفنا صفاً واحداً عملاقاً في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وجه الاستعمار الجديد المكشوف رغم قناعه
وأقنعة نستطيع على الدوام
أن نقهر التحديات
وأن نقمع الفتن
وأن نـردد كل سنة في عيـد الجلاء مع
شاعرنا الحبيب سعيد عقل:
شآم يا ابنة ماضٍ حاضر أبداً..
وكل سنة
وبلادنا.. بلاد المجد والعز والكرامة..»

هكذا ترى كوليت الخوري رحلة الوطن، تقرأ الحدث بعد أن وقع، وبقراءتها تؤسس لمرحلة مقبلـة في حياة البـلاد، سواء أكان الوطن في أزمة أم لم يكن، كوليت بإحساسها العـالي، وبرؤية الأديـب الاستشرافية تقف أمـام هاجس الوطن والأمـان ليصبح كياناً جديداً وخاصاً بها.. فمن الاستعمار القديم إلى الجديـد والتحديـات والفـتن، لكن ما ينقـذ الوضع، ويعيـد الأمـان وشعوره إلى كوليت المواطنة المرهفـة، والأديبة الملتزمة غـير الملزمة هو التاريـخ وحقيقته (شام يا ابنة ماض) فمن الماضي إلى المستقبل مروراً بحاضر مختلف تعيش الأديبة رحلة وطن، تحادث ذا، وتكتب لذا، تحاور ذا، وتستضيف ذا لتصل في النهاية إلى معادلة وطن حر لا استعمار فيه ولا وصايـة، ولا أي شيء مما يمكن أن يلوث نقاءه..!

الوطن فوق الجميع

مقالات في الوطن والوطنية، وصلت إلي عام ٢٠١٠ في نهاية الشهر العاشر، ولم أقدم على قراءتها بتمامهـا لأنني كنت قد قرأت بعضها في الإعلام، لكنني ما لبثت أن عدت إلى قراءته حرفاً حرفاً، فهو أول كتاب تكتب عليه أديبتـي الأثيرة إهـداء، فقد أهدتني الكثـير من مؤلفاتها، لكن هـذا الكتاب هو الذي يحمل توقيعها وعبارتها، وكلاهما من الأناقة بمكان، وبكلمتي أصدق وأصفى من صيغـة التفضيل كان إهـداء الأديبة لكتاب هو مـن التميز في الصـدارة، فمع أنه عن الوطـن إلا أنه لا يقـدم مفهومات الوطنية بوعـظ أو فوقية، يعلم أمثـالي كتابة المقالة والزاوية وما شابـه، ولكن مفهومات الوطن والمواطنة وتفضيل الوطن تتسرب إليك دون أي إحساس استعلائي يمكن أن يجرح شعور القارئ..

دون شعارات وطنية رنانة، ودون حديث عن اللحمة الوطنية والوحدة بين أبناء الوطن الواحد تتحدث عن رمضان في دمشق.

«تقـول أخبار الحي إن بعض المسيحيين في دمشـق صاموا يوماً مـن رمضان وكان الإفطـار مع بعض المسلمين في قاعة كنيسة حارة الزيتون..

لم أستغـرب هذا.. لكننـي استغربت أن يبدو الأمـر للبعض مستغرباً وغريباً.. كنت أنا وزميلاتـي المسيحيات الصغيرات نعرف

من أهالينا أنه من قلة الأدب أن ندخل مطعماً أو أن نشتري بزراً وقضامة وعلكة.. من قلة الذوق أن نضع أي شيء في فمنا في الشارع أو حتى ونحن على شرفة بيتنا.. ما دامت هناك زميلة لنا صائمة..».

هذا هو الإحساس العالي بالآخر الذي يقدم لنا ما ينبغي من دروس مستفادة ولكن دون أن يمسك الآخر بالأذن وهو يلقي دروسه علينا..!

أصدقاء وحب نادر

بما أن للوطن مفهوماً واسعاً وكبيراً، فإن كوليت الخوري تبدأ الحديث عن أهم أصدقائها والدها سهيل الخوري معجبة ومشرّحة للفضائل التي تمتع بها، وعاتبة على أشياء كانت تتمناها، ولكن لست أدري لماذا أرى أن الفارس النبيل فارس الخوري يأخذ المساحة الكبرى بين الأصدقاء، ويكاد يكون القدوة النادرة في كل نفس من أنفاس الأديبة، فهو السياسي والاقتصادي والأديب والمحنك والوطني وكل المعاني الفاضلة، وربما كان من حسن حظ الفارس أن تكون هذه الفارسة التي تعادل ألف ألف فارس هي الضامن لأوراقه وسيرته وحياته.. وعلى حدود الذكرى مع نزار قباني وعبد السلام العجيلي تكتمل حلقة النبل، وتقدم شهادة الموقف لأنطون سعادة بحادثة أخفتها زمناً وكان طرفها عمر أبو ريشة.

إنه الوطن الذي شكلته كوليت الخوري بحب نادر، فكانت نوافذه على هواها وشرفاته كما صممتها، ومن آراء فارس الخوري عام ١٩٢٨ والحاضر تكتب كوليت الخوري عن الأقليات والطائفية، ولم يكن ما يحدق بسورية قد أحدق:

«كيف نتحدث عن المشاركة مستعيضين عن تعبير الأقلية والأكثرية، كيف إذا لم نجد الإطار الوطني أو القومي الذي نلجأ إليه ليقوم بتحويل مفهوم الأكثرية والأقليات إلى مشاركة؟

كيف نتحدث عن المشاركة إذا لم نتخلص من التدخلات الخارجية التي تغذي النعرات الطائفية وتنمي شعور القلق عند الأقليات؟

وكيف نتحدث عن المشاركة إذا كانت بعض الأنظمة في الداخل تقوم على عدم الانفتاح وعدم المشاركة؟

إن الشعور بالانتماء إلى الأقلية قبل الانتماء إلى الوطن يعود أيضاً إلى شخصية المواطن وتربيته وثقافته

وأحياناً إلى مواقفه السلبية.

أنا شخصياً ما شعرت في يوم من الأيام إلا أنني الأكثرية والأساس».

هل يجوز لأحد أن يتابع أو يشرح وقد قالت كوليت الخوري هذا الكلام قبل خمس سنوات وقاله فارس الخوري ونظّر له قبل خمسة وثمانين عاماً؟!.

بين أدبية الفكر وفكرية الأدب

د. صلاح الدين يونس ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يبدو أن تضايف الأدب والفكر تضايفاً على أكثر من صيغة حاصلٌ، فقد يكون تضايفـاً لغوياً، وعندها ينتهي الأمر بينهمـا إلى التفاصل، وقد يكون تضايفاً هارمونياً وعندها ينتهي بينهما الحد أو تمحي حدود الأجناس، وفي طـور متقدم من الفكـر التجريبي أو الفلسفي يبـدو التضايف اختناقياً، لا يلبث واحدهما أن يخلع الآخر.

✪ ناقد وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

«إن التمايـز المتزايـد عمقـاً بين فروع المعرفة العلمية، وبالتـالي نشوء علم جديد باستمرار حقيقـةٌ من حقائق عصرنا، ينشأ عنها تمايـز داخل العلم الواحـد، وبالتالي تعقيدٌ في بنية العلم، ومن هنا تزداد الحاجة إلى تأليفٍ بين العلـوم داخل العلم الواحد، إلى تكامـل المعرفة العلميـة تكاملاً يقضي على النتائج السلبية التي خلقها التخصص الضيق وتجزؤ العمل العلمي».(١)

فـإذا كنا قـد وضعنا هـذه الأطروحة ونعني بها إشكالية الفكر والمفكرين وإشكالية الأدب والأدباء على حدّ التواصل والتفاصل فإننا أمام حزمةٍ من التخالفات والتحالفات بين فروع المعرفة، قد يفضي تحليلها لحظة النهوض به -من خلال نتائجه- إلى نقيض المقدمات، بل إلى تنازع في العمق بين جانبي الثقافة: الفكر المجرّد والأدب المشخّص.

إن الدراسـة المنهجيـة لا تقبـل هـذا الفصـل القائم بين ما ينتجه العقل البشري كما كان في العصر الوسيط، فالعقل البشري في ذاك العصر كان يتقبل الفصل بين علوم مختلفة كالطـب والخطابة والشعر والمسرح، لكن الفصل لم يكـن يضع المتفاصلات على شـكل نقائض، إنمـا كان يقيم الحدود ظناً منـه ووهماً أن لكل جنسٍ من تلك حدوده التـي لا ينبغي أن يشاركـه بها أحد، فظلت الروابط الخارجية فواصـل بين العلوم إلى أن جاء عصر النهضة الأوروبية ونعني بذلك بدايـة الإصلاح الدينـي وانطلاقة الكشف الجغرافي مع القرن السادس عشر الميلادي، لكن القـرن السابع عشر هو القرن الفاصل الفارق بين ما قبل العلم التجريبي وما بعده، فالفيلسـوف الإنكليزي فرنسيس بيكون قد وضع في كتابه فلسفة قوانين الطبيعة أصولاً لانطلاقـة العقل الجديد، لكـن الانطلاقة تلك لم تكن تقبـل معها تعايشاً من معطيات العصر الوسيط، فأقـام فكره على الإزاحة الأولى في التاريـخ الحديـث وهـي إزاحة العقل القروسطوي بـكل غيبياته وأساطيره وخرافاتـه، ليبدأ عصرٌ آخر، بل ليحل محل تلك المزاحات عصر الفيزياء، وعندما نقول عصر الفيزياء يعني أننا أمام نتائج متواصلة من اكتشـاف قوانين الطبيعـة واستثمارها في حيـاة الإنسان، هـذا الاستثمار لا بد أن يفضـي إلى عقلٍ تركيبـي جديد تفقد معه حساسيـات الأدب القـديم متعتهـا، وتزاح أيضاً أسطرة العالم القـديم لتبدأ الأسطرة الجديدة وهي اكتشـاف الكون وقراءته من داخله، وما عصـر الفضاء في الربع الأخير مـن القـرن العشرين إلا نـاتجٌ طبيعي عن عصر فيزياء بيكون.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«إن ما بقي على قيد الحياة بصورة مستقلة من كل الفلسفات هو علم الفكر وقوانينه، أي المنطق الصوري والجدلي، أما الأشياء الأخرى فقد ذابت في العلم الإيجابي للطبيعة والتاريخ».(٢)

فإذا كان العصر الفيزيائي الحديث قد فرض منهجاً في العلوم الدقيقة إلا أنه قام على الشمول في رؤية الطبيعة وقام على الدقة في التخصص والفوارق بين فروع العلوم التجريبية نفسها، ومن هنا استشاط هذا العلم لينتقل من المجهول إلى المعلوم ومن المعلوم إلى المجهول ومن التجريب إلى التعميم ومن التعميم إلى التجريد، وقد فرض مياسمه على العلوم الأخرى ولاسيما العلوم التربوية. فقد انتزعها من هيمنة العلوم الدينية والعلوم اللغوية الآخذتين بالقداسة والاستمرار عليه إلى مجال التجريب وإعادة الخلق إلى أنصار العلم والتربية -بعد انفصالته التاريخية عن علم النفس- علماً تجريبياً وضعياً، يقترب من علم التشريح

والتشريح المقارن ويباعد في الوقت نفسه لغويات ما قبل القرن التاسع عشر.

فإذا كانت الفرضية والتحليل والتركيب والبرهان أدواتٍ تميز العلوم الدقيقة عن العلوم الشمولية كالتاريخ والأدب فإن هذه المفاهيم والأدوات لا تقود إلى ما هو يقيني إنما تقود إلى ما هو يقيني مرحلياً، لا يلبث أن ينزع عن نفسه اليقين ليدخل في مرحلة الفرضية الجديدة، ثم ليلبث ثوبه الجديد وكأنه قصيدةٌ أعاد الشاعر خلقها خلقاً آخر، وهنا تأخذ القصيدة شكلاً لغوياً أساسه الومضة أو الإشراقة لكن تلك الومضة وهذه الإشراقة لا تقبل العلوم الدقيقة بريقها ولا تصدق يقينها، إنما تعتمد الحدس ومن ثم التشخيص بالتجريب.

لقد أثار العلماء الألمان في القرن التاسع عشر مشكلة جماليات العلم وفي مقدمتهم عمانوئيل كانت ١٧٢٤-١٨٠٤، زاعماً أن للجمالي خصوصيته ولكن للعلوم أيضاً جمالياتها، ثم توصل إلى قناعةٍ مؤداها أنه لا يوجد علمٌ تجريبي يقوم على الجمال والإمتاع، هذه الرؤية نستطيع تفسيرها من خلال النزاع الذي حصل بين الفلسفة الألمانية المثالية والتي بلغت على يد الفيلسوف هيجل ذروتها المثالية، إذ وضع نقد العقل المحض، ونقد العقل العملي، ثم وضع. ماذا أستطيع أن أعرف؟ ثم أتبعه بعمله. ماذا يجب أن أعمل... لكنه وضع العقل في صلب الوجود كما وضع كوبرنيكوس الشمس في مركز الكون، وبين النزوع التجريبي والرياضي، ورغم أن عالماً ألمانياً آخر فتجنشتاين كان يدعو إلى الاستمتاع بجماليات الرياضيات وكان يرى أن متعة الاكتشاف في العلم الدقيق تعدل جماليات الموسيقى والإيقاع عند الفرنسي أدرنو، وما إن بلغ القرن التاسع عشر نصف الطريق حتى أعلن كارل ماركس وشريكه الاستراتيجي إنجلز في بيانهما الشيوعي إثر ثورات أوروبة على الحكم المطلق ١٨٤٨ منهجاً آخر في الفلسفة فوضع فلسفة هيجل -كما يزعم- على قدميها وجعل رأسها في الأعلى، فكان صاحبها كما يرى ماركس قد وضع رأسها على الأرض وساقيها في الفضاء، ومهما يكن حول هذا الرأي فإن ماركس وإنجلز قد اختطا طريقاً في الفلسفة جعلا من خلاله المثالية على الأرض بدلاً من أن تكون في الفراغ الميتافيزيقي كما عند الأديان الموحدة أو الفلسفات المثالية.

وفي القرن التاسع عشر نفسه كان المفكر والناقد الروسي تشيرني تشيفيسكي ١٨٢٨-١٩٨٩ في أطروحته علاقات الفن الجمالية بالواقع قد أسس لرؤيةٍ جديدة في علم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجمال أساسها: كل جميلٍ متطورٍ أو مولودٍ من النافع، وأن للجمال مراتب تبدأ من الجمال العياني المنظور إلى الجمال المخلوق بالإشراقة أو بالأدب أو بأي فن إلى أن يصل مرتبة الرائع، والرائع عنده هو القادم من المتفوق في جنسه، والمتفوق هنا بشرٌ أو صفات بشر، والمرتبة الأخيرة عنده كانت مرتبة الجليل، والجليل هو ما لا يسمى إليه وما لا يقع تحت الحواس، فعند الفقهاء هو الغيب وعند المناطقة والفلاسفة هو المطلق المتعالي.

مع عصر الصناعة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بدأ رجال التكنولوجيا يفرضون هيبة العلم على الأدب من خلال نتائجه المبهرة التي صارت أوسع من خيالات الأدباء بل أمتع، فصار الرسام يستخدم ألواناً صنعها الكيميائي، وصار المسرحي يشخص أدبه المسرحي من خلال معماريٍّ أتقن هندسة المسرح، ومن خلال أجهزةٍ صوتية ضوئية كان وراءها عقلٌ فيزيائي استثمر نتائج العلم. وحتى رجل الدين وهو يلقي خطبته في كنيسةٍ أو مسجد فإنه يستخدم ما توصل إليه مستثمرو العلم في مكبر الصوت وفي طباعة الكتب المقدسة، وحتى توقيت الصلوات جاءت بعد أن نجح صنّاع الآلات الدقيقة على حدٍّ من العلوم الدقيقة في إنتاج ساعة الحائط أو اليد التي تنوب عن التقدير والتخمين في عصورٍ سابقة.

كثيرٌ من النقاد والسياسيين والأدباء لا يقبلون أن يكون الأدب والفن خاضعين لمقولتي: التحليل والتركيب، من موقع السمو بالأدب والفن من أن يخضعا لأدوات التجريب، إلا أن كل عملٍ يعتمد الخلق الإبداعي سواءٌ كان خلقاً باللغة أو بالحجر أو باللون أو بالمادة الخاضعة للمرونة كالنحاس أو الجبصين أو اللدائن..... هو عملٌ خاضعٌ للتحليل والتركيب، لكن ليس تحليل العلوم الأخرى أو تركيبها، إنما لكل اتجاهٍ في العلم تحليلٌ خاصٌ أو إعادة تركيب أكثر خصوصية.

وفي النص الأدبي. شعر- رواية- قصة. قصة قصيرة نصوص سردية... تقوم عملية التحليل والتركيب بشكلٍ آلي عندما يفكر المنشئ في عملية الخلق، وهنا تحدث عملية تجريدٍ تلي التحليل وهي خلع الدلالات العالقة بالمفردات عند الآخرين، لتلبس دلالاتٍ خاصة ذاتية مؤقتة عند هذا المنشئ، فلكل مفردةٍ قوة التعبير المباشرة الكامنة فيها، ويمكن أن نطلق عليها قوة الطيف، بل هالة الكلمة، وفيها أيضاً قوة النسق ومن قبل ذلك قوة السياق، والكلمة ما بين الثابت والمتحول تبدأ بالعطاء فإن قويت عند

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المؤلف أن يتغلب طيفها على جسدها كانت أدباً بل ما بعد الأدب، وإن تجمد الطيف أمام ضرورة الدقة في الكلمة أي غلب النزوع الثابت على متحولاتها كانت في إطار العلم، ومن هنا لا توجد لغة أدبٍ مطلقة ولا لغة علم مطلقة، إنما يوجد إجراءٌ للغة وفق مصالح العصر وشكلٌ للتواصل مع المعطى الجديد، وكم أساء الأدباء – شعراء الإحياء المحدودون معرفياً- إلى نظام الجملة عندما استعادوا الكلمات بل استعادوا نظام التعبير الشعري لينقطعوا عن علوم العصر، وليؤسسوا جاهليةً جديدة تقوم على الإمتاع الزائف، وتقوم أيضاً على خيالٍ مكرور مبتذلٍ رخيص إذا ما قيس بعلوم العصر ولغته وعلومه، ولست متحرجاً من أن أسوق الشاعر شوقي الملقب بأمير الشعراء شاهداً على ذاك الانقطاع وعلى هذا الابتذال، وأذكر من يريد أن يتذكر قصيدته الشهيرة عندما ذهب إلى إسبانيا لم يستطع أن يقرأ تاريخ العرب في الأندلس إلا مستعيناً بما أسسه البحتري في القرن الهجري الثالث:

وعظ البحتري إيوان كسرى

وشفتني القصور من عبد شمس

ومن الشواهد التي أردت أن أقف عندها ما استخدمه الشعراء من كلمة برق ضمن سياقٍ موحد وهو الإشراقة أو اللمعة أو الومضة وإن شئت قلت الطيف أو القدح المفاجئ، من دون أن يجد شاعرٌ آخر لكلمة برق طيفاً آخر جديداً فقد كتب مجنون بني عامر إلى ليلاه:

أوميض برقٍ في الأبيرق لاحا

في ربا نجدٍ أم أرى مصباحا

أم تلك ليلى العامرية أسفرت

عن وجهها فغدا المساء صباحا

هذا الشعر جميل بل جميلٌ جداً عند قراءته في عصره، لكنه لم يعد مبهراً أمام جهازٍ تقني صغير يستطيع العاشق أن يرى وجه معشوقته وهو يكلمها بعيداً عن الجغرافية والحدود والأجناس وسلطة الدول، لكن هذا الجهاز الحديث لا يلغي جماليات الحياة الأدبية، بشرط أن تكون لهذه الحياة الأدبية لغةٌ منبثقة من هموم الإنسان الذي يعيش هذه التقانة، فالتقانة التقليدية أي الميكانيكا وفرت الجهد العضلي، لكن التقانة الإلكترونية وفرت الجهد العقلي، فما الذي تفعله لغة الأدب أو الفن حيال التقانتين السابقتين الآنفتين.؟!

من الواضح أن طفرة العلوم الدقيقة أو التجريبية قد تجاوزت التطور الطبيعي، أما نحن العرب فما نزال أسيري الإبداعات المسطحة الأولى، نقول المسطحة قياساً على عصرنا، ومن فظائع ما قرأت في الكتب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدرسية أن أبا فراس الحمداني في بيته المعروف:

معللتي بالوصل والموت دونه

إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

قد صنّف معادياً لمفهوم الاشتراكية المعاصر من خلال هذه الفردية، وأما -في الكتاب نفسه- فقد صنف المعري ٩٧٣-١٠٥٧ اشتراكياً من الطراز الأول عندما يقول:

فلا نزلت عليّ ولا بأرضي

سحائب ليس تنتظم البلادا

ومن الغريب أن يقاس القرن الهجري الرابع -العاشر- الحادي عشر الميلاديين. على ثقافة القرن العشرين، فهذا التصنيف المدرسي يعكس جهلاً بطبيعة الأدب والتاريخ من جهة، وبالمقابل يعكس جهلاً مركباً بطبيعة العلم القادم من الفلسفة الماركسية نفسها وخاصةً في مفهوم التحول الاشتراكي والملكية.

ويكاد النزوع نحو أدبية الأدب يخلق خرافةً جديدة مؤداها: أن للأدب خصوصيةً تجعله مستقلاً تمام الاستقلالية، فلا علم تجريبياً يؤثر به ولا سياسة اقتصادية وراءه، ومثل هذا النزوع يلقى نظيره المخالف المدعي أن لا أدب ولا فن خارج مؤثري الاقتصاد والسياسة، هذه الثنائية تختصر عقلية العرب القديمة الحديثة، فإما أن نكون يميناً وإما أن نكون يساراً، وقد امتد العقل الثنوي إلى مقولةٍ خطيرةٍ جداً صدرت إلينا من وراء المحيط مؤداها: حوار الحضارات أم صراعها، وهذه القضية قبلناها من دون التبصر بها، كأنك تقول إما الفن وإما العلم، إما الشرق وإما الغرب، إما معنا وإما ضدنا، وقد أقيمت حول هذه المقولة كتبٌ وقناعاتٌ ومؤلفاتٌ ومقولات من دون أن نوقفها ونشتق سؤالاً إشكالياً مغايراً مؤداه ما طبيعة العلاقة بين الحضارات؟، في مثل هذا التساؤل ينزاح السؤال الزائف المفترض مسبقاً في الفن والعلم والسياسة، لتبدأ الإجابة الدقيقة على سؤالٍ سليم منهجياً، وفيما بعد تكون الإجابات قابلةً للاستقرار أو قابلةً للإزاحة.

في كل عصر أسطورةٌ مختلفة عن عصرٍ سابق، وأذكر بأن ما قاله الأمريكي رالف والدو إمرسون في عام ١٨٣٨ في الطلاب المتخرجين في الجامعات الأمريكية: «آن لنا أن نؤمرك أمريكا، لقد مللنا ونحن نصغي إلى ربات الشعر الأوروبي، إن لكل عصرٍ كتبه، وليس للكتب غرضٌ سوى الإيحاء، لكن عيني الإنسان في مقدمة رأسه وليس في مؤخرته..... اعترض عليه معترضٌ معجبٌ بتقاليد الأدب الإنجليزي: أين أسطورتك

لتبدأ عالمك الجديد؟ فأجاب: إن في قلع الهندي الأحمر من جذوره ورميه في المحيط أسطورتنا الجديدة».

لكن تلك الأسطورة كانت هي البداية، وما بعدها كانت نشوء المستوطنات الزراعية لقصب السكر والقطن وتوظيف العبيد فيها، ثم الانتقال إلى تراكم الثروة والاعتماد على التراث التقني لأوروبة في القرن التاسع عشر وما تلاه حتى بلغت الأسطورة الأمريكية الجديدة أجواز الفضاء وأعماق البحار متجاوزةً شريكتها الحدود الجغرافية فارضةً أساليبها في الصناعة والمجتمع وحتى في اللغة فصار القاموس الإنجليزي فقيراً تجاه القاموس الأمريكي نتيجة «تقدم الأمريكي» ليس في العلم التجريبي وحده، بل في نظرية الأدب والنقد وحتى في الأدب المقارن نفسه، بعد أن حقق روائيو أمريكة وجودهم النوعي في التاريخ الأدبي ونذكر بـ. ميلفن- هامنجوي وفوكنر...و

في الأدب العربي مشكلةٌ تتاخم حد الخرافة وهي أن الأدب العربي واللغة العربية واسمتان أساسيتان للعقلية العربية.و مؤداها أيضاً أن المبدع من الأولين ما ترك للمتأخرين شيئاً، وهذه المعطيات تنكسر بسرعة أمام مقولة جديدة وهي مقولة الترجمة التي أطلعت القارئ بالعربية على إبداعات العالم الآخر وأرته أن للعوالم الأخرى تاريخاً لم يعد قادراً على الاستمرار أمام التاريخ الحديث، وأرته أيضاً أن الانقلاب على الذات ضرورة تاريخية أيضاً من أجل الوجود النوعي في عصر لا يعترف على الكم إلا إذا فرضه الصراع من أجل النوع، فلقد مرَّ الذهن العربي بمراحل إستاتيكية من شعر الوثنية إلى المقولات التوحيدية إلى الأدلجات السياسية الحديثة، من دون أن تخضع تلك المراحل لعملية مراجعة تزيحها أو تحطم أسطرتها بل خرافتها.و آية ذلك عندنا أن عملية المراجعة لم ترتبط بنجاح المشروع التجريبي ولا بعملية نجاح المشروع السياسي فكلاهما عندنا مستورد مخفق، وحتى الأجناس الأدبية كالرواية كانت بنية غربية بمضامين محلية، وإذا استثنيت روائية عبد الرحمن منيف فلا رواية حقيقية، بمعنى أنها مرتبطة بتحولات العصر ونقد التاريخ وطرح البدائل في الأدب الغربي كما في العلم الغربي سمة الاستعادة ثم المراجعة ثم بناء الشخصية الجديدة أو العقلية الجديدة، وصار من مصطلحات الأدب الغربي (إعادة الكتابة)، وهو عندنا إعادة التفكير أي إعادة النظر فيما كتبناه أو أبدعناه، فمن سمات الفيزياء الحديثة هو استمرار الاكتشاف واستمرار الإجراء التطبيقي، ومن سمات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفلسفة الأوروبية الحديثة عدم الركون إلى المطلقات والمنتهيات والمطاف الأخير، فلا بد من الجدل مع الذات والعالم لاستمرار البناء والتقدم، ومن هنا كانت اللغات الأوروبية المركزية (الانجليزية- الفرنسية- الألمانية- الروسية- الإسبانية) لغات تجاوزت وظيفة اللغات لتكوّن عصوراً حديثة لابد من التعامل معها ومع ما كتب بها حتى نتمكن من دخول العصر الذي اختلقته هذه اللغات.

أشار الفرنسي لوسيان غولدمان. وهو أديب وناقد إلى مشكلة مهمة وهي أن الحضارات المتقدمة على المستوى التقني لم تستطع الآداب الخاصة بها أن تلحق بها، وقد أعطى شاهداً على ذلك من أن الأعمال الأدبية كلها أقل من النجاحات التجريبية، استثنى من ذلك مسرحية عدو لكورني، لا ندري لماذا استثنى هذه المسرحية ولسنا في هذا الخاطر، إنما أراد أن يقول: إن العصر التقني يسبق العصر الأدبي منذ القرن العشرين، لكن هذه المقولة تنكسر اليوم عندما نجد أن العصر التقني هذا نفسه يماشيه أعمال أدبية كبرى كما نراها عند ميلان كونديرا وجنكيز أيتماتوف....

الفكر الذي تكلم عنه غولدمان لا يمكن أن ينفصل عن الأدب الذي رآه متراجعاً عن العلم، والذي رأيناه نحن يوازيه لكن كثيراً من أدباء الغرب ومفكريه ينبهرون بالإبداع التجريبي أكثر من انبهارهم بالأعمال الأدبية، وقد نسي هؤلاء أن الأعمال الأدبية الأوروبية الكبرى كأعمال شكسبير وتولستوي وهيجو وسرفانتس كانت مقدمات لابد منها في إمداد الخيال العلمي بآفاق قراءة العالم التي لا يمكن للعقل التجريبي أن يصل إليها وحيداً، فلقد أسس شكسبير في القرن السادس عشر ١٥٦٤-١٦١٦ فكرة استعارة المكان الآخر الذي أسس بدوره للحلم الإمبريالي الأول وهو استملاك الأرض من خلال عقل الإنسان الأبيض، وأن موارد الأرض بكر عذراء تحتاج إلى تجربة العقل الأبيض في استثمارها وإحالتها إلى أشياء أخرى. هذا ما كتبه شكسبير الأديب الإشكالي التاريخي، في حين لا تزال العقلية عند الأديب العربي المعاصر مشدودة إلى استعادة زمن قريش كما فعل نزار قباني بعد ١٩٦٧

لا تنادي الرجال من عبد شمس
فقريش ماتت بها الخيلاء
يا فلسطين لا تنادي قريشاً
لا تنادي لم يبق إلا النساء

وإن امتد الخيال إلى الغد امتد كما عند شوقي استعادة زمن البحتري والعرب في الأندلس، أما عند الغرب فقد هدت الفلسفة العقلية في القرن السابع عشر إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النقد، وهدت الفلسفة السياسية إلى مفهوم الحرية الفردية وهــدت العقلية التقنية إلى استثمار نتائج العلم في ضبط الخيال الأدبي وإمداده بما لم يكن لديه متجاوزاً فكرة الحدس الفلسفي إلى فكرة الشمول الإنساني، ورغم قناعتنا أنه ليس كل فكر بأدب أوبما يقاربه إلى أن كل فكـر عندمـا يصبـح مشخصاً وواقعيـاً يمد الأدب بما ليـس عند الأدب، فـالأدب رؤيـة كليـة باللغة،وعندهـا لابد أن يعيش الأدب مع الفكـر إحدى حالتين: التمرد أو الانتماء، ولابد هنا أن نشير إلى أن الأدب يختلف عن الفكر في اعتراضه الدائم على ذاتـه نقول الاعتراض للأدب الإشكالي لا الأدب الاتباعـي فلا يعرف الوحدة، فهو عالم وذات وآخـرون، متجاوز عنـد نبوءته متمرد علـى تراكمات اللغة منتم عند فقره وضعفه.

وفي الأدب الإشكالي أيضاً تنبثق الأسئلة من حدود مـا وراء اللغة. الأسئلة الوجودية كما عند المعري وأبي نواس والشابي. وليس غيرهم من شعرائنا، وأمـا كتابهم فكثيرون كتولستوي وبودلير وإيليوت وبلزاك.....

وإذا كنا نقيم الفصل بين المفكر والأديب فإنه فصلٌ مدرسي، فالمفكر القادم من العلوم الدقيقـة أو المجال التجريبـي لها كداروين وفرويد فهـو أديبٌ بالضـرورة، إذا حسبنا أن الأدب بحـثٌ في العمق الإنساني وشروط وجوده النوعية ومستقبـل حياته الفضلى، أما إذا وقفنا عند الحدود المدرسية بمفهوم الأدب والأديـب فإنهما غير ذلك، فالجمال الخارجي للأدب لا يعفيه من مسألة القيمة العلمية، فكم تراكمـت كتب التراث العربي على شكلٍ واحـد، فخزانة الأدب البغدادي والعقـد الفريد لابـن عبد ربـه الأندلسي والأغـاني للأصفهاني والمثـل السائر لابن كثير شكلٌ واحدٌ للتأليـف لمضمونٍ لا يغاير بعضه في حين نجد الألماني يوهان فولفجان فون غوتـه ١٨٣٢-١٩٤٩ الكاتب والمسرحي والشاعر قد درس القانون ثم تدرب كأديبٍ في قراءته لشكسبير الإنكليزي وروسو الفرنسي واسبينوزا الإسباني في مفهوم وحدة الوجود، ثـم نظم الأشعـار الصوفيـة مستفيداً من مفاهيم الطبيعة عنـد روسو، وفي إثر ذلك درس علم الأحياء ١٧٧٢ ثـم كتب شهيرته الأدبيـة آلام فيرتر ١٧٧٤ علـى شكل سيرةٍ ذاتية جمع فيها بين أدب القص وبين المعاناة الفرديـة، وهو أعظم أدبـاء ألمانيا، ولم تكن عظمته هذه من الأدب وحده إنما جاءت من الفلسفة وعلمي الطبيعة والأحياء، في حين نجد المعري العربـي -وقد استقى مصادره من التراث العربـي الإسلامي السابق عليه ومن تقاليد الشعـر العربي- شاعراً إلا أنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خرج عليهما ناقداً من خلال كتابه رسالة الغفران.

يدعي كثيرٌ ممن يعمل في حقل الأدب أو السياسة أن كل نص هو فكرٌ، ونزعم بدورنا أن الأمر ليس كذلك، فكل نص يوحي هو من أشكال الأدب، ولكنه يتجاوز الأدب إن أوحى بما لم يوح به غيره، وهنا نقف أمام إشكالية أخرى هي إشكالية النقد، فكما تراكمت المؤلفات الشعرية على المنوال نفسه، تراكمت حولها المؤلفات النقدية والمصنفات على الغرار الواحد، ونرى أن النقاد القدماء أساؤوا إلى مفهوم التطور في الأدب والشعر وخاصة فيما كتبه الجاحظ وأبو هلال العسكري وابن قتيبة الدينوري الذين رسخوا رواسخ في العقلية النقدية أحالوا من خلالها الأدب إلى حرفة اللفظ والمعنى وأقالوا الأدب من مهمة الفكر الناقد، فلم يعد الأمر كافياً أن يكتب الأديب أو الشاعر بلغةٍ جميلة أو بلغةٍ خاصة، إنما لا بد أن يكتب بلغةٍ تتجاوز اللغة إلى حقلٍ آخر هو حقل المعرفة، وهذا ما نراه حاصلاً عند التأسيسات الأولى للفلسفة العربية الإسلامية، فالكندي ٨٧٣-٩٧٦ فيلسوف العرب في عصره، وقد عني بالطبيعيات والمنطق والفلسفة، حتى بلغت مؤلفاته الستين رسالة في فروع المعرفة كلها، وعندما كتب في التجريب البصري والرياضة العقلية والفلسفة كانت كتابته أقرب إلى الأدب بمفهوم اليوم من كتاب الجاحظ وشعر البحتري، وقد ظهر عند الفلاسفة المسلمين بدءاً من الكندي ومروراً بالفارابي ت٩٥٠م- وقد عاش في كنف سيف الدولة وأهم ما قام به أنه كتب «الجمع بين الحكيمين» وهو محاولة في التوفيق بين مثالية أفلاطون وواقعية أرسطو - وابن سينا والغزالي وانتهاءً بابن رشد ما يعرف اليوم بشعرية النثر وفي هذه الشعرية أرقى أشكال الأدب لأنها تكلمت بالإشكاليات الكبرى.

في القصيدة العربية الحديثة لا يوجد جماليات معهودة كتلك التي عرفناها في القصيدة التقليدية، لكنها جماليات التفكير والنقد وهي كتابةٌ أخرى لعصرها، ونحن هنا لا نعمم هذه الرؤية على أية قصيدة إنما، نعني بها المستوى الذي طرحه أدونيس ومن قبله نازك الملائكة والسياب وصلاح عبد الصبور والباقون لا أحد، وفي القصة القصيرة نلحظ نجاحات كبيرة بدءاً من محمود تيمور وصولاً إلى زكريا تامر وأسماء كثيرة،و أهمها عندنا الكاتب السعودي عبدو خال، ورغم تأسيسات القصة القصيرة في أمريكا اللاتينية فإنها صارت أوروبية المصدر ويطلق عليها (سندويشة ثقافية)، والرواية العربية ليست جميلةً على طريقة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعر العربي الإحيائي، رغم أنها ملحمة العصر لأنها العصر نفسه مكتوباً بلغته هو، كثر الكتاب فيها، ندر الناجحون، والتجريب ما يزال مستمراً.

وأما الزمن الأدبي الذي يكتب به العربي اليوم ما يزال زمناً خطياً مثيولوجياً، وقليلٌ من الكتاب بل نادرٌ من لجأ منهم إلى الزمن الدائري كأبي القاسم الشابي الذي نلحظ عنده قلق الوجود وتساؤلاته، إذ خرج عن النسق الإحيائي والرومانسي معاً لينقل المسألة خارج المذاهب إلى الطبيعة والقانون الطبيعي والقانون السماوي، ولا ندري إن كان قد تأثر بالشاعر الأمريكي والت ويتمان عندما أسس لهذه الرؤية في ديوانه أوراق العشق.

في النثر العربي الحديث لم يعد الأديب يكتب أدباً ولا ينبغي له ذلك، إنما يكتب فكراً، وإلا تكون كتابته استعادة لأزمنة لا فائدة من استعادتها، فابن المقفع كان في كتابته النثرية (رسالة الصحابة) يقدم مشروعاً سياسياً ينتقد فيه الخلافة الإسلامية وقد قال عنها طه حسين: «تكاد تكون برنامج ثورة على أبي جعفر المنصور» هو في ذاك العمل أهم مما كتبه نجيب محفوظ في رواياته العديدة -كما نرى- لأن «نجيب» محفوظ لم يستطع أن يقدم مشروعاً سياسياً ينتقد فيه أية سلطة، إنما انشغل بالحيز الاجتماعي المصري انشغال الأدباء.

وبالمقابل فإن المشروع النقدي السياسي غير كافٍ ليجعل من العمل الأدبي أدباً، فروايات النصف الأول من القرن العشرين مشروعةٌ سياسياً. تاريخياً، لكنها ليست أدباً ولا فكراً، إنها جزءٌ من تأريخ مسطح وشاهدٌ ذلك ما كتبه جورجي زيدان عن التراث العربي الإسلامي، فقد أحال الحركات السياسية المعارضة للخلافة العباسية إلى حركات خارجة على مفهوم الاعتراض وأبدى تعاطفه مع الخلافة المركزية (العباسة أخت الرشيد).

إن التعارض بين الفكر والفن له رواسبه التاريخية كأنها خلاف الشعر والعلم، فالشعر على أنه انفعالي خيالي يعارض العلم من حيث هو إدراكٌ عقلي، هذه المقدمات امتدت إلى عصرنا اليوم وهي قادمةٌ من العصر الكلاسيكي الإغريقي الروماني، لكن العصور الحديثة بعلومها المعاصرة قد أثبتت أن التعارض ليس صحيحاً اليوم بل إن الحدود تزداد تشاركاً بين الجانبين، فتاريخ المسألة يعود إلى التأسيس اليوناني، فسقراط أول من رأى الوحدة بين الفن والعلم من خلال جدله الخاص في قضية المعرفة عندما اكتشف أن جوهر المعرفة هو المفهوم

(التجريد المنطقي للصفات المشتركة بين الأشياء) وقد أفضى إلى مقولته المعروفة: «اعرف نفسك، كل ما هو معقول هو جميل، كل ما له معنى هو جميل»، وقد وحد بين معقولية الشيء وجماليته... الفن لا يكون فناً إلا بمقدار ما يكون هو معرفةً للحياة.

أما أرسطو فيرى أن الفن والمعرفة من جذر واحد... إن العلم والفن يبدأ تاريخهما بالممارسة الذاتية من نقطة واحدة هي الإحساس ثم تأتي مرحلة التصور ثم يفترقان، لاختلاف طريقة كل منهما في توظيف التصور، فالفن يستخدم التصور بحرية واسعة، أما العلم فيستخدمه بانضباط عقلي، إن مذهب أرسطو في الفن أساسه محاكاة الطبيعة، فالفنان يستند خلال عملية الخلق إلى وضع المحتمل في الشيء أي إلى ما يمكن أن يكون، لا إلى ما هو كائن بالفعل وحسب.

في النصف الثاني من القرن العشرين صُدرت آراء من غرب أوروبة إلى معارفنا النقدية مؤداها أن الأدب حرفة واحتراف، وأنه مبرأً من الأدلجات، بل كلما برئ من الأيديولوجيا والمعرفة كان أدباً محترفاً، تحت عنوان تحييد الفن أو حرفية الفن أو أدبية الأدب، قد يكون لهذه المقولة ما يسوغ لها في الثقافة الأوروبية، أما عندنا فكانت تعني هروب الأديب من إشكالية العصر وثقافة العصر والمشاركة في حل المشكلات، وفي مرحلة ما بعد انزياح الأيديولوجيات في العقدين الأخيرين من القرن المنصرم يبدأ الفن باستعادة استقلاله، لكن أي استقلال؟ هل هو العمل في الفراغ أم العمل تحت أضواء ثقافة جديدة؟، لقد كان الارتجاج كبيراً، ولم نجد أديباً في الشعر أو النثر استطاع أن يتجاوز هذا الارتجاج، أما أدونيس فلم يكن داخل الارتجاج لذلك ظل على وتيرة واحدة يجمع بين الفكر الناقد والأدب المتفرد، وقد يكون مصيره كمصير جيمس جويس ١٨٨٢-١٩٤١ (رواية أوليسيس) الذي لم ينصف في زمنه لكنه اليوم يحتل مكانة مرموقة في الأدب الغربي.

في متن النهضة العربي شعرٌ متخلفٌ عن عصره بل متخلفٌ جداً، وشاهدنا حافظ ابراهيم، وفي متن المرحلة الليبرالية والثورية شعرٌ متخلفٌ لحظة خلقه والشواهد كثيرة من نزار قباني صاحب الخواء الأنيق إلى سليمان العيسى صاحب الخواء والضجيج... وما يزال اتحاد الكتاب ووزارة الثقافة تمد الشارع الأدبي لا المجتمع العربي بكثير من هؤلاء، ونلاحظ كثرة الإنتاج الشعري والقصصي من الوزارات والاتحادات الأدبية العربية إلى درجة أنهما ينتجان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من المجموعات والدواوين أكثر مما تنتج وزارات الزراعة من الشوندر السكري أو البطاطا... في متن النهضة كما ذكرنا مفكرٌ يدعى قاسم أمين ١٨٦٥-١٩٠٨ كان دوره في الإصلاح الاجتماعي والانقلاب على الرواسخ المستوردة من مرحلتي المماليك والعثمانيين أهم من الشعراء والكتاب الذين عايشوه بل وحتى الذين خلفوه، وفي كتابته قوة إقناعٍ يحتاجها الأديب، وفيها أيضاً قدرة على التحليل والتركيب لم نجدها عند كتاب الرواية أو نُظّام الشعر، فكثيراً ما تجعل الإديولوجيات غير الأدباء أدباء، ففكرة المقاومة مثلاً تغري الكتاب في أن يكتبوا حولها، فالفكرة هنا طاغية على النصوص غاية تبرر الوسيلة لكنها بعد انتهاء مرحلتها تفقد أدبيتها، لقد اشتهر غسان كنفاني من خلال رواياته عن مسألة النضال الفلسطيني في فترتي: الاحتلال الإنجليزي والاستيطان الصهيوني، وقد ساعده بذلك التعليم المدرسي وشيوع أفكار التقدم، وبعد تراجع المسألة الفلسطينية وعدم قدرتها على تكوين عمق استراتيجي في الشعوب العربية لم تعد الآن أدباً مقروءاً، بل صارت من زمنٍ بعيدٍ أبعد من زمننا، وكذلك في الآداب العالمية نجد مثلاً كولون ويلسون شائعاً في العوالم الطرفية أكثر من شيوعه في الآداب الأوروبية المركزية وآية ذلك أن الأروقة الثقافية الأوروبية قد أشبعها علم النفس التجريبي بما يغنيها عن أطروحات ولسن وخاصة عندما خاطب الذهنيات القابلة للخرافة أو للبحث فيما وراء الطبيعة البشرية، وفي أطروحته اللامنتمي كان يخدم البورجوازية الصناعية من حيث إنه طرح ثقافة الحياد السلبي في العوالم الثالثية عندما كانت مجهولةً بثقافة النضال الوطني والاجتماعي، وعندما أقيلت هاتان الثقافتان عن ساحة الاهتمام أقيلت معهما أطروحات كولون ويلسون.

وقد انتشر بابلو نيرودا التشيلاني أيضاً في أوساطنا العربية أكثر من انتشاره في اي بقعة أخرى، لأنه لاقى أصداءه عندنا، وعندما ضعفت تلك الأصداء ضعف تلقيه ولم يعد اليوم من يذكره أو يقرؤه، وثمة شواهد عديدة كناظم حكمت ١٩٠٢-١٩٦٣ الذي شاع ذكره على ألسنة اليساريين والاشتراكيين ثم زال شيوعه مع زوال من يتكلم عنه أو يتبناه، وفي السياق نفسه نذكر الإيطالي ألبيرتو مورافيا ١٩٠٧-١٩٩٠ فقد شاع ذكره في السبعينيات من القرن المنصرم إذ كان يملأ حيزاً من الاهتمام من خلال روايته الشجاعة، لكنه اليوم غير مقروء لأن العصر صار أكثر شجاعةً منه،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والفكر السياسي اليوم صار يتقدمه، فليس الفكر إذاً خارج إطار الأدب، والفكر -على تقديرنا- يعيق الأعمال الأدبية الضعيفة ولكنه يعزز الأعمال الأدبية الإشكالية، وهنا ننبه إلى أن الآداب المركزية تفرض أقيسةً على الآداب الطرفية، فالمقياس السوفييتي (جدانوف) ظل يفرض منهجيته حتى نهاية العقد السابع، والمقياس الفرنسي فرض نمذجته من خلال ارتباطه بالثقافة الليبرالية، وأما المقياس الأمريكي فبدأ يفرض نفسه من خلال النخب الأكاديمية التي تخرجت في أمريكة وبدأت تطرحه بديلاً عما سبق، وكردة فعل طبيعية على الأقيسة الغربية كان القوميون والإسلاميون يفرضون المقياس التراثي، وقد وجد لشفرته محزاً عندما حدث الارتجاج السياسي في الشرق السوفييتي، وعندما أظهر الغرب الليبرالي وحشيته بعد ذلك الارتجاج.

إن من خصائص الشرق -ضمناً العرب- أنه لا يتحرر من إديولوجياته، فلم تمر أمم الشرق حتى المتقدم صناعياً منها بعصرٍ كعصر الأنوار أو كقرنٍ فارقٍ أوروبياً كالقرن السابع عشر، لذلك نجد في الأعمال الأدبية مجالاً لالتقاء جوانب تخص العالم الثالث وأخرى تحاول التبرأ منه، ولم يستطع أدباؤنا أن يواجهوا مشكلات هي بالأساس فكرية سياسية طرحها الأدب الغربي كالتحرر الجنسي أو التحرر الفكري (فصل الدين عن الدولة) فراحوا إلى اتجاهين: الأول يستقوي بالغرب ونجاحاته الفكرية والسياسية إلى درجة تبرئة المستعمر من وحشيته، قياساً على ظلامية الدولة العثمانية، ثم يطرح فكرةً خطيرةً هي أنسنة المستعمر، هذه الأنسنة هي ردة فعل على بكاء الأصوليين الإسلاميين على الدولة العثمانية، والاتجاه الآخر يحيي الأصداء الميتة فيكتب عن التحرر الاجتماعي من حيث حالاته الخارجية لا من حيث إلغاء المسببات التي سببت هذه الفوارق، وهنا ينبثق طرفٌ جديد فاعل ليس بفكرٍ وليس بأدب إنه الإعلام.

فالإعلام الناطق بالعربية حلّ محلّ الرواية والقصة والشعر والفلسفة وعلم الاجتماع عند الـ٩٠٪ من المجتمع وخطورة هذا الإعلام أنه مرتبطٌ بمشروعٍ مزدوج الهوية، فهو مرتبط بأمركة العصر، وهو مرتبط بتخلف الجزيرة العربية الاجتماعي والسياسي، وما كان له أن يقوم بهذا الدور لولا أن تراجعت المراكز العربية التقليدية ونعني بها الشام والعراق ومصر.

يعمم الإعلام ما لم تعممه دوائر الاستشراق أو يفعل ما لم تفعله مرحلة السينما الهوليودية، ومن خطورة الإعلام

اليوم بل من أكثرها خطورة تحويل كرة القدم إلى ثقافة تكاد تكون الوحيدة عند الجيل العربي الناشئ، فلها من الصحف وساعات البث أكثر ما للأحزاب والاتحادات الأدبية والمؤسسات الاجتماعية من الزمن المكثف والخطير، إلى أن وصل الأمر إلى أساتذة الجامعات وهم منشغلون بأحد فريقي إما ريال مدريد وإما برشلونة، ومن قبل هذا كان الإعلام الخليع يزيح القداسة عن الجسد البشري ويحيله إلى سلعة تفسد من لم يفسد بعد، وبالمقابل في تراثنا الشعري والفكري شعرٌ ليس الفيلم الخليع بأسوأ منه.(٣)

وثمة شواهد شعرية أخرى في تجميل القبيح كالسطو والسرقة والسلب يقول الأحيمر السعدي(٤):

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ
يرى الله إني للأنيس لكارهٌ
وتُبغضهم لي مقلة وضميرُ
وإنّي لأستحيي من الله أن أُرى
أجرِّرُ حبلاً ليس فيه بعيرُ
كفى حزناً أن الحمار بن بحدلٍ
عليَّ بأكناف الستَّارِ أميرُ

وفي الموقف السياسي نجد الشعرية العربية قد مارست التزوير وإحالة الموقف القيمي إلى موقف براغماتي، فلقد صرح معاوية ت ٦٨٠م لبعض جلسائه عندما دعا إلى التمسك بالشعر أنه ما منعه من الفرار يوم صفين إلا قول ابن الإطنابة، وفي رواية أخرى: فإني أدركت الخلافة ونلت الرئاسة، ووصلت إلى هذه المنزلة بأبيات ابن الإطنابة(٥):

أبَتْ لي عفتي وأبا بلائي
وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدي أو تستريحي

إذن، الشعر منعه من الفرار ولم يمنعه القرآن أو السنة النبوية أو قيم الدين الجديد على الرغم من ادعائه أنه يمثل هذه القيم.

وفي الأدب الأمريكي رواية بل روايات حكت عن العنف السياسي والحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، ومنها روايات وليم فوكنر تحدثت عن مزارع القطن وقصب السكر والعبيد والمآسي واستملاك الأراضي بالعنف لكنها ظلت أمينة لمفهوم التاريخ تاريخ تكون أمريكا، وما كان الشعر الزنجي إلا صورة أخرى للمعادلة بجانبها المهزوم ورغم ذلك بقي الشعر الزنجي محموماً ليُدخل العرق الأسود في تاريخ الحضارة البشرية (لانجستون هيوز)، لقد حاول الشعر الزنجي أن يغيب المعايير الذاتية الأمريكية ليحضر المعايير الخاصة به على أنها معايير

الدخول في التاريخ. ومن هنا ظل الشعر الزنجي شعراً وفكراً لا ينفصل جانبٌ منه عن آخر في حين نجد روائية مكسيم كورجي خاصةً رواية الأم تفقد إدهاشها، بعد أن انتشرت تحت سطوة الأيديولوجيا الماركسية لكنها اليوم تفقد إدهاشها بل حضورها بعد أن فقدت حاملها الأيديولوجي.

وكثيرٌ من النقاد يربطون بين الرواية وصعود الاتجاهات القومية ويربط فريق آخر بين تاريخ الآداب القومية والقرابات الفيليلوجية «فحتى اكتشاف قرابة اللغات والطريقة التاريخية المقارنة في بداية القرن الماضي لم يتطرق إلى نفس أحد تقريباً الشك في وحدة الفيليلوجيا، وفي ارتباط تاريخ الآداب القومية ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اللغات القومية»(٧)، وبالمقابل فإن هذا لا يمكن اعتماده رأياً قابلاً للاستواء إلا إذا عدنا إلى نشوء اللغات القومية، وهذه بدورها مرتبطة بانفصال الكنيسة البروتيستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية الأم، وقد بدأت على يد الإنجليز ونشوء الأدب الإنجليزي وإزاحة اللغة النورمانية وإحلال الإنجليزية محلها بعد انتشار حكايا كانتر بيري، بينما لم ترتبط الرواية العربية نشوءاً وتطوراً إلا بتأثر ثقافي من النخب العربية بالأشكال الأدبية الأوروبية كما فعل محمد حسين هيكل عندما كتب روايته (زينب) في إثر قراءاته لجان جاك روسو وكذلك فعل المنور العلماني فرح أنطون ١٨٧٤-١٩٢٢ عندما تأثر بالفكر العلماني بنسقيه: التجريب الغربي والاشتراكي السياسي الشرقي، ولا يمكن أن نفهم تجربة طه حسين على أنها تجربةٌ أدبيةٌ صرف، فقد تأثر بديكارت ١٥٩٠-١٦٥٠ الفرنسي من حيث المنهجية القائمة على الهدم وإعادة البناء، وعدم الركون إلى المقدس في المعتقد واللغة والتاريخ، مستفيداً من أطروحته «مقالة الطريق»، ومن هنا عدّ طه حسين صاحب المشروع التنويري الثاني بعد أن أسس رفاعة الطهطاوي ١٨٠١-١٨٧٣ المشروع التنويري الأول، وهو من روّاد الصحافة العربية، وعرب (مبادئ الهندسة- القانون المدني الفرنسي) ثم كتب تلخيص الإدريس في حضارة باريس، ويعد طه حسين نموذجاً للمفكر الأديب وللأديب المفكر، وفي النسق المخالف نجد الشاعر أحمد شوقي ت١٩٣٢ يؤسس لوحدانية الأديب المنتمي إلى تراثية مريضة من دون أن يطرح فكراً ينتسب إلى العصر ولا شعراً يفصح عن طبيعة العصر، وفي هذا النسق نجد أدباء لا مفكرين كحافظ إبراهيم والبارودي وشفيق جبري والزهاوي والرصافي و..... وأما الروائي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الرحمن منيف فقد أفاد من تجربته العلمية في الغرب ومن تجربته السياسية في سورية والعراق فقد أعاد قراءة التاريخ وكتب انتقاداته على شكل رواية وبإمكاننا أن نعده الروائي الوحيد الذي يقوى أن يحمل لقب المفكر، باحثاً عن أسباب الاستبداد وعن اكتشاف أشكال الحرية الفردية والجمعية، وقد توصل إلى أن الاستبداد موروث من القبيلة إلى الخلافة إلى الدولة العثمانية إلى المرحلة الكولونيالية إلى الدولة المستقلة... إلى سلطة الفكر إلى انخراط الشاعر بقضية السلطة، والاستقلال الذي حصلت عليه الولايات العربية كان استقلالاً مزعوماً هيكلياً، من الطور الكولونيالي إلى الطور الإمبريالي، ولعل محمد ديب في ثلاثيته كان يفصح عن التجربة الوطنية للجزائر إبّان الاستقلال وبعيده.

في الغرب كان الشعر الملحمي يبحث في مصائر الأفراد وعوالمه الداخلية، وكانت الرواية تبحث عن المصائر الفردية للمغتربين في عوالمه المدينة الصناعية فأحالت الرواية تلك العالم الصناعي إلى همٍّ معيش، لكنها فتحت الآفاق للانعتاق من هم المدينة، وهنا نسوق رواية الأزمنة الصعبة لديكنز، وفي روايتنا العربية ما بعد مرحلة التأسيس نرى نجيب محفوظ الحائز على نوبل يحبس خيالاته الروائية في مشكلة الإنسان المصري وفي العوالم الداخلية المصرية من دون أن يمتد إلى ما هو خارج ذلك، ولا يمكن أن تعد روائية نجيب محفوظ مصدراً لقراءة المجتمعات العربية الحديثة في حين نجد روائية عبد الرحمن منيف مصدراً لمجتمعات الشام العراق والجزيرة العربية في تاريخها السياسي وتاريخها الحديث، وهذه الروائية المنيفية أهم من الكتابة الشعرية لعصر الإحياء ولعصر الثورة فهي تجمع بين الأنثروبولوجيا وعلم السياسة والاقتصاد.

شغلت القصيدة الحديثة والقصة العربية بالفرد المهاجر اليائس الخائب الباحث عن البدائل وقد دخلت شخصية الفرد العربي عالم الميكروكوزموس دخولاً فرضته طبيعة الحدث السياسي وطبيعة الأجناس الأدبية الحديثة، وكثيرةٌ هي الأعمال التي انتقلت من التغرب الفردي في الشعر أو القصة القصيرة لتشكل سيرة ذاتية، كان معظم أبطالها ذوات سيرة واحدة، وبناء عليه نقول: بدأ الأديب هنا عبر جنسي الشعر والقصة يكتب فكراً سياسياً أكثر مما يكتب أدباً حقيقياً.

لقد تضخمت شخصية الأديب وظهرت الأنا الفردية متخالفةً مع الأنا الأدبية، وكلاهما في صراعٍ سياسي إما مع التاريخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإما مع السلطة، كان ذاك التضخم نرجسيةً واضحة لها ما يؤسس لها في قصيدة المديح العربية، لكن الأدب الحديث حررها نسبياً من امتلاكها النرجسي، فقد رأينا شعر المهجر يحطم نرجسية الشاعر المشرقي، وينتمي إلى الوطن الذي طرده رغم بعد المسافة الجغرافية، وانفصل من خلال تأثره بالوضع المعيشي والوضع الثقافي لما حصله من العالم الجديد عن تقاليد قصيدة المديح الأكثر بؤساً في تاريخ الشعرية العربية، ونذكر ببعض النماذج المدحية كقول الشاعر الأندلسي أبي البقاء (الرندي)(٧):

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

كثيرةٌ هي النماذج الشعرية التي خلقت عبر المديح شخصيةً خارج التاريخ البشري، بل شخصيةً خرافية لا أسطورية ونذكر أن هذا بدأ في الجاهلية:

فإنك شمسٌ والملوك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

عندما تنشغل الشعرية بهذه الأنا المتورمة خارج حدود العقل فإنها لا تنتج أدباً ولا فكراً، إنما تنتج سبلاً للتزوير، يحاك من خلالها شخصية هلامية تشبه إلى حد كبير ما يفعله الإعلام اليوم حول رسم شخصية فنية أو سياسة أو مالية من خلال أقاويل ديماغوجية تجعل الممدوح أو المتكلم عنه فوق الإمكانات العادية. كما كان يفعل الشعراء بامتداح صدام حسين ثم ما فعله الشاعر العراقي أحمد مطر به بعد اعتقاله (٩).

وتحت عنوان «حبيب الملاعين صدام» يكتب:

(إذن... هذا هو النغل الذي جادت به صُبْحة/ وألقت من مظالمه على وجه الحمى ليلاً تعذر أن نرى صُبْحة إذن هذا أخو القعقاع/ يستخفي بقاع القاع خوفاً من صدى الصيحة/ يستكفي بسكنى فتحة كالقبر مذعوراً/ وقد كانت جماجم أهلنا صرحة/ ومن أعماق فتحته يُجَرُّ بزيف لحيته/ ليدخل معجم التاريخ نصاباً/ علامة جره الفتحة/ يبول بثوبه رعباً ويمسح نعل آسره ويركع طالباً صفحه/ وكان تنهد المحزون في قانونه جنحة).

فالأدب النرجسي يستهلك اللغة لكنه يزوّدها بما عنده فيزوّرها، بينما يشكو المفكر العربي اليوم من اللغة وخاصة إن كان المفكر مهموماً بالاقتصاد وعلم الأحياء والفلسفة والتربية، فيجد العربية على ما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يزعم أهلها من غناها المعجمي فقيرةً عندما تكون الأمور دقيقةً تحتاج إلى كلام دقيق.

يلجأ كثير من الأدباء إلى الانصراف عما يعرف الآن بـ(الأدب الخالص) زاعماً أن الأدب الخالص لا يقع تحت هيمنة العلوم الأخرى كالاقتصاد والسياسة وغيرهما، ولكنه يصنع حينها أو لحظتها أدباً فارغاً، هذا الفراغ يفصح عن القلق الذي يعيشه الأديب إذا لم يتبن مرجعيةً خارج الأدب، وقد رأينا نماذج لهذا فيما أسموه المسرح العبثي، أو فيما نراه نحن القصيدة الحديثة- النثر- ، وقد نجد المسألة محلولة لدى بعض الكتاب عندما يهربون إلى اللاجنس في الأدب تحت شعار الخوف من السلطة أو الهجوم عليها أو الخوف من السلطة الدينية أو منهما معاً، وقد ينجح شاعرٌ مثقفٌ موهوب في هجاء السلطة من دون أن يقع في أفخاخها كما فعل السياب عندما هجا النظام العراقي وزبانيته (عهد عبد الكريم قاسم) من دون أن تقوى أجهزة السلطة على تفكيك منظومته الشعرية، وعلى الطرف النقيض من السياب نجد أحمد شوقي يؤسس للهزيمة الحديثة أمام التراث ويشد الآفاق أمام شعرية لا تغادر العصور الوسطى، ولعل إمكاناته اللغوية عالية جداً، لكن توجهه كان مخالفاً للعصر، وما امتداحه لسلاطين العثمانيين المحليين وهجاؤه لأحمد عرابي إلا موقفٌ فكري مخالفٌ للمسألة الوطنية ومسألة التحرر السياسي، وأما شعره التعليمي فكان أبسط من شعره الآخر رغم تأثره بالشعر التعليمي الغربي، والشعر التعليمي بالأساس هو أسوأ أنواع الشعر ولا سيما في تراثنا العربي وشاهده إحالة ابن مالك للنحو العربي في ألف بيتٍ من الشعر، والكارثة الأكبر هي شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، والكارثة المستمرة هو تدريس ابن مالك وابن عقيل في الجامعات العربية إلى يومنا هذا، فقد قتلت الألفية الشعر وقتل الشرح النحو، ويذكرنا الموقف بما قاله اللورد بايرون: «أنا القاتل وأنا القتيل» وتبدو مأساة ألفية ابن مالك في أنها أعمت على المناخ الفكري والفلسفي السائدين في العصر الأندلسي عبر النثر العربي مما جعل العامة تستملك من قبل السلطة وتنشغل بما لا يعود عليها بالفائدة انشغال العامة اليوم بالانتخابات اللبنانية أو خسارة فريق البرازيل أمام دولة أخرى، وقد استعاد أحمد شوقي أزمنة ابن مالك وابن عقيل وملوك الطوائف الأندلسيين، ليجعل من شعر المديح شعراً يفارق عصره في الوقت الذي كان فيه قاسم أمين وروّاد النهضة من فرح أنطون والشيخين الرازق ومحمد عبدو مشغولين

بصياغة عصر وإنسانٍ عربيين ينتميان إلى العصور الإنسانية الحديثة.

إذن، نحن أمام مفكرٍ سلبي سواءً كان يرمي إلى ذلك أم لا، هو أحمد شوقي وارثاً ابن مالك وابن عقيل من خلال أدبٍ ليس منتمياً إلى تاريخ الفكر أو طبيعة الفن.

وما تزال مأساة الهيمنة الشعرية لشوقي قائمةً من خلال التعليم المدرسي القاصر مدرسياً، ولعل قصوره قادمٌ من دون ريب من التعليم الأكاديمي الذي لم يطور في أدواته بل مازال ينتمي إلى الانبهار بالذات والذات التراثية.

ولعلنا نستخلص: أن المفكر بالأدب مفكرٌ ليس عميقاً، ليس فيلسوفاً (جابر عصفور- عبد السلام المسدي). هذا عندنا نحن العرب لكنه قد يكون عميقاً وفيلسوفاً عند أمم أخرى، فشكسبير أديبٌ وفيلسوف من خلال انتقاده للمسيحية ومن خلال تأسيساته للحلم الإمبريالي لكن بأدبٍ تجاوز الإمكانات العادية، وغوتة الألماني هو مفكرٌ وأديبٌ على حدٍ سواء، وهربرت سبينسر استعان بالتجريب وظل أديباً وهو يؤمن بأهمية التجريب في الخلق والإبداع، وكذلك ميخائل لاماناسوف هو مفكرٌ فيزيائي وكيمائي وبالمقابل هو لغوي نقل منهجية البحث الفيزيائي إلى النحو واللغة الروسيين وأخضعهما إلى الحذف والاصطفاء.

كثيرٌ من النقاد يعدون الروسي دوستوفيسكي عالم نفس من خلال الرواية، هو كذلك لكنه أديبٌ أكثر، فإذا ما قارناه بما كتبه فرويد فلن يكون بعالم نفس، إنما سيبقى أديباً إشكالياً، وهذا الأديب الإشكالي ما يزال يشغل القراء والنقاد وسيبقى كذلك، لأنه لامس جوهر النفس البشرية في تقدمها وتراجعها

أمامنا ثلاثة أقانيم هي الأسطورة ثم الأيديولوجيا ثم الفلسفة،كانت الأولى مصدر الأدب القومي في طور من أطوار التاريخ، وما تزال كذلك بشكل أو بآخر ولا أدب قومي من دون أسطورة، لكن الأسطورة اختلفت فصارت فيزياء نيوتن وبيكون وداروين وفرويد أسطورة ثم صنع ماركس وإنجلز ولينين أسطورتهم،و ما تزال البرجوازية الصناعية تصنع أسطورتها (الديموقراطية) ثم صار غزو الفضاء أسطورة الإنسان الحديث في حين ما تزال أسطورة الفتوحات العربية الإسلامية مبعث الشعر العربي السياسي السلفي والثوري، وفي كلا الحالين الشاعر مفكر لكن تفكيره ليس أبعد من أنفه،إلا إذا اكتشف أسطورة خارج المستهلكات كأن يحطم اللغة ويؤسس لمشروع جديد كما فعل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طه حسين وأدونيس، أو كما فعل ميخائيل نعيمة في نثره لا في شعره.

التزم الشعراء كثيراً بالفكر الإيديولوجي ثم انقلبوا عليه، في التزامهم وانقلابهم فكر سياسي بين التبني والهدم لكن العملية تمت لا بدءاً. من الشاعر أو اختراعاً، إنما تحرك مع المعطيات السياسية التي كانت أكبر من تصوراته، وأما الفلسفة فقد كان حظها قليلاً عند شعرائنا إذا استثنينا المعري وأبا نواس وأبا تمام والشابي، ونعيمة في حين أشار أبو نواس إلى هذا بقوله:

وقل لمن يدعي في العلم فلسفة
حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء[10]
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة
كانت تحل بها هند وأسماء
حاشى لدرةٍ أن تبنى الخيام لها
وأن تروح عليها الإبل والشاء

كان أبو نواس يعرف أنه يوجه كلامه إلى من لا يصغي إليه، لكنه يرى اليوم من يتلقى هذه النصيحة. فالشاعر العربي ليس قوي الأدوات في التفكير بقدر ما هو قوي في اللغة وكذلك أجيال من النقاد وكذلك أجيال من الكتاب على خلاف ما نراه عند مفكري الغرب، ولتونا ذكرنا سبينسر ١٨٢٠-١٩٠٣ ففي كتابه المبادئ الأولى: «فما يمكن معرفته هي مقارنته بغيره» وقد استعاد طه حسين هذه العبارة عندما قال: «لا يدرس الأدب العربي إلا مقارناً» موضحاً بذلك أن لحظة الانبهار عند العرب بذواتهم ستنهار عندما يعرفون العوالم الأخرى، وسبنسر نفسه يرى أن الحياة قد تقدمت بفعل المواءمة بين العلاقات الداخلية في الكائن الحي... وفي كتابه التربية الجسدية يرى أن.. «غاية التربية هي إعداد الإنسان للحياة، التربية تفقد خصائصها إذا لم تعتمد على علوم الطبيعة» هذه التعاليم السبنسيرية غدت معلماً من معالم الكتابة الأدبية في القرن التاسع عشر وما تلاه في حين ما تزال المقولة العربية «ما ترك الأول للآخر شيئاً» معلم الكتابة العربية.

في الفلسفة كثير من الأدباء العرب كتبوا تحت عنوان يشبه ذلك أو يصل إليه، لكنهم بدؤوا من حيث انتهى الآخرون، ونذكر بأن أفضل الأعمال الأدبية التي أرادت أن تكتب فلسفةً من خلال جنسٍ أدبي هو قصة حي بن يقظان للفيلسوف ابن طفيل ١١٠٠-١١٨٥ رامياً بذلك إلى إظهار عظمة العقل الإنساني ومقدرته على المعرفة، وعلى الوصول إلى أعلى مراتب هذه المعرفة بقوته الذاتية من دون معونةٍ خارجية عن طريق التجربة والملاحظة والتأمل، فالتفكير في العالم المحسوس بل التفكير في أسرار الوجود يجعل الإنسان يهتدي إلى معرفة الكون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دون حاجتـه إلى نبي أو رسالة.... كان هذا العمـل الأدبي يـرد بشكلٍ غـير معلن على تضخم القاموسـ الفقهي واللاهوتي للفقه الإسلامـي في أطواره الأخـيرة، حيث نشأ قاموسان مختلفان متخالفان: هما القاموس الفقهي والقاموسـ الفلسفي، وفي إثر ذلك تنتقل تعاليم القاموسـ الفلسفي الأندلسي إلى أوروبـة لتغـدو مصـدراً مـن مصادر العقلانية رغم ادعاء بعض الأوروبيين بأنها من مصادر لاهوتية تضخم المفاهيم الشرقية المثيولوجية.

في الأدب الغربـي فلاسفةٌ أدباء كثيرون منهم دينيس ديدرو ١٧١٣-١٧٨٤ نشر مبادئ الإلحاد والفلسفـة العقلانية وغيره كثيرون في أدب القـرن الثامن عشر الفرنسي، فقد كان هذا القرن قرن فلسفة أو عصر الأنوار لكن معظم رجالاته كانوا فلاسفة أدباء، فإن ضاقت دائرة الفلسفة بهم توسعت خيالاتهم الأدبية كما نرى ذلـك عند روسو، وقد نتج عن التوسع الأدبـي والانحسار الفلسفي أو العكسـ أعمال أدبية خالـدة، نقول خالدة بعد أن نجرد الكلمة مـن تراثيتها العربية، لـنرى أن الخلـود هنا بمعنـى الفاعلية في بنية الفكر البشري، وفي طورٍ تاريخي لاحق نجـد إعادة الارتباط بـين الفلسفة والأدب الأوروبيـين لا كعلاقة خارجية بـل كابتناء روابـط داخلية ضرورةً من ضرورات الجدل الهيجلي، ويصبح العمل الأدبي أو الفلسفي خارج مفهوم الجمـال وخارج مفهوم الحق، بـل يبلغ الفن حداً لا يمكـن تجاوزه عندما لا يستطيـع الناقـد أن يقيـم الفصل بين جانبـي العمـل: الأدبي والفلسفـي، وعلى الرغـم مـن أن عمانوئيل كانـت كان يرى أن الانفصال بينهما ضـرورةٌ حتى يتجاوزا مفهوم الجميـل الكلاسيكي، وقد عزز ذلك الفيلسوف هيدجر ذلك بقوله: «يجب أن لا تنصـ الفلسفة إلا بشـكل قصائد» هذا ما فعله المعري في القرن العاشر الميلادي لكن لم يكن ينطلـق الانطلاقة نفسها... وفي الأدب الفرنسي في القرن العشرين نجد الشخصية الإشكالية جان بـول سارتر ت١٩٨٠ يجمع بتوفيقٍ غريب بين الأدب والفلسفة من خلال أطروحتـه الشهـيرة الوجـود والعدم، ومن خلال كتابته النقدية عن الالتزام ومفهوماته ثـم انشغالـه بقضية الجبريـة والحرية في الطبيعة والمجتمع، والإنسان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- أ سـ، بوشمـن، مقال علم الأدب وعلاقته بالعلوم الأخرى- ص٩-ترجمـة يوسف حلاق- وزارة الثقافة- دمشق- ١٩٨٣م.

٢- إنكليز- ضد دوهرنج- ترجمة فؤاد أيوب- ص٣٢- دار دمشق- ١٩٨١.

٣- راجع ما دونته الموسوعة الشعرية العربية- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء- الراغب الأصفهاني- المجمع الثقافي- أبو ظبي-.
٤- المصدر السابق.
٥- راجع النقد الأدبي الحديث لمحمد غنيمي هلال- المظفر العلوي- نضرة الإغريض في نصرة القريض- ص١٥٤.
٦- راجع الحياة السرية لصدام حسين لأنيس الدغيري- ص٢٥٥- دمشق- دار الكاتب العربي- ٢٠٠٤م.
٧- راجع الأدب والعلوم الإنسانية لباحثين سوفييت- ص٢٠٤- ترجمة يوسف حلاق- دمشق- وزارة الثقافة ١٩٦٨.
٨- الرندي- اعتمدنا في إيراد القصيدة على كتاب الدكتور عبد العزيز عتيق من الأدب العربي في الأندلس- ص٢٢٥- دار النهضة- بيروت.
٩- راجع قصيدة أحمد مطر (أخو صبحة) ديوان قصائد ما دون لافتات.
١٠- ديوان الشاعر تحقيق عبد المجيد الغزالي- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٩٨٤.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دور العرب في تأريخ العلم في العالم كتاب طبقات الأمم (نموذجاً) لصاعد بن أحمد الأندلسي (٤٢٠-٤٦٢هـ/ ١٠٢٩-١٠٧٠م)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. محمد ياسر زكور

يهدف هذا البحث إلى التعريف بدور الحضارة الإسلامية في تشكيل ظاهرة تاريخ العلم وتكوينها، وذلك لتحرير وعينا المستلب، وإبراز دورنا الحضاري، وإظهار منجزاتنا العلمية المغيبة، وتوظيف أساليبنا ومنهجياتنا العلمية التي ابتدعها مفكرونا وعلماؤنا، وتسلسلوا فيها من البداية حتى تشكيل الظاهرة وتكوين المنظومة، التي هي تأريخ العلم.

فإذا لم نجد في منجزاتنا العلمية تأطيراً لبعض ظواهر العلم تحت

* باحث في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

عنوان معين، فإن هذا لا يعني أنه لا يوجد للحضارة العربية الإسلامية إسهام في هذا العلم. ويكفينا عناوين العلوم التي وردت في كتب تصنيفات العلوم عند أكثر من عالم في حضارتنا كالفارابي وأخوان الصفا وابن سينا وغيرهم.

إن ما نهدف إليه، هو التحرر من مركزية الحضارة الغربية، والانعتاق من سطوتها، وإنكارها لمنجزات الآخرين. وهذا لا يتم إلا بتحرير عقولنا من أننا حضارة تابعة لا نرى أنفسنا إلا في منجزات غيرنا. وإن إظهارنا لمنجزاتنا العلمية، بعيداً عن مقولات الحضارة الغربية. كفيل بأن يعيد لحضارتنا شيئاً من نورها وإيحاءاتها ويعمل على تفعيل إنجازاتها. والأهم من هذا كله هو إعادة الثقة إلى نفوس أبنائها وعقولهم ووجدانهم لكي تكون محفزاً ووازعاً للإنتاج والمشاركة لا على الاجترار والتبعية.

ويتجلى دور العرب والمسلمين في ظاهرة تأريخ العلم في العالم من خلال المؤلفات التي ظهرت منذ بدايات تكون هذه الظاهرة؛ فكتب فيه وألّف وصنّف الكثير من العلماء، ومن أوائل من كتب في هذا العلم: ابن خُرداذبه (توفي ٣٠٠هـ)، وابن حوقل (توفي ٣٦٧هـ). ابن جلجل (توفي ٣٨١هـ) وابن النديم (توفي ٣٨٠هـ) وصاعد ابن أحمد الأندلسي (توفي ٤٦٢هـ)، وغيرهم، ثم تلاهم في العصور المتوسطة؛ ابن أبي أصيبعة (توفي سنة ٦٦٨هـ)، والشهرزوري (توفي ٦٨٧هـ) وابن فضل الله العمري (توفي سنة ٧٤٩هـ)، ومن المتأخرين داود الأنطاكي (توفي ١٠٠٨هـ) في طبقات الحكماء- وهو مفقود- جعله ذيلاً لعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة.

وفي هذا البحث اخترت كتاب «طبقات الأمم» لصاعد بن أحمد الأندلسي ليكون نموذجاً لبواكير هذا العلم؛ فهو أحد الكتب المهمة في تأريخ العلم في العالم. وعلم الطبقات هو أحد فروع علم التأريخ الذي كان للعرب والمسلمين دور مهم في تدوينه في العالم، وبداية لنعرّف علم التأريخ بشكل عام ثم فروعَه:

«يعرّف علم التأريخ بأنه معرفة أحوال الطوائف وملوكهم وبلدانهم، وموضوعه الأشخاص الماضية، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والوقوف على تقلبات الزمن، ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع».(١)

ولهذا العلم فروع؛ كعلوم الطبقات، والوفيات، لكن الموضوع مشتمل عليها. وقد صدق من قال: «لولا التاريخ لقال من شاء ما شاء»، ومن قال: «لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ».(٢)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السيَر والأخلاق، والعوائد والنحل والمذاهب، وسائر الأحوال.(٢)

أما كتاب طبقات الأمم (أو التعريف بطبقات الأمم) للقاضي صاعد بن أحمد الأندلسي- رحمه الله- فيعتبر من بواكير وأوائل الكتب التي اعتنت بتأريخ العلم في العالم، لذلك يعد من أهم الكتب في هذا المجال، وعلى الرغم من أنه صغير الحجم لكنه كثير الفائدة، فقد أخذ عنه معظم المؤرخين للعلم بعده. ويظهر هذا الكتاب الدور الحضاري لمؤلفه في تأريخه للعلم في العالم، والتعريف بأهم الشخصيات الفكرية التي برزت في مختلف العهود، كما يبين الكتاب الدور الحضاري الذي كان للعرب في تأسيس العلوم.

ترجمة المؤلف وعصره

قليلة هي المعلومات التي وردت في كتب التراجم عن صاعد بن أحمد الأندلسي- القاضي، العالم بالفلك، ومن أهم من ترجم له: ابن بشكوال (توفي ٥٧٨هـ) في كتاب الصلة، وابن عميرة (توفي ٥٩٩هـ) في بغية الملتمس، والصفدي (توفي ٧٦٤هـ) في الوافي بالوفيات، وحاجي خليفة (توفي ١٠٦٧هـ) في كشف الظنون، والبغدادي في هدية العارفين.

وقد قال عنه ابن بشكوال: صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي، قاضي طليطلة، يكنى بأبي القاسم، وأصله من قرطبة، روى عن أبي محمد بن حزم، والفتح بن القاسم، وأبي الوليد الوقتي (الوقشي) وغيرهم. واستقضاه المأمون يحيى بن ذي النون بطليطلة، وكان

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

متحرياً في أموره، واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق، وبالشهادة على الخط، وقضى بذلك أيام نظره. وكان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراية. ولد بالمرية في سنة عشرين وأربعمئة، وتوفي بطليطلة- وهو قاضيها- في شوال سنة اثنين وستين وأربعمئة، وصلى عليه يحيى بن سعيد ابن الحديدي. ذكر بعضه ابن مطاهر.(٤)

وأضاف الصفدي بأنه يعرف بالجياني، وقال ابن عميرة: هو فقيه مشهور، أما حاجي خليفة فقال: إنه عالم بالأخبار.(٥)

كتاب طبقات الأمم

هذا الكتاب صنفه صاعد الأندلسي في لندن سنة ٤٦٠هـ، ومنهم من سمّى الكتاب «التعريف بطبقات الأمم» مثل ابن أبي أصيبعة، ومنهم من جعله كتابين منفصلين.

وتجدر الإشارة إلى كتاب آخر بنفس العنوان لأبي سعيد... المغربي المتوفى سنة... ذكره حاجي خليفة.(٦) ولعله سعيد ابن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد القرطبي (أبو القاسم) المتوفى أيضاً سنة ٤٦٢هـ، وهو مؤرخ له كتاب «التعريف بطبقات الأمم» ذكره بروكلمان.(٧)

أهمية الكتاب العلمية والتاريخية

يعد كتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسي من أوائل الكتب التي أرّخت للعلوم في العالم، والذي فيه تاريخ علمي للبشرية- على الرغم من صغر حجمه الذي لا يتجاوز العشرين ورقة مخطوطة- في حوالي مئة صفحة مطبوعة(٨)، ولكنه أخذ الصفة العالمية لغناه بالمعلومات وعدد العلماء الذين ذكرهم.

ولأهمية الكتاب فقد كان أهل الأندلس يتفاخرون به، كونه أحد الكتب النادرة التي تعرّض فيها كتبة العرب لوصف العلوم بين الأمم التي سبقت عهدهم. وقد جمع فيه المؤلف عدة فوائد تدل على نشاط في البحث، وعلى رغبة في التحصيل، ودقة نظر في التدوين. وقد كان أهل الأندلس يروونه لأهل الشرق: فقد روي إن عبد الله بن محمد ابن مرزوق اليحصبي لما قدم الإسكندرية روى هذا الكتاب لأبي طاهر السلفي.(٩) هذا إضافة إلى التعليقات التي وضعت على الكتاب نظراً لأهميته البالغة.

ولأهمية الكتاب فقد أخذ عنه العديد من المؤرخين الذين أتوا بعد القاضي صاعد، وكان أحد المصادر المعتمدة لديهم، ومنهم:

- أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري (توفي ٦٨٥هـ) في كتابه تاريخ مختصر الدول، في نبذتين مفيدتين في العرب وعلومهم.(١٠)

- حاجي خليفة في كشف الظنون، ونقل عنه فصلاً طويلاً في علم الرصد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حيث يقول: قال الفاضل أبو القاسم صاعد الأندلسي في كتاب التعريف بطبقات الأمم: لما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون بن الرشيد العباسي وطمحت نفسه الفاضلة إلى درك الحكمة.. وتولوا الرصد بها بمدينة الشماسية وبلاد دمشق من أرض الشام سنة ٢١٤هـ.(١١)

- القفطي (توفي ٦٤٦هـ) في إخبار العلماء نقل قطعة في وصف أمة اليونان مع بعض التغيير، حيث يقول: اليونان أمة عظيمة القدرة في الأمم.. منهم الإسكندر ابن فيلبوس المقدوني المعروف بذي القرنين الذي غزا دارا بن دارا ملك الفرس..(١٢)

- ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» فقد أورد عنه العديد من المقاطع، وكان يقول: وقال القاضي صاعد في طبقات الأمم، وأحياناً (التعريف بطبقات الأمم) خاصة في حديثه عن أطباء الأندلس، وفي حديثه عن الكندي- كما سيمر لاحقاً.(١٣)

- الشهرزوري محمد بن محمود شمس الدين في كتابه نزهة الأرواح وروضة الأفراح... أورد مقاطع عدة من كتاب صاعد، وكان يقول: قال صاعد...

- ابن فضل الله العمري (توفي ٧٤٩هـ) في الجزء التاسع (الحكماء والأطباء) من موسوعته مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، فقد أورد أقوالاً عديدة عن صاعد...

- داود الأنطاكي (توفي ١٠٠٨هـ) في كتابه تزيين الأسواق، أورد فيه أقوالاً عن صاعد منها قوله: قال صاعد في طبقات الأمم عن فيثاغورث صاحب سليمان نبي الله عليه السلام، بينما يقول صاعد: فيثاغورث أخذ الحكمة عن أصحاب سليمان.(١٤)

وللأهمية التي تمتع بها كتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسي فقد اهتم به المستشرق الإنكليزي بوكوك Edward Pocok الذي ولد في أكسفورد سنة ١٦٠٤م، وعاش في حلب بسورية، وعمل قسيساً للطائفة الإنجيلية فيها، وتوفي سنة ١٦٩١م؛ فقد اعتمد على ما دوّنه صاعد من معلومات علمية تاريخية تتعلق بالعصر الجاهلي.(١٥)

ثم في عام ١٩١٢م حققه ونشره الأب لويس شيخو، وصدر عن المكتبة اليسوعية ببيروت، ونشر بتتابع في مجلة الشرق- السنة الرابعة عشرة.

وفي عام ١٩٣٥-١٩٣٦م ترجمه المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير R. Blacher إلى الفرنسية مع تعليقات مفصلة،

وقدمه كأطروحة لنيل درجة الدكتوراة في باريس.[١٦]

وكان قد حقق لأول مرة وترجم للألمانية ونشره هنري سوتر الألماني، وقدّم له تقديماً جيداً، وقدم خدمة كبرى للفكر العربي.[١٧]

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على طبعتين هما: طبعة بيروت بتحقيق الأب لويس شيخو سنة ١٩١٢م، وطبعة القاهرة بتحقيق حسين مؤنس سنة ١٩٩٣م.

الدراسة التحليلية للكتاب

كتب صاعد بن أحمد طبقات الأمم، أو كما يسميه التعريف بطبقات الأمم، وحاول فيه استكمال دراسة أستاذه ابن حزم الظاهري عن دور الأندلس في إنتاج العلوم، والتعريف بأهم الشخصيات الفكرية التي برزت في مختلف العهود الإسلامية، إلا أن دراسته اختلفت عن رسالة ابن حزم في «مراتب العلوم»[١٨] فهو لم يكتف بأخبار الكاتب، بل حاول التعريف بعصره وظروفه وبيئته، وبسبب شمولية الكتاب، ووضع مقدمة تحليلية للتعريف بتاريخ العلوم وتطور الأفكار واتصال الثقافات ببعضها من المشرق إلى المغرب، انتهاءً بالأندلس وعصره. فجاءت دراسته تاريخية حاول من خلالها الرد على مسألتين؛ الأولى مجرى التطور، والثانية صلة حلقات التطور ببعضها. وحتى تكون إجابات صاعد واضحة في معالمها كان لا بد من تجاوز حدود الأندلس والابتعاد عنها جغرافياً، والغوص في عمق الزمن إلى عهود سابقة على ظهور الديانات السماوية. واضطر بسبب المستجدات، وتغيير خطة كتابه، أن يعيد قراءة مراتب العلوم كونياً في سياق رؤية عالمية للتطور الفكري، وصولاً إلى العرب وظهور الإسلام والفتوحات الكبرى.

فرضت خطة الكتاب على صاعد أن يقوم بمراجعة شاملة وسريعة لتاريخ الأفكار ودور الأمم في صنعها وصلاتها ببعضها، كذلك حاول قدر الإمكان التعريف بالأمة والتعريف بأفكارها، ثم التعريف بأعلامها حتى يربط حلقات التطور في مجرى زمني هادف.[١٩]

الأعلام الذين أخذ عنهم صاعد في طبقات الأمم

لقد اعتمد صاعد في كتابه طبقات الأمم على مصادر عديدة استقى منها معلوماته، إضافة إلى الإخبار الشفاهي عن بعض الثقات، وقد أشار إلى ذلك في كتابه، ولقد اخترنا بعض المصادر التي وردت في الكتاب:

- الفهرست لابن النديم؛ حيث يقول صاعد في الصفحة ٥١ من طبعة القاهرة:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وذكر ابن النديم في كتابه الفهرست أن ثابت ابن قرة مولده سنة إحدى وعشرين ومئتين، وتوفي سنة ثمان وثمانين ومئتين..

- مروج الذهب للمسعودي (توفي ٣٤٥هـ)، وكتاب التنبيه والإشراف؛ في حديثه عن أهل الهند، وفي حديثه عن أرسطاطاليس.[٢٠]

- كتاب الألوف لأبي معشر جعفر بن عمر البلخي[٢١] (توفي ٢٧٢هـ)، في حديثه عن كنكه الهندي.

- وأخذ عن حنين بن إسحاق الترجمان[٢٢] (توفي ٢٦٤هـ).

- وأخذ عن أبي نصر محمد بن نصر الفارابي المنطقي (توفي ٣٣٩هـ).[٢٣]

- وأخذ عن ابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (توفي سنة ٢٦٧هـ) من كتاب «المعارف».[٢٤]

- وعن خزيمة بن الأشيم الفقعسي؛ من كتاب «عرض الأديان » لأبي المعالي.[٢٥]

- وعن الحسين بن محمد بن حميد المعروف بابن الآدمي، ذكر في تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد.[٢٦]

- أبو محمد الهَمْداني المعروف بابن ذي الدُّمَيْنة: أحد أشراف العرب، وهو الحسين بن أحمد بن يعقوب.. ويصل نسبه إلى يعرب بن قحطان. له كتاب «الإكليل» المؤلف في أنساب حمير وأيام ملوكها، وهو كتاب عظيم الفائدة، يشتمل على عشرة فنون..[٢٧]

- عن أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر... وجد بخط يده أن أبا محمد الهمداني توفي بسجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م.[٢٨]

- وأخذ شفاهة عن أبي عثمان سعيد ابن محمد بن البغونش الطليطلي (توفي ٤٤٤هـ)...[٢٩]

- نقل بالخبر شفاهة عن الفضل أبي رافع بن ابن حزم الأندلسي.[٣٠]

- عن كتاب «الصلة» لأبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني، وكتابه هذا في التاريخ وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير.[٣١]

- وأخذ شفاهة عن الوزير أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد اللخمي (ولد سنة ٣٩٨هـ).[٣٢]

- وأخذ شفاهة عن محمد بن سعيد السرقسطي، والقاضي أبي زيد عبد الرحمن ابن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن.[٣٣]

توصيف الكتاب ومحتوياته

يعتبر كتاب طبقات الأمم- لصاعد بن أحمد الأندلسي- من الكتب النادرة، والذي أخذ صورة عالمية، حيث تعرض فيه المؤلف لوصف العلوم بين الأمم التي سبقت عهده، وفيه دراسة مفصلة عن تاريخ العلم عند الأمم. وسجلّ هامّ لإسهاماتها العلمية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإسهامات علمائها، وسجل أهم لتطور العلوم في الأندلس، ولاسيما علمي يعتبر كتاب طبقات الأمم- لصاعد بن أحمد الأندلسي- من الكتب النادرة، والذي أخذ صورة عالمية، حيث تعرض فيه المؤلف لوصف العلوم بين الأمم التي سبقت عهده، وفيه دراسة مفصلة عن تاريخ العلم عند الأمم، وسجلّ هامّ لإسهاماتها العلمية وإسهامات علمائها، وسجل أهم لتطور العلوم في الأندلس، ولاسيما علمي الطب والصيدلة.

يفتتح القاضي صاعد الكتاب بقوله: «إن جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها- وإن كانوا نوعاً واحداً- يتميزون بثلاثة أشياء: الأخلاق، والصور، واللغات. وزعم من عُني بأخبار الأمم، وبحث عن سائر الأجيال، وفحص عن طبقات القرون، أن الناس كانوا في سالف الدهور- وقبل تشعب القبائل وافتراق اللغات- سبع أمم».

نلحظ هنا تقسيمه للشعوب اعتماداً على الأخلاق والصور واللغات، بينما في أبواب الكتاب يعتمد تصنيفاً آخر وهو الأمم التي عنيت بالعلوم، والأمم التي لم تعنَ بها.

جعل المؤلف الكتاب في أربعة أبواب:

الباب الأول: في الأمم القديمة؛ ويتحدث فيه عن الأمم السبع (كما هو في تقسيم اليونان):

- **الأمة الأولى**: الفرس؛ ويتحدث فيها عن مسكنها وحدودها ولغتها.
- **الأمة الثانية**: الكلدانيون؛ وهم السريان والبابليون وتفرعاتهم، وسكنهم، ولغتهم السريانية التي تفرع عنها العربية والعبرانية.
- **الأمة الثالثة**: اليونان والروم والفرنجة وغيرهم في الربع الغربي والشمال من المعمورة.
- **الأمة الرابعة**: القبط من أهل مصر والجنوب، ولغتهم وسكنهم.
- **الأمة الخامسة**: أجناس الترك، ولغتهم ومسكنهم.
- **الأمة السادسة**: الهند والسند ولغتهم وملكهم.
- **الأمة السابعة**: الصين ومن اتصل بهم من سكان بلاد عامور بن يافث بن نوح عليه السلام، فمملكتهم واحدة، ولغتهم واحدة.

وهذه الأمم كانت جميعها صابئة يعبدون الأصنام، ثم افترقت هذه الأمم السبع وتشعبت لغاتهم، وتباينت أديانهم.

الباب الثاني: اختلاف الأمم وطبقاتها بالأشغال، وهما طبقتان؛

- طبقة عنيت بالعلوم: وهي ثماني أمم؛

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهند، والفرس، والكلدانيون، والعبرانيون، واليونانيون، والروم، وأهل مصر، والعرب.

- طبقة لم تُعنَ بالعلوم؛ وهي بقية الأمم.

الباب الثالث: الأمم التي لم تعن بالعلوم، وأنساب هذه الأمم؛

الصين: وحظّهم من المعرفة إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن التصويرية.(٢٤)

الترك: فهم أحذق الناس في الفروسية والمبارزة.

وما عداهم من الأمم التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم، ممن كان موغلاً في الشمال- لإفراط بعد الشمس، أو قريباً من خط النهار- لطول مقارنة (مقاربة) الشمس لِسَمْت رؤوسهم.

أما الجلالقة والبربر وسائر سكان أكناف المغرب من هذه الطبقة فأمم خصها الله تعالى بالطغيان والجهل على أنهم لم يوغلوا بالشمال، ولا تمكنوا من الجنوب.

وأما سائر من لم يذكر بشيء من هذه الطبقة فهم أسوة هؤلاء بالجهل؛ كبعض قطان الصحارى وسكان الفلوات والفيافي.

الباب الرابع: الأمم التي عنيت بالعلوم، وهي ثماني أمم، وقد قصد صاعد فيه التعريف بعلومهم والتنبيه على علمائهم.

فهم صفوة الله من خلقه، وخلاصته من عباده، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة الصانعة لنوع الإنسان والمقوِّمة لطبعه، وزهدوا فيما رغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في أخلاق النفس الغضبية.

الأمة الأولى (الهند)

وقد اعترف لها بالحكمة وأَقَرَّ لها بالبروز في فنون المعارف جميعُ الملوك السالفة والقرون الماضية. ويذكر المؤلف صفاتهم وأنواع العلوم التي كانت عندهم من علوم الدين والنجوم والكواكب والموسيقى والحساب والأخلاق، وغيرها... ويقول: «ولبعد الهند من بلادنا واعتراض الممالك بيننا وبينهم، قلّت عندنا تآليفهم، فلم تصل إلينا إلا طُرَف من علومهم، ولا وردت علينا إلا نبذ من مذاهبهم، ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم». ثم يتحدث عن بعض علماء الهند أمثال كنكه الهندي.

الأمة الثانية (الفرس)

يصفهم ويصف مدة ملكهم، وطبقات ملوكهم، وعنايتهم بصناعة الطب، ومعرفة أحكام النجوم، وديانتهم قبل الإسلام، وسبب تمجسهم. وذكر من أهم علمائهم أبو معشر جعفر بن محمد البلخي وكتابه الزيج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكبير، وكتاب صور درجات الفلك المنسوب إلى أزدرشت (زردشت)، وغيره...

الأمة الثالثة (الكلدانيون)

كان لهم علماء أجلّة، وحكماء متوسعون في فنون المعارف من المهن التعليمية والعلوم الرياضية والإلهية، وكان لهم علوم بأرصاد الكواكب والنجوم، وتحقق بعلم أسرار الفلك. ويذكر المؤلف من علمائهم هرمس البابلي وبرجس صاحب كتاب أسرار النجوم. ويذكر أيضاً أنه لم يصل إلينا من مذهب البابليين في حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مُستقصى، ولا جملة، ولا عندنا من آدابهم في ذلك ولا من أرصادهم غير الأرصاد التي نقلها عنهم بطليموس اليوناني القلوذي في كتاب المجسطي: فإنه أضطر إليها في تصحيح حركات الكواكب المتحيرة، إذ لم يجد لأصحابه في ذلك أرصاداً يثق بها.

وتحدث صاعد عن ملوك هذه الأمة الذين كان منهم النماردة الجبابرة- وأولهم النمرود بن كوشر بن حام. وقد نقل المؤلف هنا عن أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بابن ذي الدُّمينة صاحب كتاب «سرائر الحكمة» وكتاب «الإكليل»، وغيرهما..

الأمة الرابعة (اليونانيون)

لقد أسهب صاعد في وصف هذه الأمة العظيمة القدر في الأمم، الطائرة الذكر في الآفاق، فخمة الملوك عند جميع أهل الأقاليم، الذين منهم كان الإسكندر بن فيلبوس المقدوني المعروف بذي القرنين، ثم بعده البطالسة.

ويحدد المؤلف مكانها وحدودها وامتدادها ولغتها الإغريقية، وديانتها الصابئة، وعلماءها الفلاسفة مبتدئاً بأولهم بندقليس، ثم فيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، والكتب المؤلفة فيها، والعلوم الإلهية والكتب المؤلفة فيها، ثم يتحدث عن العلوم الطبيعية والطب مبتدئاً بأبقراط سيد الطبيعيين في عصره، وصولاً إلى جالينوس- بعد ذكر كافة الطبقات بينهما، ثم من الرياضيين أبولونيوس وإقليدس وأرشميدس، إلى غيرهم من العلماء والعلوم، وذكر تأليفهم في الجغرافية والفلك، مفصلاً لتواريخ الأجيال الخالية وأهم كتبهم.

الأمة الخامسة (الروم)

وهي مجاورة لبلاد اليونانيين، يذكر المؤلف حدودها وتكوينها، ولغتها اللاطينية- نسبة لباني عاصمتها رومية من بلاد ألمانية روملش اللطيني- وهو أول ملوكها، وديانتهم الصابئة قبل اعتناق النصرانية من قبل قسطنطين بن هيلاني (هيلانة). ثم يتحدث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المؤلف عن تمازج اليونان والروم في العلماء والملوك.

ويذكر صاعد أهم من ظهر منهم في الدولة العباسية من علماء في الطب والفلسفة والفلك والهندسة، وغيرها من العلوم- من النصارى والصابئين أمثال بختيشوع، ويوحنا بن ماسويه، وحنين، وثابت ابن قرة، وغيرهم.

الأمة السادسة (أهل مصر)

ويتحدث المؤلف فيه عن عظمة ملكها وعزها قبل الطوفان وبعده: فقبله: ما بقي من أثر مثل الأهرام والمغاور، وبعده: كيف صار أهل الإقليم أخلاطاً من الأمم ما بين قبطي ورومي وعمليقي وغيرهم. ثم يتحدث عن ديانتهم قبل النصرانية والإسلام، ثم يذكر علومهم قبل الطوفان، وكيف عني الإنسان بأنواع الحِكَم، ويخص بالذكر هرمس الأول- وهو النبي إدريس عليه السلام، وهو أول من تكلم في الجواهر العلوية. وأول من نظر في علم الطب، وبنى الأهرام، وصور فيها جميع الصنائع خوفاً على ذهابها في الطوفان الذي أنذر به. ثم ينتقل صاعد- رحمه الله- إلى ذكر من كان بعد الطوفان في مصر من علماء الفلسفة والطبيعيات والكيمياء، وبناء دار العلم والحكمة في الإسكندرية التي ضمت العلماء الإسكندرانيين برئاسة أنقليدوس- في الطب وغيره.

الأمة السابعة (العرب)

كان العرب فرقتين؛ إحداهما بائدة- كعاد وثمود والعمالقة، وغيرها، وفرقة باقية- وهي قحطان وعدنان، ويضمهما جميعاً حالان: حال الجاهلية، وحال الإسلام.

فأما حال العرب في الجاهلية فمشهورة عند الأمم- من العز والمنعة، وكان مُلكهم في قحطان ثم في سبع قبائل. ثم يتحدث صاعد عن سائر عرب الجاهلية الذين كانوا طبقتين: أهل مدر، وأهل وبر، ويتحدث عن ديانتهم قبل الإسلام.

وأما علمها الذي كانت تتفاخر به وتباري به فعلم لسانها وإحكام لغتها ونظم الأشعار وتأليف الخطب، وكانت مع ذلك أصل علم الأخبار، ومعدن معرفة السير والأمصار: فليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب، إضافة إلى علم بأنواء الكواكب ومطالع النجوم.

ولأبي حنيفة الدينوري (توفي ٢٨٢هـ) أحمد بن داود اللغوي كتاب شريف في الأنواء. وكان لهم بعض الفلسفة: فشهر منهم أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (توفي ٢٥٢هـ)، وأبو محمد الحسن الهمداني.(٣٥)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم يحدد المؤلف بلاد العرب وما تضم من بلدان وما يحدها من الجهات.

- أما حال العرب في الإسلام، فقد خصّه المؤلف بعنوانين رئيسين، هما:

العلم الإسلامي في المشرق

يقول صاعد- رحمه الله: «كانت العرب في صدر الإسلام لا تعنى بشيء من العلم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها- حاشا صناعة الطب؛ فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرّاً إليها، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحث عليها»، ثم يذكر ممن كان في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأطباء أمثال الحارث بن كلدة، وابن أبي رمثة. ثم ينتقل إلى ذكر من كان منهم في العهد الأموي أمثال ابن أبجر (الحبر) الكناني في عهد عمر بن عبد العزيز، وخالد بن يزيد ابن معاوية.

ثم يتحدث عن حال العرب ونهضة العلوم في العهد العباسي، فكان أول من عني بها الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور- خاصة في علم صناعة النجوم، وازدهرت العلوم في عهد الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد حين أرسل إليه ملوك الروم ما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وغيرهم، فاستجاد لهم مهرة التراجمة وكلّفهم إحكام ترجمتها. وأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة، وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطب، ومهدوا أصول الأدب. ثم يسرد المؤلف أسماء من كان من العلماء في هذه الفترة إلى وقته من أهل العراق والشام ومصر من المسلمين- عربياً كان أو أعجمياً، ويبدأ في المنطق بعبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي كاتب أبي جعفر المنصور والكتب التي ترجمها. وفي علم النجوم يذكر محمد ابن إبراهيم الفزازي. ثم في عهد عبد الله المأمون بن هارون الرشيد جمع علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا آلات الرصد وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها- كما فعل بطليموس- ففعلوا ذلك في مدينة الشماسية[٣٦] من بلاد دمشق من أرض الشام سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م).

ويقول صاعد: «ولم يزل خواص من المسلمين وغيرهم من المتصلين بملوك بني العباس وسواهم من ملوك الإسلام منذ ذلك الزمان إلى وقتنا هذا يعتنون بصناعة النجوم والهندسة والطب وغير ذلك من العلوم القديمة، ويؤلفون فيها الكتب الجليلة، ويظهرون منها النتائج الغريبة».

ثم يتحدث عن يعقوب بن إسحاق

الكندي ومؤلفاته في الحكمة وغيرها. أما كتبه في المنطق فيقول عنها المؤلف: «وهي كتب قد نفقت عند الناس نفاقاً عاماً، وقلّما يُشفع بها في العلوم، لأنها خالية من صناعة التحليل التي لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل في كل مطلوب إلا بها. وأما صناعة التركيب- وهي التي قصد يعقوب في كتبه هذه إليها- فلا ينتفع بها إلا من كانت عنده مقدمات، فحينئذ يمكن التركيب، ومقدمات كل مطلوب لا توجد إلا بصناعة التحليل، ولا أدري ما حمل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة؛ هل جهل مقدارها وضنَّ على الناس بكشفه؟، وأي هذين كان فهو نقص فيه. وله بعد هذا رسائل كثيرة في علوم ظهرت له فيها آراء فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة». ويعقب ابن أبي أصيبعة على ذلك في عيون الأنباء بقوله: «هذا الذي قاله القاضي صاعد عن الكندي فيه تحامل كثير عليه، وليس ذلك مما يحط من علم الكندي، ولا مما يصد الناس من النظر في كتبه والانتفاع بها».[٣٧]

ثم يذكر تلميذ الكندي أحمد بن الطيب السرخسي، ويتحدث عن محمد بن زكريا الرازي طبيب المسلمين، وأبي نصر الفارابي الذي يتحدث عنه بإسهاب، ثم عن أحمد بن عبد الله البغدادي المعروف بحبش، وأحمد الفرغاني، وموسى بن شاكر وأبنائه، وغيرهم من علماء النجوم والفلسفة والهندسة.

ثم ينتقل المؤلف إلى ذكر من اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعي، فيذكر إسحاق بن عمران، وجابر ابن حيان، وذا النون الأخميمي، وعلي بن ربن الطبري، وأحمد بن إبراهيم القيرواني المعروف بابن الجزار، وعلي بن عباس المجوسي.

العلوم في الأندلس

شهدت الأندلس بعد الفتح الإسلامي في العهد الأموي تحركاً وظهوراً غير شائع من أفراد الناس إلى طلب العلوم؛ فعلم الفلسفة نالت أجزاء كثيرة منه، وكانت الأندلس قبل ذلك في الزمان القديم خالية من العلم- خلا بعض الطلسمات، هذا على قول المؤلف الذي ينتقده فيه الأب لويس شيخو.

ثم يتحدث المؤلف عن دين أهل الأندلس قبل الفتح الإسلامي، ويتحدث عن حدود بلاد الأندلس. ثم ينتقل إلى ذكر العلماء الذين بدأ ظهورهم منذ عهد محمد بن عبد الرحمن الداخل في القرن الثالث الهجري إلى وسط القرن الرابع، فممن اعتنى بعلم الحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد البلنسي صاحب القِبلة[٣٨] (توفي سنة ٢٥٩هـ)، ويحيى بن يحيى المعروف بابن التيمية

الـــذي كان بصيراً بحســاب النجوم والطب وغــير ذلك، ومحمد بــن إسماعيل المعروف بالحكيــم كان عالماً بالحســاب والمنطق. ثم في زمــن الحكم الثــاني المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر (ملك على قرطبة بين ٣٥٠-٣٦٦هـ) الذي عني بالعلوم، فاستجلب من بغداد ومصــر وغيرهما من ديار المشرق عيون التآليف الجليلــة والمصنفات الغريبة في العلــوم القديمة والحديثة، والتي حرقت فيما بعد- ما عــدا كتب الطب والحساب- بعد تولي ولده وتغلّب حاجبه عليه.

ثم عادت الرغبة ترتفــع في طلب العلم فيما بعد شيئاً فشيئاً حتى بدأ يظهر العلماء، منهم: أبو غالب حباب بن عبادة الفرائضي، وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد المشهور في علم الهندسة، وعبــد الرحمن بن إسماعيل المعــروف بالإقليدي الــذي كان متقدماً في علم الهندسة أيضــاً، وأبو عثمان سعيد بن فتحون في علم النحو والموسيقى والفلسفة، وإمــام الرياضيــين أبو القاســم مسلمة بن أحمــد المجريطي، ومن تلامذته ابن السمح وابن الصفّار، وأبو الحسن علي بن سليمان الزهــراوي، وأبــو الحكــم عمــرو بن عبد الرحمن الكرماني، وابــن خلدون، وغيرهم ممن كان لهم شهرة في علوم الفلسفة والطب والهندســة وغير ذلك، حيث يعــدد المؤلف الكثير منهم اختصرنا ذكرهم.

أما علم الطبيعــي والعلم الإلهي فيقول صاعد فيه: «لم يُعْــنَ أحد من أهل الأندلس بهما كبير عنايــة، ولا أعلم ممن تميّز بهما إلا عبــد الله محمد بــن عبد الله بن حامد المعروف بابن النبّاش البجاني، وأبا عامر بن الأمير بن هود، وأبا الفضل بن حسداي».

وفي صناعة الطب يقول صاعد: «لم يكن بالأندلس من استوعبها، ولا لحق بأحد من المتقدمين فيها، وإنما كان غرض أكثرهم من علم الطب قراءة الكنانيش المؤلفة في فروعه فقــط، دون الكتب المصنفة في أصوله- مثل كتــاب أبقــراط وجالينوســ- وليستعجلوا بذلك ثمــرة الصناعة، ويستفيدوا به خدمة الأمــلاك في أقرب مدة، إلا أفــراداً منهم، رغبوا عــن هذا الغرض وطلبــوا الصناعة لذاتها، وقرأوا كتبها على مراتبها. وأول من اشتُهر بالطب في الأندلس أحمد بن إياس- في زمــن محمد بن عبــد الرحمن الأوسط، وكان الناســ قبلهم يعولــون في الطب على قوم من النصــارى لم يكن عندهم تحقق به، ولابشيء من سائر العلوم، وإنما كانوا يعولون على كتــاب بأيديهم من كتب النصارى يقال له الأبرسيم، وتفسيره الجامع والمجموع».

ثم يذكر صاعد العديد من أطباء الأندلس أمثال: الحــراني المشهور، قــال: ولم يبلغني اسمه. ويحيى بــن إسحاق، وسعيد بن عبد

الرحمن بــن عبد ربه، وأحمد بن حفصون، ومحمد بن الحسين المعـروف بابن الكناني، ومحمـد بن عبـدون، وغيرهـم. وكان بعد هـؤلاء إلى وقت المؤلف جماعة من أشهرهم سعيـد بن محمد بن البغويش، والوزير أبو المطـرف عبد الرحمن اللخمي، وأبو مروان عبـد الملك بن زهر الإشبيلي، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

أما صناعة أحكام النجوم فيقول صاعد: «بأنها لم تزل نافقة بالأندلس قديماً وحديثاً، واشتهـر بتقلدها جماعـة في كل عصر إلى عصرنا هـذا، فمن مشاهيرهـم في زماننا وزمان بنـي أمية أبو بكر بن يحيى المعروف بابـن الخيـاط، وأبو مـروان عبيد الله بن خلف الأستجي».

ويختـم المؤلف حديثه عن علماء المشرق والمغرب مـن العرب والمسلمـين المشهورين بالعلـوم القديمـة قائـلاً: «ولسـت أدعي الإحاطة بهم، فقد يمكـن أن يكون فيمن لم أعرفه من يُربي على كثير من هؤلاء...».(٣٩)

الأمة الثامنة (بنو إسرائيل)

لم يشتهروا بعلـوم الفلسفة، وإنما كانت عنايتهـم بعلوم الشريعة وسير الأنبياء. وكان منهم في دولة الإسلام ممن اشتُهر بصناعة الطب؛ ماسرجويه الطبيب الذي تولى لعمر ابن عبد العزيز -رضـي الله عنه- ترجمة كتاب أهـرن القس في الطـب. وكان منهم ثَمَّ من المتأخريـن إسحاق بن سليمان تلميذ إسحاق بن عمران. ومنهـم من أهل أحكام النجوم سهل بن بشر بن حبيب.

وكان بباب الأندلس منهم جماعة؛ فممن عُنـي بصناعة الطب حسـداي بن إسحاق خـادم الحكم بن عبد الرحمـن الناصر، ثم كان منجـم بن الفوال مـن سكان سرقسطة وكان متقدمـاً في صناعـة الطـب وسائر العلوم، وغيرهم.

وممن كان لهـم اعتناء بعلـوم الفلسفة سليمان بـن يحيى المعروف بابن جبرون من سـكان سرقسطة، وحسداي بـن يوسف بن حسداي.

ويختـم القاضـي صاعـد بـن أحمد الأندلسي كتاب طبقات الأمم بقوله: «فهذا ما حضر في حفظه من تسمية علماء الأمم، والتعريف بنبـذ من تواليفهـم وأخبارهم، والحمد لله ...».

خاتمـة

يعتـبر كتاب طبقـات الأمم لصاعد بن أحمـد الأندلسـي من بواكـير الكتب- بعد الفهرست للنديم- التي اهتمت بتأريخ العلم في العـالم، وهذا الكتاب اهتـم به المؤرخون القدامى وأخذوا عنه الكثير، ولتلك الأهمية أيضـاً فقد تناول الكتـاب دراسة وتحقيقاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العديد من المهتمين المعاصرين والمؤرخين العرب وغير العرب، وإن نمّ هذا عن شيء فإنما ينم عن حضور الكتاب الكبير في تاريخ العلم المعاصر، فنرى أنه قد أعطى حق كل أمة دون إنقاص في دور كل منها في تأصيل العلم في العالم؛ من الهند إلى الفرس إلى المصريين وغيرهم ممن خلوا، وكان تركيزه على العرب قبل الإسلام وبعده في بلاد المشرق والمغرب، وبذلك يكون قد مكّن كل أمة من حقها في امتلاك تاريخ لعلمها، ويفتح الأبواب لدراستها في العصر الحديث لتأصيل ما ورد عندهم من العلوم.

لقد وضع صاعد الأندلسي سجلاً هاماً ومفصلاً لإسهامات الأمم كافة في العلوم، مع دراسة مفصلة لتاريخ كل علم عند جميع الأمم، هذا السجل يعتبر وثيقة يعتمد عليها من قبل مؤرخي العلم المعاصرين، ولا يمكن إنكار أهميتها في تثبيت دور كل أمة من الأمم في نشوء الحضارات، ولعل من أمثلة ذلك ما ذكره القاضي صاعد في هذا الكتاب عن دور خالد بن يزيد بن معاوية في الكيمياء، ودور الخليفة عمر بن عبد العزيز في إخراج أول كتاب في الطب- في الحضارة العربية الإسلامية- لأهرن القس الإسكندري وأمر بترجمته من قبل ماسرجويه، وكذلك أول مرصد لعلم الفلك أنشئ في دمشق في عهد عبد الله المأمون بن الرشيد . ليس الأمر تاريخاً وحسب، بل فيه تدوين لتطور تلك العلوم - كما رأينا- عند كل أمة من الأمم، ولعل هذا ما أثار ويثير الشغف عند المؤرخين المعاصرين لدراسة هذا الكتاب كغيره من أمثاله لتدوين التاريخ المعاصر للعلوم، دون المساس في مصداقية ما يدون، لأن علم التأريخ كما ذكرنا صان الزمن والتاريخ من الكذابين.

اهتم المؤلف بتأريخ العلوم كافة، ولاسيما علم الطب في ظل الحضارة العربية الإسلامية. وقد وقف مطولاً على تاريخ العلوم في العهد العباسي، والعلوم في الأندلس، واعتمد هذا التاريخ كل من تلاه من المؤرخين، وكل معاصر. لذلك فحبذا لو جُعل لهذا الكتاب ذيلٌ لمتابعة تطور العلوم عند كل أمة من الأمم، ولاسيما أن المؤلف قد سهّل تلك المهمة لمن أراد في تصنيفه المبسط لتاريخ العلم في طبقات الأمم كافة، وبالأسلوب نفسه الذي اتبعه المؤلف -رحمه الله- حتى يكون كتاباً شاملاً ومتطوراً مع التاريخ المعاصر.

وأخيراً أعتقد أن كتاب طبقات الأمم- مع صغر حجمه- يعتبر من الكتب المهمة في تاريخ العلم، والذي يؤصل دور العرب في تأريخ العلم في العالم، ويبرز الدور الحضاري للعرب والمسلمين في هذا العلم الذي لم يسبقهم إليه أحد. والله ولي التوفيق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- حاجي خليفة: كشف الظنون ج١، ص٢٥٤.
٢- مصطفى الحموي: فوائد الارتحال ونتائج السفر، ج١ المقدمة، ج٣ في ترجمة عبد الرحمن الديبع.
٣- تاريخ ابن خلدون: ج١، ص٢٨.
٤- ابن بشكوال: الصلة ج٤، حرف ص.
٥- الصفدي: الوافي بالوفيات، حرف ص. ابن عميرة بغية الملتمس ترجمة رقم ٨٥٢مكرر. حاجي خليفة: كشف الظنون ج٢،ص١١٥. البغدادي: هدية العارفين ج١، ص٣٤٤. وقد وهم في تاريخ وفاته بأنه سنة ٢٥٠هـ.
٦- حاجي خليفة: كشف الظنون ج٢، ص١١٥.
٧- كحالة: معجم المؤلفين ج١، ٣٤٤، ٣٤٣: G1 ، ص٧٦١ عن بروكلمن.
٨- لدينا منه نسخة بتحقيق لويس شيخو طباعة بيروت سنة ١٩١٢م، ونسخة بتحقيق حسين مؤنس طباعة مصر سنة ١٩٩٣م.
٩- ينظر مقدمة طبقات الأمم طبعة بيروت، عن كتاب الصلة لابن بشكوال ج٢، ص٤٦٢.
١٠- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧، ص٨٣.
١١- حاجي خليفة: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ج١، ص٦٧٦.
١٢- القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة القاهرة- مكتبة المتنبي ص٢١. وطبقات الأمم طبعة بيروت ص١٩، حاشية ٢.
١٣- طبقات الأمم طبعة بيروت ص٦٥، ٦٩.
١٤- طبقات الأمم طبعة بيروت ص٢٢.
١٥- حميدان: أعلام الحضارة ج٥، ص٢٤٥.
١٦- المرجع السابق.
١٧- طبقات الأمم، طبعة القاهرة بتحقيق حسين مؤنس، المقدمة.
١٨- مراتب العلوم وكيفية طلبها- لأبي محمد علي بن أحمد (محمد) المعروف بابن حزم الظاهري الأندلسي (توفي سنة ٤٥٦هـ) كشف الظنون ج٢، ص٥٣٤.
١٩- عن الموسوعة الحرة بتصرف.
٢٠- طبقات الأمم، طبعة القاهرة ص٢٥و٢٦و٣٥و٤٠. مروج الذهب، ج١، ص٩٤.
٢١- ينظر هدية العارفين ج١، ص٢٠٨.
٢٢- طبقات الأمم، طبعة مصر ص٤٤.
٢٣- المصدر السابق.
٢٤- طبقات الأمم، طبعة القاهرة ص٥٨. كشف الظنون، ج٢، ص٥٨٨.
٢٥- طبقات الأمم، طبعة القاهرة ص٥٩.
٢٦- طبقات الأمم، طبعة القاهرة ص٦٨. وابن الآدمي: هو محمد بن الحسين بن حميد المعروف بابن الآدمي، من آثاره: زيجه الكبير، توفي ولم يتممه، وأكمله بعد وفاته تلميذه القاسم بن محمد بن هاشم المدائني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعروف بالعلوي. وسماه نظم العقد. وشهره في سنة ٣٠٨هـ. (القفطي: إخبار العلماء ص١٧٧و١٨٥. وانظر كحالة: معجم المؤلفين. ج٣. ص٢٤٩.

٢٧- طبقات الأمم. طبعة مصر. ص٦٠و ٧٨ وطبعة بيروت ص٥٨. وفي كشف الظنون. ج١. ص١٦٧: الإكليل في أنساب حمير وأيام ملوكها لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني اليمني المتوفى سنة ٣٣٤هـ. وفي الأعلام للزركلي. ج٢. ص١٧٩: اسمه الحسن بن أحمد بن يعقوب من بني همذان أبو محمد (ابن الحائك) عاش بين ٢٨٠-٣٣٤هـ.

٢٨- طبقات الأمم. طبعة مصر. ص٧٩.

٢٩- المصدر السابق. ص٨٩ و ١٠٣ وطبعة بيروت ص٦٨.

٣٠- المصدر السابق. ص٩٨.

٣١- المصدر السابق. ص٩٨. وقال البغدادي في كتابه إيضاح المكنون ج٢. ص٥٠: الصلة في الذيل على تاريخ الطبري. وجاء في معجم المؤلفين لعمر كحالة ج٢. ص٢٢٣: عبد الله بن أحمد بن جعفر بن خُديان التركي. الفرغاني (أبو محمد) (توفي ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م) . مؤرخ. محدث: حدّث بدمشق عن ابن جرير وغيره. من آثاره التاريخ المذيل على تاريخ محمد بن جرير الطبري (عن الذهبي: سير النبلاء).

٣٢- المصدر السابق ص١٠٤و ١٠٦.

٣٣- طبقات الأمم. طبعة بيروت ص٦٠ و٦١.

٣٤- هذا على رأي صاعد بن أحمد الأندلسي في كتاب طبقات الأمم. بينما تشير المصادر الأخرى إلى وجود عدة علوم عند الصينيين. وحكماء فمثلاً بين شيوا كان من الأطباء الماهرين وابتكر عدة أدوات جراحية. وله في النبض رسائل في القرن الخامس قبل الميلاد. إضافة إلى كتاب ني شينغ للمؤلف هوانغ تي (٢٦٠٠ ق.م) اختصر فيه العلوم الطبية كافة. كما ذكر ابن النديم في الفهرست عن لقاء حكيم الصين مع الرازي وطلب منه أن يمليه كتب ابقراط. هذا إضافة إلى علوم عدة كالرياضيات والهندية وغيرها. ولعل المؤلف لم يورد ذلك لبعد المسافة بين الصين وبلاد الأندلس من ناحية. أو لعدم اطلاعه عليها. وهذا ما أوضحه في نهاية الكتاب بأنه لم يستطع الإحاطة بكل الأخبار.

٣٥- مع أن المؤلف يتحدث عن العرب قبل الإسلام. فإنه يذكر أمثلة ممن كانوا في الإسلام.

٣٦- الشماسية: محلة بدمشق (الحموي. ياقوت: معجم البلدان. ج٣. ص٣٦١). وهي عند جامع القدم. وقد عثر في حفريات تل الشماسية على أشياء قديمة.

٣٧- طبقات الأمم. طبعة بيروت. ص٥٢. عيون الأنباء. ص٢٨٧.

٣٨- قال صاعد: وإنما عرف بذلك لأنه كان يسرف كثيراً في صلاته. (طبقات الأمم. طبعة القاهرة ص٨٦.)

٣٩- ولعل ابن سينا في المشرق. وأبا القاسم الزهراوي في المغرب من هؤلاء.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجاسوسية الاقتصادية

د. منير سويداني *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مـن المسلّم به أن المعلومات تعد، في الأصل، سلعة عامة تتاح للجميع من دون مقابـل، حيث أنها كما المـال تنتشر بين البشر، غير أن التطور التاريخي للبشريـة وللأحداث وللمجتمعات جعل من المعلومـات سلعاً ومنتجات بالغة التنوع، وأصبح تداولها يتم من خلال أسواق موجهة وفقاً لطبيعة كل مجموعة منها، وكثيراً ما يحدث ذلك في إطار قوانين منظمة لحقوق امتلاكها. بل ويتم كل ذلك في إطار مصارف متخصصة مثل بنوك المعلومات، وأصبح العالم الآن يعيش بحق في عصر المعلومات.

---

* باحث وكاتب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وكان من المتوقع أن تؤدي عمليات الاهتمام الجادة بإنتاج المعلومات بتقنيات بالغة ودائمة التطوير إلى تحسين الوضع العالمي كله، وإلى حدوث استثمارات إيجابية راقية تتلاءم مع مكانة المعلومات المستخدمة في تلك الاستثمارات، غير أن الواقع قد أكد حدوث عكس المتوقع لسبب أولي، وهو وجود فجوة واسعة في ملكية المعلومات المتطورة والفاعلة بين الدول المتقدمة والتي تستأثر بالنسبة الغالبة منها، والدول النامية التي لا تمتلك أكثر من ١٪ فقط من الحجم الكلي للمعلومات المتاحة على مستوى العالم كله. أما السبب الآخر فهو أن الدول المتقدمة لا تحتكر فقط ملكية المعلومات وعمليات تداولها، لكنها أصبحت أيضاً تسيء استخدامها في إيذاء الدول الضعيفة، وترى في أي معلومة تحصل عليها أداة قهر للدول الضعيفة، وسلاح إرهاب لاستعراض قواها وفرض هيمنتها ونفوذها على الدول الفقيرة التي تضطر بذلك أن تصبح تابعة للأغنياء في كل شيء. وعلى غرار مذهب الاقتصاد للقوة الذي ابتدعه التجاريون في زمن مضى، بحيث قامت سياستهم على استجلاب أكبر قدر من الذهب والفضة والمعادن النفيسة من دول العالم لضمان تحقق قوتهم وفرض سيطرتهم ونفوذهم على العالم، تقوم الدول الكبرى الآن باستجلاب الثروات الطبيعية وغير الطبيعية من الدول، خاصة الضعيفة، مستترة بما يسمى باتفاقات الغات والتجارة العالمية وغيرها، والتي امتلأت بمغالطات ضخمة تم ابتداعها من أجل تقنين عمليات السلب أو الابتزاز لثروات الآخر من الدول الضعيفة. ومع التطورات الأخيرة، أصبح الاستعمار الاقتصادي هو الشكل الحديث الأكثر انتشاراً، ومن هنا توالدت أشكال طفيلية قبيحة من الأنشطة المشبوهة في مجال صناعة المعلومات واستثمارها وتداولها أو تسويقها، وكان من أبرز تلك الأشكال القبيحة ما يسمى بـ (الجاسوسية الاقتصادية)، وعلى الرغم من ندرة ما كتب حول ذلك المصطلح، فليس من الصعب على أي شخص فطن أن يتعرف عليها ويدرك أبعادها الكريهة، فالشواهد كثيرة، ووسائل الإعلام لا يفلت من عيونها أحد، ولنبدأ جولتنا الاستكشافية الطائرة عبر أجواء الجاسوسية الاقتصادية.

ما هو المقصود بالجاسوسية الاقتصادية؟

استرشاداً بالحكم الشرعي بعدم التجسس: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الحجرات١٢، يمكن تأكيد أن ذلك المصطلح ينطوي على نشاط غير مشروع وغير أخلاقي، يقوم على اقتناص واستجلاب أية بيانات أو معلومات تتعلق بشكل مباشر أو غير مباشر بأي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

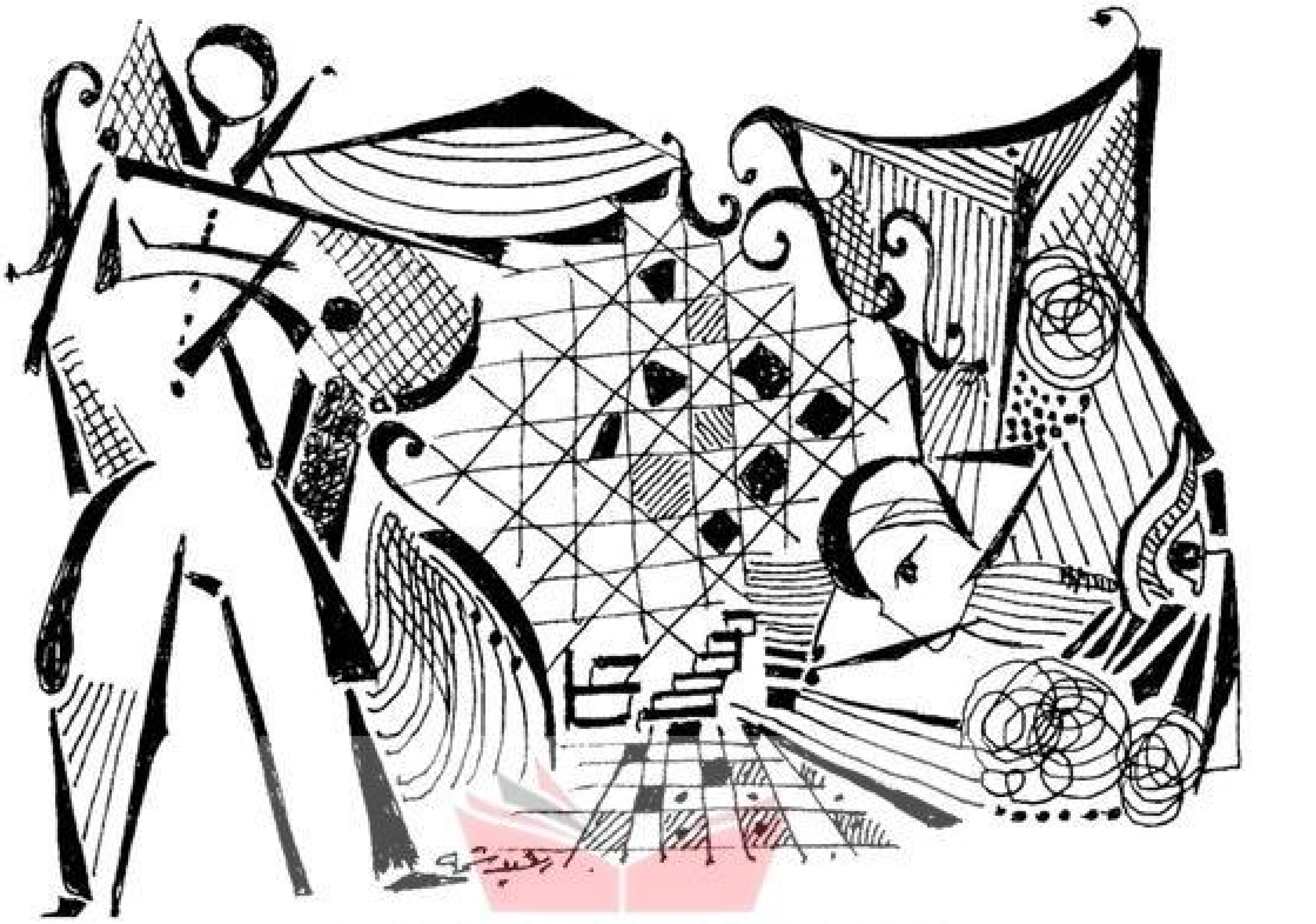

قطاع أو نظام أو وضع اقتصادي، وإجراء تحليلات خاصة ومتعمقة ومركبة لها، بحيث تصبح صالحة في النهاية للاستخدام سلاحاً للتأمين الذاتي، أو الإرهاب، أو لابتزاز الآخر أو لتدميره، وعادة ما تتداخل أنشطة الجاسوسية الاقتصادية مع أنشطة الجاسوسية الأخرى، مثل جاسوسية الأفكار والعقائد، وجاسوسية السلوكيات والاتجاهات، والجاسوسية العسكرية..إلخ.

إذن، فنشاطات الجاسوسية الاقتصادية متعددة ومتشابكة ولا حدود لها: فتلك الأنشطة تخترق كل المجالات المرتبطة بالحياة، حيث ثبت أن الاقتصاد يمكن أن يتغلغل وتدب أوصاله في كل ذرة من كيانها، ومن ثم فأي نوع من أنشطة الجاسوسية يمكن أن ينبع أو يصب بشكل أو بآخر في وعاء الاقتصاد الأم الذي يضم مجالات تفوق التصوّر، ومن الأمثلة التقليدية لها: المعلومات الديموغرافية التي تهتم بالسكان وبخصائصهم وبعاداتهم وسلوكياتهم وعقائدهم وثقافاتهم..إلخ، الأنشطة العملية والبحثية والتدريبية والتقنية، الأنشطة الإنتاجية والتسويقية، الأجهزة الحكومية والاستراتيجية، المؤسسات المصرفية

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

والتمويلية، التجمعات المهنية والنقابات العمالية، شبكات المعلومات والاتصالات المحلية والدولية، المؤلفات والتراجم ومنشورات التراث..إلخ.

أما عن الجهات القائمة بمهام الجاسوسية الاقتصادية: فهي أيضاً متنوعة ومتعددة، ويمكن أن تفوق كل تصور، وإن كان التصاق الروائح الكريهة لنتائجها بمنفذي تلك الأنشطة كثيراً ما يفضحهم ويدل عليهم، وخاصة لدى كل ذي فطنة. ويوضح أحد الأساتذة في كتاب له حول ذلك الموضوع المهم أن مافيا القائمين بعمليات الجاسوسية الاقتصادية تتحدد بأربع قوى رئيسة هي: (الصانعة للقرار، المتخذة للقرار، المنفذة للقرار، والمستفيدة من ذلك القرار). إلا أن مهام استجلاب البيانات والمعلومات التي يستهدف استخدامها كمدخلات في صناعة الجاسوسية الاقتصادية، عادة ما تتم من خلال قنوات شرعية، وبوساطة أدوات بشرية يتم انتقاؤها بعناية من بين أفراد المجتمع المستهدف، ويا حبذا إن كان ينتمي إلى موطن وجود البيانات المستهدف سلبها في الأصل. ومن الأمثلة على الجهات الخاصة لمحترفي الجاسوسية المعينة: رجال الأعمال، مكاتب التمثيل التجاري، أساتذة الجامعات، والشخصيات العامة في جميع المجالات، فروع الشركات الأجنبية بالداخل، وفروع الشركات الوطنية بالخارج، وكالات البيع ومندوبو المبيعات، الشركات المشتركة وعابرة الجنسية، المكاتب الاستشارية، الوفود التجارية والفنية والثقافية، المؤتمرات واللقاءات العلمية والثقافية، حركات السياحة العلمية مثل البعثات والإشراف المشترك، والتبادل الطلابي، مراسلو الصحف، والقائمون بالإعلام المسموع والمرئي، والمنظمات الأهلية والدولية..إلخ.

أساليب وانعكاسات العمليات التجسسية

الواقع أن عمليات الجاسوسية الاقتصادية تتسم -نتيجة لطبيعتها الملتوية- بالمكر والدهاء والتخفي، ومع هذا فتنفيذها يتطلب بالضرورة أن تتم في العلانية لاستجلاب البيانات المطلوبة من أرض الواقع، ومن ثم فإن تلك العمليات تتم عادة باستخدام سواتر تخفي ما وراءها من حقائق مريعة، وتتمثل تلك السواتر في استخدام وسائل بشرية ومادية تتسم بالشرعية والقبول الاجتماعي والقانوني لها، وكقاعدة عامة لضمان نجاح العمليات المستهدفة، يجب أن يهتم العميل أو المجند بهدف واحد فقط لا يحيد عنه، وهو التجسس واقتناص البيانات المطلوبة، ومن ثم لا نعجب إذا ما وجدنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك الشخص من النوع اللحوح، المبالغ في سلوكياته ومعاملاته مع الآخر، ولكن بتلقائية محسوبة تحير الآخرين، فالعامة يرونه ودوداً ضحوكاً، يتسامح كثيراً مع إهانات الآخرين وأخطائهم معه، ومع هذا دائماً ما تقدح عيناه الناعستان بشرارات ثاقبة خفية مرعبة. إن المجند أو العميل يجب أن يتمتع بمهارات وصفات بالغة التميز عن غيره من البشر، مثل الذكاء المتقد المرتبط بالدهاء وسرعة البديهة، والتصرف مع الأحداث، والمقدرة على التغلغل البرقي بين الأحداث والسطور المنطوقة والمقروءة، ويساعد على نجاح مهمته ضرورة امتلاك بعض الوسائل ذات التقنيات الخاصة بعد تدريبه على كيفية استخدامها بأعلى أداء ممكن. غير أن من العوامل التي تساهم بفعالية في نجاح العمليات المعنية، هي تلك التي تضمن توافر أرض خصبة وصالحة لاستزراع العناصر المجندة، وذلك مثل الاتصاف باللامبالاة، وعدم الانتماء إلى وطن أو أسرة أو أي شيء، وتفشي الجرائم الاقتصادية مثل الرشوة والتزوير والمحسوبية، وسوء الأوضاع القيادية اختياراً وممارسة، والبعد عن الدين، وضعف الأخلاقيات، ومحاربة الكفاءات العلمية والمهنية والإبداعية..إلخ. وفي اعتقادنا أن النظام العالمي الجديد بكل ما يكتنفه من تطورات، مثل فرض نظام التخصصية، وتقليص دور الدولة، وإلغاء الحواجز والحدود السياسية والجغرافية والإعلامية، كلها ومثلها وغيرها ساهمت بفاعلية في خلق مرتع خصب لاستزراع نباتات شيطانية للجاسوسية الاقتصادية، بمزيد من اليسر والانسيابية والتعمق، خاصة في الدول النامية التي تفتقد القوى التنافسية الكافية لحماية نفسها. ولا يخفى على أحد أن تلك الأنشطة أصبحت أكثر تركزاً في بلدان العالم الإسلامي، والعربي منه على وجه أخص، وأصبحت الجاسوسية، والصراعات، وتوتر العلاقات عناصر متشابكة لحلقة مفرغة تحبس المناطق المذكورة، وتعرضها لآثار تراكمية مستمرة تهدد بدمارها في أية لحظة، كما هو مستهدف لها من قبل قوى (البلطجة الدولية) ما لم تحدث عمليات إنقاذ سريعة وجادة للتخلص من تلك البقع الملطخة بألغام التجسس والدمار، ولن يكون ذلك إلا بالرجوع إلى الدين والأخلاق، والشعور بالانتماء، ليس للغرب والبريق الزائف، ولكن للأصول البشرية الفطرية.

المحطات المهمة للجاسوسية الاقتصادية

تعد «المبالغة» و«الغموض» و«التفوق على المألوف» من العلاقات الإرشادية البارزة على وجود محطة للتجسس، فالجاسوس أو الجهة التابع لها يتميزان بالمبالغة في السلوكيات عما هو معتاد، مثل المبالغة في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكرم، حيث يمكن أن يتمثل في أشكال كثيرة كإقامة الحفلات البراقة، ومنح الهدايا غير المسوّغة، كما يكون هناك سخاء في التودد وإبداء الاهتمام، وتجاوز مفرط عن الكرامة، والدين، والأخلاق. ومن ناحية أخرى، فمهما كانت درجة الدقة والإتقان في ارتداء الأقنعة والدهانات الشرعية والمقنعة، فلأنها ضد الفطرة والحقيقة تجعل صاحبها يبدو فيها شيئاً مصطنعاً زائفاً، لا يستطيع العقل الفطن أن يتقبله، ولا يقدر على خداع فراسة وفطنة مؤمن، فالعميل يرتدي ثوب الفضيلة، بينما الخلاعة تفضح تصرفاته الفعلية، ويدعي السذاجة المفرطة بينما تكشفه فلتات وعلامات أخرى، مثل ردود أفعال بالغة الذكاء تحدث عفوياً عكس المتوقع، أما التفوق على المألوف فعلاماته مكشوفة للجميع، حيث يلاحظ مثلاً الثراء الفاحش غير المنطقي، خاصة إذا ما قورن الوضع بأقرانه، والتنقل المبالغ فيه للعميل أو للجهة المكلفة سواء على المستوى المحلي أو بين مناطق متعددة من العالم تحت ستار السياحة والترفيه، وعادة ما يلاحظ ارتفاع درجة الثقة بالنفس حتى الغرور، والتأكد غير المسوغ بشكل منطقي من الكفاية الذاتية والحظوة المهنية لدى أولي الأمر.

ومن المحطات المهمة التي تتركز فيها أشكال وأدوات ومجالات متميزة للتجسس الاقتصادي نذكر:

محطة الكمبيوتر والاتصالات الإلكترونية الذكية:

على الرغم من السباق المحموم الذي يحتدم بين الدول الذكية في مجال إنتاج وتطوير تكنولوجيات راقية بالغة التنوع ودائمة التغير، تظل الدول النامية دائماً دولاً تابعة تقتات من تلك التقنيات ما قام الآخرون بإنتاجه، وعادة ما تأخذ المستهلك والقديم منها، والذي أصبح لا استخدام ولا حاجة إليه في مناطق الدول القوية، ومن أهم محاذير تلك التبعية التقنية أن من يملك مفاتيح تشغيلها وتوجيهها وجميع أسرارها هي الدول المنتجة لها، وذلك بلا شك يجعل من الدول التابعة المستخدمة لها كتاباً مفتوحاً لا خصوصيات فيه، ولا أسرار تخفى عن تلك التي تمتلك المفاتيح، ومن الأمثلة التي تعنينا في ذلك المجال الانتشار المذهل لاستخدام أجهزة الذكاء الاصطناعي.

وبالتركيز على أجهزة الحاسب الآلي أو الكمبيوتر، نجد أن الدول النامية مازالت تابعة وتعتمد بشكل كلي على تقنيات الإنتاج والتشغيل والتوجيه الواردة من دول تتناقض معها في المستوى الاقتصادي والمصير والهدف، ولأن من يعرف أكثر يصبح أكثر

قدرة على اختراق مجال أسرار غيره، فللأسف أن أجهزة الكمبيوتر التي يفترض أنها وسائل تنموية وتعليمية واقتصادية إيجابية وفعالة في النهوض بالمجتمع كله - يمكن أن تصبح أداة تستخدم للتدمير الذاتي له، فالدول المنتجة لتلك الأجهزة والعاملة والمحتكرة لمفاتيح تشغيلها وتوجيهها يمكنها اختراق شبكات الكمبيوتر، خاصة في الدول الحاصلة منها على تلك المنتجات عالية التقنيات، ومن ثم فهي قادرة على الحصول على ما تريد من معلومات من خلال ما يتم تخزينه بذاكرات تلك الأجهزة، كما يمكنها تدمير ما بها أو تعطيلها مؤقتاً عن العمل باستخدام الفيروسات الموجهة، ويزيد من خطورة الموقف أن الحاسب الآلي أصبح يستخدم حتى في أكثر المناطق حساسية في المجتمع، مثل الأجهزة الحكومية المختلفة، حتى القائم منها على شؤون أمن المجتمع، ولا يخفى على أحد سعي كثير من الدول الآن إلى تطبيق نظام ما يطلق عليه بالحكومات الإلكترونية، فتلك الدول التابعة إذا ما طبقت بالفعل ذلك النظام، إنما تعطي زمام أمورها - طائعة - بالكامل إلى الجهات الذكية الصانعة لذلك الذكاء الاصطناعي.

وتزداد المشكلة اضطراماً حين تنتشر تلك الأجهزة الإلكترونية متعددة التوجهات في الجامعات والمراكز العلمية والبحثية والتدريبية، حتى ما ينطوي منها على أدق أسرار المجتمع، وعلى أحدث معلومات علمية وبحثية وميدانية، توصل إليها العلماء المحليون الكادحون، فهم جميعا معرضون لضياع ثمرات جهودهم واستلابها في لحظات، تتحول ملكيتها إلى من يملك زمام الأمور في عالم النهب و(البلطجة) المقوننة، ولا ننسى أبدا المراكز التدريبية الممولة أو الموجهة بوساطة جهات أخرى، بحجة تدريب المواطنين على كيفية استخدام أجهزة الحاسبات الآلية، إذ إنها كثيراً ما تصبح وسائل مشبوهة لسرقة المعلومات المهنية والأكاديمية والديموغرافية المحلية، أو لتحريفها وتوجيهها المغرض، أو لتدميرها كلية. والواقع أن اختراق شبكات الكمبيوتر أو تخريبها لا يقتصر في حدوثه على الدول النامية أو التابعة فقط، بل إن الدول الذكية معرضة للخطر نفسه، ولكن بدرجة أقل نتيجة لوضعها المعرفي، فقد اتضح أن عينة من ١٨٦ شركة من الشركات الكبرى تعرضت في غالبيتها لعبث موظفين مفصولين لديها بشبكات الكمبيوتر الخاصة بها، مما أدى إلى تكبدها خسائر فادحة وصلت إلى ٤٠٠ مليون دولار في عام ٢٠٠٢م فقط.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- المراكز العلمية والبحثية والتدريبية الأجنبيـة، وحـركات الابتعـاث والتدريب بالخارج:

إن تلـك المحطـة مـن أهـم المواطـن المعرضـة والصالحـة والمصابـة بآفـات التجسس الاقتصـادي المفترسة وأخطرها، إضافة إلى استجـلاب واستنباط واستقراء البيانات والمعلومـات الاقتصادية المطلوبة، والمستترة بـين حروف وسطور مـا يتم من أبحاث، ويعد مـن مؤلفات، وتجارب علمية وبحثيـة وتدريبيـة تبدو مشروعـة للعيان، فإن الجهـات الأجنبية المسؤولة عن أنشطة التعليم والتدريب أو المشرفة عليها، تستطيع بسهولة ويسر التعرف على العقول والطاقات الوطنية المتميزة، والقيـادات الوطنية التي تتمتع بسلطات استراتيجية خاصة، ومن ثم فهي تعمل من خلال تلك الأشكال المشروعة ظاهرياً للأنشطة العلميـة والتدريبية على استقطاب الكثيرين منهم، ومحاولة تجنيدهم في مجـال الجاسوسيـة الاقتصادية بأبعاده الأخطبوطية المتشعبـة، مستخدمة في ذلك إغـراءات المـال والنصب والمتـع الدنيوية والشهـرة تارة، وأسلحـة الابتزاز والإرهاب والعنـف المتقطع تارة أخرى. وللأسف، فإن كثيرين ممن يتمتعون بمناصب قيادية مهمة في المراكـز والمؤسسـات التعليمية الوطنية، يتم استخدامهـم كأقنعة شرعية للمؤسسات الأجنبيـة المشبوهـة، حيـث يتـم تكليفهم بالمشاركة في عمليات التدريس والإدارة بها، وإضافة إلى تجنيدهم في عمليات التجسس المشبوهـة بـين المترددين للتعليـم الأجنبي مـن أبناء وطنهم، فإنهـم يستخدمون أيضاً أدوات مساعـدة في تجنيـد هؤلاء الطلاب الصغـار، فإما الطاعة مـع التفوق المشبوه، وإمـا الرسـوب والحرمـان مـن امتيازات كثـيرة للطالب سيِّئ الحظ الذي تقع العيون المفترسة عليه وتختاره.

- مؤسسات المساعدات الأجنبية بالداخل والخارج وتشمل المنظمات الدولية:

لا يعقل أن تقوم جهـة أجنبية -خاصة إذا كانـت من دولـة غنية قويـة- بتقديم مساعدات نقديـة أو عينية أو غيرها لدول أخـرى ضعيفة أو حتى قويـة مثلها إلا إذا كانت تطلـب أو تخطط لاستـنـزاف مقابل أكثر قيمة ممـا قدمت، وكلنـا نعرف ذلك دولاً وفئات وأفراداً، ومع هذا تدفن الرؤوس في الرمـال مظنة أن ذلك وضعاً كافياً لستر مـا تمتلئ به الأيدي والأجنحة من مبادلات مشبوهـة وإخفائـه. وإضافـة إلى مخاطر تكبيـل الـدول المدينة بمزيد مـن الديون، وإغراقهـا في سلسلة تراكمية من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن ذلك، مـع توجيه الـدول المدينـة إلى إنفاق هذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الديون في أنشطة سلبية، كالمشروعات غير الإنتاجية، والإسراف في إقامة المهرجانات والمسابقات التافهة، وإقامة التماثيل بدلاً من المرافق العامة، فإن الجهات المانحة عادة ما ترمي بمساعداتها استزراع خلايا تجسسية في شكل منشآت تقام داخل أراضي الدول الفقيرة، بحجة المساعدة والإشراف على كيفية استثمار ما تقدمه من منح، وتلك الجهات تسمح لنفسها بأن تفرض على الدول المدينة تقديم تقارير مفصلة عن جميع مراحل ذلك الاستثمار، وذلك ما تفعله أيضاً المنظمات الدولية، وعلى رأسها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وللأسف الشديد، فإن ذلك يتيح لتلك الجهات المريبة ليس فقط التدخل في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، بل والسياسية للدول المحتاجة، وإنما أيضاً تستغل حاجة تلك البلاد المجني عليها في إجبارها على تعرية كل قطاعاتها الحيوية، وتقديم كل معلومة صغيرة أو كبيرة عنها لتلك الجهات، وللأسف أصبح كل طلبات تلك الجهات المريبة مجابة تحت وطأة الحاجة، وزيادة حدة آلام القيود التي تتكبل بها من جراء سلسلة المديونيات التراكمية التي لا تنقطع.

- حركات الاستشراق:

على الرغم من الدعاية العامة لتلك الحركات واعتبارها حركات غربية تسعى لإنصاف الفكر الشرقي، وتهتم بجذب الأضواء إلى الفكر الإسلامي على وجه أخص، فإن المتعمق في تلك الحركات وفي ثمارها يكتشف أنها في غالبيتها العظمى تستخدم أداة لتحقيق الغزو الثقافي المناهض، وتدعيم حركة التغريب، مع تشويه معالم الفكر الإسلامي، كما أن تلك الحركات يمكن أن تستخدم أقنعة وسواتر لصفقات تجسسية مريبة تجمع من خلالها أكبر قدر من المعلومات السرية المستهدفة، خاصة ما يتعلق منها بالحركات الثقافية والفكرية داخل المجتمع الشرقي، تلك المعلومات التي يمكن أن تستخدم بعد ذلك في توجيه العادات والتقاليد والسلوكيات، بشكل يضمن مزيداً من التبعية الاقتصادية للدول المصدرة لتلك الحركات المريبة، مثل العمل على نشر الاستهلاك الترفي المحاكي للغرب، والقضاء التدريجي على الهوية الذاتية الدينية والمتحفظة والأخلاقية، والتي كان أبناء الشرق يتميزون بها على كثير من أبناء الغرب حتى وقت كان قريباً.

- وسائل الصحافة والإعلام والنشر:

وهي من أخطر وسائل التجسس، للتقارب الشديد في طبيعة العمل في كلا المجالين، حيث إن كلاً من المجالين يركز اهتمامه على استجلاب أكبر قدر من المعلومات لتقديم صورة أكثر تميزاً من

غيره، كما أن الادعاء بالعمل الإعلامي أو النشر يمكن أن يدفع بالفريسة إلى منح كل المعلومات المطلوبة بالوقوع تحت تأثير البريق الإعلامي والشهرة التي يمكن أن تتاح لها، بل إن المعلومات يمكن استجلابها بمزيد من اليسر إذا ما كانت تؤخذ من مجلات أو كتب أو وثائق منشورة ومتاحة للجميع، ومن الأمثلة على ذلك أن اليابان قد تمكنت من الحصول على أسرار إنتاج الترانزستور التي كانت تمتلكها إحدى شركات إنتاج الراديو الأمريكية، وذلك من خلال الاطلاع على خبر حول ذلك الإنتاج من خلال إحدى المجلات العامة المنشورة، والتقط جواسيس الصناعة اليابانيون ذلك الخبر، وتمت إعادة طبخه وبلورته بحيث تمكنت اليابان في النهاية من إنتاج الترانزستور بشكل أكثر تطوراً، ثم سارعت اليابان إلى الحصول على براءة اختراعه وحق تطويره قبل أن تقوم الشركة الأمريكية الأصلية بالقيام بذلك.

- محطة الخطوط الساخنة:

ففي الآونة الأخيرة، انتقلت إلى البلاد العربية موضة غربية تسمى بالخط الساخن الذي يستقبل مكالمات مجانية من فئات معينة خاصة من الشباب، بحجة الاستماع إلى مشاكلهم - فقط الاستماع، ومن العجيب أن من يعمل على تلك الخطوط قد يكون من جهات أجنبية بحجة التطوع في مجال العمل الاجتماعي للدول المحرومة، كما تبين أن بعض تلك الخطوط تقوم بها عناصر وطنية ولكن تحت إشراف جهات أجنبية. والواقع أن تلك الخطوط الساخنة التي تعمل طوال اليوم يمكن أن تكون أدلة تجسسية خطيرة لاستجلاب معلومات ديموغرافية خطيرة، والتعرف على المشكلات الاجتماعية التي تسود المجتمع، مما يساعد في تحديد نقاط الضعف في المجتمع، ومن ثم أماكن تصويب أسلحة الدمار المستهدفة، مثل تحديد أماكن تجمعات الشباب، وكيفية نشر مشكلة الإدمان بينهم بأنها طريقة ممكنة، وما أسهلها من طريقة لاستجلاب المعلومات من أفواه مصادرها الأصلية التي تمثل الأهداف الرئيسة لعمليات التدمير المخطط للموارد البشرية المنتجة.

- حركات تهجير العناصر المتميزة من الشباب:

ففي الآونة الأخيرة انتشرت الإعلانات الأجنبية البراقة عن عمالة الشباب، وقبولهم للهجرة الدائمة إلى الجهات الأجنبية المعلنة، والتي عادة ما تكون من الدول المتقدمة الغنية التي تصورها أجهزة الإعلام المحلية أنها جنة الله في الأرض، والمنقذ الوحيد لطموحات الشباب الوطني البائس الذي تنهشه مشكلات البطالة وضيق ذات اليد، وبطبيعة الحال، فإن مثل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تلك الإعلانات تتيح للجهات الأجنبية المعلنة ولسفاراتها كماً عظيماً من الاستمارات التي يسجلها هؤلاء الشباب الضائع الحائر بمحض إرادتهم، موضحين فيها كل ما يتعلق بهم وبأسرهم من بيانات شخصية ومهنية وغيرها، وبطبيعة الحال يمكن من خلال بيانات هذه الاستمارات التعرف بسهولة على بيانات ديموغرافية لا حصر لها على مستوى الدولة كلها، كما أنه من خلال تلك الاستمارات شرعية المظهر، يمكن اقتناص الشباب المتميز (خاصة من كان يعمل منهم، أو من ذويهم في مناطق حساسة بالوطن)، لكي يتم تجنيدهم للعمل في مجال الجاسوسية الاقتصادية أو غيرها - للأسف - ضد مصالح وطنهم.

- السياحة:

ويمكن اعتبارها بحق الوجه الآخر لعملة واحدة مع الجاسوسية الاقتصادية وغيرها، خاصة في حالة سياحة المؤتمرات والندوات، وسياحة المهرجانات الفنية المتخصصة وغيرها من أنواع السياحة الموجهة التي تتيح عرض البيانات المتخصصة في يسر وسهولة لمن تم تدريبه وإعداده، وذلك بارتداء عباءة السياحة ذات تأشيرات الدخول الفضفاضة، وهي قناة مثلى لأصحاب الأنشطة الإنتاجية لكي يقوموا بدراسة الأسواق العالمية في أماكنها الأصلية، وبشكل طبيعي وصادق،

ومن الشواهد التي تكررت مؤخراً بكثرة نلاحظ كثرة وجود عملاء أجانب يطيلون جولاتهم التسوقية داخل محلات البقالة الكبرى المتناثرة في المناطق المختلفة، ويدعون حيرتهم الشرائية نتيجة لجهلهم بلغة المجتمع الموجودين فيه، بينما ترصدهم بعض أعين المواطنين المثقفين المدققة لتضبطهم وهم يلتهمون كل البيانات المسجلة على البضائع المتراصة بعيونهم، بشكل يوحي بأن تلك العيون البشرية تم تدريبها لكي تصبح كاميرات تجسس تلتقط، وتحفظ كل بيان مكتوب على تلك المبيعات المتاحة للجميع، وترصد كل حركة لعمليات الطلب لتلك المبيعات. ولا يجب أن نتعجب بعد هذا عندما نكتشف غزو المنتجات الصينية واليابانية والتايوانية وغيرها مما يأتي من قبل دول غير إسلامية للأسواق الإسلامية، بحيث أصبحت تتنافس مع المنتجات المثيلة الوطنية، بل وتزيحها عن مكانها لتتربع عليها بكل ثقة، حتى إن كانت تلك المنتجات تشبع حاجات ذات ضوابط أو متضمنات دينية (مثل بوصلات الصلاة، وسجاجيد الصلاة، والمنتجات الغذائية المكتوب عليها حلال، حتى إن كتب ذلك على البسكويت أو منتجات الأسماك التي تجهل الجهات الأجنبية أنها في الأصل حلال)، بل إنها أصبحت تزاحم منتجات التراث الأصيل،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونجحت في التفوق في كثير من الأحيان عليها، كالحال بالنسبة لفوانيس رمضان التي تمَّ تطويرها بشكل معاصر يتضمن مسجلات لبعض الأغنيات الشهيرة، وحتى الأكلات الشعبية، مثل الملوخية التي تشتهر بها مصر والسودان، والطعمية المشهورة في كثير من المناطق العربية - تمّ سرقة أفكارها لنجدها تضم بكل تبجّح في قوائم الملكية الفكرية للدول السارقة، وفي ظل النظام العالمي الجديد المفتوح على مصراعيه يمكن أن نقول إن السياحة أصبحت في ثوبها الجديد سياحة معلومات وأفكار أكثر منها سياحة ترفيه واستجمام. والواقع أن ما سبق عرضه هو غيض من فيض لا ينتهي من الأمثلة على مجالات التجسس الاقتصادي، والمناطق الخصبة التي من السهل أن يترعرع فيها، وإن كان هذا لا ينفي الجوانب المشرقة والمشروعة لاستخداماتها، ولكننا نركز على ما يمكن أن يثير القلق، ويتطلب الحيطة والحذر.

أهداف عمليات التجسس الاقتصادي

وأخيرا يبقى التساؤل عن أهم الأهداف والآثار المرجوة من عمليات التجسس الاقتصادي: توضح الآراء والأفكار في رؤيتها للعصر الجديد أن المعلومات يمكن أن تكون وسيلة لتحرير الفرد والمجتمع، ولكنها يمكن أن تتحول إلى وسيلة قهر واستعباد. ونلتقط نقطة استكمالية من الأمريكي «ألبير ميشيل» الذي يوضح من خلال استقرائه لمناظرة ذاتية للنظام الرأسمالي، أن قوة الاقتصاد المعاصر تعتمد على عنصرين جوهريين هما: قدرة صناعية فريدة، و(عدوانية تجارية عنيدة)، ومن ذلك يتضح أن الهدف الأساس من التجسس الاقتصادي هو الحصول على أكبر كم من المعلومات المناسبة والكافية لضمان تحرير المجتمع من عبودية التبعية للآخر، أو امتلاك زمام السلطة والهيمنة على الآخرين، وتوجيههم بالشكل الذي يضمن تبعيتهم له، وعدم تنافسهم معه في المجالات والأنشطة الاقتصادية المختلفة، من صناعة وتجارة وزراعة وغيرها، حتى يضمن ذلك المجتمع الاستحواذ على أكبر جزء ممكن من كعكة الموارد المتاحة في العالم أجمع، غير أنه يجب التنبيه إلى أن ذلك الهدف يمكن أن تسعى إليه عناصر فردية أو فئوية أو دولية، أي إن عمليات التجسس الاقتصادي ليس شرطاً أن تتم على نطاق الدول، ولكنها يمكن أيضا أن تحدث بين أفراد يتنافسون على المصالح نفسها، أو منشآت اقتصادية متنافسة أو غيرها من الأشكال التبادلية الأخرى، ولكن تركيز منظورنا على المستوى الدولي يضمن وصول رؤيتنا للشكل الأكثر شمولية، حيث يصبح من الأكثر يسراً - بعد ذلك - الانتقال إلى الرؤى الجزئية الأكثر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعمقاً، حين تدعو الحاجة إلى ذلك. وإضافة إلى الهدف العام السابق توضيحه، فإن هناك أهدافاً أخرى متداخلة نذكر منها:

- تطويع القوانين الدولية لصالح الدول الكبرى والمالكة لزمام المعلومات والتقنيات، وضد مصالح الدول الضعيفة والفقيرة بالمعلومات والتقنيات، ومن أهم الأمثلة على ذلك قوانين الملكية الفكرية المبتدعة في ظل اتفاقات التجارة الخارجية والغات وأخواتها، والتي تنطوي على استغلال كبير للدول الضعيفة التي قد تكون مالكة فعلية لبراءات إنتاج كثيرة، ومع هذا افتقارها إلى تقنيات حفظ أسرارها الإبداعية يعرضها لسرقة الدول الأقوى لها، بحيث تصبح ملكاً بحكم وضع اليد.

- التوظيف السياسي والاقتصادي للأحكام وللنصوص الدينية، إضافة إلى حركات الاستشراق التقليدية، زاد الإقبال المكثف على التعرف على كل ما يكتب في الدين خاصة ما يتعلق منه بالإسلام، ويبدو هذا على وجه الخصوص بعد أحداث الحادي عشر من أيلول بأمريكا، وعلى عكس ما يتصوره العامة، فإن ذلك الاهتمام بالتعرف على المؤلفات الإسلامية وتجميع ما تحتوي عليه من نصوص لا يرجع بالضرورة إلى رغبة في اعتناقه، ولكن كل ما يحدث من (بلطجة دولية) ضد الدول الإسلامية، الآن يؤكد أن الهدف من ذلك هو تجميع أكبر قدر من المعلومات عن ذلك العالم الإسلامي الذي يشكل سكانه المسلمون أكثر من سدس سكان العالم، وينتشرون في أكثريات أو أقليات بشرية عبر جميع المناطق الجغرافية في العالم، وتزيد الأطماع حين نعلم من الدراسات والوثائق المتخصصة أن المنطقة الإسلامية تعد الآن أغنى مناطق العالم برأس المال. إن حقيقة الأمر تؤكد أن هناك أنشطة مكثفة ومتلاحقة للتجسس الشامل على اقتصاديات العالم الإسلامي، بهدف التعرف الدقيق على ما يمتلك من ثروات وسلب تلك الثروات بالسلاح المباشر تارة، وبتغريب التعليم وإلغاء الهوية في أغلب الأحوال. وبعد ظهور بعض البوادر الناجحة لتطبيق نظم للاقتصاد الإسلامي، مثل انتشار البنوك الإسلامية، وشركات الاستثمار الإسلامية المتفوقة، وبعد ظهور التفوق الاقتصادي الإسلامي الشامل في بقع دولية بعينها، مثلما حدث في ماليزيا وأندونيسيا، كان من المتوقع والمنطقي أن تحدث تلك الحملات الشرسة لتجميع كل معلومة حول المسلمين والإسلام والنظم التي يعيشون في ظلها، من أجل الانتقال إلى خطوة أخرى لتشويه معالم تلك النظم انتقالا إلى خطوة نهائية، يتحقق بها الهدف النهائي من تلك الأنشطة المعلوماتية، وهو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القضاء على الهوية الإسلامية، والانتماء الديني، والاستحواذ على ما يذخر به من خبرات وفيرة، فقد واجه المسلمون مسبقاً خطر الزحف الأحمر، فنال من قوته بعض الشيء، وها هو خطر زحف الرأسمالية الاستعمارية يأتي مهرولاً وهاتفاً: لقد تخلصنا من الخطر الأحمر، ويتبقى لنا الخطر الأخضر، فهلم ندمره. ويؤكد تلك النيات تردد شعار مستحدث بين كثير من الأوساط الثقافية والعلمية المشبوهة، تطالب بإنشاء (دين جديد) يتلاءم مع روح العصر، فهل من مدرك؟.

- نشر بعض العادات والسلوكيات الضارة، خاصة بين القوى الإنتاجية والقيادات المهمة بالمجتمع المستهدف، بما يضمن التدمير الذاتي له مثل الإدمان والإسراف البذخي والإنفاق غير الإنتاجي، وتفيد المعلومات هنا في تحديد الفئات المستهدفة بالمجتمع والوقوف على نقاط الضعف الميسرة لتحقيق الأهداف التدميرية، ويلحق بذلك تحقيق أهداف أخرى شبيهة بشكل غير مباشر، مثل نشر الأوبئة والأمراض الغامضة والملوثات البيولوجية التي تساعد على إضعاف القوى المنتجة، والقوى العسكرية والدفاعية للمجتمع بشكل يجعله صيداً سهلاً.

- اختراق صناعة القرارات الاستراتيجية الاقتصادية المحلية لتدميرها، أو لإعادة توجيهها لصالح الدول أو الجهات القائمة بالتجسس، أو لإحباط سياسات اقتصادية تتناقض مع مصالح الأطراف المشبوهة، مثل سياسات المقاطعة الاقتصادية لها، أو لإضعاف القدرات الوطنية كوسيلة للتفوق الذاتي وفرض الهيمنة الاستعمارية.

- تطبيقاً للمبدأ الاستعماري المعتاد (فرق تسد)، فإن المعلومات المتحصلة بدقة عن مجموعة معينة من الدول التي تربطها وحدة مصير أو مصالح أو دين أو لغة - مثل الحال بالنسبة للدول العربية - تساعد الجهات المشبوهة على تحقيق أغراضها المدمرة بتشتيت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بل والعسكرية أيضاً بين تلك الدول، ومن ثم تجعل عمليات اقتناصها بشكل فردي أكثر سهولة وفعالية، ولا يخفى على أحد ما يحدث من تخريب متعمد من تلك الجهات المشبوهة للاقتصاديات العربية الآن نتيجة امتلاكها لمفاتيح جميع أسرارها الاقتصادية والعسكرية، وغيرها من أسرار استراتيجية كان من المفروض المحافظة عليها.

- تحقيق التفوق الاقتصادي بأسرع طريقة ممكنة، وذلك بالبدء من حيث انتهى إليه الآخرون من معلومات وتقنيات مستخدمة، وذلك مثلما حدث في التجربة اليابانية، فقد انهار الاقتصاد الياباني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تماما بعد الحـرب العالميـة الثانية، ولكن اليابانيـين استطاعـوا بذكائهـم ودهائهم، وبصبرهـم وجديتهم أيضاً، أن يتعرفوا على كثير من تقنيـات التنمية والإنتاج في الدول المتقدمـة آنذاك، ولم يقعوا في مصيدة تبعية التطبيق للوضع على حاله، ولكن تم إضافة الخبرات والمهـارات اليابانية على ما انتهى إليه الآخـرون من تقنيات، ومن هنا تمكنت اليابـان مـن النهوض من عثرتهـا المدمرة سريعاً، بل وزاحمت دول القمة في مصافها، ونجحت - أكثر من هـذا - في التربع على قمـة كثير من المجـالات الإنتاجية والتقنية المتميزة.

- ومـن أخطـر أهـداف الجاسوسية الاقتصادية: خلـق معاول هدم بشرية ذاتية يتم اقتناصهـا من داخل المجتمع المستهدف وتجنيدهـا لسرقة المعلومـات المطلوبة من منابعها الأصلية، ثـم توظيف تلك العناصر البشرية نفسها - بعد إجراء عمليات غسيل المـخ اللازمـة - كعناصر مواليـة للجهات المخترقة، بحيث تستخـدم كأدوات لنشر ما تريـده من أفكار وسلوكيات، وعند الضرورة تصبح دروعاً بشرية واقيـة وأسلحة بشرية دفاعية عـن تلك الجهـات الأجنبية، حتى ضد أبناء الوطن الواحد.

ولا نملك في النهاية إلا أن نرسل إشارتنا التحذيريـة لمـن يريـد أن يـدرك ويتعظ: إن مـن يملك التقنية يملـك المعلومة، ومن يملـك المعلومة يملـك كل مفاتيـح القوى، بـل إنه يملكها ذاتها. تـرى.. كيف تستطيع الـدول والجهـات المغلوبة علـى أمرها أن تتخلص مـن تلك البراثـن المتوحشة لأذرع الجاسوسية الاقتصادية الأخطبوطية؟ إنها قصة أخرى!.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أهم المراجع

١- د.حازم الببلاوي، على أبواب عصر جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م.
٢- د.بولـين أثرتون، مراكز المعلومات: تنظيمها وإداراتها وخدماتهـا، ترجمة د.حشمت قاسم، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٩٧م.
٣- د.خلـف محمد الجراد، مراكز الأبحاث والمؤسسـات العاملة في خدمة التطبيع والاستراتيجية الصهيونية، الفكر السياسي، السنة الأولى، العدد الأول، دمشق.
٤- محسن أحمد الخضيري، الجاسوسية الاقتصادية، الدار الفنية، القاهرة ٢٠٠١م.
٥- ميشيل ألبير، الرأسمالية ضد الرأسمالية، ترجمة حليم طوسون، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٥م.
٦- يوسـف شـرارة، مشكلات القرن الحادي والعشريـن والعلاقات الدولية، الهيئة المصريـة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م.

بناء القصيدة العربية
بين المطلع والخاتمة

د. عمر الدقاق ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مــن المقولات السائدة في الأذهان إن التقاليد هي الأطول عمراً في حياة المجتمعات البشريــة. وهذه المقولة تشكل بطبيعة الحال ما درج عليه العرب عبر العصور في حياتهم الفكريــة والثقافية والاجتماعية. وقد يكون العرب من أكــثر الأمم محافظة وتمسـكاً بالجذور وما يتصــل بذلك من معطيات التراث، حيث يتبدى الشعر هو الفن الأثير الذي يعد أعرق فنون القول لديهم وأبقاهــا في تراثهم الحافل، وأنه في كل حال ديوان العرب. ومع ذلك وخلال

٭ أستاذ بجامعة حلب، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

التاريخ المديد لم تشهد مسيرة الشعر العربي حركات تجديد

يعتد بها سوى مبادرات فردية ذات شأن لدى الشعراء بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام، ولدى بعض النقاد مثل ابن سلام وابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني، ولكنها سرعان ما كانت تتوارى أمام سدنة اللغويين والنحاة وسلطان الرواة. فقد خبا ألقها كما تخبو الشهب العابرة. ومضت الأمور على منحاها المعهود، وتوالى النبوغ والإبداع ضمن هذا الإطار الرحيب المتوارث الذي ينظمه عمود الشعر.

ولعلّ أهم حركة تجديد عرفها الأدب العربي في تاريخه ظهور الموشحات في ربوع الأندلس، وذلك بفضل معطيات جديدة اجتماعية ونفسية بعيدة عن ضغط مؤثرات الوطن الأصيل وتبعاً لمؤثرات محلية وافدة، حيث ولد الموشح من رحم المكان والزمان ذلك الفن الطريف الملتحم بفن الغناء والموسيقى.

أما حركة التجديد التالية وهي الأقوى في تاريخ الشعر العربي فلم يقيض لها الظهور إلا بعد قرون مديدة، وذلك في بلاد الشام ومصر ثم في المهجر الأمريكي إبان النهضة الحديثة. وحينئذ وفي غمار عصر حافل بالتحولات وتبعاً لانفتاح العرب على الحضارات الأخرى وعناصرها الوافدة، أخذت تتبدى معطيات فكرية وأدبية جديدة ومفاهيم ثقافية ونقدية معاصرة راحت تتفاعل بقوة مع سائر المعهود والموروث في ساحة الأدب والنقد، ومع ذلك دأب الشعراء العرب منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى ضحى القرن العشرين على نظم أشعارهم على منوال أجدادهم المتقدمين، وتطلعهم الشديد إلى تتويج قصائدهم بالمطلع المنشود، وذلك ضمن إطار واسع ينضوي تحت ما يعرف بالكلاسيكية الجديدة التي توطدت عناصرها لدى شعراء النهوض والانبعاث. مثل محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وعبد المحسن الكاظمي ومعروف الرصافي ومحمد الفراتي وخير الدين الزركلي وشفيق جبري وبدوي الجبل... إلخ.

ومن الجلي أن عمر أبو ريشة هذا الشاعر المطبوع الطموح قد أغنى قريحته وطبعه بقدر واف من ثقافته العربية والإسلامية، من شعر وتاريخ وتراث مع حرصه البالغ على استقلاليته وعدم وقوعه في أسر الماضي. وكان مهتماً في الوقت نفسه بتحقيق هاجسه الملح في ضرورة التجديد ومجاراة معطيات عصره الفكرية والثقافية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوافدة، مستعينا على ذلك بإبداعات بعض الشعراء الغربيين.

وفي هذا الصدد من الرغبة في التجديد أيضاً تأثر أبو ريشة في بدايات تكوينه الشعري بدعاة الداروينية في أوروبة وفي مصر ولبنان، حين كان لنظرية التطور ومقولة النشوء والارتقاء في عصره حيز كبير في الحياة الثقافية والفكرية لدى أوساط ذلك الجيل.

وقد برز على الساحة النقدية في جملة ما طرأ عليها من مستجدات مفهوم وحدة القصيدة، وعلى نحو أدق الوحدة العضوية في القصيدة العربية. وهو في حقيقة الأمر مفهوم جديد ووافد مغاير للمفهوم السائد لدى الشعراء والنقاد معاً عبر العصور، حين كان البيت المفرد المستقل بذاته وبمعناه عما قبله وما بعده هو المفضل والأثير، وأنه من سمات الشاعرية المبدعة. وعندئذ ينطلق البيت المفرد سائراً في الآفاق كما هو حال المثل السائر، حيث تلذه الأذن وتختزنه الحافظة ويغدو متداولاً على كل لسان..

في البدء بدا مفهوم الوحدة العضوية

شعاراً جاذباً لدى طليعة المثقفين، ولكن هذا المفهوم لم يكن واضح المعالم في بواكير النقد الأدبي الحديث، بل كان رجراجاً في أذهان العديد من النقاد ولدى غالبية شعراء الجيل. فعلى صعيد الشكل الفني كان مفهوم الوحدة في القصيدة يتراوح ضيقاً واتساعاً وتتداخل الدلالات بين وحدة الموضوع والوحدة العضوية. وهذان المفهومان النقديان كانا يبدوان في واقع القصيدة العربية متباينين ومتواشجين معاً. وقد حظيت هذه القضية الأدبية باهتمام المثقفين في مصر و الشام وكان لها حيز واسع لدى جماعة الديوان ولاسيما العقاد والمازني، وأيضاً لدى الصحافة العربية في المهجر الأمريكي من مثل ما كتبه مخائيل نعيمة أيضاً في كتابه الغربال.. وقد ترك الحراك النقدي آنئذ في صحافة مصر الأدبية أثراً واضحاً تلقفه لفيف من شعراء سورية مثل شفيق جبري ثم جيل أبو ريشة من بعده وهكذا طغت مسألة الوحدة العضوية على مجمل الساحة النقدية.

كان من أهم أسس النظم وتقاليده في شكل القصيدة الفني عند العرب هو بيتها الأول أي المطلع. ويكاد الشعراء يلتزمونه في قصائدهم ومطولاتهم، على حين كانوا في مقابل ذلك يغفلونه في مقطعاتهم. وقد أولاه الشعراء والنقاد معاً منزلة رفيعة حيث توسموا فيه براعة الاستهلال. فالمطلع لديهم بمنزلة العمامة أو التاج الذي يعلو هيكل القصيدة وكأنه البوابة الباذخة والمعبر الأجمل إلى فضاء القصيدة العربية العتيدة.

ومن دلائل حرص الأقدمين على جمالية المطلع أنهم دأبوا على العناية به وتجويده فضلاً عن تصريعه حين خصوه بقافيتين من دون سائر أبيات القصيدة، فهو عندهم الفاتحة الطريفة والواجهة الجميلة، وهو القاعدة الوطيدة التي يبنى عليها سائر هيكل القصيدة، كما تنسج على منواله بقية أبياتها حتى ليبدو أن القصيدة كانت تذكر وتعرف وتسير في الآفاق من خلال مطلعها. فالمقدمة المعهودة أي المطلع هي الأصل والأساس والفاتحة والمفتاح. وقد اعتاد العرب على مدى العصور أن يروا في المطلع عنواناً للقصيدة، وهكذا اشتهرت قصائد كثيرة بمطالعها وأخذت تدور على الألسن وكأنما غدت عناوين لها في مثل قول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

أو قول أبي الطيب:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أو قول ابن زيدون:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

أو قول أبي البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش إنسان

أو قول شوقي:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

أو قول خير الدين الزركلي:

العين بعد فراقها الوطنا

لا ساكناً ألفت ولا سكنا

أو قول بدوي الجبل:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا

رق الحديد وما رقوا لبلوانا

ولابن رشيق القيرواني في كتابه النقدي (العمدة في صناعة الشعر ونقده) فصل تناول فيه (المطالع والمقاطع)، أي بدايات القصائد ونهاياتها ... فقال: «الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ماعنده من أول وهلة. وليجعله حلوا سهلاً وفخماً جزلاً». فقد اختار الناس كثيراً من الابتداءات، أذكر منها قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل....

وهو أفضل ابتداء صنعه شاعر، لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد. ثم يورد ابن رشيق جملة من المطالع الشهيرة في قصائد العرب[1]، مثل قول الشاعر أيضاً:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

وهل يعمن من كان في العصر الخالي

ومثله قول القطامي:

إنا محيّوك فاسلم أيها الطلل

وإن بليت، وإن طالت بك الطول

ثم قال

ومما اختير لهم في الرثاء قول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا

إن الذي تحذرين قد وقعا

وقول أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

وفي هذا الصدد أيضا حول منزلة المطلع في القصيدة العربية يقول صاحب العمدة: «وكان أبو تمام فخم الابتداء، له روعة وعليه أبهة، كقوله:

الحق أبلج والسيوف عوار

فحذار من أسد العرين حذار»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومع توالي السنين ترسخت منزلة المطلع في أشعار العرب وغدا في مقدمة تقاليد النظم عند العرب، وذلك على الرغم من أن جذوة الإبداع بدأت تخبو بعد غياب كبار الشعراء الذين أغنوا الحياة الأدبية بروائع قصائدهم. فقد دخل الشعر العربي في منعطف جديد تبدى في التطريز على ثوب قديم. وكان أن لقيت الصياغة الأسلوبية عناية بالغة لدى الشعراء حين أخذ ذوق العصر يجنح إلى تلوين العبارة بالمحسنات البلاغية وزخرفتها بألوان الصنعة البديعية من جناس وطباق ومقابلة وترصيع وغير ذلك ضمن إطار مفاهيم البيان والبديع التي ترتكز إلى علم البلاغة...

وفي هذا المنحى ازداد شأن المطلع في بناء القصيدة وعظم اهتمام الشعراء به منذ مطالع القرن الثامن الهجري الذي شهد ظهور نمط خاص من نظم القصائد التي عرفت باسم (البديعيات). وهي غرض شعري مستحدث في ذلك العصر، قوامه مدح الرسول الكريم والإشادة بسيرته العطرة...

وقد عزز تلك الأجواء الروحية التي عرفها الناس في المساجد والتكايا والزوايا ظهور شعراء مجيدين مثل البوصيري (-٦٩٦هـ) ثم ابن الوردي (-٧٤٩هـ) وصفي الدين الحلي (-٧٥٠هـ)... وامتد ذلك إلى شعراء الأندلس في غرب البلاد مثل ابن جابر (-٧٨٠ هـ) ومحيي الدين بن عربي (-٦٣٨)

وتعود ريادة هذا الغرض الشعري الذي عرف بالبديعيات[٢] إلى الشاعر البوصيري صاحب قصيدة البردة، وهي من المطولات الذائعة في تاريخ الشعر العربي، ومطلعها:

أمن تذكُّر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وقد نظمها الشاعر في إثر رؤياه للرسول الكريم الذي باركه وخلع عليه بردته الطاهرة. وكان أن تعافى إثر ذلك من المرض الذي أعيا الأطباء، فبادر إلى نظم قصيدته هذه شكراً لله وعرفاناً بفضل رسول الله عليه. وقد سارت قصيدة البردة في الآفاق وجرت على كل لسان. كما تكاثر شراحها ومترجموها عبر العصور ونقلت إلى الهندية والفارسية والتركية ثم الألمانية والفرنسية والإنكليزية.[٣]

والظاهرة اللافتة في هذا الصدد اندفاع شعراء العربية بحماسة بالغة إلى معارضة هذه القصيدة، وحرصهم على احتذائها والنسج على منوال مطلعها مضموناً وبحراً وقافية وروياً. حتى إن عددهم زاد على مئة شاعر[٤] خلال القرون المتعاقبة حتى العصور الحديثة، حين نظم أحمد شوقي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصيدته الذائعة على منوال بردة البوصيري والتي عرفت بنهج البردة، ومطلعها الرامز الجميل أيضاً:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم

وتكاد تكون أسماء البقاع المقدسة في ربوع الحجاز مثل البان والعلم وإضم وسلع وما إلى ذلك في طليعة متطلبات المطلع في كل واحدة من تلك القصائد، كقول عائشة الباعونية (-٩٢٢ هـ):

في حسن مطلع أقمار بذي سلم
أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

ولا ريب في أن هذا الاهتمام البالغ بمقدمة القصيدة يعكس أهمية المطلع والحرص على تجويده وإتقانه إلى أبعد مدى.

ثم تعزز الاهتمام بنظم أمثال هذه القصائد البديعيات وما كانت تنطوي عليه من مسحة دينية وروحية بفضل صفي الدين الحلي، وهو شاعر كبير ذاع شأنه في أواخر القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، فقد عزز هذا المنحى وأغناه بألوان الزخارف البديعية في مثل هذا المطلع الجميل:

أسبلن من فوق النهود ذوائبا
فتركن حبات القلوب ذوائبا

وعبر مسيرة الشعر العربي بعد ذلك وخلال خمسة قرون تالية من الزمان بوسعنا أن نتبين مدى السعي الحثيث لدى الشعراء إلى توطيد المقدمة الطللية الغزلية لتغدو النموذج الأمثل لحسن المطلع وبراعة الاستهلال.

على أننا لا نكاد نجد شاعراً في القديم وفي الحديث تحدث بقدر واف عن تجربته الذاتية في النظم أو تطرق إلى موضوع المطلع، ومن القليل النادر شذرات من أقوال بعض الشعراء في هذا الصدد أوردتها كتب السلف مثل كتاب الشعر والشعراء للناقد ابن قتيبة في مقدمته القيمة من أن الشاعر الفرزدق كان يشكو من استعصاء الشعر على قريحته وأنه في بعض ليلته كان يأرق ويعاني أحياناً من معاندة شيطان الشعر له بحيث يشعر أن قلع ضرس كان أهون عليه من نظم بيت من الشعر. كذلك حديث أبي تمام المقتضب من خلال أبيات قليلة له يعتد فيها بتميز شعره وحرصه على تجويده وإتقانه، ونحو ذلك.

وفي العصر الحديث يعد شفيق جبري والشاعر القروي وعلي أحمد باكثير وعمر أبو ريشة ونازك الملائكة ونزار قباني أبرز الشعراء الذين تحدثوا عن تجاربهم الذاتية في نظم أشعارهم، وذلك على تغاير في مذهب

كل منهم عن الآخر، وحول طبيعة نظرتهم إلى الوحدة العضوية في القصيدة وتلاحم أبياتها والتخطيط لبنائها.ونحو ذلك. أما مطلع القصيدة فقد خصه شفيق جبري بقدر واف من الحديث في كتابه الفريد «أنا والشعر»، وهو جدير بالاهتمام. ففي مناسبة مهرجان الشعر الذي أقيم بدمشق عن الشاعر أبي تمام سنة ١٩٦٠ ألقى شفيق جبري في جملة الذين ألقوا قصيدة دالية مطلعها:

هذي يدي، لفي الذراع على يدي

لمن المواكب كالخضم المزبد

وقد علق الشاعر جبري فيما بعد على هذا المطلع تعليقاً طريفاً في كتابه (أنا والشعر) بقوله «لم تدركني الحيرة في يوم من الأيام كما أدركتني في اختيار مطلع لهذه القصيدة، فإني فضلا عن جهدي فيها وتعبي وشدة تنقيحي لها وتهذيبي وطول المدة التي اشتغلت فيها بهذا التنقيح وهذا الترتيب، فقد كان مطلعها الأول:

ضج العراء وحار كل مسهَّد....

ثم لاحظت أن كلمة ضج العراء وردت في قصيدة سابقة ولم أفطن إلى ذلك، فانتخبت المطلع الآتي:

ارمي بطرفك في الرماد الأرمد....

فلاحظت أن الرماد الأرمد قد يصعب فهمها على الجماهير، فجئت إلى المطلع التالي:

سدوا النجوم على عيون الهجَد....

فنفر ذوقي من كلمة (الهجد). فاخترت مطلعاً آخر:

هذي يدي، لفي الذراع على يدي...

فوجدت أن هذا المطلع فيه شيء من روح الشباب وأنا جاوزت الستين فخفت التصنع. فقلت:

دمع على خد وورد في يد...

فرأيت أن هذا المطلع أصلح ما يكون للمواكب مع دموع الفرح والسرور وحمل الورد والزهر. وبقيت حتى إنشاد القصيدة حائراً في اختيار مطلع من هذه المطالع كلها ثم مشيت إلى المنبر وأنا أقول للجمهور:(هذي يدي) أصلح لهذا الحشد والمجتمع».(٥)

وواضح من كل ذلك أن هاجس شفيق جبري كان منصرفاً -على معهود شعراء السلف- إلى تجويد مطلع قصائده قبل انصرافه إلى بناء مجمل هيكلها، ودون أن يحتفي أقل حفاوة بالخاتمة أو النهاية في بناء القصيدة. وهذا يدل في الوقت نفسه على مدى حرصه على البقاء في فلك الشعر العربي الموروث، وتمسكه بشخصية القصيدة العصماء. وهكذا حافظ على واحد من أهم تقاليد النظم لدى الشعراء السالفين في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصائدهم المعهودة. وآية ذلك دأب الشاعر جبري في كثير من الأحيان على معارضة الفحول الأقدمين في أجمل أشعارهم. وهذا مادرج عليه أيضا معظم شعراء الإحياء في العصر الحديث.

وبوسعنا القول تأسيساً على ما تقدم أن ما أورده جبري من إضاءات وما أفصح عنه من هموم المبدع مما هو أشبه بالاعترافات هو في واقع الأمر ترجمان أمين ودقيق لشريحة عريضة من جيل الشعراء العرب في مطلع العصر الحديث ما زالت تضع نصب عينيها مطلع القصيدة العربية وتعمل على تجويده وإحلاله منزلة الأولوية والصدارة في عملية النظم. على حين تبدى أبو ريشة في أعقاب أولئك الشعراء المحافظين شاعراً متمرداً على تقاليد الشعر العربي مؤثراً التغريد خارج السرب.

ومن هنا وخلافا للمعهود تتبدى أهمية النزوع الجديد لدى عمر أبو ريشة حين انعطف إلى تجاوز المطلع والرأس مؤثراً الهبوط إلى قاع القصيدة ليحدث هناك ضربة الختام فيما يمكن أن يعد حقاً بيت القصيد.

وهذه الظاهرة الفنية التي تعرف (بالقفلة) والتي تعزى غالبا إلى أبو ريشة لم تصدر عنه مصادفة أو اعتباطاً. إنها أحد أهم عناصر التجديد التي جنح إليها أبو ريشة في شعره. وذلك بعد مخاض لم يطل أمده في عصرنا الحاضر الذي شهد انعطافاً قوياً في غمار حركة التجديد الناشطة في سورية حين غدت القصيدة العمرية أحد أبرز نماذجها.

وحتى تغدو نظراتنا إلى الحاضر أدق وأوضح يحسن بنا أن نتلفت قليلاً إلى الوراء لكي نتبين بجلاء معطيات مرحلة سابقة لتلك البدايات حين أخذت تطرأ على الساحة الثقافية تغيرات غير معهودة منذ قرون عديدة كان من أبرز معالمها ظهور جماعة (الديوان) ثم جماعة (أبولو) في مصر وإلى جانبهما جماعة (الرابطة القلمية) في المهجر.

في هذه الأجواء والتحولات طلع عمر أبو ريشة على الملأ في سورية حاملاً في تضاعيف قصائده تباشير الحداثة الشعرية. ومن ثم أخذت حركة التجديد تنداح لدى جيل شاب آخر طموح من شعراء العصر، سواء في سورية ولبنان والعراق ومصر مثل عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة ونزار قباني ومحمود درويش وأدونيس... فضلاً عن سائر جماعة مجلة حوار في بيروت.

وكان أن رفدت قريحة عمر أبو ريشة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معطيات جمة أتيحت له في حياته لم تكن متاحة للكثير من معاصريه ولا سيما مجايليه من شعراء العصر. فقد عاش خلال يفاعته سنوات في بيروت دارساً في جامعتها الأميركية، ثم أمضى سنوات أخرى في شبابه وكهولته متنقلاً بحكم عمله الدبلوماسي بين العديد من حواضر آسيا وأوروبة وأمريكا. وقد انعكست كل هذه المعايشات والتجارب والقراءات والرؤى في مجمل قصائده وفي شكلها ومضمونها معاً.(٦)

في ذلك الحين وفي ثلاثينيات القرن العشرين كان نجم الشاعر الشاب عمر أبو ريشة آخذاً في الصعود ضمن الأوساط الثقافية والاجتماعية في مدينته حلب. وكان أن عرفته المنابر والمحافل شاعراً مبدعاً ساحراً بإلقائه قوي الحضور. وكانت الصحافة اليومية والأدبية تسارع إلى نشر أشعاره وأخباره مثل ما كان من سامي الكيالي صاحب مجلة (الحديث)، وعبد الله يوركي حلاق في مجلته (الضاد)، ثم أحمد حسن الزيات مجلته الذائعة (الرسالة).

في تلك الفترة الموارة من حياة سورية الثقافية والسياسية بدا أبو ريشة إنساناً متمرداً على السائد والمعهود في كل صعيد، وأخذت شخصيته أو أناه تتنامى، لتبلغ مداها في نزعة نرجسية طاغية، حتى إنه غدا كمن يسبح ضد التيار وأنه،كما يقال، إنسان لا يعجبه العجب. وقد بلغ به اعتداده بنفسه مدى جعله أحياناً ينتقد بشدة بعض أعلام الشعر العربي السالفين فيما درجوا عليه في نظم القريض ولاسيما منحاهم في شعر الغزل وانتقاده الجوانب من إبداعاتهم ومفاهيمهم، وذلك من خلال أحكام تأثرية مزاجية ظالمة أحياناً كان يطلقها الشاعر بين الحين والحين في بعض تعليقات وتصريحات تنم على قدر واف من الصلف والغرور. على أنه تطامن قليلاً بعد ذلك في كهولته وجنح إلى الاعتدال أو التحفظ في مجمل أفكاره وآرائه.(٧)

وبوسعنا القول، وفي صدد (المطلع) تحديداً أن الشاعر أبو ريشة يلتقي مع الأندلسيين الذين ابتدعوا فن التوشيح وخرجوا في جملة ما خرجوا عليه، عن عمود الشعر المتوارث وعن شكل القصيدة المعهود، من حيث تكوين الأقفال وتلوين الغصون وتنويع القوافي في جسم الموشح(٨)... وقد أمعن الوشاحون في الأندلس في الابتعاد عن هيكل القصيدة السائدة، ولم يعنوا كثيراً بمطالع موشحاتهم عنايتهم بخواتمها.

وما يعنينا هنا بصدد عنصري المطلع والقافية أنهم ارتضوا خلو الموشح من القفل الأول وهو بمنزلة المطلع، وسموا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هــذا النمط مــن التوشيح بالأقــرع.. على حــين كان اهتمامهــم بخاتمــة الموشح، أي بالقفــل الأخير فائقة، وهو ما اصطلح عليه بـ(الخرجــة). فقــد رأوا أن الغاية المنشودة هــي توليد الانطبــاع البهيج لــدى المتلقي في نهاية المطــاف أي في إثر إنشاد الموشح. وهــذه سمة أيضاً من أهم سمات المعزوفات الموسيقيــة. وكأنما سعى أبــو ريشة في هذا الصدد في أن تكون لبيته الأخير أيضاً منزلة مسك الختام، حيث يحسن بالشاعر الاكتفاء بمــا أنشد في سائــر أبيــات القصيدة كي تحدث الخاتمة التأثــير الأكبر الذي يتجلى في البيــت الأخير الــذي تعارفنا عليه باسم (القفلــة) أو بيت القصيــد. وعندئذ وبهذا البيت تكتمل القصيدة ويزداد تلاحم أبياتها وتتحقق وحدتها العضوية فضلاً عن وحدة موضوعها. وليس من الإسراف القول إن ما سلف من هــذه المؤثرات بدا جلياً في مجمل أشعــار أبو ريشة. ومن ذلك هيكل القصيدة وشكلها الفني.

لقد كان اهتمام أبو ريشة بالغاً بما يعرف ببيــت القصيد، أي نهايتهــا. أما المطلع في مذهبه فليأت كما يشاء له أن يأتي. إذالعمدة عنده في الخاتمة والنهاية وليست في المطلع أو البدايــة... وآيــة ذلــك أن الشاعر قلما يعمد إلى تصريع الكثير من مطالع قصائده ومنها (صــلاة- بسمة التحــدي- هكذا- جراحــي- عام جديد- في خندق- يا شعب - أوغاريــت- طلل- جــان دارك- دروب- شجون- عنــاد- هو ذا هيكلــي- عودي- حواء) على أن أبو ريشة آثر أحياناً التصريع في العديد من قصائــده الوطنية والرثائية مثل (هنانو- محمد- خالد- عرس المجد- المتنبــي- مع المعــري)... وذلــك بسبب ما تنطوي عليه موضوعاتها ومضامينها -فيما يبــدو- من خلفيات تراثيــة وتاريخية ذات آثار باقية ومؤثرة في حياة الأجيال العربية.

لقد كان هاجس الشاعر أبو ريشة بصدد المعمار الفني في شكل قصيدته هو وحدتها العضويــة وجعلهــا جســداً حيــاً متكاملاً متلاحــم الأجــزاء. ولطالما صــرح الشاعر بذلــك ورده بزهــو وباعتداد (أنــا شاعر قصيــدة ولست بشاعر بيت). وتبعاً لذلك لم يشأ أن يترك أبياته تراكمية سائبة، بل لابد لها أن تتدرج وتتنامى حتى تبلغ النهاية بيت ذي شأن، يتميــز بخصوصية مضمونه عن سائر الأبيات..

ومن المرجــح أن الشاعر أبو ريشة الذي عاش في إبان القرن العشرين قد تأثر بأجواء الفكر والأدب التي كان يمور بها عصره، وفي جملتها قضية الوحدة العضوية. التي كانت في طليعة ما حفل به كتاب (الديوان) وكتاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(الغربـال). وفي غمار ذلك الحراك النقدي الحامي عمد العقاد إلى تناول إحدى قصائد أحمـد شوقي كبير شعراء العصـر، وبدل مواقع أبياتها تقديماً وتأخيراً، فلم يخل ذلك بمجمل هيـكل القصيدة. وكان لهذا المنحى التطبيقي في النقد الأدبي الحديث أثر بعيد لدى شعراء العصر فضلاً عن اشتداد وطأته على الشاعر شوقي بطبيعة الحال حين كان يتطلـع إلى التربع على عرشـن إمارة الشعر العربي.

ومثلما خصـ ابن رشيق من قبل عنصر (المطلـع) بالقول في بداية القصيدة العربية في كتابـه العمدة، خص ابـن سناء الملك في مقابـل ذلك عنصـر (الخرجـة) في نهاية الموشح. إذ الخرجـة عنده في الموشح ملحه وسكـره، ومسكـه وعنـبره، وأن تكون حارة محرقة، وحادة ناضجة...(٩)

وكمـا أن الوشاحـين لم يولـوا المطلع أو القفل الأول اهتمامهـم خلافاً لما كان عليه شأن القصيدة، فعل أبو ريشة أيضاً ما يقرب من ذلـك في عملية نظمه لقصائده، جاعلاً لبيته الأخير المقام الأسمى، معتبراً إياه خير أبياته وعمدة قصيدته...

وهـذا المنحـى الخاص الذي آثـره أبو ريشة في نظرته الجديدة إلى نهاية القصيدة دون بدايتهـا دفعه إلى أن يخطط لمنظوماته فينقـح ويعـدل أو يغـير ويبـدل أو يقدم ويؤخر(١٠)، محكماً في ذلك ذوقه ورؤيته، وفي الوقت نفسه مستخدمـاً عقله في المفاضلة والتنسيـق بين الأشبـاه والنظائر... بحيث يخلصـ من ذلك إلى (القفلـة) المنشودة أي عنصـر (القـرار، Cadance) المقابل في الموسيقـا. وفي الموسيقـا العربية على وجه التحديد(١١) وهذه النهاية أو الخاتمة - كما يقـول العارفون في مجـال الألحان تنطوي على درجة صوتية أساسية في مجمل الألحان تنطوي على درجة صوتية أساسية في مجمل النغم وكأنـه روح النغم. وفي هـذا الصدد يقـول محمد بـري العـواني (إن القرار في الشعـر كما هـو في الموسيقى نزوع وجداني إلى الاستقرار والارتواء بعد تجوال في فضاء القصيدة يقصر أو يطـول. أو أن القفلة أو القرار نهايـة (رحلة القبيلـة) حيث تحط رحالها بعـد أن تحقق مرادهـا بالحصول على الكلأ والمرعى.(١٢)

ومـا الخاتمـة في القصيـدة أو بيـت القصيـد إلا تعبـير عـن اكتمـال الدائرة وانغلاقهـا أي العودة إلى الرحم الحاني بعد الارتحال والمرور البهيج عبر تعرجات جميلة متأنقة تفضي إلى بيت القصيد الذي يحسن بعده السكـوت والتفكر. وإذ ذاك يتم توليد عنصر التشارك بين المبدع والمتلقي في العمل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفني. وهذه السمة المهمة تتجلى في عملية التفاعل بين الشاعر والمتلقي حين ينشد الشاعر قصيدته على الملأ ويحظى باهتمام جمهوره ومتابعيه وانتشائه إلى حد ترديدهم بعض قوافيه المرشحة قبل نطقها.

ولعل قصيدة (طلل) من أجمل ما نظمه عمر أبو ريشة على قلة أبياتها. وهي في حقيقة الأمر تناول حديث طريف لموضوع معهود قديم، أي الوقوف على الأطلال وذكر العهود السالفة ومناجاة الأحبة في حنين طاغ مفعم بالحميمية. غير أن شاعرنا لم يشأ أن يستوقف أحداً معه كمعهود أسلافه ليشاركه مشاعره تجاه ما غبر من أيامه الخوالي، بل عمد إلى مخاطبة قدميه واقفا بمفرده وحيداً متأملاً، ومستغرقاً معتبراً:

قفي قدمي، إن هذا المكان
يغيب به المرء عن حسه

وأغلب الظن أن هذا البيت الأول أي المطلع، والملاحظ أنه غير مصرع، لا ينطوي على عبارة طريفة أو صورة لافتة على غرار ما نعهده في مجمل قصائد الشعراء، بل إنه ينوء بقدر من التقريرية ولا سيما في هذا التوكيد بالأداة إن، دون أن يثير في نفس المتلقي إحساساً ذا شأن. غير أننا إذا مضينا إلى ما تلا ذلك من الأبيات تتبدى لنا جملة من المعاني والصور ومن التأملات والعبر:

رمال وأنقاض صرح، هوت
أعاليه تبحث عن أمسه
أقلب طرفي به ذاهلا
وأسأل يومي عن أمه
حوافر خيل الزمان المشت
تكاد تحدّث عن بؤسه

إنه تساؤل المدهوش المتعجب، والحائر بين الأمس واليوم، أو بين الغابر والحاضر. وكأنما الحجارة المتناثرة أشلاء جسد تشقق وتمزق فراح يسعى إلى استعادتها وضمها إلى عنفوانه الراحل.. والآن بعد أن اكتملت عناصر الصورة المعبرة عن الفناء الأبدي حانت نهاية المشهد أو مجمل النظرة، وهي القفلة التي تتجلى في العبرة والمغزى، من خلال القرار أو بيت القصيد:

هنا ينفض الوهم أشباحه
وينتحر الموت في يأسه

هذه الصورة تشابه صورة أبي الطيب المتنبي وتضارعها روعة وجمالا في قوله:

تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول أمات الموت أم ذعر الذعر

تلك وقفة اعتبار ولحظة صمت، وهل بعد طلل أبو ريشة وقفلته المبتدعة كلام...

إن الوحدة العضوية المنشودة لدى أبو ريشة، كما هو الشأن في قصيدة طلل وأمثالها فضلاً عن وحدة الموضوع جديرة بأن تسمو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالقصيدة إلى مستوى لوحة تشكيلية بصرية معجبة، تنضوي بمجملها تحت فكرة معينة أو رؤية محددة يصح أن تحمل عنوانا بالغ الدلالة قد يكون الزمان أو الفناء أو الموت. كلها هواجس ملحة في أعماق شاعرنا أبو ريشة، كما كانت هاجس كل إنسان عربي حين يتبدى له ذلك في رؤاه وأساطيره وفي ملاحمه وأشعاره. وهكذا وعلى هذا الغرار تناول أبو ريشة عنصر الزمان في سائر قصائده.

وثمة قصيدة أخرى عنوانها (امرأة وتمثال)، يبدو فيها الزمان أيضاً قاسماً مشتركاً بين القصيدتين، وكلتاهما تنطويان على رؤية شمولية تلف مجمل أبياتهما وتسلكها ضمن إطار واحد وموضوع واحد من حيث أصل الفكرة وجوهر الرؤية، وذلك برغم الاختلاف أو التغاير في ظاهر القصيدتين:

حسناء هذي دمية منحوتة من مرمر
وسرت إلى حرم الخلود على رقاب الأعصر
أمداً ممتَّعة بينبوع الصبا المتفجّر
وشى بها إبداع ناحتها الجمال العبقري
ومضى، وبنت رؤاه لم تكبر ولم تتغير
أخشى تموت رؤاه أن تتغيري، فتحجري...

إنه أيضاً الزمن الأزلي الأبدي في (امرأة وتمثال)، هذا الزمن القاهر ذو الجبروت، القادر على أن يغير كل شيء في هذه الدنيا ولا يتغير. وهنا أيضاً تأتي القفلة أو بيت القصيد الذي يفاجئ المتلقي من حيث لا يحتسب وذلك من خلال تعبير متميز قوامه الإبقاء على الصورة السابقة لتلك الحسناء الفاتنة التي بدأ عامل الزمن الذي لا يرحم يفعل فعله في محو محاسنها وسحر جمالها. فليتوقف هذا الزمن عن سطواته وفتكاته، وليدم عبر الحجر الصلد هذا الجمال الرائع على مدى الدهر.

وقصيدة (هيكلي) في حقيقة أمرها زفرة دفينة انبعثت من نفس أبو ريشة مقتصرة على بضعة أبيات بدأها ببيت لا يشي بكونه مطلعاً. فقد خلا من التصريع الذي لم يكن يحرص عليه الشاعر في كثير من الأحيان، وهكذا بادر إلى قوله:

هو ذا هيكلي رجعت إليه
لأصلي، وفي فؤادي حنيني

وهنا في هذا الهيكل الذي يقابل الأطلال والطلل المعهود من حيث انطواؤه عادة على ما غبر من أيام الشاعر السعيدة وأوقاته العذبة الهاربة، يقول أبو ريشة في نبرة مؤثرة ونفس محبطة:

لم أجد فيه روعة من جمال
أو جلال بسحرها تطويني

ثم يسارع إلى إسدال ستارة على مشهده

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتوحد الحزين ويبــادر إلى إنهاء قصيدته الوجيزة ببيتــه الأخير أيضاً، حيث لا مجال لفضول القول والاسترسال بمزيد من الكلام في وحشة ذلك الهيكل المتوحد:

قد تلمست في دجاه مكاني

ثم أشعلت شمعتي وبكيت

إنها الخاتمة التي يكتمل فيها هذا البوح الشجي الذي ينم على حالة رومانسية مؤثرة بالعبارة الصورة، حين انطوى على نفسه ثم أشعــل شمعته وأسلم نفســه للبكاء. وبذلك يتواشــج شعــور المتلقــي في الشطر الأخير مــع معاناة الشاعر الحزيــن وأساه الدفين، بتعاطف حانٍ وإيحاء حميم.

وللشاعــر أبــو ريشــة قصيدة تحمل العنوان (هؤلاء)، وهي قصيدة ذات مضمون وطنــي- اجتماعــي. وهنــا أيضــاً يقتحم الشاعــر موضوعه ببيت لا يشي بمقدمة أو مطلــع، فيستهل قصيدتــه بمخاطبة فتاته الحائرة المتعجبة مــن تردي حال مجتمعها، أو لعله يخاطب نفسه على طريقة التجريد فيما نــرى، التي كان يؤثرهــا الشعراء ولا سيما المتنبي:

تتساءلين علام يحيا هؤلاء الأشقياء

المتعبون الذاهلون، الواجمون، الصابرون

وبعد ذلك، وفي مثل هذا السرد المتلاحق بإيقاعــه التراتبي الجميل يقــول في قفلته المعهودة:

امضــي لشــأنك، اسكتي

أنــا واحــد مــن هــؤلاء

إن عنصر الطرافة هنا يكمن في المفاجأة التي لا يتوقعها المتلقي بفضل تحول الشاعر عن صيغ الغائب المتمثلة في (هؤلاء) وانكفائه إلى ذاتــه، مختزلا القــول باقتضاب جميل أغناه عن أن يقول: أنــا أيضاً شقي ومتعب وذاهل وصابر... إلخ، إذ لا شيء يقتل الشعر مثل المباشرة والتفصيل أو التعبير وفق خط مستقيم.

وعلــى هذا الغــرار تتبــدى أيضاً هذه الظاهــرة الفنية بصدد المطلع والخاتمة في مجمل قصائد أبو ريشــة الوطنية والقومية مثــل قصيدته (صــلاة) التــي نظمها سنة ١٩٤٨ في إثــر نكبــة العــرب في فلسطين والجراح نازفة. وقد استهلها بمناجاة هادئة للخالق العظيم شاكراً له نعمه وفضائله على هذا الوطن العزيز:

رب طوقت مغانينا جلالاً وجمالا

ونثرت الخير فيهن يميناً وشمالا

رب هذي جنة الدنيا عبيراً وظلالا

كيف نمشي في رباها الخضر تيهاً واختيالا

وبعــد أن يمضي على هذا النسق في بث مشاعــره الدفينة وشكواه المريرة من تخاذل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حكام بلاده تجاه الخطر الماحق، وما آل إليه حال وطنه التاعس، قر في نفسه أن الخلاص لن يكون إلا بالعودة إلى الجذور وأن هذا الزمن المتردي لايمكن أن يصلح آخره إلا بصلاح أوله، إنها نفثة مصدور واستغاثة مقهور يبادر إلى استدعاء أولئك الرجال العظام، أجداده الذين انبثقوا من قلب الصحراء ومنبت الأبطال، هكذا ينعطف الشاعر ثانية ليخاطب ربه بنبرة صارخة:

ردها قفراء إن شئت وموّجها رمالا

نحن نهواها على الجدب إذا أعطت رجالا

هي ذي القفلة المدوية التي تقرع الآذان وتهز النفوس، إذ الوطن شعب ورجال. ولنا أن نتصور مدى حماسة الجمهور وتصفيقه استحساناً لما سمع من أداء شائق بلغ ذروته في هذه الخاتمة المثيرة الناقمة.

وعلى صعيد الشعر الوطني أيضاً يبرز أبو ريشة مواطناً مناضلاً غيوراً على كرامة بلاده، فهو يحمل ذلك الهاجس القومي الملح تجاه حالة الوطن وشدة معاناته من المحن والآلام. كان أثر النكبة الفادحة بفلسطين بالغ الأثر في وجدانه، ظل يعاوده ويعتمل في أعماق نفسه المرهفة ويتجلى مفعماً بهم طاغ مقيم. ومثل هذا الشعور انعكس في قصيدته (هكذا).إنه عنوان موح من خلال كلمة واحدة ذات دلالة بعيدة ساخرة. الأبيات صور ناطقة صارخة من مثل استعار الكأس وضجيج المضجع وشراسة النهد، تطل من دارة ذلك البدوي الشبق، الذي أورق الصخر له وجرى السلسبيل من تحت أقدامه. هاقد صاح «يا عبد»، فغدا كل ما يشتهيه من جسد تلك الشقراء البضة طوع بنانه. ويالها من مأساة، وياله من عار. هي ذي القفلة المفعمة بالسخرية المرة التي تقرع الأذن وتهز الوجدان شأن الضربة الأخيرة المدوية في خاتمة السمفونية:

هكذا تقتحم القدس على غاصبيها

هكذا تسترجع

وتعد قصيدة (في طائرة) من أجمل قصائد أبو ريشة وأذيعها. وقد نظمها بعد سنوات خمس من حدوث النكبة، وجرح العرب مازال ندياً والانقلابات العسكرية تكاد تعصف بمقدرات وطنه. وهي متسربلة بقالب قصصي يسرد فيه الشاعر ما عرض له في إحدى رحلاته الدبلوماسية في أمريكا اللاتينية، «حيث كانت تجلس إلى جانب مقعده في الطائرة حسناء اسبانيولية راحت تحدثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب دون أن تعرف جنسية من تحدث..»(١٣) ثم قال بعد أبيات قليلة...

كل حرف زل من مرشفها

نثر الطيب يميناً وشمالا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قلت يا حسناء: من أنت ومن
أي دوح أفرع الغصن وطالا
فأجابت: أنا من أندلس
جنة الدنيا سهولاً وجبالا
وجدودي، ألمح الدهر على
ذكرهم يطوي جناحيه جلالا
ونما المجد على آثارهم
وتحدى بعدما زالوا الزوالا

ثم انعطفت الفتاة إلى شاعرنا مزهوة، وقالت بقدر من التباهي بل من التحدي وهي تنهي كلامها بهذه الخاتمة-القفلة التي أجراها الشاعر على لسانها:

هؤلاء الصيد قومي، فانتسب
إن تجد أكرم من قومي رجالا

عبارات جميلة مفعمة بنبرات الاعتزاز، مسربلة بآيات الفخار، اندفعت من فم هذه الحسناء السمراء مختتمة حديثها الشائق لتنصب على أذن الشاعر بعذوبة وانتشاء. ولا ريب أنها أثلجت صدره وأسعدته وهو يصغي إليها باهتمام، ويرى ويسمع بافتتان... أليس هو الذي بادرها في البدء بسؤاله إياها: «يا حسناء، من أنت..؟» فماذا كان من أمره الآن وبعد كل ذلك..؟ إنه لمن طبيعة الأمور أن يستأنف المرء في مثل هذه الحال ما انقطع من كلامه، ويمضي في الحديث مع فتاته، فيفاجئها هو بحقيقة أمره، ويعبر لها عن مدى سروره واغتباطه بما سمع ودرى، ولا ريب في أنه بذلك، من حيث لاتتوقع حسناؤه، سوف يبهجها ويدهشها حين يخبرها بأنه هو مثلها أيضاً من أحفاد أولئك العرب الأماجد. غير أن شيئاً من ذلك لم يكن. إنه لو قال ذلك لبدا الموقف عادياً، بل مبتذلاً وسخيفاً. لقد كان خيراً من ذلك كله السكوت، ولا شيء آخر غير السكوت. وهكذا بقي الشاعر متماسكا في مقعده مؤثرا للصمت، فلم ينبس بكلمة ولا حرف. ثم كانت نهاية المشهد بعد ذلك ما حدثنا به الشاعر عن حقيقة حاله في تلك اللحظة، فإذا هو يلمح دون أن يفصح، وإذا همه أكبر من أن تحيط به كلمات. ومن خلال ما دار من حديث عارض بين الشاعر ورفيقته يتبدى لنا ختام قصيدته (في طائرة) - ذلك الهم الكبير، هم الأمة، هم الوطن.. لقد أسدل الستار على كل ما رأى وما سمع، وقال لنا بكثير من الأسى الدفين في بيته الأخير:

أطرق القلب، وغامت أعيني
برؤاها، وتجاهلت السؤالا

ومن الجلي في هذه القفلة أن هذا الصمت المتلفع بالتأمل والاستغراق والمصحوب بالهم والإطراق، والمفعم بالشؤون والشجون، أبلغ من أي تعليق، وأفعل من أي تعبير.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنها قصة في قصيدة، بدأت ثم توقفت. ولم يشأ راويها بحصافة رؤيته أن يكملها بل ترك نهايتها سائبة مفتوحة، بحيث تتراءى في مخيلة المتلقي وفق ما تنطوي عليه النفس من معطيات دفينة في غمار حياتها.

وبذلك انفتح المجال أمام ذهن هذا المتلقي ليشارك في تكوين تلك القصة، وأن يضع نهايتها من عنده يستمدها من واقع قومه ومن مخزون نفسه. وأبو ريشة شاعر يحترم سامعه وقارئه، هذا من خصائص فنه، حيث تكمن براعته في أنه أتاح لنا متعة استشفاف ما تنطوي عليه نفسه من مشاعر المرارة والأسى تجاه معاناة أمته وواقعها المؤلم بفضل إطراقه وصمته البليغ. وبذلك استطاع أبو ريشة باقتداره الفني توليد المفارقة الصارخة التي قصد إليها في خاتمة قصيدته، وفحواها كما قال «أجنبية مزهوة، تفخر بالانتماء إلى العرب الأماجد، وعربي خزيان لا يجد في حاضر أمته ما يرفع به رأسه».

● ● ●

لقد أدار الشاعر أبو ريشة ظهره لمعظم التراث الشعري عند العرب خلال عمره المديد طوال القرن العشرين. وكان من مظاهر ذلك عزوفه عن معارضة الأقدمين في أروع أشعارهم عزوفاً يكاد يكون تاماً. وقد نستثني في هذا الصدد قصيدة أو قصيدتين، مثل قصيدة أبي العلاء المعري في إحدى قصائد سقط الزند، ويبدو أن أبو ريشة وقف أمامها صاغراً، حيث يقول أبو العلاء:

أحسن بالواجد من وجده
صبر يعيد النار في زنده
أمس الذي مر على قربه
يعجز أهل الأرض عن رده

وعلى غرارها نسج أبو ريشة قصيدته الجميلة (بلبل) التي نتنسم منها ومنذ مطلعها أنفاس أبي العلاء ونزوعه الإنساني ورفقه بالحيوان:

حلم تخلى عنه في رغده
هل يقدر النوح على رده
لو يعلم الصياد ما صيده
لم يجعل البلبل في صيده

وأغلب الظن بعد الذي تقدم في جنبات البحث أن القارئ المتصفح لقصائد الديوان لابد أن يلمس أيضاً على نحو جلي عنصر القص الطريف في المزيد من قصائد أبو ريشة. وظاهرة القص المحببة في فنون القول، هي في الوقت نفسه الإطار الشائق الذي يزيد الأبيات تماسكاً وتلاحماً، حيث تتشكل عبر ذلك بطبيعة الحال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحدة الموضوع، بل فوق ذلك سوف يؤول عنصر القص، وبسلاسة ويسر إلى المعادل الموضوعي الذي تتجسد من خلاله الوحدة العضوية في القصيدة. ومنذ القدم جنح شعراؤنا القدامى إلى مثل هذا السرد لدى امرئ القيس ثم عمر بن أبي ربيعة، وبعد ذلك الحطيئة والفرزدق، ثم البحتري وسائر الشعراء الذين صوروا تجاربهم العاطفية المحببة وصراعاتهم المعجبة مع ما كان يعترضهم من سباع وثيران وذئاب وأسود، في قالب حكائي شائق.

وفي نهاية المطاف في رحاب فن أبو ريشة وإبداعه الشعري بوسعنا أن نخلص إلى أنه في مجمل قصائده يمتلك رؤية ويحمل فكراً، وكأنما في إهاب كل شاعر يثوي فيلسوف. وعلى صعيد الشكل والأسلوب يجنح أبو ريشة للتصوير قبل الرصد، وإلى الإلماح دون التصريح، وإلى البوح دون التقرير. كما أن الشاعر اصطنع لنفسه نهجاً خاصاً يقوم على عقلنة أشعاره والتخطيط لهيكل قصائده وحرصه في عملية النظم على معاودة النظر في بناء قصيدته وتجويدها وإتقانها والبلوغ بها إلى النهاية الشائقة، بحيث تتجسد عناصرها وتتآلف في نسق متلاحم ومتكامل، قادر على توليد الإمتاع المنشود.

تلك بصمات مميزة لشاعر مبدع ذي خصوصية أغنت الشعر العربي وتركت عليه مياسم الجدة والطرافة. وقد أفضى كل ذلك إلى انبثاق القصيدة العمرية في الشعر العربي الحديث التي ارتقت بالشاعر أبو ريشة إلى السدة بين أصحاب الأساليب في الأدب العربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- كتاب «العمدة»، ١/٢١٨- ٢١٩، ٣٣، مصر ١٩٥٥.

٢- انظر تفصيل ذلك في كتاب (الحياة الأدبية في بلاد الشام) ١/٥٨١ دمشق ٢٠٠٨، دراسة الدكتور علي أبو زيد.

٣- تاريخ الأدب العربي، ٨٦١، حنا الفاخوري. المطبعة البولسية، لبنان.

٤- د.علي أبو زيد، الحياة الأدبية في بلاد الشام ١-٥٨٣.

٥- ديوان نوح العندليب ٢٢٧، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٤.

٦- ينظر في هذا الصدد من المؤثرات الغربية في شعر عمر أبو ريشة مقالة وافية للدكتور عبد الواحد لؤلؤة، من كتاب الشاعر العربي أبو ريشة

٧- انظر، مقالة (عن الصورة الفنية في شعر أبو ريشة) للدكتور عبد الكريم الأشتر، وهي منشورة في كتاب (الشاعر العربي أبو ريشة) وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦ ومن هذا القبيل ما أورده سامي الكيالي في كتابه

(الأدب العربي المعاصر في سورية) ٢٧٣، دار المعارف. القاهرة. وكل ذلك ينم على النرجسية الطاغية وتضخم الأنا في شخصية أبو ريشة.

٨- دار الطراز في عمل الموشحات ٢٩-٣١، ابن سناء الملك، تحقيق الدكتور جودت الركابي.

٩- دار الطراز في عمل الموشحات، ٣١، لابن سناء الملك، تحقيق الدكتور جودت الركابي.

١٠- من أمثلة ذلك تغيير الشاعر في طبعات دواوينه التالية بعض عناوين القصائد، وحذفه بعض الأبيات أو تعديله لترتيب بعضها الآخر ونحو ذلك.

١١- كتاب (القوس والوتر)، لمحمد بري العواني ١٥١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٨.

١٢- القوس والوتر ١٥١- ١٥٢.

١٣- العبارات هي كلام الشاعر أثبتها في رأس قصيدته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدراسات والبحوث

العنف الرمزي

د. علي أسعد وطفة*

يتميز مفهوم العنف الرمزي بسحر الاستخدام وجمال التوظيف، وقد يكمن سحره الخاص في قدرته على التوليف بين نقيضين لفظيين مفعمين بالإثارة والقدرة على الإدهاش، فالعنف مفهوم وجداني يحرك في النفس شجون، والرمز لفظة تفيض بالإثارة وتتدفق بألق المعاني وتناغم الدلالات، إنها كلمة ترفل بقداستها وغرابتها وقدرتها على الإدهاش، وفي اجتماع اللفظتين واتحاد الكلمتين يجد المرء العاشق للمفاهيم والمولع بالكلمات نفسه

* أستاذ التربية السوري المقيم في الكويت (جامعة الكويت).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أجواء رومانسية تتدافع فيها عذوبة المعاني وتتعانق معها أناقة الدلالات.

لقد وجد عدد كبير من المثقفين أنفسهم تحت تأثير التوظيف الجديد لمفاهيم حداثية جديدة مثل: العنف الرمزي، ورأس المال الرمزي، والسلطة الرمزية، والاعتباط الرمزي، فبدؤوا يستخدمون هذه المفاهيم على مبدأ الموضة الثقافية، ليضفوا على أنفسهم بهاء هذه المفاهيم الجديدة بما تمتلك عليه من غنج الكلمات ورنين الألفاظ وعذوبة المعاني.

وفي دائرة الاستخدام الثقافي المتواتر والمتعاظم لهذه المصطلحات الجديدة، غالباً ما تُحَمَّلُ هذه المفاهيم ما لا تحتمل من المعاني، وتشحن بما ليس لها من الدلالات، حيث أفقدتها موضة الاستخدام والتوظيف كثيراً من دلالاتها العلمية، وأفرغتها من بريقها المنهجي التي انطوت عليها في أصل الاستخدام العلمي.

لقد ولدت هذه المفاهيم في أتون فعالية سوسيولوجية تميزت بالجدة والأصالة، وتميزت بتوظيفاتها العلمية والدقيقة عبر النظريات السوسيولوجية الوليدة الجديدة، وتمَّ استخدامها في تحليل الأوضاع الثقافية للمجتمع بدقة ورشاقة وأهمية علمية تتميز بالدقة والوضوح والصرامة. وذلك على خلاف الاستخدام الثقافي السائد الذي يفقد هذه المفاهيم بريقها وتألقها العلمي.

لقد شكل مفهوم العنف الرمزي مدخلاً سوسيولوجياً معاصراً من مداخل التحليل والتقصي الاجتماعي للظواهر الثقافية والاجتماعية، ثم أخذ مكانه المميز بين المفاهيم التربوية والاجتماعية المعاصرة كأداة سوسيولوجية قادرة على فهم وتحليل أكثر جوانب الحياة الثقافية حضوراً وتواتراً. ويعد هذا المفهوم من المفاهيم الحديثة التي شهدت ولادتها في النصف الثاني من القرن العشرين في أعمال بورديو وباسرون في فرنسا، وقد وُظف في تحليل وفهم الأنساق التربوية والثقافية في مختلف تقاطعات الحياة الاجتماعية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد أدى الاستخدام العام والساذج لمفهوم العنف الرمزي - على مبدأ الموضة - إلى إضعاف الدلالات الواضحة لهذا المفهوم وتفريغها من الاعتبارات السوسيولوجية لأصولها الفكرية؛ وقد يزيد في الأمر خطورة أن مفهوم العنف الرمزي غامض في أصوله، وهذا الغموض في أصل المفهوم وفي دورته الزمنية الاختمارية أو الكمونية شكل خميرة جديدة لغموض أكبر في مجال الاستخدام الثقافي العام السائد.

وهنا يجب علينا أن نعترف منذ البداية

أن مفهوم العنف الرمزي والمفاهيم التي تجاوره (الرأسمال الرمزي، والاعتباط الرمزي، والسلطة الرمزية)، ولدت غامضة وضبابية في صلب نظرية بورديو، ويجب علينا أن نعترف بالمشقة الكبيرة التي تواجه الباحث الجاد عندما يغامر بالدخول إلى المحراب الرمزي لنظريته التي تفيض بكثير من التعقيدات الفكرية والنظرية الناجمة عن توظيف مهيب ومثير للمفاهيم والمصطلحات الجديدة التي دخلت عالم السوسيولوجيا الثقافية المعاصرة كمفاهيم مركزية أصيلة.

وفي دائرة هذا الغموض والتعقيد يمكن الإشارة إلى الخلط العجيب في الاستخدام ما بين العنف الرمزي وبين الأشكال الأخرى للعنف، مثل العنف اللفظي، والعنف السيكولوجي، والعنف الإيمائي، والعنف الثقافي، والعنف اللغوي؛ **ففي كثير من الأحيان، يختزل العنف الرمزي إلى إحدى هذه الصيغ من العنف أو بعضها، وهذا لا يستقيم مع الدلالة السوسيولوجية الخاصة لهذا المفهوم.**

إن عناصر التشاكل والتداخل والغموض في مفهوم العنف الرمزي، تطرح نفسها أمام العقل العلمي كإشكالية فكرية ملحة، وتضع مفهوم العنف الرمزي نفسه على منصة الاستجواب السوسيولوجي وفقاً لنسق من التساؤلات المنهجية المنظمة التي تشكل في الوقت نفسه مدخلاً نقدياً لتحليل وظائفه الحيوية والكشف عن ملابساته ومدرجات غموضه في سياق اجتماعي تربوي محدد.

مفهوم العنف:

يتنوع مفهوم العنف سوسيولوجياً ويتعدد بصيغه الكلاسيكية المألوفة مثل: العنف الفيزيائي، والعنف السيكولوجي، والعنف اللفظي. وهناك أشكال وصيغ حديثة للعنف ظهرت في أتون التطور الفكري الحداثي مثل: العنف الثقافي، والعنف الأخلاقي، والعنف اللغوي، والعنف السياسي، والعنف الأيديولوجي، والعنف المقدس، **وأخيراً انبثق مفهوم العنف الرمزي كصيغة حداثية جديدة تثير الاهتمام والنظر. وقد شكلت الصيغ غير الكلاسيكية المهاد الطبيعي لولادة العنف الرمزي أو ما يمكن أن نطلق عليه العنف الذكي.**

فالعنف علاقة أولية بين القوة وممارسة القوة، وأي إفراط في استخدام القوة بغاية السيطرة والهيمنة (أو حتى الدفاع عن النفس) يتحول إلى عنف. وهذا المثال يتضح بما يسمى العنف الفيزيائي: استخدام القوة الجسدية في السيطرة على الآخر، أو في الدفاع عن النفس، مثل: الضرب

والشّد والركل والدفع والحرق والقتل. وهذا يعني بأن العنف هو تحول القدرة من حالة الوجود بالقوة إلى حالة الوجود بالفعل بغاية السيطرة والهيمنة على الآخر. وهنا نلاحظ أن العنف مشروط بالغاية التي توظف فيها القوة (الهيمنة أو الدفاع عن النفس). وبالطبع فإن ممارسة العنف تكون بين طرفين وهذا الأمر مشروع فيما يتعلق بالعنف الذاتي أو العنف المرتد إلى الذات.

وفي السياق الاجتماعي الاقتصادي أو السياسي فإن كل علاقة مع الآخر ترتسم في صورة علاقة قوة وهيمنة. فالظلم ينجم عن خلل في ميزان القوى؛ إذ يجد الضعيف نفسه مكرهاً على طاعة القوي، حيث يعمل القوي على إلغاء الضعيف والسيطرة عليه. ووفقاً لهذه المعادلة يولد الصراع ويأتي النضال كمنهج لبناء علاقات جديدة من القوة من أجل إعادة بناء التوازن الذي يضمن احترام حقوق الجميع. وهذا يعني بالضرورة أن العمل من أجل العدالة هو عمل من أجل تحقيق التوازن في مدارات القوة، وهذا لا يمكن أن يكون إلا عبر القوة التي تعتمد ذاتها في إحداث الخلل وإسقاط التوازن.

وفي هذا الخصوص يقول المفكر الفرنسي بول ريكو Paul Ricœur إن «العنف يتجه في مساره، بوضوح أو بغموض، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إلى السيطرة على الآخر والهيمنة على مقدرات وجوده[1]. فكل عنف وفقا لتصور ريكو هو اعتداء على إنسانية الآخر، وبالتالي فإن أي عنف يشكل عملية ضرر وأذى موجه ضد الآخر، وهذا يتضمن رفض الاعتراف بوجود الآخر وإنسانيته أيضاً.

فالرغبة في إقصاء الخصم وإبعاده إلى دائرة الصمت، ومن ثم العمل على إلغائه تتحول إلى إرادة طاغية تتجاوز حدود الرغبة في المصالحة معه وبناء التوازن. وهنا تتعدد أشكال العنف وصيغه التي تبدأ بالإهانة والاحتقار والإذلال، لتصل إلى التعذيب ثمّ الموت والإفناء. ووفقاً لهذه الوضعية يمكن القول إن النيل من كرامة الإنسان والطعن في أهليته الإنسانية يشكل طعناً في وجوده وكينونته، ونيلاً من حريته وكرامته. ولذا فإن فرض الصمت على الآخر هو صيغة من صيغ العنف، كما أن حرمان الإنسان من حرية الكلام، يعني حرمانه من حق الحياة نفسها. فالظلم الذي يحيق بالإنسان ضمن شروط اغترابية، تتمثل في الإقصاء والقهر، يشكل وضعية عنف مجسد ومجسم. فالعنف هنا لا يمثل كياناً ذاتياً قائماً بذاته، بل يوجد في وسط اجتماعي محدد، حيث

يتخذ هيئته وصورته بين الناس والبشر وخارجهم أيضاً، ومع ذلك فإن الإنسان يبقى في النهاية المسؤول عن حضور العنف وممارساته المختلفة.

وهنا يمكن الإشارة إلى تعريف سيمون وايل Simone Weil الذي يرى أن العنف هو الفعل الذي يقوم به شخص ما لإخضاع الآخر والسيطرة عليه أو إفنائه، ولذا فإن ممارسة العنف حتى الحد الأقصى، تجعل من الإنسان مجرد شيء بالمعنى الدقيق للكلمة، ومثل هذا العنف القاتل يأخذ صيغاً متنوعة فيما يتعلق بإجراءاته وأدواته ونتائجه.

وإذ يقال اليوم إن العنف هو إساءة استخدام القوة والإفراط في توظيفها، فإنه لا غبار في القول: إن العنف يفوق ذلك ويتجاوزه؛ فالعنف بذاته أمر فظيع لأنه حالة اغتصاب لجسد الآخر وعقله ونفسه وكينونته الإنسانية. **فكل عنف هو تعسف وفظاظة وتدمير وقهر، لأنه ينال من الإنسان ويستهدف كيانه الإنساني ويخترقه ويوقع به ضحية له.**

العنف الرمزي:

يراد بالعنف الرمزي استخدام الرموز والدلالات والمعاني للسيطرة على الآخر وفرض الهيمنة عليه. ويأخذ هذا النوع من العنف صورة رمزية خفية ملتبسة تمكّن مُمارِسُها من الوصول إلى غايته وتحقيق ما يصبو إليه من سيطرة وهيمنة دون اللجوء إلى القوة الواضحة والمعلنة. ويتغلغل هذا النوع من العنف في مختلف تجليات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية منذ أقدم العصور. ففي الحياة اليومية، غالباً ما يتم استخدام وسائل متعددة في السيطرة على قلوب الآخرين واستمالتهم وكسبهم، مثل: الكلمة الطيبة والابتسامة والإشارة والمعنى والمديح، وذلك لكسب قلوب الناس واستعبادهم. ويمكننا أن نسوق، ولغاية التدليل على معنى العنف الرمزي وماهيته ودلالته، نسقاً من الإشارات والدلالات الرمزية، التي وظفت وتوظف في مجالات الأدب والسياسة والحكمة والحياة العامة لتوضيح هذا النوع من العنف الرمزي الذي يفعل فعله المستتر الخفي في الإنسان ويضعه تحت إكراه الخضوع والانقياد على نحو رمزي.

لقد عُرِف العنف الرمزي، دون أدنى شك، في مختلف المراحل التاريخية للحضارة الإنسانية، وقد شكّل تاريخياً صورة من صور الممارسة السياسية في العصور القديمة والحديثة. ويتميز هذا العنف بذكائه وخبثه في الآن الواحد، حيث يتم توظيف آليات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ودلالات رمزية بهدف السيطرة على الآخر وإخضاعه أيديولوجياً وعقائدياً، وتفيض الحياة السياسية تاريخياً بالممارسات الرمزية لهذا العنف، ويمكن أن نستعرض نسقاً من المقولات والآراء التي تكشف لنا عن دلالة هذا العنف وفحواه وطبيعته.

لقد عرف العرب هذا النوع من العنف الرمزي في مختلف أنظمتهم السياسية، ولاسيما في العهد الأموي، حيث اعتمدت الدولة في ذلك العصر نوعاً من الأيديولوجية الرمزية التي عرفت بقدرتها على الاحتواء الجماهيري. ويمكننا أن نجد في تفكير الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان نموذجاً واضحاً لسلطة رمزية ولعنف رمزي محكم الدلالة واضح الصورة في المقام الذي يقول فيه: «**عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة، ولمن يطلبه بحنق وهو يقدر عليه برفق، ألا ترى أن الماء على رقته يقطع الحجر على شدته**».

ويمكن أن نستعرض المزيد من القول السياسي الدال على تبني العنف الرمزي أداة ووسيلة سياسية عند سيد الدولة الأموية حيث يقول في مقام آخر: «**لا أستعمل سوطي ما دام ينفعني صوتي ولا أستعمل صوتي ما دام ينفعني صمتي**». فالصمت والرفق أبلغ من الصوت وأقدر من السوط على تحقيق الهيمنة والسيطرة، وهذا الصمت وذاك الرفق قد يكونا حجة دالة على معنى العنف الرمزي الذي يتخفى في صور ودلالات قادرة على تحقيق المراد والغاية من غير عنف أو إكراه أو قسر واضح بيّن صريح. وهذا التوظيف الرمزي ليس غريباً على باني الدولة الأموية الذي طبق قوله هذا الآفاق: «**والله لو كان بيني وبين الناس خيط عنكبوت لما انقطع فإن شدوه أرخيته، وإن هم أرخوه شددته**»؛ وفي هذا بيان عن غاية الذكاء في ممارسة السياسية الرمزية التي تقود إلى الهيمنة والسطوة والسيطرة المشروعة دون إكراه أو عنف واضح المعالم بيّن الدلالة صارخ الحضور.

ولم يكن معاوية هو الوحيد في تاريخ الفكر السياسي الذي لمّح إلى إمكانية استخدام الرفق والصمت والعنف الرمزي في تعزيز الهيمنة والسيطرة، فها هو الإمبراطور الصيني صان تسو يعبر عن حكمته الرمزية في قوله التاريخي المأثور «**إن المعرفة هي القوة التي تمكن العاقل من أن يسود، والقائد الخير من أن يهاجم بلا مخاطرة، وأن ينتصر بلا إراقة دماء، وأن ينجز ما يعجز عنه الآخرون**»[٢]. وقد قيل عن الدبلوماسية أنها «أن تقطع رقبة عدوك دون أن تستعمل سكين» وهذا مثال أكثر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضوحاً عن قوة العنف الرمزي وخطورته. فهناك وسائل خفية غير معلنة وذكية يمكنها أن تشكل أدوات للقتل والهيمنة كما هو الحال في تعريف الدبلوماسية. وقد جاء في الحكمة العربية أيضا أنه «**يدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف، ألا ترى أن الماء على لينه يقطع الحجر على شدته**».

وقد تضمن الأدب الإنكليزي إشارات أدبية تدل على هذا النوع من العنف حيث يقول شكسبير: «**شق طريقك بابتسامتك خير لك من أن تشقها بسيفك**». وقد جاء في الشعر العربي ما يدل على استشعار الأدب العربي لهذا النوع من العنف حيث يقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وقد تضمنت الأدبيات الشعبية ما يلمح إلى هذا النوع من العنف الذكي، حيث تقول إحدى مأثوراتها: «**استغن عمن شئت فأنت نظيره، وأكرم من شئت فأنت أميره، واسأل من شئت فأنت أسيره**»، فإكرام الناس صورة من صور استخدام العنف الرمزي في الهيمنة على الآخر والسيطرة عليه.

لقد سقنا بعضاً من هذه الأقوال المأثورة، لتسليط الضوء على مفهوم العنف الرمزي، وتوضيح دلالته الأولية، وذلك تمهيداً للتعريف بالمفهوم ذاته في المستوى السوسيولوجي والتربوي. لقد بينت الحكمة الإنسانية التي تجلت في أقوال صان تسو وشكسبير وغيرهم وهذه التي تضمنتها المثل والحكم والمأثورات الشعبية، أن كثيراً من المظاهر الرمزية للسلوك كالرفق والصمت والإحسان والابتسامة والإكرام وسعة الصدر والكلمة الطيبة والمداراة واحترام الآخر وتقديره، يمكنها أن تمارس فعالية رمزية قادرة على أن تحقق ما لا يفعله السيف وما لا يمكن للقوة أن تفعله في سوس الناس والهيمنة عليهم دون تحطيم العظام وإراقة الدماء وهدر الكرامة.

هذه الأمثلة توضح أمراً وهو أن أدوات العنف تتمثل في رأس مال رمزي قوامه اللطف والرقة والصمت والبشاشة والكرم والكياسة ورقة الكلمة وسحر اللقاء وغيرها من العناصر الرمزية التي يمكنها أن تكون أشد فتكاً من أدوات العنف ومطارقه الثقيلة. وما قدمناه في هذا المقطع يقدم إشارة إلى المعنى العام والأدبي والسياسي في ما يتعلق بالعنف الرمزي، وهذا يشكل مقدمة تبسيطية تمكننا من متابعة الخوض العلمي في مفهوم العنف الرمزي بأبعاده السوسيولوجية.

سوسيولوجيا العنف الرمزي

مهمـا تكن المصـادر والينابيع الفكرية التي توجـد في أصل العنـف الرمزي، فإن هذا المفهوم يشـكل أحد المفاهيم الأساسية لنظريـة بيير بورديو، وقد شهد هذا المفهوم ولادتـه في نسـق الفعاليـات الفكرية لبيير بورديـو Pierre Bourdieu وجـان كلود باسـرون Jean-Claude Passeron، حيـث ظهر للمرة الأولى في كتابهما المشهور معاودة الإنتـاج La Reproduction في عام ١٩٧٠.[٣]

يعرف بورديو وجان كلود باسرون العنف الرمـزي في كتابهما إعـادة الإنتاج «إن كل سلطـة عنف رمـزي، أي كل سلطة تفرض دلالات، وتظهـر على أنهـا شرعية وقادرة على أن تواري علاقات القوة التي هي منها بمقام الأس لقوتها»[٤]. وفي مقام آخر يعرفه بورديو بأنه «أي نفوذ يُفلح في فرض دلالات معينة، وفي فرضها بوصفها دلالات شرعية، حاجبا علاقات القوة التي تؤصل قوته».[٥]

ويشـكل هذا المفهـوم منطلقـاً ذهنياً للكشف عن الفعاليات الذهنية الأيديولوجية التي يمارسها المجتمع طبقياً لتشكيل عقول الأفراد، عـبر سلطة معنوية كليـة القدرة، وهذا يعني أن العنـف الرمزي يرتدي حلة سلطـة معنوية خفيـة تفرض نظاماً من الأفـكار والـدلالات والمعـاني والعلامات بوصفها مشروعة؛ وفي كل الأحوال فإن هذه السلطة تعمـل على إخفـاء علاقات القوة الكامنة في أصل هذه السلطة أو في تكوينات العنف الرمزي عينه.

ووفقـاً لهـذا التصـور فـإن العنـف الرمـزي شكل مـن أشكال العنـف الذكي، وصيغة سوسيولوجيـة متقدمه من تجلياته العلميـة؛ حيـث يمارس هـذا العنف دوره وفاعليته الثقافية في مختلف ميادين الحياة الاجتماعيـة، ويتميز هـذا العنف بخاصة الـذكاء والقدرة على التـواري، إنه نوع من العنف الذي يعيش في خفايا الحياة ويتخفى في ثناياهـا، إنه شـكل من أشـكال العنف المتخفي والملتبس والمتواري عن الأنظار.

وينزع العنف الرمزي إلى توليد حالة من الإذعان والخضوع عند الآخر بفرضه لنظام من الأفـكار والمعتقـدات الاجتماعية التي غالباً ما تصدر عن قوى اجتماعية وطبقية متمركزة في موقع الهيمنة والسيادة، ويهدف هـذا النوع من العنـف إلى توليد معتقدات وأيديولوجيـات محددة وترسيخها في عقول وأذهـان الذيـن يتعرضون لهـذا النوع من العنف. فالعنف الرمـزي ينطلق من نظرية إنتاج المعتقدات، وإنتـاج الخطاب الثقافي، وإنتاج القيم، ومن ثم إنتاج هيئة من المؤهلين

الذين يمتازون بقدرتهم على ممارسة التقييم والتطبيع الثقافي في وضعيات الخطاب التي تمكنهم من السيطرة ثقافياً وأيديولوجياً على الآخر وتطبيعه.

والعنف الرمزي وفقاً لذلك هو القدرة على بناء المعطيات الفكرية بالإعلان عنها وترسيخها، كما أنه القدرة على تغيير الأوضاع الاجتماعية والثقافية عبر عملية التأثير في المعتقدات وتغيير مقاصدها، وبناء تصورات أيديولوجية عن العالم تتوافق مع إرادة الهيمنة والسيطرة التي تقررها الحاجات السياسية لطبقة اجتماعية بعينها،

فالعنف الرمزي تعبير عن حضور رأس مال رمزي يتجلى في صورة عناصر ثقافية (قيم، تصورات، أفكار، معتقدات، مقولات، إشارات، ورموز...الخ)، وبالتالي فإن رأس المال الثقافي ينزع إلى امتلاك السلطة الثقافية - أي المشروعية في الحضور والممارسة- وهذا يعني أن ممارسة العنف الرمزي مرهونة بوجود رأسمال رمزي، وبالتالي فإن هذا الرأسمال يُتوّج بسلطة رمزية تعبر عن مشروعيته، والمشروعية تعني هنا قبول هذه السلطة على أنها مشروعة وحقيقية من قبل هؤلاء الذين تمارس عليهم.[٦]

ومن أجل تقديم تصور بسيط للعنف الرمزي، وتحديد سماته ودلالاته وخصائصه، يمكن مقارنته بالعنف الفيزيائي أو المادي من حيث الآثار التي يتركها كل منهما، وفي هذا الاتجاه يرمي عبد الإله بلقزيز بدلوه للتمييز بين العنف المادي والعنف الرمزي حيث يقول «ثمة حاجة للتمييز بين نوعين من العنف هما: العنف المادي والعنف الرمزي. العنف المادي يلحق الضرر بالموضوع (الذي يمارس عليه العنف) فيزيائياً في البدن، أو في الحقوق، أو في المصالح أو في الأمن... إلخ. أما العنف الرمزي، فيلحق ذلك الضرر بالموضوع سيكولوجياً: في الشعور الذاتي بالأمن والطمأنينة، والكرامة والاعتبار، والتوازن»[٧]. ويتابع بلقزيز مقارناً بين عواقب كل نوع منهما فيقول «ولا يقل الثاني (أي العنف الرمزي) عن الأول في فداحة العواقب، وهو وإن لم يكن يمس حق الحياة لدى الفرد والجماعة -كما هو شأن العنف المادي أحياناً- إلا أنه قد يصيب المتعرض له في ما قد يكون مقدساً لديه، بل قد يكون هذا الضرب من العنف مرحلة نحو ممارسة العنف المادي، وعلى العموم، لا يختلف معنى العنف في هذا النوع عن معناه في الثاني وهو: انتزاع المطالب بالقوة، وإكراه الآخر على التنازل عنها أو الاعتراف بها».[٨]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي هذه المايزة بين العنفين يتبين لنا بأن العنف الرمزي قد يكون أكثر فاعلية وقوة في تحقيق الغايات التي يسعى إليها من العنف الكلاسيكي الفيزيائي في حال تحقيق النجاح. وهنا يجب أن نركز على أن مشروعية هذا العنف قد تكون هي العامل الأهم في تحقيق ما يمكن أن يحققه من هيمنة وخضوع.

وبعبارة أخرى، يمكن القول: إن العنف الرمزي أكثر قدرة وفاعلية من العنف السياسي الأمني الذي تمارسه الدولة عبر رجال الأمن والشرطة في ظروف محددة، وإنه من أكبر أخطاء الكلاسيكيات الماركسية - كما يرى بورديو - «أنها لم تعر هذه القوة الرمزية الخفية اهتمامها ولاسيما هذه التي تمارس فعلها في المجال الاقتصادي».(٩)

وتأسيساً على هذه المقارنة بين العنف الرمزي والعنف المادي يمكننا من حيث المبدأ أن نعرف العنف الرمزي بأنه «كل سلطة قادرة على فرض نظام من الدلالات والمعاني بوصفها مشروعة وذلك عبر عملية إخفاء علاقات النفوذ والقوة التي توجد في أصل هذه القوة ذاتها»(١٠)، وهذا يعني:

- أن العنف الرمزي يأخذ صورة سلطة تفرض نفسها على نسق من الأفراد.

- أن هذه السلطة تفرض نظاماً من الدلالات والقيم والمعاني الرمزية.

- يأخذ العنف الرمزي صورته المشروعة بقدرته على إخفاء مقاصده وإخفاء علاقات القوة.

- يأخذ العنف الرمزي صورة خفية حيث يتغلغل تأثيره في وعي ضحاياه بصورة عفوية دون إحساس منهم بإكراهات العنف التقليدية.

- وأن هذا العنف يأخذ طابعاً رمزياً اعتباطياً. وهذه الاعتباطية ناجمة عن دور هذا العنف في تعزيز اللامساواة الاجتماعية وتأصيل الفوارق الطبقية وإضفاء طابع الشرعية على معطياتها من أجل تمجيد طبقة اجتماعية بعينها لما تمتلك عليه من نفوذ وقوة وقدرة اقتصادية وثقافية. وهي اعتباطية لأنها لا تقوم على أية معايير منطقية أو مبادئ أخلاقية أو فكرية من أي نوع. وهذه السلطة الرمزية الثقافية «مشروعة» بمعيار ما تبدو كنتيجة حتمية ناجمة عن عملية تجاهل مستمر وتبخيس دائم لأطفال الطبقات الدنيا في المجتمع.

هذا هو «العنف الرمزي» الذي يحدثنا عنه عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو في كتابه عن «الهيمنة الذكورية»، حيث يعلن بأن العنف الرمزي «عنف شفاف هادئ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يخترق عتبة البصر فلا تقع عليه العين ولا يرى حتى من قبل ضحاياه»[11]، ويقوم هذا العنف على تأصيل المشاركة بين الضحية والجلاد في نسق من التصورات والرؤى والمقولات والمعاني والمفاهيم والأفكار. فالعنف الرمزي هو الذي يفرض المسلمات التي إذا انتبهنا إليها وفكرنا فيها بدت لنا غير ما هي عليه من مصداقية وأن التسليم بها كان خطأً فادحاً. وهي مسلمات تجعلنا نعتبر الظواهر التاريخية الثقافية طبيعة سرمدية أو نظاماً إلهياً عابراً للأزمنة. ويعد العنف الموجه ضد المرأة من أكثر مشاهد العنف الرمزي المقنّن عبر التاريخ الذي تعود ممارساته إلى أعمق أبعاد التاريخ الإنساني. وأشد أنواع العنف الثقافي هو ذلك العنف الرمزي الذي يبدو بديهيا، ويفرض نفسه على الضحية والجلاد والقاضي، ويقول عن نفسه: إنه ليس عنفا.[12]

ففي محاولة منا لتفسير مقولة بورديو حول العنف الرمزي في مجال العنف الموجه ضد المرأة قمنا بتجربة- ربما فريدة من نوعها ولكنها كانت في صلب التجاوب مع هذا النوع من العنف الرمزي التاريخي المقنن ضد المرأة، لقد سألنا طالبات كلية التربية في الفصول المختلفة السؤال التالي: لماذا ترتدي المرأة في دول الخليج وبعض الدول العربية اللون الأسود على الدوام؟ فكانت الإجابة مدهشة جداً، لقد بينت أغلب الإجابات لأن اللون الأسود هو اللون الملوكي أو هو سيد الألوان أو هو لون الاتزان. وكان السؤال الذي يليه مباشرة: إذا كان اللون الأسود سيد الألوان، ولون الاتزان، فلماذا يرتدي الرجال لوناً آخر هو اللون الأبيض؟ وهنا ترتسم الحيرة على وجوه الطالبات ولا يجدن إجابة موضوعية. ثم نحاور الطلاب بقولنا إن الطقس في دول الخليج العربي حار جداً واللون الأسود يمتص الحرارة ويزيد درجتها، فلم ترتدي النساء اللون الأسود؟ الطالبات يقدمن إجابات غير منطقية وتأخذهن الحيرة من جديد. بعض الطالبات رددن القول إن هذه مجرد عادات وتقاليد. نعم هي كذلك، ولكن لماذا العادات والتقاليد تقرّ اللون الأسود للمرأة في الصيف حيث درجة الحرارة عالية؟ ولماذا يرتدي الرجل اللون الأبيض الذي يصدّ موجة الحرّ؟ وتبقى الأسئلة حائرة دون إجابة شافية!!!

فاللون الأسود يرمز، عند أكثر الشعوب، إلى الحداد والحزن والانقباض، إنه لون المآتم والأحزان كما أنه لون الظلام، وهو يرمز إلى الجهل والدونية عند أكثر الشعوب. أما الأبيض فيرمز إلى الإشراق والفرح

والطهارة والبراءة. في هذه الحالة فإن اللون الأسود رمز ثقافي يحطّ من شأن المرأة ويحاصرها لاشعورياً، وعندما ترتديه فإنها تتعرض لوضعية رمزية تبخيسية تتماثل مع الحزن والظلام والجهل والدونية والدنس. أما اللون الأبيض للرجل فيرمز إلى الترابط بين الرجل والنور والمعرفة والاستبصار والبراءة والطهارة.

ومما لا شك فيه أن المرأة لا تشعر بالعنف الرمزي الذي يمارسه اللون الأسود، بل تدافع عنه وتراه مشروعاً إن لم تعل من شأنه، وتسميه سيد الألوان. وهذا يعني أن المرأة لا تشعر بعنف اللون كما أنها لا تشعر بسلطته وضغطه، بل تتبناه فكرة وسلوكاً وتراه الأفضل، وهذا ما يبرره بوصفه عنفاً رمزياً ينساب في العقول والنفوس دون أن يشعر به ضحاياه ودون أن يستشفوا إكراهه وضغطه، وهذا ما يلمح إليه بورديو بالقول «إخفاء علاقات القوة كشرط أساسي من شروط العنف الرمزي». وهنا يمكن لنا أن نقول إن المرأة هنا تتمثل تصورات أيديولوجية رمزية تعطي للرجل الأهمية بينما تقلل من شأنها وهي تتمثلها بصورة خفية دون أن تشعر بها إطلاقاً.

فالهيمنة الذكورية نموذج للسيطرة الرمزية، وهي نتاج لما يمكن أن يسمى بالعنف الرمزي، وهو عنف ناعم غير محسوس وخفي عن هؤلاء الذين يخضعون لتأثيره، وهذه الفعالية الخفيّة للعنف تتم بتأثير الممارسة الرمزية في عملية الاتصال والمعرفة. ومما لاشك فيه أن هناك عدداً كبيراً من الفعاليات الرمزية التي تحاصر المرأة وتدفعها إلى تبني تصورات دونية حول ذاتها بفعل الأيديولوجية الذكورية.

سلطة الرمز:

يمتلك الرمز في ذاته عنفه الخاص ويتمثل عنفه في قوته وقدرته على التأثير، فهو يمتلك سحر الكلمة وجمال الصورة وروعة الدلالة ورشاقة الكلمة إنه شفاف ساحر غامض يمتلك سلطة جمالية. ووفقاً لهذه الصورة يأخذ العنف الثقافي والعقائدي والأيديولوجي صورة عنف رمزي يفرض نفسه في مجال القيم وحقل الرموز والدلالات والمعاني. فمنذ بداية التاريخ استخدمت الرموز في السيطرة على الكون الأعلى وضبط القوى الكونية (العالم الميتافيزيائي) التي تمتلكها، كما وظف في السيطرة على أقدار البشر وتحديد مصيرهم الاجتماعي. وكم كان الرمز عبر التاريخ أشبه بالضوء الذي تحترق به الفراشات عشقاً وانجذاباً وافتتاناً.

فالرمز ينطوي على قوة سحرية جمالية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدسة تهون في سبيلها النفوس والأفئدة والمُهج، فالعلم رمز للوطن، وهذا الرمز يحرك المشاعر والعواطف، ويدفع الجنود إلى الموت دفاعاً عن العلم كرمز لعزة الوطن وشرفه، ويفيض تاريخ المعارك الإنسانية وحروبها بصور الجنود الذين يقذفون أنفسهم على مشاطر السيوف وأسنة الرماح في سبيل الإبقاء على علم بلادهم مرفوعا. وهنا يكمن شكل من آلاف الصيغ التي تدل على القوة الهائلة التي يمتلكها الرمز في نفوس البشر.

والرمز كلي القدرة إذ يمتلك في ذاته على قوة سحرية في جوهره، كما يمتلك في ذاته على قيمة جمالية، فهو في جوهره قيمة جمالية، لأن الرمز إبداع فني في الأصل والمبتدأ، فالفنانون هم الذين يصوغون الرمز ويرسمون جماله، وهذه القوة الجمالية والسحرية ترفعه إلى مراتب القدسية، حيث كان الرمز ملهم الأسطورة وأداتها، وفي الأساطير تتألق الرموز بوهجها الأسطوري السحري الخلاق الذي يفتن البشر ويؤثر في سلوكهم.

ونظرا لما يمتلك الرمز في ذاته من طاقة وقدرة وقوة، فقد وظّفه الإنسان، منذ القدم، في استجواب العالم العلوي، عالم الأرواح والقوى الكونية العليا، وحاول عبر الرموز ذاتها أن يخاطبها، وأن يؤثر في سلوكها ليتجنب أخطارها وكوارثها. لقد أعمل الإنسان القديم مخياله الخصب في رصد القوى الميتافيزيائية من أرواح وآلهة وقوى كونية، فرصدها في رموز، وجسدها في علامات حسية، ورسم خيوطها في حكايات وأساطير، ومن ثم وظفها في السيطرة على حركة هذه القوى وتوجيهها وتجنب مخاطرها، فاخترع لها «الطواطم» والتعويذات والطقوس الاحتفائية والحركات والإشارات السحرية، وذلك كله من أجل ضبط أقدار هذه القوى وتوجيه تأثيرها ورسم أبعاد حركتها، وذلك لطرد الأرواح الشريرة، واستمالة الآلهة، وما شاكلها من قوى كونية، كان يراها كلية القدرة والاقتدار. **لقد حارب الإنسان القديم الوحوش الكاسرة والضارية بالعصا والنار والحجارة والحراب والسكاكين بوصفها قوى مادية، ولكنه لجأ إلى الرموز والمعاني كأسلحة هائلة للدفاع عن قدره إزاء القوى الكونية الميتافيزيائية.** وفي هذا يتضح أن الإنسان استخدم الرموز في صراعه مع القوى الكونية الأكثر قوة وفتكاً وعنفاً من القوى المادية المحسوسة الملموسة. وهذا يعني أن الإنسان القديم وجد في الرموز قوة هائلة، فوظفها في صنع الأقدار والمصائر الإنسانية. ووفقاً لهذه الرؤية كان

الإنسان القديم البدائـي مدججا بأسلحته الرمزيـة من كلمـات وإشـارات وهمهمات ورقصـات وتعويـذات وطقوس سحريـة واحتفـالات طقوسية اعتقد أنها قادرة على طـرد الأرواح والقوى الشريرة وجلب المنافع واستمالـة عالمه «الأنيمـي» والاستفادة من طاقتـه وقدرته. وعبر الرمز اعتقد الإنسان القـديم أنه يستطيع أن يؤلب القوى الكونية بعضهـا ضـد بعض وأن يستميـل بعضا منهـا في حربه ضد بعضهـا الآخر، فنسج الأساطير المثقلـة بالرموز التي تتحدث عن الآلهـة والقوة والقضاء والقـدر. فالرمز- في صيغـة الاستخدام الإنساني الأول - كان يرمز إلى القوة والقدرة، وكان سلاح الإنسان ضد القـوى الطبيعية والأنيمية في مواجهة الحياة والقدر.

ويمكـن تلمّس قوة الرمـز في التوظيف الإنسـاني في اتجاهـين أساسيـين، يتمثل الاتجـاه الأول في تجريد الكـون المادي إلى رمـوز ودلالات ومعـاني وكلمـات، ويتمثل الاتجاه الثاني في تجسيد الغامض والمعنوي والروحـي والميتافيزيائـي في علامـات وإشارات وتعيّنات مادية.

وتبدو سلطة الرمز في النمط التجريدي وقوتـه واضحة للعيان حيث اختزل الإنسان موجـودات الكون في رمـوز وإشارات لغوية وغيرها، فأتاح له ذلك أن يمارس سلطته في فهم العالم وفي الكشف عن أسراره. ومن غير الرموز يستحيل علـى الإنسان التفكير، كما تصبح العملية المعرفية في دائرة الاستحالة، ومن هنا تأخـذ العلوم الطبيعيـة أهميتها الكبيرة حيث تأخذ هذه العلوم طابعاً رمزياً واضح المعالم كما نراه في الكيمياء والفيزياء والرياضيات. والسـؤال هنا هل كان هناك ثمة إمكانية لظهور هذه العلوم وتطورها من غير الصيـغ الرمزية التي اعتمدتها في بناء منظوماتها العقلية؟

لقد بيّنا، في البداية، أن الإنسان استخدم الرمز كسـلاح في مواجهة القـوى الكونية الخفية، حيث رسم ملامح هذه القوى عبر الرمز فجسدها وحاصرها وامتلكها نسبياً، واستطـاع أن يتجنب بطشهـا عبر طقوسه الرمزيـة والسحرية المعروفة: لقد منح لكل قـوة طبيعة كبرى رمـزاً، وجعل لهـا إلها، فجسده في علامـات ودلالات وإشارات، ثم رسم حركة الكون ودورته في أساطير رمزية، جعلت الكون البعيد الأعلى مفهوماً ومعلوماً ومحسوساً، فوضعه في دائرة الفهم إن لم يكن في دائرة السيطرة.

وإذا كان الإنسان القـديم قـد آمـن، في حقيقـة الأمر، بقدرة رمـوزه على تغيير المصـير في عالم الآلهة والقوى الطبيعية غير

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرئية، فإنه حري به أن يؤمن بقدرة الرمز نفسه وفاعليته في التأثير على الإنسان نفسه، وهنا بدأت دورة إيمانه الاجتماعي بقوة الرموز وخطورتها في عالمه الإنساني ذاته. ووفقا لهذا التصور تطور الرمز الإنساني ليتحول إلى قوة ثقافية هائلة تمارس ضغطها وهيمنتها على فئات اجتماعية بعينها؛ لقد وجد منتجو الرموز -من كهنة وسحرة وعرافين- أنهم يستطيعون توظيف رموزهم هذه في السيطرة على وسطهم الاجتماعي، فشحنوها بالطابع المقدس، ووظفوها في تحقيق هيمنة طبقية واسعة وشاملة في مختلف العصور. وما زال الرمز يأخذ دوره الكبير كسلاح طبقي توظفه الطبقات الدينية والدنيوية في تكثيف السلطة والهيمنة والتمايز في المجتمعات الإنسانية.

لقد ظهرت أكثر استخدامات الرمز كقوة اجتماعية في حقل الكتابة، فعندما نتأمل في طبيعة التوظيفات الأولى للكتابة، سنجد بأنها قد وظفت في مجال تأكيد السلطة وتعزيز حضورها في المجتمع. لقد استخدمت الكتابة (وهي رموز أو أنساق رمزية) في وضع الكشوف المالية والقوانين وصوغ الأوامر والتعليمات، كما وظفت من أجل الضبط والمراقبة والمحافظة على رأس المال والممتلكات والخيرات المادية في مختلف العصور والمراحل التاريخية، كما أنها كانت أفضل أداة في السيطرة السياسية وفي تعزيز سلطة الأقليات على أكثرية البشر. (١٣)

ويمكن القول تأسيساً على ما تقدم بأن الرمز يفيض بقوته الذاتية، حيث فرض نفسه قوة هائلة في المخيال الإنساني، فعمل على بناء المعاني وتوليدها، وامتلك لاحقاً القوة العلمية فجعل المعرفة الإنسانية ممكنة والعلم متاحاً والحضارة كينونة قائمة؛ وتأسيساً على هذه الرؤية يمكن القول إن الرمز يجسد صورة رأسمال رمزي ويمكنه أن يتجلى في صورة سلطة رمزية قادرة على الفعل والتأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية.

خاتمة:

عندما نتحدث عن السلطة فهذا يعني الحديث عن القوة المشروعة التي يمتلكها مجتمع أو مؤسسة أو فرد اجتماعي. فالسلطة هي القوة المشروعة اجتماعياً. وهذا يعني بأن الأمن والشرطة وأدوات الضبط الاجتماعي في الدولة تمثل أدوات مشروعة تستخدمها الدولة في فرض سلطتها ونظامها. ومن هنا فإن أي ممارسة للعنف تبدو مشروعة إذا كان هدفها المحافظة على سلامة المجتمع وأمنه، ووفقاً لهذا التصور فإن الرمز يمثل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سلطة مشروعة وعنفاً مشروعاً لأنه يعبر عن تصور اجتماعي عام، أي يحظى بإجماع أفراد المجتمع أو أكثرهم.

وفي هذا السياق ينظر بورديو إلى «السلطة الرمزية» من حيث هي قدرة على تكوين المعطى، عن طريق العبارات اللفظية، ومن حيث هي قوة على الإبانة والإقناع، وإقرار رؤية عن العالم أو تحويلها، ومن ثم قدرة على تحويل التأثير في العالم، وبالتالي تحويل العالم ذاته. وهي في النهاية قوة سحرية تفوق في تأثيرها قوة المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، وذلك لما تمتلك عليه من قدرة على التعبئة. ويؤكد بورديو على مشروعية السلطة الرمزية لأنها تأخذ طابعاً فاعلاً في حياة الناس: «إن ما يعطي للكلمات قوتها ويجعلها قادرة على حفظ النظام أو خرقه هو الإيمان بمشروعية الكلمات ومن ينطق بها»[١٤]. فالمنظومات الرمزية باعتبارها أدوات للمعرفة تفرض نفسها كسلطة، وسلطة تربوية، وهي بالتالي تشكل سلطة لبناء الواقع وتغييره، إنها باختصار كما يراها دوركهايم أدوات للتضامن الإنساني والفعل الاجتماعي في الآن الواحد.[١٥]

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول إن السلطة تأخذ صورتها الرمزية في مدى قدرتها على إدراك نفسها كسلطة، وفي قدرتها على اكتساب الاعتراف بوجودها ومشروعيتها ومن ثم فإن فعالية هذه السلطة لا تتم في نسق من الفعاليات الفيزيائية بل في نسق المعرفة والمعتقد.

إن السلطة، مهما تكن ضرورتها أو شرعيتها، تغري من يمتلكها بممارسة التعسف والعنف، وهي إغراء يتملّك من يمارسها، وإن العنف هو بالضرورة حصاد هذه الغواية وذاك الإغراء.[١٦]. فالحكام غالباً ما يسقطون فريسة إغراء التعسف وغواية التسلط، إذ إنه يستحيل على أصحاب السلطة ألا تكون لهم أهواء، وألا يعشقوا سلطتهم الخاصة، وذلك لأن وجود السلاح في اليّد يغري صاحبه بالقتل.

الهوامش

1- Paul Ricœur, Histoire et vérité, Paris, Le Seuil, 1955, p. 227.

٢- بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة بين رفض العرب والإسلاميين والترويج الغربي رؤية نقدية، المنطلق الجديد، العدد الثالث، صيف- خريف ٢٠٠١، صص٢٠٥-٢٤٦، ص ٢٣٥.

3- Bourdieu P., Passeron J.C., La reproduction. Eléments pour une théorie du système

d’enseignement, Paris, Les éditions de Minuit, 1970.

٤- بيـير بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٠٢.

٥- بيـير بورديـو، العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربـوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٥.

6- Pierre Bourdieu Réponses. Pour une anthropologie réflexive, Seuil, Paris, 1992 , p.123.

٧- عبـد الإلـه بلقزيز، العنف السياسي في الوطـن العربي، المستقبل العربي، عـدد(٥)، ١٩٩٦، صص(٦٨-٨٥)،ص٧٢.

٨- عبد الإله بلقزيز، العنف السياسي في الوطن العربي، المرجع السابق ص٧٢.

9- Pierre Bourdieu Réponses. Pour une anthropologie réflexive, Seuil, Paris, 1992 , p.141.

10-Bourdieu P., Esquisse d'une théorie de la pratique, Paris, Droz, 1972, p.18

11- -Bourdieu Pierre: La Domination masculine, Seuil, 1998, pp. 7 - 8

12-Bourdieu Pierre: La Domination masculine, Seuil, 1998, pp. 7 - 8

13-Lévi-Strauss, in Georges Charbonnier, Entretiens avec Lévi-Strauss, Paris, Union générale d>éditions, 1961, pp. 32 - 33.

١٤- بيـير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص٦٠.

١٥- بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص ٥٤.

١٦- فريـق من الاختصاصيين: المجتمـع والعنف، ترجمة إلياس زحلاوي، منشـورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥، ص١٤٢.

صمويل هانتغتون

دراسة وتحليل

د. ماري سركو [*]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تستهدف هذه القراءة بعض ما جاء في نظرية صدام الحضارات لصمويل هانتغتون[1] التي أثارت عندما نشرت قبل عقدين من الزمن تقريباً ردوداً متباينة في الأوساط السياسية تراوحت بين مؤيد ومتحفظ وتركزت بمعظمها حول العلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب وهو نقاش أثير ولم يخمد حتى اليوم[2] وقبل البدء بمناقشة بعض ما جاء في فرضية(هـ) سوف نحاول أن نضبط المصطلح وهو معنى كلمة حضارة ومن تعريف(هـ) لها نبدأ حيث يحدد ذلك قائلاً: (إن الحضارات هي أعلى تجمع ثقافي للناس

---

* أديبة وناقدة سورية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب ولا يسبقها إلا ما يميز البشر عن الأنواع الأخرى وهي تتحدد في آن معا بالعناصر الموضوعية المشتركة مثل: اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب لنفسه).

وعلى الرغم من عدم الاتفاق حتى الآن على معنى كلمة حضارة باللغة العربية والاختلاف البين عند ترجمة الكلمات المقابلة باللغة الإنكليزية أو الفرنسية، فإن كل ما كتب حتى الآن ونشر متفق على أن (الحضارة) مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين أو العقيدة الدينية، وأن صدام الحضارات المتوقع سيكون على الأرجح بين الإسلام من ناحية والحضارة الغربية المسيحية -المتهودة من ناحية أخرى (لأن المسيحية المشرقية في حالة تناغم وعيش مشترك مع الإسلام المشرقي منذ ألف وأربعمئة عام) وقد وقعت مقالة صمويل(هـ) في معركة لغوية حول كلمة حضارة في اللغة العربية فعندما ترجمت كلمة (civilization) بكلمة حضارة ثار سؤال حول كلمة (culture) التي كانت تترجم سابقاً بمعنى حضارة وأحياناً بمعنى ثقافة، ولكن الجدل الحالي يدور حول معنى الكلمة الأولى أي (civilization) والتي كانت سابقا بمعنى مدنية. وعلى أي حال فإن الشائع الآن وخصوصاً بعد مقالة (هـ) الأخيرة هو استعمال كلمة حضارة عوض كلمة (مدنية) أو كلاهما معاً بينما يتراجع استعمال كلمة (ثقافة) نظراً إلى استعمالها أحياناً كتعبير عن وعي وإدراك إنتاج فئة من المجتمع[٣] حيث يقال ثقافة العمال أو ثقافة الفلاحين أو ثقافة العسكر.. فيما تشتمل كلمة مدنية المجتمع أو المجموعة البشرية بكل فئاتها، وتجمع سمات (ثقافاتها) المشتركة.

وإذا سلمنا أن الحضارة هي أعلى تجمع ثقافي تتحدد بالعناصر المشتركة كاللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسسات وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب لنفسه، ومنه يمكن القول: إن للناس مستويات من الهوية فمن يقطن روما مثلاً حدد نفسه أنه من أهل روما، أو إيطاليا أو كاثوليكي أو مسيحي، أو أوروبي، أو غربي، والحضارة التي ينتمي إليها هي أوسع مستوى للتحديد يعرف به نفسه، لذلك يستطيع الناس أن يعيدوا تحديد هوياتهم والنتيجة هي تغير تكوين الحضارات وحدودها، والحضارات تمتزج وتتداخل وهي كيانات هادفة ديناميكية تزدهر وتنهار وتنقسم وتندمج، ويظن الغرب أن الدول الأمم هي القوى الفاعلة الأساسية عالمياً في الشؤون الدولية، فالإطار الأوسع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للتاريخ الإنساني كان تاريخ الحضارات حيث إن التفاعل الثقافي المهم في المستقبل سيكون بالتفاعل بين سبع أو ثمان حضارات كبيرة هي (الغربية، الكونفوشيوسية، اليابانية، الإسلامية، السلافية، الأرثوذكسية، اللاتينية، وربما الأفريقية.[٤])

والحضارة أيضاً هي حاصل فعالية العقل الذي به أعطى الإنسان أن يدرك وجوده ومقدمات وجوده ووسائل تحقيق لماهية الإنسان أرقى مراتب الحياة[٥] هذا التعريف الحضاري وحده صالح لتكوين النظرة العقلانية للإنسان والكون وبفضل الكشف عن الحقيقة الكبرى الإنسان - الكامل - المجتمع، ننطلق لتعريف الحضارة الجديدة، أي أن يتم دفع وتطوير الحضارة بعوامل إنسانية راقية، وهذا ما يعبر عنه في تراثنا العربي والإسلامي ذي الوجه الحضاري الإعماري الراقي الذي قصر كثير من أبناء الحضارات الأخرى في فهمه أو ربما قصر أبناء الحضارة المشرقية في

إيصاله بوجهه الحقيقي للغرب الذي يهاجم الحضارة العربية والإسلامية دون هوادة.

والفرضية المركزية التي يحاول(هـ) تأكيدها هي أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون خطوط المعارك في المستقبل المنظور والصراع السياسي سيكون بين الحضارتين الإسلامية والغربية قبل أن تبلغا مرحلة التعايش في عالم يضم حضارات متعددة.

إن موضوع صدام الحضارات ليس آخر صرعة في عالم يجمع بين الاستشراف الدبلوماسي وفلسفة التاريخ، إنه يمثل الإطار المفاهيمي لسياسة «الاحتواء المزدوج» التي تنتهجها الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط العربي الإسلامي منذ حرب الخليج الثانية. وكان له وظيفة استراتيجية في مواجهة الإسلام السياسي بشقيه الأصولي والتوفيقي مما أدى إلى إثارة مناظرة واسعة تخطت أصداؤها الولايات المتحدة إلى أوروبة وبقية العالم.

أما مسألة التفريق بين الصواب واللغط في الخطاب الاستراتيجي فهذا يعني أساسا التركيب المعقد لآلية صنع القرار في السياسة الخارجية للولايات المتحدة وهنا يمكن أن نذكر أهمية الأيدي الوسيطة في عملية صنع القرار. حيث إن أساس البناء الفكري الذي تستند إليه مبادرة السلام الأميركية في الشرق الأوسط والتي أطلقت في مؤتمر مدريد عام ١٩٩١م من القرن العشرين موجود في تقرير عنوانه «البناء من أجل السلام» والذي صدر في أيلول عام ١٩٨٨م عن الفريق الرئاسي للدراسات التابع لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى المعروف بتأييده المطلق لإسرائيل.[٦]

ومنذ عقدين تقريباً دخلت السياسات العالمية في مرحلة جديدة قدم من خلالها المثقفون الأميركيون رؤى لما ستكون عليه مثل نهاية التاريخ وعودة النزاعات التقليدية بين الدول والأمم وانهيار تلك الدول الأمم جراء الدوافع المتعارضة بين النزعة القبلية والعالمية، إضافة لأمور أخرى. وحيث إن المصدر الأساسي للنزاعات في العالم الجديد أيديولوجياً أو اقتصادياً بالدرجة الأولى، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، والنزاع المسيطر مصدره ثقافي وستظل الدول /الأمم هي أقوى في الشؤون الدولية. والنزاعات الأساسية في السياسة العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية لأن الخطوط الفاصلة بينها ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل. وسيكون النزاع بين

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور النزاع في العالم الحديث، ومع نهاية الحرب الباردة تحركت السياسات الدولية في مرحلتها الغربية، فأصبح المركز الرئيسي لها هو التفاعل بين الحضارات الغربية وغير الغربية، وفي تلك السياسات لم تعد شعوب وحكومات الحضارات غير الغربية موضوعات للتاريخ باعتبارها أهدافاً للاستعمار الغربي بل انضمت إلى الغرب باعتبارها من محركي التاريخ ومشكليه(٧) وسيكون النزاع في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات، حيث أن الفروق بين الحضارات أساسية (اللغة، التاريخ، الثقافة، التقاليد، والأهم الدين). وعلى مرِّ الأزمنة والقرون ولدت الاختلافات بين الحضارات أطول النزاعات وأعنفها وأصبح اليوم العالم أصغر وتزايد التفاعل بين الحضارات مما يزيد من وعي الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بينها، والعوامل المشتركة داخلها.

ولا ننسى أن عملية التحديث الاقتصادي والتغير الاجتماعي في أنحاء العالم تفصل الشعوب عن الهويات المحلية القديمة والراسخة، كما تضعف الدولة الأمة كمصدر للهوية، وفي كثير من أنحاء العالم ترك الدين لملء هذه الفجوة وغالباً على شكل حركات توصف (بالأصولية) وقد وجدت مثل هذه الحركات في المسيحية الغربية، واليهودية، والبوذية، والهندوسية، وكذلك الإسلام.

ونتيجة الدور المزدوج للغرب القوي تعزز نمو الوعي بالحضارة.(٨) ومع ذلك فهناك اتجاه للعودة نحو الجذور إلى الداخل (صبغ اليابان بالصبغة الآسيوية مثلاً) وإعادة الأسلمة في الشرق الأوسط.

إن الخصائص والفروق الثقافية أقل قابلية للتبديل، والحلول الوسط والتسويات هي الأهم في السياسة والاقتصاد ومن المرجح أن يستمر تعزيز أهمية الكتل الاقتصادية الإقليمية في المستقبل فالنزعة الإقليمية الاقتصادية الناجحة ستدعم من ناحية الوعي بالحضارة ومن ناحية أخرى قد تظهر تلك النزعة عندما تضرب فقط بجذورها في حضارة مشتركة، فمثلاً الجماعة الأوروبية تقوم على أساس مشترك للثقافة الأوروبية والمسيحية الغربية، واليابان رغم قوة الروابط مع بلدان شرق آسيا فإن اختلافاتها الثقافية معها ربما تحول دون تعزيز التكامل الاقتصادي الإقليمي على نحو ما هو قائم في أوروبة وأمريكا الشمالية(٩).

ومع انتهاء الحرب الباردة أخذت الجماعات التي تجمع بينها ثقافة مشتركة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تتغلب تدريجا على الاختلافات الأيديولوجية حيث تتجه الصين الأم وتايوان نحو علاقات أوثق، وإذا كانت الوحدة الثقافية شرطا للتكامل الاقتصادي فمن المرجح أن تتركز في المستقبل الكتلة الاقتصادية الأساسية في شرق آسيا على الصين.

وعليه فإن صدام الحضارات سوف يحدث (على حد قول هانتغتون) على مستويين جزئي تتصارع فيه المجموعات المتجاورة على امتداد خطوط التقسيم بين الحضارات بصورة شديدة -عادة- للسيطرة على أراضي بعضها البعض، ومستوى عام تتنافس الدول ذات الحضارات المختلفة على القوة العسكرية والاقتصادية وللسيطرة على المؤسسات الدولية والأطراف الأخرى تتنافس على ترويج قيمها الدينية والسياسية.

ويرى (هانتغتون) إن خطوط الانقسام بين الحضارات أخذت تحل محل الحدود السياسية والأيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاط تفجر الأزمات والمذابح، مثلاً إن الانقسام الثقافي لأوروبة بين المسيحية الغربية من ناحية والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام من ناحية أخرى قد عاد للظهور وقد يكون أهم خط تقسيم في أوروبة هو الحدود بين فنلندا وروسيا وبين دول البلطيق وروسيا ويمتد عبر روسيا البيضاء وأوكرانيا فاصلاً غرب أوكرانيا الأكثر كاثوليكية عن شرقها في الغرب ليفصل ترانسلفانيا عن باقي رومانيا ثم يمتد عبر يوغوسلافيا على امتداد الخط الذي يفصل حالياً كرواتيا وسلوفينيا عن باقي يوغوسلافيا. وبالطبع فإن هذا الخط يتوافق في البلقان مع الحد التاريخي بين الإمبراطوريتين الهابسبورغية والعثمانية. ويقول: إن خط النزاع وفق خط الانقسام بين الحضارتين الغربية والإسلامية مستمر منذ ١٣٠٠عام.

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ الغرب يتراجع واختفت الإمبراطوريات الاستعمارية، وبرزت القومية العربية أولاً ثم الأصولية الإسلامية، وأصبح الغرب معتمداً بصورة كثيفة على بلدان الخليج الفارسي[١٠] للتزود بالوقود واغتنت الدول النفطية بالمال والأسلحة، ويتصور(هـ) أن التفاعل العسكري الذي يمتد عمره قروناً بين الغرب والإسلام ليس من المرجح أن ينحسر بل قد يصبح أكثر خطراً، إن بلداناً عربية عدة، إضافة إلى دول النفط بلغت مستويات من التنمية الاقتصادية والاجتماعية أصبحت فيها الأشكال الأوتوقراطية المطلقة للحكم غير مناسبة، وغدت الجهود لإدخال الديمقراطية أكثر إلحاحاً، وكانت الحركات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإسلامية هي المستفيدة الرئيسية من هذه التحولات. إن الديمقراطية الغربية في العالم العربي التي تفرز القوى السياسية المعادية للغرب ربما تكون عابرة ولكن لا شك في أنها تعقد العلاقات بين الدول الإسلامية والغرب وفي كلا الجانبين يعتبر التفاعل بين الإسلام والغرب صدام حضارات ويلاحظ «م ج أكبر» وهو مؤلف مسلم هندي، إن (المواجهة ستأتي حتماً من العالم الإسلامي)، لماذا كانت المواجهة ستأتي من العالم الإسلامي؟ إن الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا لا ليتصادموا، وإن كان هناك صدام فالغرب كان البادئ وهو الأظلم، إن الصراع سيبدأ من أجل نظام دولي جديد انطلاقاً من طغيان الموجة الكاسحة التي تمتد عبر الأمم الإسلامية من الغرب إلى باكستان.

وقد توصل برنارد لويس[11] إلى نتيجة مماثلة: (إننا نواجه مزاجاً وحركة يتجاوزان كثيراً مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تنتهجها، ولا يقل هذا عن كونه صداماً بين الحضارات ربما غير عقلاني، لكن لا شك في أنه رد فعل تاريخي لخصم قديم «لتراثنا -اليهودي- المسيحي» وحاضرنا العلماني والتوسع العالمي لهما معاً).

إن عودة مفردات ثقافة القتال إلى التداول، والسبب برأي الغرب أن الأقليات المسيحية في المشرق العربي الإسلامي قد تضطهد طائفياً (إن الذي شجع ذلك الاضطهاد هو الغرب نفسه ليجد حجة للتدخل لحمايتها) هذه المآثر المنمقة تدعو للشفقة، حيث أنها لا تقدم حلولاً لما يحصل يومياً، لكنها تدعم نظريات وطروحات برنارد لويس، وصمويل(هـ) عن صدام الحضارات[12]

ويعتبر(هـ) أن الخلافات بين الحضارة الأوروبية والأميركية أقل منها بين الحضارة الأميركية واليابان مثلاً، وتتباين التفاعلات بين الحضارات وقد تتسم بالعنف خاصة في مجال المنافسات الاقتصادية، ويظهر الخط التاريخي الفاصل بين الحضارات من جديد، على حدود الهلال المؤلف من مجموعة البلدان الإسلامية في أفريقية إلى آسية الوسطى، كذلك ينتشر العنف بين المسلمين من ناحية، وبين الصرب الأرثوذكس في البلقان واليهود في (إسرائيل) فلسطين[13] المحتلة، والهندوس في الهند، والبوذيين في بورما، والكاثوليك في الفلبين من الناحية الأخرى ويخرج صمويل(هـ) بنتيجة غريبة «إن للإسلام حدوداً دموية ».[14]

من الطبيعي عندما تدخل مجموعات من حضارة واحدة في حرب مع شعب من حضارة

أخرى أن تطلب المساعدة من الشعوب التي تشترك معها في الانتماء إلى الحضارة نفسها، وعلى الرغم من أن النزاعات ليست حرباً شاملة بين الحضارات، إلا أن كل منها يحتوي على عناصر تعبئة حضارية، كأن يظهر للآخرين مزيداً من الأهمية مع استمرار الصراع، وهو نموذج لما سيحدث في المستقبل، ومثال عليه حرب الخليج ومواقف الدول منها، ويقارن المسلمون بين أعمال الغرب ضد العراق، وفرض عقوبات على إسرائيل لانتهاكها قرارات الأمم المتحدة، ويدعون أن الغرب يكيل بمكيالين، ويقرر هنتغتون فيقول: إنه من المحتم أن يكون عالم الحضارات المتصادمة هو عالم الكيل بمكيالين، فالناس يكيلون بمكيال للبلدان التي تمت إليهم بقرابة وبمكيال مختلف للآخرين. وكذلك ستحدث النزاعات بين الدول والمجموعات داخل الحضارة نفسها ولكنها أقل حدة وتوسعها أقل مقارنة بنزاعات بين الحضارات، ذلك أن الانتماء الواحد إلى حضارة ما يقلل احتمال العنف في مواقف كان يمكن أن يحدث فيها لولا الانتماء الحضاري المشترك لها مثل (روسيا - أوكرانيا عام ١٩٩١- ١٩٩٢م).[١٥]

ومن المرجح أن تتحول النزاعات المحلية في السنوات القادمة إلى حروب كبيرة كما هو الحال في البوسنة والقوقاز على الحدود الفاصلة بين الحضارات وستكون الحرب العالمية الثالثة إذا ما نشبت حرباً بين الحضارات، إن الغرب اليوم في أوج قوته (فقد انتهت الحرب الباردة بتفكك الاتحاد السوفييتي) مقابل الحضارات الأخرى. والنزاع العسكري بين دول الغرب أمر مستبعد وقوته العسكرية بلا منازع ولا يواجه الغرب أي تحد اقتصادي ما عدا اليابان (ما نراه اليوم من انهيارات اقتصادية غربية يدحض نظرية صمويل (هـ) تلك) وهو يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية ويسيطر مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدولية، وتسوّى القضايا الدولية بوساطة مجلس إدارة مكون من الولايات المتحدة وألمانيا واليابان وكلها ترتبط ببعضها بصورة وثيقة غير عادية. إن القرارات التي يتخذها مجلس الأمن، أو صندوق النقد الدولي، والتي تعكس مصالح الغرب تقدم للعالم باعتبارها قرارات تعكس رغبات المجتمع العالمي، بل إن تعبير «المجتمع الدولي» هو اسم جماعي ملطف محل «العالم الحر» لإعطاء مشروعية عالمية على الأعمال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة والغرب.[١٦][١٧]

ومن خلال صندوق النقد الدولي يدعم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغرب مصالحه الاقتصادية بفرضه على الدول الأخرى سياسات يرى أنها مناسبة وعند سؤال الشعوب الأخرى غير الغربية واستطلاعها فإن ذلك الصندوق لن يحظى سوى بتأييد وزراء المالية وقلة غيرهم، فالجميع متفق على توصيف مسؤولي الصندوق بأنهم (البلاشفة الجدد الذين يحبون الاستيلاء على أموال الآخرين وفرض قواعد غربية للسلوك الاقتصادي والسياسي وتقليص الحرية الاقتصادية).

والواقع إن الغرب يستغل المؤسسات الدولية، والقوة العسكرية، والموارد الاقتصادية لإدارة العالم بطرائق تحافظ على الهيمنة الغربية، وتحمي مصالحه وتدعم القيم السياسية والاقتصادية الغربية. وهكذا فإن الفروق في القوة والصراعات والقوة العسكرية والاقتصادية والمؤسسية هي أحد مصادر النزاع بين الغرب والحضارات الأخرى إضافة للاختلافات الثقافية أي القيم والمعتقدات الأساسية التي تعتبر مصدراً ثانياً للنزاع. إن المفهوم القائل إنه يمكن أن تكون هناك (حضارة عالمية) هو نفسه فكرة غربية تتناقض بصورة مباشرة مع خصوصية معظم المجتمعات الآسيوية وتركيزها على ما يميز شعب عن آخر. والواقع بعد دراسة مقارنة عن القيم توصل إلى أن القيم الأكثر أهمية في الغرب هي الأقل أهمية على النطاق العالمي وهناك جهود تبذل من الولايات المتحدة والدول الغربية لدفع الشعوب الأخرى إلى تبني الأفكار الغربية في ما يتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان لقد نبع الحكم الديمقراطي الحديث من الغرب[١٨]، وعندما تطور في المجتمعات غير الغربية كان عادة نتاجاً للاستعمار الغربي أو الفرض الغربي. وسوف يتمثل المحور المركزي والسياسات العالمية في المستقبل في النزاع بين الغرب وبقية العالم وردود الحضارات غير الغربية على القوة والقيم الغربية وتتخذ أحد ثلاثة أشكال هي:

١- في الشرق الأقصى تستطيع دول مثل بورما وكوريا الشمالية اتباع مسار العزلة لتعزل مجتمعاتها عن تسلل الفساد من الغرب أي عدم المشاركة في المجتمع العالمي الذي يهيمن عليه الغرب ولكن تكاليفه عالية واتبعته دول قليلة.

٢- محاولة الانضمام إلى الغرب وقبول قيمه ومؤسساته.

٣- والبديل الثالث هو محاولة (موازنة) الغرب بتطوير قوة اقتصادية وعسكرية والتعاون مع المجتمعات غير الغربية ضد الغرب مع الحفاظ على القيم والمؤسسات المحلية الأصيلة أي باختصار: (التحديث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دون التغريب) وفي المستقبل عندما يحدث التمايز فيما بينهم، بحسب الحضارة فإن البلدان التي توجد فيها أعداد كبيرة من الشعوب ذوي الحضارات المختلفة، مثل (الاتحاد السوفييتي، يوغوسلافيا)، مرشحة لتقطيع أوصالها (كما يقرر هانتغتون)، ولدى بعض البلدان الأخرى درجة عالية من التناغم الثقافي لكنها منقسمة حول ما إذا كان مجتمعها ينتمي إلى حضارة أو إلى أخرى وتلك هي البلدان الممزقة، وعادة يرغب زعماؤها في اتباع استراتيجية جعل بلدانهم أعضاء في الغرب، لكن تاريخ هذه البلدان وثقافاتها وتقاليدها ليست غربية وتركيا هي أبرز وأوضح بلد ممزق، فقد سار زعماء تركيا بداية القرن العشرين على تقاليد أتاتورك وعرفوا تركيا باعتبارها دولة لأمة حديثة وعلمانية وغربية. وخلال نهاية القرن الماضي، كان وضع المكسيك مماثلاً نوعاً ما لوضع تركيا، وإذا كانت تركيا من الناحية التاريخية هي بلد ممزق فإن المكسيك أكثر البلاد الممزقة قرباً للولايات المتحدة وروسيا هي أهم بلد ممزق على النطاق العالمي.[19]

ويعتبر(هـ) أن روسيا في معظم تاريخها كانت بلدا ممزقا ولا تزال في مطلع التسعينيات من القرن الماضي ولكي يعيد بلداً ممزقاً تحديد هويته الحضارية، ينبغي عليه أن يفي بثلاث متطلبات:

١- ينبغي أن تكون النخبة السياسية - الاقتصادية مؤيدة لهذا التحرك ومتحمسة له.

٢- أن يكون الرأي العام مستعداً للإذعان لإعادة هذا التحديد.

٣- ينبغي أن تكون الجماعات المسيطرة في الحضارة المتلقية راغبة في تبني التحول. جميع هذه المتطلبات (كما يرى هـ) متوافرة في المكسيك، والأول والثاني في تركيا، وليس واضحاً أي منها في روسيا وإذا رفض الروس الديمقراطية -الليبرالية الغربية واتبعوا قيمهم القديمة، فإن العلاقات بين الروس والغرب قد تصبح مرة أخرى علاقات تباعد وتأزم.

وعليه يتباين حجم العقبات التي تقف في وجه انضمام البلدان غير الغربية إلى الغرب بصورة كبيرة فهي أقل بالنسبة إلى أميركا اللاتينية وشرق أوروبة وأكبر بالنسبة إلى البلدان الأرثوذكسية في الاتحاد السوفييتي السابق، وأكبر بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، والكونفوشيوسية، والهندوسية، والبوذية[20]. أما اليابان فقد أقامت لنفسها وضعا فريدا كعضو منتسب للغرب، فهي في الغرب من بعض النواحي،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وليست في الغرب في أمور مهمة، وتتنافس البلدان التي لا تريد الانضمام للغرب بسبب الثقافة والقوة مع الغرب عبر تطوير قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الخاصة، وتقوم بالتنمية الداخلية بالتعاون مع البلدان غير الغربية وأبرز مثال لهذا التعاون هو الصلة الكونفوشيوسية - الإسلامية التي ظهرت لتتحدى القيم والقوة الغربية (كدول الأسلحة) ويتركز الصراع بينها وبين الغرب على الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية والصواريخ البالستية. ويروج الغرب لعدم الانتشار باعتباره قاعدة عالمية لمعاهدات عدم الانتشار والتفتيش، وأهمها توسع القدرة العسكرية للصين وتنميتها، وهي مصدر مهم للأسلحة ولتكنولوجيا السلاح فقد باعت لإيران تكنولوجيا نووية، ولدى كوريا الشمالية برنامج لأسلحة نووية، وقد باعت صواريخ متطورة وتكنولوجيا الصواريخ لسوريا وإيران (كما يقول هـ).

وهكذا تشكلت رابطة عسكرية كونفوشيوسية - إسلامية تهدف إلى دعم حصول أعضائها على الأسلحة لمواجهة القوة العسكرية للغرب هذه الرابطة قد تستمر أو لا تستمر، بيد أنها تشكل في الوقت الحاضر حلفا للدعم المتبادل (للمارقين على سياسة الغرب العاملين على نشر الأسلحة ومن يظاهرونهم... على حد تعبيره.[٢١]

السؤال المهم هنا هو: ما هي الآثار الضمنية لهذه النظرية على الغرب؟[٢٢] إن (هـ) لا يقول إن الهويات الحضارية ستحل محل الهويات الأخرى وإن الدول الأمم سوف تختفي، وأن كل حضارة ستصبح كياناً سياسياً متماسكاً موحداً، وإن المجموعات داخل حضارة ما لن تتنازع أوتحارب بعضها بعضاً، إن الخلافات بين الحضارات حقيقية ومهمة، وأن الوعي بالحضارة آخذ في التزايد وأن العلاقات الدولية التي كانت عبارة عن مباراة يتم لعبها داخل الحضارة الغربية ستتغير وينزع طابعها الغربي وتصبح مباراة تكون فيها الحضارات غير الغربية قوى فاعلة فيها وليست مجرد مفعول به، وسيزداد احتمال تطور المؤسسات الاقتصادية والأمنية والسياسية الناجحة داخل الحضارات، والنزاعات بين المجموعات في الحضارات المختلفة ستكون أكثر تأثيراً وعنفاً واستدامة في النزاعات بين المجموعات في الحضارة نفسها وستكون مصدراً للتصعيد الذي يؤدي إلى حروب عالمية وأن الأهم في السياسات العالمية تتمثل في العلاقات بين (الغرب والآخر)، وأن النخب في البلدان التي وصفت بالمزقة (غير غربية) ستحاول جعل بلدانها جزءاً من الغرب، لكنها ستواجه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عقبات في سبيل تحقيق ذلك، وأن بؤرة النزاع في المستقبل ستكون بين الغرب ودول إسلامية وكونفوشيوسية عدة وهذه النتائج الضمنية تقسم إلى نتائج تعطي أفضلية للغرب في الأجل القصير، ونتائج تسوية في الأجل الطويل. وما يتفق في الأجل القصير، مع مصلحة الغرب هو أن يدعم التعاون والوحدة المتزايدين داخل حضارته وخصوصاً بين أوروبة وأمريكا الشمالية، وأن تدمج في الغرب مجتمعات في أوروبة الشرقية وأمريكا اللاتينية لأن ثقافاتها قريبة من ثقافة الغرب كما يقول(هـ) وأن يتم الحفاظ على علاقات التعاون مع روسيا واليابان ومنع تصاعد النزاعات المحلية داخل الحضارات إلى حروب كبيرة والحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية -الكونفوشيوسية والاعتدال في تخفيض القدرات العسكرية الغربية والحفاظ على التفوق العسكري في شرق آسيا وجنوبها الشرقي، واستغلال النزاعات بين الدول الإسلامية - الكونفوشيوسية، ودعم المجموعات الحضارية المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية وتقوية المؤسسات الدولية التي تعكس المصالح والقيم المشروعة للغرب وتدعم مشاركة الدول غير الغربية في تلك المؤسسات، أما في المدى الأطول، فهنا سيتطلب الأمر اتخاذ تدابير أخرى، فالحضارة الغربية غربية وحديثة في آن معاً.

وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تصبح حديثة دون أن تكون غربية، لكن اليابان فقط هي التي نجحت في هذا المسعى، وستواصل الحضارات غير الغربية محاولة الحصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والآلات والأسلحة التي تشكل جزءاً من الحداثة، كما ستحاول التوفيق بين هذه الحداثة وثقافاتها وقيمها التقليدية وستزيد قوتها الاقتصادية والعسكرية بالنسبة للغرب، ومن ثم سيتعين على الغرب أن يتصالح بصورة أكبر مع هذه الحضارات الحديثة غير الغربية التي تقترب قوتها من قوته، وإن كانت قيمها ومصالحها تختلف بصورة كبيرة عن قيمه ومصالحه.

ويقتضي هذا أن يحتفظ الغرب بالقوة الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه بالنسبة إلى هذه الحضارات، بيد أن ذلك يقتضي أيضاً أن يطور الغرب منهجاً أعمق للفروض الدينية والفلسفية الكامنة وراء الحضارات الأخرى والطريقة التي ترى بها شعوب هذه الحضارات مصالحها، وسيقتضي ذلك جهداً لتحديد العناصر المشتركة بين الحضارة الغربية

وغيرها من الحضارات، وبالنسبة للمستقبل لن تكون هناك حضارة عالمية، بل عالم يضم حضارات مختلفة ينبغي أن يتعلم كل منها التعايش مع غيره، وسيكون الحوار أهم طرق تعلم التعايش مع الآخرين في الحضارات المختلفة وإذا سلمنا بذلك نسأل عن ضرورة الحوار بين الغرب والشرق ومبرراته ومحاولة الالتقاء حول نقاط مشتركة في الحقوق والواجبات؟؟

سيكون ذلك بالعمل على التقريب بينها وتوسيع الحوار للحيلولة دون تشكل عقبة في سبيل التفاهم والتفاعل الاستراتيجي المشترك قاصدين في ذلك تغيير كثير من الأفكار والمفاهيم الثقافية والحضارية الراسخة لدى الغرب عن الإسلام ورسالته وتكيفه مع الواقع المعاصر وتكيف الآخرين معه، وهي محاولة في الوقت نفسه لمحو كثير من الإشكالات والتناقضات التاريخية بين الشرق الإسلامي والغرب عموماً.[٢٣]

إن الغرب نفسه كان في نهضته الصناعية الأولى يعرف أهمية وأولوية تأمين مصالحه والحصول على الموارد، فحملته على الشرق كانت استعماراً اقتصادياً، في الدرجة الأولى تحميه بعد ذلك القوة العسكرية وبعد ذلك الثقافة هكذا كان ترتيب أفواج القادمين إلى الشرق: الشركات أولاً ثم الإدارة والجنود ثم التبشير والمعلمون والإعلام من بعد ذلك.[٢٤]

وعندما أدرك الغرب أن الحوار على القضايا الاقتصادية والمصالح قد تجاوزته الأوضاع بقي له إما أن يرتد إلى العصبية العرقية أو إلى صراع الحضارات، وأن كثيراً من الأصوات التي تدرك أن صراع الحضارات هو قضية يجب التصويب عليها اليوم وهذا هو الوقت الذي ينبغي أن يدرك فيه المسلمون ضرورة الحوار وتعريف الآخرين بالرسالة الإسلامية وأن يتدبروا الوسائل المناسبة لإيصال الرأي الإسلامي إلى الآخرين. وأن يضعوا لذلك برنامجاً ويخطوا منظومة استراتيجية تراعي ضرورة بناء مستقبل الأمة على قواعد تأخذ بالحسبان خلاصة التجربة الإنسانية والعلم الإنساني والتراث العربي الإسلامي العريق إضافة إلى توضيح مقاصد الدين وغايته الإنسانية الراقية.

السؤال المهم هو: هل الحضارات مناطق منعزلة بعضها عن البعض الآخر؟ في الواقع إن الحضارات تتلاقح وتتلاقى وتتحاور وهي ليست جزراً منعزلة بعضها عن البعض الآخر[٢٥]

لا شك أن نهاية الحرب الباردة أدخلت السياسة العالمية في مرحلة جديدة ومع ذلك

فإن تأثيرها ليس أحادي الاتجاه، اختفت المواجهة بين المعسكرين وقد انتهى النزاع الأيديولوجي، ولكن الأكثر شيوعاً اليوم التنازع الاقتصادي والسياسي بين الدول الكبرى ولم تصبح الحضارة ولا الثقافة هي مصدر النزاع الأساسي في هذا العالم الجديد.

عالم اليوم يشبه عالم الثلاثينيات الذي حدثت فيه تغيرات هامة وهناك أوجه تماثل متزايدة فقد تغيرت الرأسمالية الغربية كثيراً والكساد الحالي يشبه الكساد الكبير ربما أن الاتحاد السوفييتي وألمانيا النازية قد زالا لكن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدت إلى ظهورها ما زالت قائمة كالارتباك الاقتصادي وكراهية الأجانب والشعوبية.[٢٦]

انتهت الحرب الباردة ولكن ما زالت الحرب الساخنة تستعر في ثلاثين بلداً، وأكثر المهاجرين من البلدان الفقيرة إلى الغنية ومن الريف إلى المدن، الأمر الذي يشكل ظاهرة كما سماها صندوق الأمم المتحدة للسكان (الأزمة الراهنة للجنس البشري) ويصعب القول إنها جاءت نتيجة للنزاع بين حضارات مختلفة.

من المفارقة أن صمويل(هـ) يرى «انبعاثاً للكونفوشيوسية»[٢٧] في الوقت الذي يقوض التدهور الروحي والتفسخ المعنوي الأساس الثقافي للصين. وذلك أن مدة طويلة من الحكم الشيوعي دمرت الدين، والتعليم وحكم القانون والمعنويات، وها هي عملية نزع الطابع الإنساني هذه الناجمة عن الاستبداد والفقر المطلق والإلحاد في عصر رئيسها (ماو) تظهر اليوم في التطلع الكبير للسلطة والنفوذ والمتع الجسدية لدى كثير من أفراد المجتمع الصيني[٢٨]، إن مواجهة هذا الفراغ المعنوي والروحي لا (كما يرى هـ) مشكلة الصين وحدها بل كل الحضارات فهل يكون القرن الحادي والعشرون عصراً يمكن أن تندمج فيه الحضارات من خلال التفاعل والتوافق في الرأي؟

وبهذا تساعد الناس على كسر الدوائر القديمة لعملية نزع الطابع الإنساني، إن التخلص من الفقر والعبودية هما أقل مشكلات الصين شأناً والمهمة الأصعب هي عملية إنقاذ الناس أنفسهم بأنفسهم أي تحويل الناس الخائفين إلى بشر حقيقيين ولا ريب أن إثراء روح الإنسان هو المهمة الأطول والأشق وهي مهمة تتطلب استخدام خير ما في الحضارات جميعاً وليس التصويب على ما بينها من خلافات.

وبقراءة التاريخ يتم التمييز بين الحضارات التي سادت ولا تزال موجودة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المجتمع العالمي ومن خلال الحوار يتبنى الناس مواقف معينة وينسبون أنفسهم إلى هذه الحضارة أو تلك أو يقرأ البعض التاريخ من زاوية حركة (هذه الحضارات وصراعها فيما بينها، فإن الحضارة هي أقلها حركة وتبدّلاً وتغيراً ولهذا السبب تعد الحضارة حاضنة لتاريخ مجموعة بشرية مميزة وتعطي سلوك المجموعة طابعه وتوفر لها الشعور بالجماعة، أو ما يعرف في الكتابات الحديثة الإجماع الوطني أو القومي. وعندما يبحث البعض في صراع الحضارات يعتمد مقاييس مؤقتة أو متغيرة كأن يقول «هزمت الحضارة» أو «انتصرت الحضارة» أو «تخلفت الحضارة» أو تقدمت وينسب ذلك بالطبع إلى الجماعة البشرية التي تنتمي إليها.

الحضارات لا تهزم في المعارك أبداً.[٢٩] (هل هزمت حضارة الرافدين العظيمة أمام الغزو البربري الأميركي الصهيوني عام ٢٠٠٣م؟؟)--- فأي معركة هي لحظات مؤقتة في مجرى تاريخي طويل، ويتفق الجميع على الرغم من اختلاف التعريفات أنها ظاهرة تاريخية أي ذات استمرار تاريخي، والذين يهزمون هم أبناء الحضارات، إن زلزال الاحتلال الأميركي أدى إلى خلق معطىً جديد إذ وضعت آلية جديدة للتفكيك ذات طابع استعماري قائمة على ترسيخ (الطوائف) قاعدة للنظام عبر توزيع مراكز السلطة حسب الطوائف، وقد زاد من قلق الشعوب علاقات القرابة القائمة بين استراتيجية التقسيم الأميركية الجديدة، واستراتيجية الدولة الإسرائيلية المتجددة باستمرار، التي ترى أنه يجب تدمير وتجزئة كل البلدان العربية وتحويلها إلى وحدات صغيرة (خاصة بلاد الشام والعراق).[٣٠] وقد يحدث أن يهزم جيلٌ أو أكثر وربما أدت هزيمة أبناء حضارة ما إلى استفزاز الأجيال التالية لهم لجلاء وجه حضارتهم والاستنجاد بها (وهذا ينطبق على الحضارة العربية الإسلامية المشرقية اليوم) والحضارات قد تندثر وتنضج وتشيخ، وتلك عملية تاريخية طويلة جداً. ومنذ بدء التاريخ الميلادي لا يذكر أن حضارة ما قد اندثرت، وأن الحضارات التي نتحدث عنها هي امتداد لحضارات سابقة، وهذا الامتداد تدريجي دون انقلاب إلا في حالات الكوارث، نأخذ ثورة الاتصالات مثلاً التي تعم العالم كله الآن توفر للحضارات جميعاً ولأبنائها فرصاً جديدة لم تكن متوافرة فيما سبق للاستمرار والتطور والتفاعل مع غيرها من الحضارات، وفي الصراعات ذات الأسباب المادية نجد البعض ينسب إلى حضارة ما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنها مصدر هذا الشر أو العدوان، أو أنها حضارة عنيفة بطبعها (وهو ما يقال عن الإسلام من جانب الغرب) وعندما يتكلمون يرجعون ذلك إلى جوهر الحضارة وليس إلى تصرفات أبنائها.[٣١] وهذه مشكلة يواجهها العالم الإسلامي، وخاصة عندما تقدم وسائل الإعلام العالمي أفعالاً يقوم بها مسلمون باعتبارها أفعالاً (إسلامية). والقول أن الإسلام والحضارة الإسلامية حضارة مولدة للعنف وغير متسامحة في جوهرها مع أن ذلك غير صحيح لأن جميع الحضارات والأديان هي بحكم التعريف متسامحة وإلا ما كانت لتدوم آلاف السنين السؤال الذي لا بد من طرحه هو: هل يمكن تجنب الصدام بين الحضارات؟

إن الحديث عن صدام الحضارات يعني صداماً بين أبناء هذه الحضارات وبصرف النظر عن نتائج الصدام، فقد تظهر نتائج الصدام في أبناء الحضارات، وقد تتغير تلك النتائج مع استمرار الصدام نفسه لأسباب داخلية وخارجية معاً، ولا تتغير الحضارات ذاتها بل ما يتصوره هؤلاء الأبناء عن الحضارات هو الذي يتغير، فالحضارات تظل محتفظة بعوامل تكونها في جوهرها. ومع ذلك يجب التسليم بأن طيف الوعي البشري ليس وسطاً حيث توجد جماعات تظن أن لها دوراً تبشيرياً في نشر حضارتها /ثقافياً أو دينياً/ وستسعى لنشرها بكل السبل السلمية أو بالعنف، ولو كان أمر نشر الدين لهان الأمر، فالأديان تنشر الإيمان بالموعظة الحسنة (لا إكراه بالدين). ومثل ذلك فرض القيم الاجتماعية والأيديولوجية كالشيوعية مثلاً والقيم الليبرالية، ولعل مفكراً مثل (فرنسيس فوكوياما) صاحب مقولة نهاية التاريخ وانتصار الليبرالية - الغربية وانهيار الشيوعية، قد كشف بوضوح عن النوازع الرسالية في الدوائر القيادية الأميركية وهو إن ذلك تنظيراً فإن الإدارات الأميركية المتتالية تطبقها مذ زمن وتربط بين اتفاقات المعونة والمبادلات التجارية وغيرها، وبين تنفيذ القيم الغربية ولا سيما الأميركية منها. وبالنسبة لهذه المرحلة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية يجد أبناء الحضارة الإسلامية (عرباً وغير عرب) مسلمين ومسيحيين كما يجد أبناء الحضارات الأخرى غير المسيحية (كاليابانية والصينية والهندية وغيرها) في ذلك معركة مفروضة وبلغة خطاب مفروض - الصراع العربي - الإسرائيلي مثلاً الذي يراد منه أن يصل إلى مرحلته النهائية لأسباب دولية وإقليمية ومحلية، وبقدر ما يكون العرب المسلمون والفلسطينيون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أصحاب مشروع مبادر للمستقبل ورؤية دينية وحضارية مقاومة ترفض الاستسلام لاغتصاب الحق ومقاومته بكل السبل، تقل خسارتهم وتتعاظم مكاسبهم للوقوف في وجه الجماعات البشرية التي جاءت بها هذه الغزوة من كل أنحاء العالم، أما القول بإمكان تجنب الصدام وانتهاء الصراع العربي -الإسرائيلي فإن مفكري الغرب وقادته ومفكري إسرائيل وقادتها لا يقولون بذلك، إن الصدام الحضاري مفروض على العرب والمسلمين كما هو مفروض على جميع أبناء الحضارات الأخرى غير الغربية وهو صدام مباشر في منطقتنا ما دامت أرض فلسطين ومدينة القدس الشريف محتلة من قبل هذه المجموعات البشرية التي تقدم نفسها باعتبارها قاعدة الحضارة الغربية في الشرق.[٣٢] مع أنه صدام بين أبناء هذه الحضارات ويعبر عنه(هـ) بصدام الحضارات ونحن نسأل السيد صمويل(هـ): إنه صدام حضارات أم إدارة صدامات تخدم مصالح الغرب وأهدافه العدوانية ضد كل من يقف في وجه تلك الأهداف ويقاوم للوصول إلى الحق والحرية؟؟. ومع ذلك فقد حظيت مقالة(هـ) باهتمام واسع ولا سيما لدى بعض القوى القومية والإسلامية التي وجدت فيها خطاباً غربياً يعترف بالحضارة الإسلامية طرفا في الصراع العالمي وتهافتاً على نظرية نهاية التاريخ التي حظيت أيضاً غداة انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة باهتمام وتعليق بلغا حد الضجيج عندما يتعلق الأمر بصدور مقولة أميركية يراد لها أن تسوق وتروج في العالم وفي لحظة معينة من لحظات موازين العلاقات الدولية. في المقالة الأولى ظهر أن المهمة العاجلة التي حملتها مقالة فوكوياما بنهاية التاريخ هي التبشير بانتصار الليبرالية كنهاية لصراع الأيديولوجيات في العالم بعدما هزمت الشيوعية وأخذت تبحث عن خلاصها في صيغ من الديمقراطية الغربية وصدرت المقالة الثانية غداة عودة الفكر الديني والقومي للساحة في أوروبا وآسيا[٣٣]. يبدو أن المهمة التي تريد إنجازها مقالة صدام الحضارات هي الدعوة إلى طريقة من التعايش مع نوع من الأزمات في العالم مرشحة لأن تتفاقم وتستمر وهذا النمط من التعايش يقوم (كما تنتهي إليه مقالة صمويل(هـ))، على الدعوة إلى احتواء القوى التي تثير الصدامات بين الحضارات لا الاعتراف بها، وأنه يتعين على كل حضارة أن تتعلم التعايش مع الحضارات الأخرى.

إن عناصر الصدام التي يلخصها (هانتغتون) ليبني عليها فرضيته لا تتدرج في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نسق ومفهوم الحضارات إنها تعبر عن أزمة نظام عالمي يمر في النقطة الحرجة التي تجعل منه كما يقال (فوضى الأمم).[٣٤] وإن ما يقترحه(هـ) بصيغة شكل دعوة إلى تعايش الحضارات واحتواء أسباب انفجارها هو نوع من إدارة الأزمات في عالم الفقراء الذي يتفجر فيه الديمغرافيا والثقافات. ولهذه المقالة الجديدة القديمة دور هو نوع من إدارة للنقاش الفكري والثقافي ومحورته حول مركزية الخطاب الاستراتيجي الأميركي، إنه نوع من إدارة الأزمة من باب الفكر والثقافة في انتظار خطاب أميركي جديد بعد أن ينتهي الدور الاستهلاكي لخطاب(هـ) كما انتهى قبله خطاب فوكوياما حول نهاية التاريخ. إنها ليست المرة الأولى التي يدور فيها الحديث عن صراع الحضارات في التاريخ، فمنذ القرن التاسع عشر وظهور الإمبريالية العالمية الغربية على أنقاض النظام العالمي العربي المشرقي كثر الحديث عن الصراع بين شرق وغرب، وعن حضارة غربية يحمل أصحابها رسالة التمدن إلى العالم. والمسألة الشرقية لخصت هذا الصراع التي يعود إليها(هـ) ليعتبرها حقل صدام بين الحضارات، بين الرأسماليات الغربية وماديتها ولبراليتها الجاذبة ويقابلها حضارة (ثقافة) إسلامية مقاومة واجتماع سياسي إسلامي يمثله بشكل أساسي الدولة العثمانية.[٣٥]

والتحول الرأسمالي السابق ذكره جاء من العلاقات بين المشرق وأوروبة، عندما تحالف سليمان القانوني (الثاني) مع فرانسوا الأول عام ١٥٣٥م مما أدى إلى ترسيخ مجموعة من الاتفاقيات[٣٦] (الامتيازات) والتنازلات التي منحت الفرنسيين حقوقاً كثيرة مثل التنقل والتجارة وإقامة الشعائر الدينية ومنح القناصل صلاحية تسوية المشاكل بين مواطنيهم على أرض السلطنة، وقد توسعت هذه الاتفاقيات فيما بعد فحصلت عليها دول أخرى مثل بريطانيا والنمسا وروسيا وكانت الأساس القانوني لبناء العلاقات بين السلطنة ومعظم الطوائف فيها والغرب اقتصادياً وتجارياً وسياسياً وثقافياً خاصة المسيحيين منهم. وستقوي هذه العلاقات النفوذ المحلي الطائفي ويخدم مشاريع الغرب الأوروبي لتجزئة المشرق العربي وباقي أراضي السلطنة التي تحققت مع نهاية الحرب العالمية الأولى، بعد فصل البلقان واليونان ومصر وغيرها عن جسم السلطنة[٣٧] وبالعودة إلى صدام الحضارات اليوم نجده شكلاً من أشكال الممانعات الثقافية وحركات الاحتجاج والرفض والحروب الأهلية الناتجة عن عجز الحضارة

الغربيـة أن تصبح عالمية بسبـب تطابقها مـع مشروعها الرأسمالي. عـن ما لا يقوله خطاب (صـدام الحضارات) المتأخر هو أن انبعاث الثقافـات الفرعية لحضارة قديمة كالحضارة الإسلامية على سبيل المثال، هو صيغـة من صيغ يقظة المغلـوب الذي يلجأ إلى الذاكـرة الجماعيـة الثقافية للاحتماء والاحتجاج والرفضـ. إن العرب والمسلمين اليوم لا ينتجـون وسائل الحضارة الحديثة ولا فلسفتهـا ولا علومها، أمـا العودة لأيام ازدهارهم فهي عودة إلى التاريخ واسترجاع لذاكـرة أو دراسة لمرحلة. وفي كلا الحالتين لا تملـك (الحضـارة الإسلاميـة) بما هي تراث روحي دينامية التصادم مع الحضارة الغربيـة المادية الحديثة هنا لابد من القول إن الأمثلة والنمـاذج التي يطرحها صمويل (هـ) هي نمـاذج طائفية - دينيـة- إثنية - وقبلية كانت في عـالم الحرب الباردة وما قبلها، وانتظمـت في عوالم قديمة - الصين - العـالم العثماني - ولم تتحـول إلى عوامل صدام إلا من التفكك والتفكيك الذي حصل لها بفعل عوامل ذاتية داخلية وخارجية، وإن العوامل الداخليـة أدت إلى عملية التفكيك التي جرت ببطء وخلال القرون الحديثة وفي خط تقاطع فيه الجمود الحضاري الذاتي، مع توسع الرأسماليات الغربية في العالم وهي عوامل خارجيـة، وفي بداية القرن العشرين وانفجار الحرب العالمية الأولى، كان النظام العالمي يتشـكل في أطرافه المستعمرات عبر تفكيك مبرمـج ومدروس[٣٨] لتلك التكوينات الثقافية والاجتماعيـة والإثنية وفقاً لمراكز النفوذ والمصالح، والـثروات، وتبعية القوى المحليـة للغرب، إن لنـدن وباريس وموسكو كان لديهـا رؤى مختلفـة لشعـوب المنطقة فاتفاقيـات سايكـس -بيكـو- سـازروف ١٩١٦م والتـي توجت بوعـد بلفور ١٩١٧م بدعم إقامة دولة يهودية في فلسطين، ستكرس تقاسـم الغنائم بين القـوى الغربية وستؤثر إلى بدايـة تقسيم المشـرق العربي. وهنا لا بد مـن التقاط (الخيط الأحمـر) الموصل بين مقولة(هـ) ومساهمات لمارتن أنديك[٣٩]، وبرنـارد لويـس[٤٠]، (كما علـق دبلوماسي غربـي متخصص في الدراسـات المشرقية الأميركية) مشـيراً إلى أن الإدارة الأميركية فرضت عملية التسوية السلمية على العرب وإسرائيـل بعـد مـا صارت تعتـبر الخطر الرئيسي على مصالحهـا الاستراتيجية في المنطقة مصـدره إيران التـي تطبق عليها سياسة الاحتـواء، باعتبار أنـه لم يعد لدى العراق ما يستدعـي الاحتواء وقال إن أكثر ما يقلق الأميركيـين الآن هو قيام علاقات تعاون في المجـال العسكري بين إيران ودول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الشرق الأقصى مثل كوريا والصين--- ويبقى التداخل في أنماط صدام الحضارات بين المستوى الأدنى للجوار الإقليمي والمستوى الأعلى للسيطرة العالمية، إن فك الارتباط بين الصراع على المستوى العالمي والصراعات الإقليمية والمحلية الأخرى كافة، قد أفسح المجال للنظر في الصراعات الإقليمية والمحلية تبعاً لخصوصيتها هي بدلاً من تناولها من منظار الصراع الأيديولوجي والاستراتيجي الشامل الذي طبع عصر الحرب الباردة. وقد يرى البعض أن ثمة وجهاً إيجابياً لهذا التحول يدعو إلى التفاؤل هو الحفاظ على السلام العالمي، وحماية البيئة، وحق البشرية في الحياة والتقدم بعيداً عن التهديد الدائم بالحروب العالمية في العصر النووي. ووجهاً آخر سلبياً ذلك أن الانهيار السريع للاشتراكية وما ظهر من ركود وانحسار للأيديولوجيات الأخرى، قد يعطي انطباعاً بالتفوق الكامن في الثقافة الغربية على حساب مبدأ التعددية الثقافية واحترام كل الثقافات الكبرى في العالم وهذا ما يلاحظ في متابعة الصحافة الأميركية والأوروبية، بل أغلبية اتجاهات الدراسات الأكاديمية في أميركية وأوروبة، ومن شأن هذا الاتجاه الذي يمكن تسميته (الغطرسة الثقافية) أن يؤدي في النهاية إلى حجب كل الثقافات في التعبير الحر عن ذاتها، وفي التفاعل الإيجابي في ما بينها. والحقيقة إن الصراع الأيديولوجي بين الشرق والغرب لم يكن هو مصدر النسبية الثقافية بل شكل (ضمانة سياسية) لهذا المبدأ، وإذا ما نجح الغرب في جعل نفسه «مطلقاً ثقافياً» عقب انتصاره على الشيوعية، فإن النتيجة ستكون سعيه لفرض الثقافة الغربية عامة، وربما التفصيلية على العالم بأسره.(٤١)

وأخيراً نتساءل لماذا لم تبحث مقالة(هـ) مسألة الغرب نفسه؟؟ حيث يظهر لنا أنه غرب منظم ومرتب داخل حدوده، ويفترض أن دعوته للوحدة ستتم تلبيتها لأن رايات العرب والإسلام، والكونفوشيوسيين ترفرف خارجه(٤٢) هو غرب ينظر لغيره ويفرض ديمقراطيته عليهم في الوقت الذي يرفض تطبيقها عند تعامله مع أبناء الحضارات الأخرى. إنه غرب يعمل على إدارة الصراعات في العالم، متجنباً الحديث عن التناقضات الثقافية والاقتصادية التي تعصف به، غرب لا يهمه سوى مصالحه الآنية المادية العليا، أما الحضارات الأخرى يجب أن تفتش عن مصالحها عندما تتوجه للتحاور مع الغرب أو غداة صراع معه، إن ما يقلق العالم اليوم بكل حضارته وشعوبه هو سيطرة الرأسمالية المتوحشة على مقدرات

وثروات العالم، المترافقة مع الظلم الاجتماعي والتلوث البيئي الخطير، أخيراً إن هذا الخطاب في إدارة الصدامات أو في صدام الحضارات هو خطاب استراتيجي أميركي يحض على ضرورة اتخاذ تدابير في المدى الطويل للتعامل مع الحضارات /الثقافات/ غير الغربية التي حاولت أن تدخل عصر الحداثة والتحديث من دون أن تتغربن لكنها فشلت في ذلك باستثناء اليابان، التحديث من دون التخلي عن ثقافاتها التقليدية وقدرتها الاقتصادية والعسكرية بالنسبة للغرب ولم تتوقف عن النمو لذلك يتعين على الغرب أن يتكيف مع هذا الوضع بالحفاظ على قدرته الاقتصادية والعسكرية وكذلك بالحصول على معرفة أفضل بالحضارات /الثقافات الأخرى وبالطريقة التي تنظر فيها الشعوب الأخرى إلى مصالحها.

ونتيجة مثل هذه الطروحات الغربية الداعية للصدام بين الحضارات والثقافات في العالم ينبغي على كل من هذه الحضارات أن تتدبر الوسائل المناسبة كل حسب ظروفه الاجتماعية والتراثية والدينية لدخول عصر الحداثة والتحديث دون أن يتغربوا ويأخذوا مثالاً اليابان التي واصلت التحديث دون التخلي عن التقاليد والثقافة القديمة وهي تنمو بكل قدراتها وتجاوز كل ما هو متخلف معيق في مختلف المجالات والصعد، حتى إنها تواجه الولايات المتحدة ذاتها اقتصادياً مع ما حل بها في الحرب العالمية الثانية لكنها ظهرت يابان جديدة معاصرة مع تمسكها بجذورها وتقاليدها، وإيران تعتبر مثالاً جيداً على التخلص من هيمنة الغرب الثقافية والاقتصادية والعسكرية والعملية بعد ثورتها الإسلامية عام ١٩٧٩م. وأخيراً نقول ل(هـ) وغيره من منظري الغرب إن ثقافتنا الدينية تعلمنا أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. صدق الله العظيم. (وليس لتتصارعوا وتتصادموا). وفي المسيحية كثير من التعاليم التي تحض على التعاون والتسامح وعدم التصادم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- السيد صمويل هانتغتون، أستاذ كرسي إيتون لعلم السياسة ومدير معهد جون م. أولين للدراسات الاستراتيجية، جامعة هارفارد/ الولايات المتحدة الأميركية.

٢- هناك قراءات كثيرة تناولت نظرية(هـ) وهذه إحدى القراءات المتواضعة التي نرجو أن تكون مختلفة،

والأهـم في مثـل هذه النظريات التركيز على مـا يجمع بين الحضارات من قيم وليس على ما بينها من خلافات.

٣- عمـر محجـوب، مفكر مصري مختص بالقضية الفلسطينية، القاهرة، مجلة شؤون الشرق الأوسط، العدد ٣٦.

٤- صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقاً ص ١٦ - ٤١.

٥- المجتمع معرفة والمعرفة قوة، جورج عبد المسيح، بيروت ١٩٧٢م ص ٦٩.

٦- صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقاً ص٩.

٧- المرجع السابق ص ١٦-٢٠-٤١.

٨- صمويل(هـ) مرجع سابق ٢٢-٢٣

٩- كما نرى اليوم انفتاح تركيا الاقتصادي على بلدان تشترك معها بالحضارة وظهور نزعة إقليمية اقتصادية مهمة بينها كبلاد الشام وإيران.

١٠- نحـن نقول: مـن المستحسن أن يسمى اليوم الخليج العربي/ الفارسي. حيث تقع على ضفته الشرقية كما هـو معلوم دولة إيـران الفارسية الإسلامية، وعلى ضفته الغربية دول عربيـة (الإمارات، قطر، البحرين، الكويت وجنوب العراق).

١١- برنـارد لويس: يحتل كرسي دراسات الشرق الأدنـى في جامعة برستون «الولايات المتحدة» وأحياناً يكلف بمهمـات استقصاء لصالح دوائر التخطيـط الاستراتيجي في واشنطن، وهذا ما فعله في أنقرة لسبر ردود الفعل التركية خلال حرب الخليج الثانية، حول احتمال توجيه ضربة عسكرية للعراق. وله محاضرة نشرتها مجلـة (افيرز) عام ١٩٩١م بعنـوان rethinking of middle east وهو من وضع مخططات تقسيم سورية

١٢- جريـدة الأخبـار اللبنانيـة - لوموند ديبلوماتيك -شبـاط ٢٠١١م ص١٢- الوجـوه المتعدد لمسيحيي المشرق.

١٣- إن انتشار العنف من قبل الإسلام ضد إسرائيل لم يكن لأن للإسلام حدوداً دموية كما يقرر(هـ) والصحيح أن هـذه المجموعـات من اليهود المستوطنين الذين جلبوا من كل أنحـاء العالم هم الذين اعتدوا على شعب فلسطين وعلى شعوب المنطقة المشرقية العربية الإسلامية ولا تزال حدود كيانهم دموية عدوانية لليوم.

١٤- صمويل(هـ) المرجع السابق ص٢٨.

١٥- المرجع السابق ص٣١-٣٢.

١٦- صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقاً ص٣٢.

١٧- يدعي زعماء الغرب بصورة لا تتبدل تقريبا أنهم يعملون نيابة عن المجتمع الدولي (العالمي).

١٨- لكــن جــذوره عميقة في تاريخ بلاد المشرق العربي ومنذ آلاف السنــين قبل الميلاد، حيث أبدعت الحاجة الشعبية المتطورة وشكلت أولى الديمقراطيات في العالم.

١٩- صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقا ص ٣٧.

20- kishori mahbubani -- the west and the east. the national interest 1992 p 34.

هــو نائب وزير الخارجية، وعميد كلية الخدمة المدنيــة في سنغافورة، عمل ممثلاً لدى الأمم المتحدة ١٩٨٤-١٩٨٩م.

٢١- صمويل(هـ) المرجع السابق ص٣-١٣ -٣٧.

٢٢- صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقاً ص ٤١- ٤٢.

٢٣- صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقاً ص ١٢٩ - ١٣٠.

٢٤- انظــر كتابنا، الامتيازات الأجنبية وانعكاساتهــا الاقتصادية والاجتماعية على بلاد الشام، وزارة الثقافة، دمشق وط١ ٢٠١٠م، فقرة الاقتصاد، وفقرة التبشير، فقرة القناصل ودورهم.

٢٥- لوبنيــان: قيــادي صيني منشق وهــو مدير (مبادرة برنستــون في شأن الصــين) نيوجرسي، المشروعات الأميركية، كتاب النظام السياسي لمجتمعات متغيرة، صمويل(هـ) ص٦٣-٦٤-٦٥.

٢٦- في مرحلــة الثلاثينــات ونتيجة تلك الأوضاع اشتعلت الحرب العالميــة الثانية التي ذهب ضحيتها ملايين منهــم، وقد توجهت الرأسمالية الغربية في بداية الألفية الثالثة نحو الحروب في مناطق متعددة من العالم، أفغانستان، العراق، لبنان، غزة، وذهب ضحيتها الملايين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢٧- الكونفوشيوسيــة: تعاليم الفيلسوف الصينــي كونفوشيوس القائمة على الأخلاق والقيم الصينية القديمة والمثل الروحية التي حفظت المجتمع الصيني على مرِّ العصور قبل غزو القيم الغربية لهم.

٢٨- - صمويل(هـ) مرجع ذكر سابقاً ص ٦٧- ٦٨.

٢٩- عمر محجوب، مفكر مختص بالقضية الفلسطينية، القاهرة، مجلة شؤون الأوسط العدد٣٦ ١٩٩٣م.

٣٠- جريدة الأخبار -اللبنانية- لوموند ديبلوماتيك- شباط ٢٠١١م ص١٢.

٣١- عمر محجوب، المقالة السابقة.

٣٢- مجلــة شــؤون الأوسط /العدد ٣٠ صــ ٦١-٦٥ ، ١٩٩٧م، وكتاب النظام السياســي ل(هـ) والأستاذ وجيه كوثراني، أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية /عضو هيئة المركز العلمية لمجلة شؤون الأوسط.

٣٣- مجلة شؤون الأوسط، العدد ٣٠، ص ٦١-٦٥.

٣٤- وجيه كوثراني، مرجع ذكر سابقاً. هو مؤيد للمحافظين الجدد في الولايات المتحدة.

٣٥- انظر كتابنا الامتيازات، فصل أوضاع السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

٣٦- انظر كتابنا المرجع السابق فصل أنواع الامتيازات.

٣٧- جريدة الأخبار - اللبنانية - ذكرت سابقاً.

٣٨- تفكك بلاد الشام بموجب اتفاقية سايكس -بيكو- سازوف بداية القرن العشرين، تفكك الاتحاد السوفييتي منتصف القرن العشرين، تفكك يوغوسلافيا نهاية القرن العشرين.

٣٩- مارتـن انديك: هو المديـر التنفيذي لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنـى، والمدير العام لشؤون الشرق الأدنى، وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي الأميركي. مؤيد لإسرائيل بشكل كامل.

٤٠- برنارد لويس، ذكر سابقاً.

٤١- ميشال نوفل، مدير تحرير شؤون الأوسط العدد ٣٠.

٤٢- فؤاد عجمي، أستاذ كرسي مجيد جذوري لدراسات الشرق الأوسط في مدرسة الدراسات الدولية المتقدمة (جان جون هوبكينز).

المراجع والمصادر

١- النظام السياسي لمجتمعات متغيرة. صمويل هانتغتون. ط١ ١٩٩٥م.

٢- المجتمع معرفة والمعرفة قوة، جورج عبد المسيح، ط٢ ١٩٧٢م بيروت.

٣- الامتيازات الأجنبية وانعكاساتها على بلاد الشام، د. ماري سركو، وزارة الثقافة، دمشق ط١ ٢٠١٠م.

٤- مجلة شؤون الأوسط الأعداد: ٢٦- ٣٠- ٣٦ - عام ١٩٩٣م.

٥- مجلة نورين أفيرز ٧٢ن٣ صيف ١٩٩٣م.

٦- جريدة الأخبار - اللبنانية - لوموند ديبلوماتيك - شباط ٢٠١١م.

7- Kishori mahbubani ---the west and east. the nationl interest 1992 p.34.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قضية الشعر وصورة الشاعر في دواوين د. وجيه البارودي

د. محمد رضوان الداية ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ أكثر من خمسين عاماً أتيح لي أن أتعرّف إلى الدكتور وجيه البارودي. كنتُ في زيارةٍ لحماة بدعوةٍ من عدد من زملاء الدراسة من أهلها؛ وأوّلهم الأديب الشاعر وليد قنباز. وكان وليد من ذلك الوقت المبكّر على صلةٍ بوجيه البارودي: يحفظ أشعاره ويردّد أخباره، ويعجب به، وينشر قصائده.

ولقيته في بعض ندواتٍ دعي إليها في جامعة دمشق، وتابعت أشعاره في دواوينه الثلاثة التي صدرت تباعاً مع فواصل زمنية بين الواحد منها والآخر.

✪ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وكنتُ -قبل زيارته في حماه وأنا طالب في قسم اللغة العربية- عزمتُ عزم طالب ما يزال في بدايات الطريق على كتابة بحث (أو تأليف كتاب) عن شعراء معاصرين برعوا في الشعر وكانوا في الصفوف الأولى ممن مارس الطبّ والصيدلة والهندسة والعلوم المختلفة...

وكان لقاء د.وجيه البارودي أوّل مرّة لهذا الغرض (الأمل)..

(١)

لم أطلع على ديوان وجيه البارودي الأول (بيني وبين الغواني) المطبوع سنة ١٩٤٩[١] إلا سنة ١٩٦٠ حين لقيت الشاعر في حماة، وتلقيت نسخة من ديوانه وكان الشاعر قد طبع الديوان في طرابلس ونقله إلى حماه، ولم يعرضه في المكتبات للبيع بل كان يهديه إهداءً. على أنني عرفت وجيه البارودي حين قرأت كتاب أستاذنا الدكتور عمر فرّوخ: (شاعران معاصران).[٢]

وحين حدّثنا الدكتور عمر في بعض وقفاتنا معه بعد المُحاضرات[٣].

وكان الدكتور عمر أحد أربعة طلاب درسوا في الجامعة الأمريكية (تخصصات مختلفة) واصطحبوا ونظموا الشعر فرادى ومجتمعين وهم: إبراهيم طوقان[٤]، ووجيه البارودي،وحافظ جميل[٥]، وعمر فرّوخ[٦].

واشتهرت قصيدة ألفها الثلاثة (إبراهيم ووجيه، وحافظ) ويبدو أن لإبراهيم فيها الحصة الكبيرة، وأول هذه المنظومة: وهي من نوع المخمسات:[٧]

ياتين يا توت يا رمّان يا عنبُ
يا دُرّ يا ماس يا يا قوتُ يا ذهبُ!
الله الله ما هذا الدلال وما
هذا الصدود؟ وما للقلب يضطربُ
يا تين ياتوت يا رمان يا عنبُ!
الشمس ما الشمس إن الشمس تنكسفُ
البدر ما البدر؟ إن البدر ينخسفُ
والدمع يا تين إن الدمع ينذرف
يا منية القلب هل وصلٌ وانصرفُ
يا تين ياتوت يا رمان يا عنب!

والشاعر ابن مدينة حماة، ولد فيها ١٩٠٦، وكانت دراسته في الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩١٨- ١٩٣٢ وتخرج فيها طبيباً عاماً ممارساً. وكانت والدته قد توفيت ١٩٢٣ وتزوج أبوه مرّة أخرى، وقلّ اهتمامه به وبإخوته (وقد أثر هذا فيه وانطبع شيء منه في شعره). ويسجّل وليد قنباز وهو يترجم له في مقدمة ديوان الشاعر الثالث، أن أول قطعة شعرية نظمها الشاعر كانت سنة ١٩٢٦، وهو في مقتبل الشباب، وكانت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قطعة غزلية، فيها روح الشباب، ورقة الغزل ولمحة الدعابة التي لم يخل شعره منها على وجوه شتى في ما بعد؛ وهي:

قالت ألستُ ملاك الحسن قلت بلى
أنت الملاك ولكنْ شانك القِصرُ!
فأطرقت يتلظى خدّها خَجلاً
والدمع في طرفها المكحول منحصرُ
تقول: هبْ قصري ذنباً أثمتُ به
أليس ذنب حبيب القلب يُغتفرُ
فأفحمتني بإعجاز وددتُ له
لو أنني أبداً أشكو وتعتذرُ!

رجع د. وجيه البارودي إلى حماه وافتتح عيادة صارت مشهورة في المدينة وفي ما حولها، وأفاد الناس بطبّه إفادة طويلة المدى (عمل في مهنة الطب أكثر من ستين سنه). وأقام وزير الصحة د. إياد الشطي سنة ١٩٩١ احتفالاً بالدكتور وجيه «لأنه أقدم طبيب متخرّج في سورية وما يزال يمارس عمله على الرغم من انقضاء ما يقارب ستين

عامـــاً على تخرّجه»[٨] ولقي تكريماً في بلده في نقابة المعلمين سنة ١٩٧٥ بمناسبة بلوغه السَّبعـين وكانت شهرتـه الشعبية في الطب والمداواة بين النـاس أشهر من كونه شاعراً يشدو بقصائد الغزل ومدارج الحياة.

وكانـت مكتبـة الجامعـة الأمريكيـة معيناً لوجيه البـارودي للمطالعة والمراجعة والحفظ. وقـارئ دواوينه يشهـد له بسعة الثقافة وبالاطلاع على وجوه الفكر والأدب (والشعر خاصة) والعودة إلى دواوين شعراء كثيرين قديماً وحديثاً.

وشعـر وجيه البـارودي يصف شخصه (حاله الظاهـرة) وشخصيّته (الخصائص والمزايا وغيرها من المِسْلك والطبع). وقد كتـبَ عدد من أصحـاب الشاعر كلمات في مقدّمات الدواوين صوروا فيها بعض ملامح الشاعـر، وبعض صفات شِعـره، ولِما كتبوه قيمة مباشرة: أكانت موضوعيّة أم تقريظية، وسنمرّ على بعضها في ما بعد.

(٢)

الموضوع الذي سـوف أعالجه من شعر البـارودي في دواوينه الثلاثـة هو: «قضية الشعـر وصـورة الشاعـر في دواوين وجيه البـارودي» الطبيب الـذي أمضى أكثر من ستين عاماً يطبّب الناس معظم نهاره وبعض ليله، ثـم استغلّ موهبـة شعرية عرفها من نفسه: تفتحت منذ أن كان طالباً في الجامعة الأمريكيـة في بـيروت، واستمرّت في حياته العمليـة، وظل ينظم الشعـر على طريقته، وأسلوبه، ومن خـلال رؤيته لوظيفة الشعر، وطبيعته. ومن هنـا كان الطرف الثاني من الموضوع وهو صورة الشاعر كما يراها وجيه البارودي، والمثال البـارز عنده هو شخصه وشخصيته (وجيه نفسه) إضافة إلى شعراء أعجبـوه، وميّز كل واحـد في الذين ذكرهم بخاصـة أو مزيّـة- أو أكـثر- تعجبه فيه، وتلفته إليه.

ودواوين الشاعر هي:

١- (بيني وبين الغواني)، وقد مرّ ذكره.

٢- (كذا أنـا): طبع سنة ١٩٧١، وجمع فيه القصائـد المنظومة بين ١٩٥٠ و١٩٧٠، طبـع في حماه (مطبعة الدبـاغ) وظاهر أن الشاعر هو الذي أنفـق عليه وأصدره دون ناشر كالديوان الأول أيضاً.

٣- (سيّـد العشـاق) دون تاريـخ، ودون ناشر، ودون اسم طابع. ولكنّ مقدّمة الديوان مؤرخـة في ١٩٩٤. ويبـدو أنّ الديوان جرى مجرى سابقيه، وضم أشعاره إلى سنة ١٩٩٢.

وقـد أشـار أ. قنباز في تقـديم (سيد العُشّاق) إلى أنّ هناك عـدداً من القصائد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي نظمت بعد ١٩٩٢، وهي نواة لديوان رابع.[٩]

• وقد حظي ديوانه الأول بأكثر من تقديم:

- الأول من الأستاذ بدر الدين الحامد وكان عند صدور الديوان (بيني وبين الغواني): مدير معارف حماة[١٠]. وكان الحامد شاعر حماة الأول، وكان صديقاً للبارودي، ومما قاله الحامد في صديقه إنه كان ينظم الشعر «لنفسه وأخيلته وذكرياته ورضاه ونقمته..»

- والتقديم الثاني للأستاذ بدر الدين علوش، ومما قاله في تقديمه «وجيه وجداني مبدع وليس بنظّام متصنّع، فهو لا يستلهم شعره من كتب العروض ومعاجم اللغة ولا يحرق شعره بخوراً في مجامر الحكام. ولا يأخذ القلم في يده إلا مدفوعاً بعامل داخلي.. هو شاعر أصيل ونبع فياض يتدفق من صدور الطبيعة ومن صميم الحياة».

• وقدم لديوانه الثاني (كذا أنا) محمود عارف البارودي؛ ومما قال في تقديمه: إن في شعره نفَساً من أبي نواس، وإن البارودي حفظ مقامات الحريري وهي قاموس يُريك أين تقع الكلمة من الجملة ثم نسيها فطوّع اللغة تطويعاً.. (ص٢ من كذا أنا).

- وعبد الرحمن عيّاش، وقال في البارودي إنه شاعر الفن والعاطفة (ص٧). وقارب بين الشاعر وبين عدد من الشعراء مثل عمر بن أبي ربيعة ومجنون ليلى، والبحتري، وابن الرومي وأحمد شوقي.

وقدم لديوان (سيد العشاق) المهندس سامي البارودي، والأستاذ وليد قنباز (ترجمة ونظرة عجلى في شعر البارودي).

ولم يغب عن بال عدد من هؤلاء الأدباء الذين قدّموا دواوين الشاعر وجيه البارودي هذا المزج بين الطب والشعر؛ وأول قصيدة في أول (بيني وبين الغواني) هي بعنوان: الطبيب الشاعر، قال فيها:

أتيتُ إلى الدنيا طبيباً وشاعراً
أداوي بطبّي الجسم والروح بالشعرِ
أروح على المحموم أشفي أوامه
بأجمع ما أوتيت من قوّة الفكرِ
فأسقيه من روحي رحيقاً ومن يدي
مريراً فيشفى بالرحيق وبالمُرّ

فهو إذن يداوي الأبدان بالطب وعقاقيره وأدواته، وهو يعالج الروح بالشعر.

فالشعر قضية. وله وظيفة؛

والشاعر شخصيّةٌ مسؤولة، ولها معالم وخصائص.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٣)

وفي دواوين وجيه البارودي موادّ لموضوعات كثيرة يمكن أن تكون أصولاً لبحوثٍ تتوافر على ما في تلك الدواوين، ومن ذلك:

- قضية الطبيب الشاعر.
- شخصية الشاعر وتطوره مع الزمن من خلال شعره.
- مستوى اللغة الفصحى في شعره، والدارج من الأساليب الشعبية..
- مصطلحات العلوم المختلفة، والعبارات المُحدثة للمخترعات الجديدة.
- الشاعر ومدينته (حماه) في منعرجاتها من البداية إلى النهاية.
- شعر وجيه البارودي من منظور المنهج النفسي.
- الحب وأحواله في دواوينه.
- الموسيقى (وأثر استعمال البحور المختلفة) في شعره.

على أنّ معظم شعر البارودي ينحو منحى شعر الغزل والنّسيب والتّشبب ويُعرض عن شعر المديح خاصة، ورصدتُ في ديوانه قصائد جنح فيها إلى المجاملة بالثناء مرتين، وبالمدح مرة واحدة. وأظن هذا قد وقع بتأثير بعض أصحابه (وجدت ذلك في آخر دواوينه في أواخر عمره) ونستطيع أن نغضّ الطرف عنها، ونبقى على الحكم الذي قلناه.

وقد قال الشاعر «غنيتُ أشعاري لنفسي» في سيد العشاق ١٩٨:

- وقال في إحدى قصائد المجاملة (سيد العشاق: ١٧٠)

أنا في السياسة ليس لي باعُ ولي
في الحبّ أجنحة تحلّق للعلا
وكذاك لم أمدح، ولم أكسب بأشـ
ـعاري لأصبح مادحاً متموّلاً

- وقال في أثناء قصيدة المجاملة الثانية (سيد العشاق: ٣٤٧)

أنا لم أمتدح كبيراً من النا...
ـس خطيراً لغايةٍ في زماني

والحقيقة -من خلال دواوينه- أن ديوانيه الأول (بيني وبين الغواني) والثاني (كذا أنا) ليس فيهما شيء من المجاملة أو المديح. وهذا الملمح جزء من نظرته إلى الشعر، وموقف من مواقف «الشاعر» أيضاً.

ونذكر هنا شعراء كثراً لم يَمْدَحوا في أشعارهم أحداً من أهل زمانهم، ولم يتكسّبوا؛ فيهم عدد من شعراء الغزل (وخصوصاً العذري) وشعراء السياسة (ونخصّ الخوارج) وشعراء الزهد، وشعراء التصوّف، ونذكر هنا -على سبيل المثال- أن سليمان

بن عبد الملك قال لعمر بن أبي ربيعة، قبل أن يلي الخلافة: لِمَ لا تمدحنا؟ فقال «أنا لا أمدح إلا النّساء» فذهبت عبارته مبداً له ولأمثاله.

أقول هذا بغضّ النّظر عن الموقف من شعر المديح، وكونه سائغاً بحسب ظروفه وأحواله مما لا مجال للدخول فيه هنا.

وفي مقدمة الأستاذ الشاعر بدر الدين الحامد (وله ديوان طبع في جزأين) تنبيه إلى ثلاثة أوتار في قيثارة وجيه البارودي الشعرية.

- فالوتر الأول هو الغزل الذي يحظى بالحصّة الوافرة؛ وإذا تحدث الناقد عن غرض رئيسي-دون غيره من الأغراض- فإنه سيجد شعر الغزل هو الوافي الوافر.

- والثاني: هو الوتر الاجتماعي (يعني من خلال رؤية د.وجيه البارودي للحياة، والعلاقات مع الناس، وطبائعهم كما يراها.. إلخ).

- والوتر الثالث: يظهر في قول أ. بدر الدين علوش (المقدمة) «ولو لم يكن الديوان بين يديك لاقتطفت لك أيها القارئ طاقةً من شعره التصويري لترى الحسن يترقرق في أزهارها الصافية وألوانها الزاهية» وضرب مثلاً من قصيدة (الجمال) في ديوانه (بيني وبين الغواني)

- وفي هذه القصيدة (ص٣٨ من الديوان):

كلما أبصرتُ حسناً
قلت، لا حسنَ سواهُ
وثب القلبُ إليه
واجتنى روض بهاهُ
وإذا عاتبتُ قلبي
عن حبيبٍ قد سلاهُ
جاوز التدليه بالأمس
وغالى في هواهُ
الجمال النضر مهما
عشت لم تدرك مداهُ
كلما لاح سنى
شعَّ أسنى فمحاهُ
يا الروض يتبارى
زهره بين رباهُ
قالت الوردة خدّي
من كخدي في علاهُ؟
فانبرى الفل يباريـ
ـها بمعطار شذاهُ
والشقيق اعتزَّ أن السـ
ـحر هاتيك الشفاهُ
وفتور النرجس الغضـ
ـض خصوصٌ وانتباهُ
مضعفاً قد وصفوه
ومن الضعف قواهُ

حار قلبي أي زهر
في الأزاهير سباهُ
كل فن من جمال
يتباهى بحلاهُ!

وكأنه يشير إلى دقة الوصف، والأخذ بالوفير من الصنعة الفنية، والقفز إلى ابتكار الصور المعجبة.

(٤)

في الشعر:

لوجيه بارودي إعجابٌ بأساليب بعض الشعراء القدامى والمحدثين ووجوه إبداعهم الفنيّ، وفي (سيد العشاق: ٦٥-٦٦)

أنا الذي في أعالي الخلد مدرستي
ولي أساتيذ أعلامٌ تثقفني
أبو نواس الذي بالروح هذّبني
أبو العلاء الذي بالفكر زوّدني
كذلك المتنبي في روائعه
لولاه ما اهتدت الفصحى إلى أذني
وصبغة من كتاب الله تصبغني
وبالعروبة والإيمان تطبعني
وكم تنادمت والخيّام مغتنماً
لوناً من ا لشعر قبل الكأس أسكرني
ناهيك عن عمر ماذا أحدّث عن
هذا المحب الذي بالحب نافسني!
ولي من العصر أندادٌ عمالقة
منهم نزار الذي أعطى فأدهشني
ومنهم القرويّ الفذ والبدويّ
إذا تغنى إلى الجوزاء يرفعني
وللحريري كاريكاتور في صورٍ
من الفكاهة والمأساة تسحرني
هذا أنا بين أفذاذ عمالقة
وبين محفل أندادٍ يكرّمني

فالشاعر يُعجب، ويستمد، ويستلهم من القرآن الكريم، ومن عدد من الشعراء القدامى والمحدثين، وذكر من القدامى أبا نواس وهو قريب إليه في شخصيته. وفي شاعريته، وذكر أبا العلاء المعري وفكره، والمتنبي صاحب الروائع ومعلم الشعر واللغة، وذكر عمر الخيام في رباعياته الفلسفية (من فلسفة الحياة) وعمر بن أبي ربيعة (وبينهما كما قال منافسة) وذكر من المحدثين نزار قباني والشاعر القروي، وبدوي الجبل صاحب الروائع، ومحمد الحريري بلديّه صاحب الطرائف...

وذكر في مواضع أخرى من دواوينه أسماء أخرى، ولكنّه أطال الوقوف عند نزار قباني، وأفاض في الثناء عليه. ومن ذلك قصيدة عنوانها (شهادة لنزار قباني) في سيد العشاق: ٣٧٢ ومن هذه القصيدة عن نزار:

هو سيِّد الشعراء في الدنيا وإن
وردت قصائدهم بألف لسانِ
أمْ اللغات فخورة بنزارها
وهي التي تعتز بالقرآنِ
وأنا أزكيه وتزكيتي له
هي غاية التحقيق والبرهانِ

وهذه الأبيات، وإن اتّسمت بالمباشرة فإن فيها ملامح بالغة الأهمية في فهم نزار وتقديره، والإشارة إلى (لغته) والإشادة بها.

ثم قال يذكر طرفاً من أحوال نزار في بعض مراحل حياته:

لا يستقر ملاحق ومشرد
من تونسٍ سيراً إلى لبنان
نشراته ممنوعة لكنها
تأتي لطالبها مع الركبان
لو أنصفوا حملوا جوائز نوبل
من نروجٍ للشاعر الفنانِ
لكنَّ إسرائيل خلف بنودها
فلها مرامٍ جمَّةٌ ومعانِ
لشموخه ما أنصفوه وقدَموا
مَنْ لا نقرَ له بسحرِ بيانِ

وهذا أشبه بالنقد المصوغ شعراً. وفيه آراء ناضجة في فن نزار، وفي قيمة شعره، وتقدير شاعريّته.

وعلى كل حال فإن البارودي -كما يقول- كان يضع هؤلاء الشعراء وأمثالهم في باله، وهو يصوغ الشعر، ويرسم قصائده بالحروف المتوهجة.

(٥)

والشعر عنده مهمّة ذات شأن والشعر فن له أصوله وقواعده وهو يصدر عن موهبة وثقافة وأفق لغوي واسع.

ولهذا فإن للشاعر موقفاً واضحاً من كلا الجانبين اللذين كَثر وجودهما في العصر الحديث:

١- النظّامون الذين ليس لهم من الشعر إلا الكلام العادي مع وزن وقافية.

٢- والذين قالوا كلاماً، على أساليب جديدة، لا يعدّ ما يكتبونه في نظر وجيه البارودي من الشعر.

- قال وجيه في (بيني وبين الغواني ص: ١٧٤) تحت عنوان: «إلى الشعراء النظامين»:

يا كلفاً بالشعر لا...
تمدَّ للشعر يديكَ
واهجره لا تأبه له
يأتك أعدى من سُليكُ
يبهر عينيك ويلـ
ـقي سحره في أذنيكُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كالغادة الحسناء تَنْـ
ـأى إن رأت حبّاً عليك
حتى إذا صبرت عنـ
ـنها أقبلتْ تسعى إليكْ!

وفي القطعة ملمح تعليمي. وسليك المذكور من الصعاليك الجاهليين كان مشهوراً بالعدْو الشديد (يسابق الغزلان وغيرها).

وقال في سيد العشاق (ص: ٧٠) في قصيدة عنوانها «الشعر الحديث»:

يخال الناس أن الشعر سَهلٌ
وأن الهَذْرَ بالأوزان يخلو

وانتقل في هذه القصيدة إلى الأنماط (الجديدة) من الكلام المسمّى شعراً، وهو خِلو من الوزن والقافية وسمات أخرى هي من صلب الشعر بمفهومه العربي، ففي (سيد العشاق: ٧٠- ٧١)- قال عن هؤلاء (الجُدد):

فعافوا النثر وابتدعوا قريضاً
مريضاً شاحباً ما فيه حَيْلُ
وعاثوا بالقوافي فازدروها
وقالوا: ما لها في الشعر دخلُ!
وظن الناس ما كتبوه جهلاً
ولا والله ما في الأمر جهلُ
خبيثهم تقاضى ما تقاضى
وغِرُّهمُ لأهلِ الخبث طبلُ
مؤامرة على الفصحى وكيدٌ
ومنا عقربٌ عملتْ وصِلُّ

(الحيل: القوة. يقول: لا قيمة له، والصلّ: الأفعى الشديدة السمّ)

فالقضية عند وجيه البارودي مؤامرة من هؤلاء المحدثين الذين يهدمون الوزن والقافية، والوضوح، والوقوف عند الغموض الشعري دون الوصول إلى الإبهام.. وهؤلاء المتشاعرون، عقرب وحيّةٌ خبيثة!!

ثم قال:

ودودُ الخل منه لا دخيلٌ
فوا أسفاه نحن اليوم خلّ

وهو استفاد من المثل العامي: «دود الخل منه وفيه» يقول ليست المؤامرة على العربية (الشعر خاصة) خارجية هي منّا... وفينا!!.

والقضية خطيرةٌ عند وجيه البارودي فهؤلاء يصلون بهذه الدعوات إلى مواقف شديدة السلبية من التراث العربي كله وصولاً إلى الخطر الداهم على كتاب العربية الأول.

ودعا وجيه البارودي بعنفٍ إلى اليقظة بعد (إهانة الأقداس) كما قال، وفي هذه القصيدة:

دفاعكم عن الفصحى جهادٌ
بأقلامٍ كأسيافٍ تُسَلُّ

وهو «جهـاد بالعقيدة» كما جاء في آخر القصيدة (سيد العشاق: ٧١).

وعلى الرغم من صورة الشاعر المنطلق، الغـارق في بحار الحبّ والجمـال والشهوة العارمة التـي لا تقف عند حدّ غالباً، يقف البارودي مدافعاً عـن اللغة الفصحى دفاع المستميت، ويجـادل جماعة الشعر الحديث (بأنواعـه المتطورة المتدرجة نزولاً) ولا يجد بينه وبينهم جسـراً واصلاً، ولا أملاً باللقاء ممكناً..

والغلبـة عنـد وجيه البـارودي للتراث والفكـر الحضـاري، والأصالـة بوضـوح أسمائها ومسمياتها:

بـعـون الله نـصـرٌ بـعـد نـصـر
وشـانـئـكـمُ هـو المـسـخُ الأشـلّ

(٦)

والشاعر يُعجب بشعره ويترنّم به مُنشداً مُصغيـاً، ويسبغ على شعـره صفات كثيرة ويشبه تشبيهات مناسبة لذلك الإعجاب.

ونقرأ في (سيد العشاق: ٣٠٢)

أمـيرالـشـعـريـبـتـدع المـعـاني
ولـيـس يـعـيـد مـا بـالأمـس قـالا..
وقـــارئ شـعـره يـبـغـي مـزيـداً
بـه شـغـفٌ ولا يـشـكـو المـلالا!

وهو يتغنى بالشعر تغنّياً: (سيد العشاق: ٢٥٣)

أغـنـي الـشـعـرألحـانـاً عـذابـاً
يـرى الـعـشـاق فـيـهـا روح فـنّـي..
وصـــورْتُ الحـيـاة بـكـل لـونٍ
بـطـابـعـهـا ولم ألحـــن بـلـحـنٍ

وشعـره طاقـات ريحـان؛ والبيت من قصيـدة في خطاب واحدة من الحسناوات: (سيد العشاق: ١٤٢)

طـاقـات ريـحـانٍ لـديـك قـصـائدي
فـاسـتـنـشـقـي وتـذكّـري المـهـجـورا

وشعره طاقة هائلة (سيد العشاق:٣٢٢)

وأعـجـب للـوحـيـد يمـوت بـرداً
ويمـلأ شـعـره الـدنـيـا وقـودا

- وشعره يسكر بلا خمره (كذا أنا:٨٨)

فـــإذا نـظـمـت لـهـا الـقـصـا
ئـد وابـتـكـرتُ لـهـا الـصّـورْ
وتـلـوت شـعـراً كـل بـيـ
ـت فـيـه مـعـنـىً مـبـتـكـرْ
ألـفـيـتـهـا ثـمـلـتْ ولا
كـأسٌ هـنـاك ولا وتـرْ!
حـلّـقـت فـانـطـلـقـت مـعـي
حـتـى تـخـطّـيـنـا الـقـدَرْ

- وأشعاره ألوانٌ مـن القديم والحديث والمبتكر، وهي «بستـان حب» كما قال (كذا أنا: ٢١ -٢٢)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بستان حبٍّ نوّرتْ
زهراً ولمّا تُثمرِ
فيها من القديم والـ
حديثِ والمبتكرِ
من آل نعم نفحةٌ
ومن مزايا عُمَرِ[11]
ومن وجيه نفحةٌ
من اللظى المُستعرِ..

- وفي قصيدته (أغنّي بشعري، في سيد العشاق: ٢٨١) رؤية ذاته لنفسه، ولشعره وتقويمٌ خاصّ لهذا الشعر.

لشعري لون غير ما ألفوا فلا
سبيل لأفكاري ومبتكراتي
سيأتي زمان يدرك الناس أنني
تركتُ لهم كنزاً من النغماتِ..
سيُدرس شعري في المدارس حصةً
على غيرها تمتاز بالرّغباتِ
وقارئ شعري لن يميل لغيره
لما فيه من مستغرب اللقطاتِ!

(٧)

وصورة الشاعر في دواوين وجيه البارودي ملوّنة، واضحة شديدة الوضوح:

بعضها يتعلق بالشاعر عامة، ويقف فيها عند بعض قضاياه، وأكثرها يخص شخصه وشاعريته، وجوانب من مواهبه المتعدّدة

١- الشاعر العربي من الزمان القديم مظلوم محروم (سيد العشاق:٣٧٣)

الشاعر العربيّ من قدمٍ طريـ
ـيد الغدر والتشريد والحرمانِ

٢- وقد ألقى أ.وليد قنباز في مقدمة (سيد العشاق: ١٢) على د.وجيه البارودي صفة النرجسيّة، وقال:

«.. نلمح في شخصيّة شاعرنا وجيه إعجابه بنفسه وقدرته وإمكاناته وعظمته وتفرّده، ولعلّ ذلك نابع من ذكائه وألمعيته وتجاربه وسعة اطلاعه.. حتى إن كثيراً من مظاهر النرجسية تبدو ماثلة في كثير من تصرفاته.. وأحاديثه.. وأشعاره..»

والذي أشير إليه بوضوح هنا- وهو لم يرد في كلام أ.قنباز- أنّ هذه النرجسية ماثلة في إعجابه بشعره، وتقديره العالي لذلك الشعر، فقد قال في مجال الكلام في الحب (سيد العشاق:١٦٠)

صوّرته شعراً خُصصت به فلن
يرقى إليه شاعر ومصوّرُ
سيظل للأجيال إرثاً خالداً
هو من يتيمات اللآلي أندرُ!
وبعصرنا ولألف عامٍ بعدنا
يرعى تراثي باحث ومفكّرُ!!

٣- فسح البارودي لجانب الشعر من شخصيته مكاناً واسعاً. صحيح أن شهرته الطبية المتقادمة هي محور صلته بالدنيا من حوله، ولكنّ «الشاعر وجيه» شيء مهم عند نفسه، وفي مجريات حياته.

ونجده يقول: (سيد العشاق: ٧٤)

أنا شاعر والشعر
أفئدة بأجنحة تطير
أنا ذلك الروح المنز.....
هُ لا تغلغلني القشور
أنا ذلك الإنسان لي
قلب يذوب ولي ضمير

ويقول مستفيضاً في خصائصه وخصاله، كما يراها، (سيد العشاق: ٧٦)

ألف شخصية أنا ألف ألف
لست أحصي تقلبي الشخصيّا
شاعر ساخر أديب طبيب
أطرش يسمع النداء خفيّا
ساخر ماكر عدو التقالي
ـيد يعدّ انقلابه الثوريّا
لم يزل دائباً على الطب والشعر
مجدداً حتى انتهى لوذعيّا
إن تسله من أنت قال ابن نفسي
أنا كونت عنصري الذريّا

وهو، في جملة صفاته بلبل غريد (سيد العشاق: ٢٨٠)

البلبل الغريد إنّ لك القوا
في والجمال فشنف الآذانا

وقارئه يرتبط به وبشعره، فمزاياه، إذن، مزايا عظيمة: (سيد العشاق: ٢٨١)

فهذه لمحة في (قضية الشعر وصورة الشاعر) في دواوين وجيه البارودي صاحب الدواوين الثلاثة: الطبيب الذي تجاوز طب الأجسام إلى طب النفوس على منهج شخصي لا يشبه غير وجيه البارودي.

الهوامش

١- بيني وبين الغواني- الطبيب وجيه البارودي خريج الجامعة الأمريكية في بيروت- دون تاريخ- مطبعة الحضارة- طرابلس-

٢- شاعران معاصران (إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي) الدكتورعمر فروخ- المكتبة العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٥٤

٣- درست على الدكتور عمر فروخ التاريخ في العصر الجاهلي- التاريخ في العصر الإسلامي (الرسالة والراشدون) التاريخ في العصر الأموي- التاريخ في العصر الأندلسي. ودرست عليه أيضاً اللغة الإنكليزية (نصوص تاريخية) وكان أستاذاً معلّماً مُتقناً مخلصاً موسوعياً، منهجياً. وكان إلى ذلك أديباً كاتباً شاعراً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مؤلفاً بارعاً وكنا نفيد من ملاحظاته، ومن أجوبته على أسئلتنا في وجوه من الأدب والفكر والحضارة. واستفدنا من كتابه (عبقرية العرب في العلم والفلسفة) الذي درسناه، حرّاً، على هامش دروس التاريخ، واستفدت من عقله المنظم المنهجي في كتابه (التبشير والاستعمار) إلى أمور كثيرة جداً تسجّل في كرّاس خاص.

٤- إبراهيم عبد الفتاح طوقان (١٣٢٣- ١٣٦٠هـ ١٩٠٥- ١٩٤١م) شاعر غزل من أهل نابلس (فلسطين) قال فيه أحد كتّابها: «عذب النغمات ساحر الرنّات، تقسّم بين هوىً دفين ووطن حزين» حصل على شهادة من الجامعة الأمريكية وبرع في الأدبين العربي والإنكليزي، وتوظّف في إذاعة القدس مدّةً، واشتغل بالتعليم في بغداد ناجياً من سطوة الإنجليز في فلسطين، أنهكه المرض والسفر وتوفي شاباً. له ديوان شعر مطبوع، واشتهرت قصائده وأناشيده الوطنية، وهو صاحب (موطني.. موطني).

٥- حافظ جميل (١٣٢٦- ١٤٠٤هـ ١٩٠٨- ١٩٨٤م) من أبرز شعراء الطبقة الثانية في العراق من الشعراء المعاصرين، ولد ببغداد لأسرة شاميّة الأصل، وحصل على إجازة العلوم من الجامعة الأمريكية في بيروت. تأثّر بشعر أبي نواس وابن الرومي وشوقي. وكان بعيداً من التزلّف في شعره. كريم النفس. صدر له عدد من الدواوين منها الجميليات، وصور وأشباح، ونبض الوجدان، واللهب المقفى... وكان يُلقّب في ثلّة إبراهيم طوقان وصحبه بأبي نوّاس. (له ترجمة في إتمام الأعلام ٧١).

٦- عمر عبد الله فرّوخ (١٣٢٢- ١٤٠٨هـ ١٩٠٤- ١٩٨٧م) أديب مؤرخ ناقد، علّامة باللغة والأدب والفلسفة، متقن للعلوم وتاريخ العلوم ولد وتوفي في بيروت. حصل على بكالوريوس العلوم من الجامعة الأمريكية، وتابع دراسته في ألمانية في التشريع الإسلامي والفلسفة، وبرع في تاريخ الأندلس وحضارتها. كان من أعضاء جمعية المقاصد الإسلامية في لبنان ودرّس فيها وفي دمشق وبغداد وغيرها. اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ومجامع أخرى. مُنح جوائز وأوسمة أشهرها جائزة الملك فيصل، مؤلفاته تربو على السبعين، وهي جميعاً مصادر ومراجع للباحثين. له رؤيته في الحضارة والفكر والشعر والحياة. من كتبه التبشير والاستعمار وتاريخ الأدب العربي، وتاريخ العلوم عند العرب وتاريخ الفكر العربي وشاعران معاصران.

٧- أثبتها د. فروخ في (شاعران معاصران): ١٠٢- ١٠٣.

٨- في مقدمة الديوان الثالث: سيد العشاق: ٩.

٩- سيد العشاق (المقدمة): ٢١.

١٠- صارت (المعارف) تدعى التربية، أو التربية والتعليم.

١١- يُشير إلى مطلع قصيدة مشهورة لعمر بن أبي ربيعة.

أمن آل نعم أنت غاد فمبكرُ
غداة غدٍ أم رائح فمهجّرُ؟

الثورة المعلوماتية

فجرت الحواجز القائمة بين الشعوب والدول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. محمد البخاري *

تأثير الإنترنت على تطور المجتمعات:

غدت المجتمعـات في القرن الحادي والعشرين أسيرة لأساليب الخداع والتضليل المعلوماتي النـاتج عن تطور الحاسبـات الإلكترونية وتكنولوجيا المعلوماتية الحديثة خلال القرن العشرين، التطور الذي فرض على البشرية عالماً جديـداً لم تشهده من قبل، ورافق هذا التطور سيل عارم من المعلومات الصحيحـة والملفقة والمضللة في آن معـاً، انصبت كلها على العقول البشرية عبر قنـوات وشبكات الاتصال المتطورة الحديثة، وتـرك هذا السيل العارم

* سوري مقيم في أوزبكستان، أديب وأستاذ جامعي.

نتائج غير منتظرة في مختلف المجتمعات المتطورة والنامية على حد سواء. ودخلت المعلوماتية في صلب التفاعلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بعمق، وغدت تمثل «ثورة معلوماتية» شاملة وضعت البشرية أمام تحديات أخطار الصراعات التي باتت تهدد الأجيال الصاعدة بعد أن أطبقت عليها الثورة المعلوماتية في الوقت الحاضر ولا يعرف ما ينتظر الأجيال من أخطار مستقبلية. ورافقت الثورة المعلوماتية مفاهيم وقيم جديدة، فرضت على المجتمعات من خارج المؤسسات المدنية الوطنية المؤثرة في المجتمعات الوطنية وهي التي كانت تسيطر تقليدياً على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والسلوكية للأفراد داخل المجتمع الواحد. وجاءت الثورة المعلوماتية بأفكار جديدة طالت جوهر الفرد وشخصيته وبدأت معها تهتز القيم والتقاليد المتوارثة على وقع سيل المعلومات العالمية الصحيحة والملفقة والمضللة والمخالفة للقوانين الوطنية المنهمرة عليه من كل حدب وصوب لأغراض تحريضية بحتة دون قيد أو حدود، وأظهرت المشكلة حالة من التنافس الفوضوي غير المتوازن بين كل ما هو إنساني وحضاري وثقافي ووطني وعالمي.

الثورة المعلوماتية فجرت الحواجز القائمة بين الشعوب والدول: واستطاعت الثورة المعلوماتية فعلاً تفجير الحواجز القائمة بين الشعوب والدول، وغدت المسارات الإلكترونية تتجاوز الحدود القانونية الدولية القائمة في مختلف دول العالم، ووحدت سبل الاتصال والحوار القائمة بين سكان مختلف مدن العالم وبلغاتهم المتعددة. وأضحت الثورة المعلوماتية واحدة من الأدوات التي تسمح للتطور التاريخي البشري بالخروج من المستويات المعتادة إلى مستويات جديدة لم تكن متوقعة. وجاء ذلك تحت تأثير تقنيات شبكات الاتصال

INTERNET INTERnational NETwork)

الأمريكية التي ارتبطت بها أهم مراحل الثورة المعلوماتية خلال القرن العشرين، لأنها كانت شبكات عالمية فعلاً تمكنت من ربط الحواسب الإلكترونية المؤسساتية والشخصية، ووحدت ملايين البشر ومئات الدول اتصالياً، بفضل قدرتها الخارقة على تجاوز الحدود السياسية والجغرافية القائمة بين الدول، وقلصت المسافات الجغرافية الفاصلة بين بني البشر، وقضت على الحواجز التي كانت تعترض سبل الحوار الإنساني في مختلف المجالات العلمية والثقافية والسياسية وحتى مستويات التعليم بكل مراحله.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شبكات الإنترنت عامل حيوي في حياة البشر: وأضحت شبكات الإنترنت عاملا أساسيا وحيويا في حياة الكثيرين، حتى أطلق على الجيل الجديد تسمية «الجيل الرقمي»، لأن شبكات الإنترنت مثلت تحدياً ثقافياً قاسياً للمسلمين والعرب من بين الكثير من التحديات والهجمات التي يتعرض لها المسلمون والعرب كل يوم وعلى مختلف الأصعدة الحضارية والثقافية والتكنولوجية والعسكرية. ولا يخفى عن أحد ما يتمتع به قطاع المعلومات والاتصالات من جاذبية متزايدة في أدبيات التنمية المعاصرة، إضافة لعوامل الجذب التي زادت من الطبيعة التكاملية لقطاع تكنولوجيا المعلوماتية والحاسبات الإلكترونية الحديثة في الدول الإسلامية والعربية. حتى أضحت شبكات الإنترنت من أهم أدوات خلق وتطوير التفاعل التكاملي على الصعيد الإسلامي والعربي، وأداة للاتصال والتكامل الاقتصادي في العالمين الإسلامي والعربي[١]. وعلى ضوء الطفرة الحاصلة في عالم الاتصالات والمعلومات في العالم خلال السنوات العشر الأخيرة أصبحت الدول النامية ومن بينها بعض الدول الإسلامية والعربية على قائمة الدول المرشحة خلال السنوات الخمس القادمة لتقديم خدمات تكنولوجيا المعلوماتية للشركات العالمية الكبرى بعد تأثرها بالأزمة المالية والاقتصادية العالمية[٢]. الأمر الذي دفع بمصر لتقديم طلب لتسجيل نطاق «دوت مصر» لدى المؤسسة العالمية المسؤولة عن تسجيل الأسماء والأرقام على الشبكة الدولية للإنترنت «الإيكان»، وبهذا تكون مصر أول دولة عربية طلبت تسجيلها في هذا النظام متجاوزة هيمنة الحروف اللاتينية[٣]. خاصة وأن مجموعة المواقع العربية هي عملياً أقل عددا من المواقع الإسرائيلية اليوم، لأن إسرائيل تقدمت على العالم في مجال برامج معالجة اللغة العربية وترجمتها، وحققت صناعة البرمجيات الإسرائيلية طفرة كبيرة بعد البداية المتواضعة التي بدأت بخمسة ملايين دولار أمريكي في عام ١٩٨٤ ووصلت إلى ٨,٥ مليار دولار في عام ١٩٩٩، وتجاوزت العشرة مليارات دولار أمريكي فيما بعد. ورافقها تطور الصادرات الإسرائيلية من المنتجات الإلكترونية المتطورة، لتقفز من ٩,١ مليار دولار أمريكي في عام ١٩٩٩، إلى ١٥,٣ مليار دولار أمريكي في عام ٢٠٠٤.[٤]

وأظهرت نتائج الأبحاث التي نفذتها وزارة التجارة في الولايات المتحدة الأمريكية أن الإذاعة المسموعة احتاجت إلى ٣٠ عاماً من أجل الوصول إلى ساحة إعلامية بلغت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥٠ مليـون مستمـع، وأن الإذاعـة المرئية احتاجـت لـ١٣ عاماً من أجـل الوصول إلى ساحة إعلامية بلغت ٥٠ مليون مشاهد، أما الإنترنت فاحتاجت فقط لـ٤ سنوات من أجل الوصول إلى ساحة إعلامية بلغت ٥٠ مليون مشترك. وأن حجـم المعلومات المرسلة عبر شبـكات الإنترنت يتضاعف كل ١٠٠ يوم(٥)، وزاد عدد مستخدمي شبكات الإنترنت حتى عام ٢٠٠١ إلى ٧٠٠ مليون مشترك.(٦)

ويعود تاريـخ شبكة الإنترنـت بجذوره لبداية ستينيـات القرن العشريـن، عندما واجهـت وزارة الدفـاع بالولايـات المتحدة الأمريكية مشكلة استراتيجية صعبة، تتمثل بـإدارة البلاد في حال نشـوب صراع نووي مـع الاتحاد السوفييتـي السابق. ومواجهة إمكانية توجيه ضربة نووية لمركز الاتصالات القومـي الأمريكي لتعطيلـه، وليصبح غير قادر علـى توفير الاتصـالات اللازمة بين القـادة العسكريين والقـوات الاستراتيجية الأمريكيـة، ليتمكن الخصـم بالنتيجة من تجنب الضربة الجوابية. وعملت وكالة أبحاث مشاريع الصعوبات الخاصة (ARPA) في وزارة الدفاع بالولايـات المتحدة الأمريكية، على حل هذه المشكلـة(٧). ونتيجة لأعمال البحـث التي أجرتهـا، تمكنت مـن إنشاء نظام غير مركزي، مؤلف من أجزاء مستقلة عـن بعضهـا البعضـ، لتبـادل المعلومات من خـلال مظاريف الاتصـال، التي يمكن إرسالها إلى عقـدة المستلم بمختلف الطرق (كشبكة عنكبوتيه) باستخدام مختلف قنوات الاتصال. وظهر من خلال العمل وضع مثير يتمثـل بأن هـذا النظام مثـل أسهل طريق لإرسـال مختلـف المعلومات وهـو ما سمي بـ«البريد الإلكتروني».

الشبـكات العالميـة شكلـت عـالم الفضاء الواقعـي الجديـد: وكان تطـور الشبـكات العالميـة سبباً لظهور عـالم الفضاء الواقعي الجديد، الذي نمت فيه بشدة عملية تداخل المجتمعـات وبعض الشخصيات من مختلف المجتمعـات إذ لا توجد حتـى الآن توقعات علميـة لمستقبل تطور الفضـاء العالمي، ولا تتوفر الخـبرات لمنظمات الفضـاء العالمي بعد. وأمـام سعة وصعوبات وتصرفات نظم الفضاء العالمي خرجت تلك النظم عن إطار بداياتهـا في المشـروع الأمريكـي منذ زمن بعيد. ويجري اليـوم التصدي لحل مسائل الخطوات القادمة لتطوير شبكات الإنترنت. واعتـبر مدير تجمع W٣C تيم بيرنيرس لي أن طبيعة المرحلة الجديـدة لتطور شبكات الإنترنت تتميز بالعمـل المشترك للحواسب الإلكترونيـة عـبر الشبـكات دون تدخـل الإنسـان(٨). ويجـري العمل بشـكل واسع

لترشيد البنية التحتية لشبكات الحاسبات الإلكترونية العالمية مستقبلاً. وهناك بعض المشاريع لإقامة بنية تحتية موحدة للاتصالات عالية السرعة في القرن الـ٢١. ومن تلك المشاريع مشروع INTERNET٢ الذي أعد بدعم من UCAID (University Corporation for Advanced Internet Development). ويشمل شركات معروفة مثل: IBM، Fore، Cisco، Systems، ٣Com، بمشاركة الصندوق العلمي القومي، ووزارة الدفاع في الولايات المتحدة الأمريكية. ويخطط للمرحلة الأولى من المشروع توفير سرعة لنقل المعلومات تبلغ ٢,٤ غيغا بايت في الثانية، وتوحيد شبكات كبريات الجامعات في أمريكا الشمالية، والمخابر، ومراكز الحاسبات الإلكترونية[٩]. ومن الملاحظ أن مثل هذه المشاريع بدأت اليوم بالتأثير على عمل الفضاء العالمي للقرن الـ٢١. وأن أوروبة لم تزل متخلفة عن اللحاق بالولايات المتحدة الأمريكية في مجال قنوات الاتصال عالية السرعة.

شبكات الإنترنت من أدوات التأثير النفسي والسلوكي على المجتمع الإنساني: ومع ظهور شبكات الإنترنت ظهرت مشكلة هامة جديدة لم تدرس بشكل كامل بعد، وتتمثل باستخدام الشبكات كأداة للتأثير المعلوماتي والنفسي والسلوكي على المجتمعات الإنسانية، كما هو جار اليوم في بعض الدول العربية. ورافقه ظهور وسط معلوماتي جديد، يجري فيه تداول المعلومات، وحفظها، ونسخها، بسرعة هائلة. وغير هذا الوسط أفكار وقيم ومفاهيم وأواصر انتقال القواعد الأخلاقية التي تشكلت في المجتمعات عبر القرون من جيل إلى جيل. ومن الأمثلة على ذلك ما قام به الطبيب الخاص للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران خلافاً للقواعد الأخلاقية الطبية، من نشر كتاب عن الأمراض التي كان يعاني منها الرئيس الفرنسي بعد وفاته مباشرة. ورغم حصول أسرة فرانسوا ميتران على قرار قضائي بسحب الكتاب من البيع في اليوم نفسه، إلا أن الإجراء كان متأخراً لأن بعض الأشخاص أدخلوا نص الكتاب في شبكات الإنترنت، حيث لا يمكن سحبه عملياً.[١٠]

المنظمات السياسية والهيئات الدولية ومنظمات الجريمة المنظمة تستخدم الشبكات الإلكترونية العالمية: وأصبح استخدام المنظمات السياسية، ومنظمات الجريمة المنظمة، للشبكات الإلكترونية العالمية أمراً طبيعياً ولا يثير الدهشة لدى مستخدمي شبكات الإنترنت. وأصبحت

الهيئات الدولية والأجهزة الحكومية تعتبر من الضروري أن يكون لها صفحاتها في شبكات الإنترنت، ومنها صفحة الاتحاد الأوروبي www.europa.eu.int، وصفحة الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية http://www.gcc-sg.org/، وصفحة أجهزة السلطة الحكومية في الفيدرالية الروسية www.gov.ru، وصفحة المنظمات الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية www.fortnet.org/FortNet/gov/index.html. وصفحات الأحزاب والتجمعات السياسية وغيرها. وتستخدم السلطات الرسمية شبكات الإنترنت عادة لإرسال معلومات رسمية، بينما نرى الساعين للسلطة ومن بينهم الناشطين تحت غطاء من السرية يستخدمون شبكات الإنترنت لتبادل المعلومات لأغراض أخرى. وعلى سبيل المثال ما قام به مايكل غيل، السكرتير الخاص السابق لنائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إل غور، في بداية حملته الانتخابية، بنشر نيابة عن إل غور في الصفحة الإلكترونية www.gore٢٠٠٠.org أرقام الهاتف وعناوين البريد الإلكتروني، التي يمكن من خلالها للراغبين بالتوجه إلى إل غور، وتقديم الدعم المادي له كمرشح للديمقراطيين(١١).

ومثال آخر تمثل باستخدام منظمة «رابطة بيرما الحرة» FBC، لشبكة الإنترنت لتحقيق أهدافها التي تكافح من أجلها منذ سنوات. وكان من أولى تلك الأهداف تهيئة الظروف لفرض مقاطعة اقتصادية وسياسية لإسقاط حكم النظام العسكري الذي استولى على السلطة في البلاد عام ١٩٨٨. وبتأسيس منظمة FBC، لصفحتها الإلكترونية www.freeburma.org تحولت إلى واحدة من أهم المجموعات السياسية المؤثرة عن طريق الإنترنت. ولمنظمة FBC مؤيدون في ٢٨ دولة من دول العالم. وتحت تأثير دعاياتها تم فرض حصار اقتصادي ضد ميانما (بيرما اليوم) من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا. وللتأكيد على دور شبكات الإنترنت في تقوية مركز المنظمة قال أونغ ناينغ أو من حركة «الجبهة الديمقراطية لجميع طلاب بيرما» التابعة لمنظمة FBC، «عندما كنا نعيش في الغابات طبعنا المنشورات على الآلة الكاتبة في بداية كفاحنا مع نهاية ثمانينيات القرن العشرين. ولكن الحاسبات الإلكترونية غيرت حياتنا بالكامل. وباستخدامنا لشبكات الإنترنت منذ عام ١٩٩٤ أصبح سهلاً علينا مخاطبة بعضنا البعض، وأصبحت نشاطاتنا أكثر تشاوراً».(١٢)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن المشاكل الأخرى التي تعاني منها شبكات الإنترنت استخدامها من قبل منظمات الجريمة المنظمة لنشر معلومات عن الإرهاب، والجاسوسية، وتجارة وتهريب المخدرات والأسلحة، ونشر الخلاعة، وكل البضاعة السيئة. ومن بين تلك المنظمات مجموعة مقاتلين بروانيين تحمل اسم «الطريق المشرق» (Shining Path)، سبق وقتلت آلاف الناس خلال عشرات السنين من الاغتصاب المسلح.[١٣] وأظهرت بعض الدراسات أن المشترك في الإنترنت يصرف وسطياً نحو ٤٠٪ من وقته في البحث عن الإصدارات الخلاعية الممنوعة.[١٤] وأن بعض الدول أخذت في حسابها مقدرات وإمكانيات الوسط المعلوماتي الجديد، وأخذت تبحث عن حلول قانونية وتكنولوجية لهذه المشاكل. وفي الدول الخليجية العربية مثلاً أجرت السلطات المختصة محادثات مع موفري خدمات الإنترنت ومجموعات المستخدمين لوضع أسس متفق عليها للوصول واستخدام شبكات الإنترنت. وأصدرت وزارة الاتصالات في دولة الكويت قراراً يفرض على موفري خدمات الإنترنت ضمان عدم ظهور الخلاعة والتعليقات السياسية السيئة داخل الكويت. وقرر نادي الإنترنت في إمارة أبو ظبي أن تخضع المواد الجنسية والخلاعية والسياسية والدينية في الإنترنت للقوانين المحلية.[١٥] ولكن حل هذه المشاكل صعب جداً انطلاقاً من الخصائص والأوضاع السياسية والاقتصادية الداخلية لدول العالم المختلفة.

شبكات الإنترنت والأجيال الصاعدة:

ولا تقل أهمية عن غيرها مشكلة الجيل الصاعد، لأن صغار السن أكثر تقبلاً للأشياء الجديدة من كبار السن. ومن الطبيعي أن يستوعب صغار السن الإنترنت بسرعة، قبل أن يستوعبها أولياء أمورهم ويقدرون جوهر ما يجري ضمنها. ومن أجل مساعدة الكبار في السيطرة على الأوضاع ووضعها تحت مراقبتهم، أحدثت برامج للتصفية مهمتها مراقبة الوصول إلى مواد الإنترنت، وتسمح بزيادة الرقابة على تصرفات صغار السن في شبكات الإنترنت. وبمساعدة هذه البرامج أصبح ممكناً متابعة ما يشاهده صغار السن، ومراقبة الوقت الذي يتعاملون فيه مع شبكات الإنترنت، ووضع قوائم بالعناوين الممنوعة، وتقوم بعض البرامج بتجديد تلك القوائم أوتوماتيكياً شهرياً. ومنها على سبيل المثال برنامج

Cyber Patrol (www.microsys.com)

المستخدم للرقابة ومنع وصول بعض الفئات العمرية إلى المعلومات التي يمكن أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تؤثر سلباً على السلوك والتصرفات. ومن هذه البرامج

و Net Nanny (www.netnanny.com).

Littlebrother (www.kansmen.com).

وغيرها.[16]

شبكات الإنترنت والتأثير على العقول:

وتستخدم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية شبكات الإنترنت عادة ليس كأداة للحصول على المعلومات والتعامل معها فقط، بل ومن أجل نشر أخبار ملفقة للتحريض وإجراء تجارب على التأثير النفسي للمعلومات الكاذبة، والملفقة، والشائعات، والدعاية، والدعوة، وغيرها. وأمام هذا الواقع الذي فرض زيادة في دور وإمكانيات المواجهات المعلوماتية التي تهدد نظم الأمن الوطني في مختلف الدول، لم تبق مخابرات دول العالم جانباً ومن بينها كانت المخابرات الأردنية التي اعتبرت أن صفحتها الإلكترونية في شبكات الإنترنت كانفتاح جديد على السياسة.[17] وهذا مثال يؤكد استخدام شبكات الإنترنت للدعاية والدعوة السياسية.

ومشاكل إدارة سيل المعلومات المؤثرة على عقول الإنسانية أصبحت تأخذ طابعاً فوق الدول. ونجحت بعض الدول بالتعامل معها، لأن العلاقات بين البشر، والجماعات الاجتماعية، والدول كانت سابقاً مبنية على مبادئ وقيم الحقوق الطبيعية، والأخلاقية، والدينية، التي تشكلت وصقلت عبر القرون. بينما نرى اليوم أنه لابد من العودة للبدء من نقطة البداية لأن الثورة المعلوماتية خربت تلك العرى وسهلت نشر الأنباء الملفقة والكاذبة والمحرضة. وأصبحت الحاجة ملحة لقوانين وبرامج جديدة للحماية، ونظام مركزي دولي للعمل المشترك بين الأجهزة الحكومية والخاصة، لأنها إلى جانب الأسر والمجتمع تحدد قواعد تربية الأجيال الصاعدة. وأصبح عالم اليوم يحتاج لقوانين دولية للتعامل مع الشبكات الإلكترونية العالمية الجديدة. ونعتقد أن هذه المهمة تتمتع بالأفضلية لدى كل الدول، ومن دونها ستخلق ظواهر جديدة تتحول معها المعلومات من خدمة الإنسان، ليصبح الإنسان خادماً لتلك المعلومات. ولابد من التصدي للمشكلة بشكل عاجل قبل أن تخرج الأوضاع من تحت السيطرة. خاصة وأن المؤسسات المخولة بحماية المعلومات وتعمل على حماية المعلومات الخاصة، التي يملكها شخص معين ولها طابع فردي، لم تزل تنظر إلى المسائل الأخلاقية لمضامين تلك المعلومات كمشكلة من الدرجة الثانية.

ونعتقد أنه حان الوقت للنظر في قضية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشكيل لجان حكومية خاصة لحماية المجتمع، وتراثه الثقافي والمعنوي في شبكات المعلوماتية. وإسناد مهمة تحديد ومراقبة المستوى والخصائص الأخلاقية للمعلومات، الدائرة في فلك شبكات المعلوماتية الإلكترونية للاستخدام العام لهذه اللجان. وإقامة شبكات أو شبكات موازية لمنع دخول المعلومات غير الأخلاقية التي تطال الحالة النفسية والسلوكية للأفراد وتؤدي إلى تحلل القيم الثقافية وأسس المجتمع الإنساني بالكامل، إلى شبكات النظام العام. ونعتبر أنه من الضروري إصدار قوانين تحدد النشاطات، وتلقي المسؤولية على الأجهزة والإدارات والأشخاص الطبيعيين في هذا المجال، ومن ضمنها تلك اللجان من جانب، ومن جانب آخر إعادة تشكيل البنى التحتية للجان المختصة باستقلالية عن أكثرية السلطات. وأن تخضع تلك اللجان لقائد الدولة المعنية مباشرة وتعد له وللسلطة التشريعية في البلاد تقريراً سنوياً عن مضامين المعلومات المتداولة عبر شبكات المعلوماتية والحاسبات الإلكترونية. بعد أن أصبحت تكنولوجيا المعلوماتية هي محور التنمية العلمية، ولابد من وضع إستراتيجية حقيقية في السنوات المقبلة للخروج من هذا الوضع. وإذا لم تتفاعل الثقافة العربية مع الثقافة المعلوماتية وتوفير المعاجم الإلكترونية، والترجمة الإلكترونية، والتوثيق والبرمجة، فستحدث فجوة لغوية حادة بين اللغة العربية واللغات الأخرى تفصلها عن الاستخدام والتداول. وقد يتحول التعليم والثقافة في الدول العربية إلى اللغات الأجنبية بسبب التقنيات والتسهيلات المتاحة للغات الأجنبية والتي جعلت اللغة العربية مهمشة في عالم شبكات الاتصال الإلكترونية. وهذا يحتاج قبل كل شيء إلى إرادة سياسية وطنية وبحوث ودراسات علمية تعيد للغة العربية عنفوانها.

تقارب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية: مصطلح convergere باللاتينية يعني التقارب والتشابه، واستخدم هذا المصطلح منذ القدم للتعريف بالتفاعلات المتشابهة والمتبادلة في البيولوجيا، والدراسات السكانية، واللغوية. وأخذ الفلاسفة وعلماء الاجتماع الغربيون منذ خمسينيات القرن الماضي بهذا المصطلح لاستخدامه في العلوم الاجتماعية والسياسية معتمدين على منجزات التقدم العلمي والتكنولوجي متوقعين حدوث تقارب بين المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الاشتراكية. وكانت الثورة العلمية والتكنولوجية القوة المحركة الأساسية برأي الباحث الأمريكي روستو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و.، والباحث الهولندي تينبيرغين يا.، لتشجيع التقارب الأيديولوجي بين مجتمعين متناقضين. وجاءت توقعات أنصار نظرية التقارب مستندة على التقارب الحاصل في المصطلحات التكنولوجية. وسرعان ما تحولت النظرات الجديدة للتقارب إلى نظرات شائعة لدى علماء الاجتماع، وأصدر الباحث الأمريكي بيل د.، كتابه «نهاية الأيديولوجية» في عام ١٩٦٢ معتبراً أنها أفضل وجهة نظر في مجال تطور نظرية التقارب الاجتماعي والسياسي التي ربط بيل د.، بينها وبين المجتمع الصناعي الذي كان من المنتظر منه نشوء مجتمع جديد. وأضاف أن المجتمع الجديد سيعتمد على المعارف التقنية وعلى صناعة المعلومات، وأنهما جزءان أساسيان يعتمد عليهما المستقبل الاقتصادي. وبذلك مد بيل د.، جسراً للمبادئ المستقبلية وتصورات المجتمع المعلوماتي التي رافقتها أفكاراً متعددة عن التقارب ولكن بفهم جديد. واستخدم هذا المصطلح منذ سبعينيات القرن الماضي بمعنى التكامل الذي سيحصل في تقنيات المعلوماتية ووسائل الاتصال: الحاسبات الآلية (الكمبيوتر)، والهواتف، والإذاعة المرئية. واستمر تطور مصطلح التقارب من خلال الحوارات التي جرت في إطار إعادة تنظيم سوق الاتصالات الهاتفية في الولايات المتحدة الأمريكية، وسوق البث الإذاعي المسموع والمرئي في غرب أوروبة مع نهاية ثمانينيات القرن العشرين. وجاءت تسعينيات القرن الماضي لتشهد انتشار استعمال الإنترنت في الحياة اليومية لملايين البشر وهو ما أعطى تلك الحوارات مفهوماً عملياً جديداً لنظرية التقارب. ومن المعروف تقليدياً أن مفهوم التقدم التكنولوجي والتغييرات السياسية في النظم الإعلامية الحديثة تختلف من خلال خصائص نموها وعبرت عنها السرعة التي احتلت فيها شبكة الإنترنت ساحة جماهيرية واسعة، محدثة سبقاً في تاريخ تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التي احتاجت فيها الإذاعة المسموعة في الولايات المتحدة الأمريكية لـ٣٨ سنة لتشغل ساحة تضم ٥٠ مليون مستمع. بينما احتاجت الإذاعة المرئية إلى ١٤ عاماً لتشغل الساحة نفسها. بينما لم تحتاج شبكة الإنترنت سوى لـ٤ سنوات فقط ليبلغ عدد مستخدميها في الولايات المتحدة الأمريكية فقط ٥٠ مليون مستخدماً.[١٨]

وغدا مصطلح التقارب يأخذ مكانة بين المصطلحات الهامة المستخدمة في الحوارات الحديثة الدائرة حول مستقبل تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وشبكة الإنترنت، التي جرى ربطها بمصطلح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التقارب، وبالتدريج أخذ هذا المصطلح مكانه في التحولات الجارية في المجالات الإعلامية. واحتل مصطلح التقارب مكانة هامة في الحوارات الدائرة في مجالات الاتصال والمعلوماتية الدولية الحديثة التي دأبت على تفسير مفاهيمه واستخداماته المتعددة وبشرت بأن التقارب سيغير بالكامل عمل نظم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وكل الصناعات المرتبطة بها خلال السنوات العشر القادمة. وسرعان ما أخذ تقارب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية معنى الاندماج ولكن على كل حال فإن الحديث الدائر حول مختلف حالات التفاعلات المختلفة يبقى جوهرها واحداً ويعني الاندماج:

بالدرجة الأولى: إن الاندماج التكنولوجي يسمح لمختلف النظم التكنولوجية الناقلة من: شبكات التوزيع بالكابلات، وشبكات الهاتف، وشبكات الاتصالات اللاسلكية عبر الأقمار الصناعية، التي تنقل المعلومات لمستخدميها أو مستهلكيها. ولكن الأساس التكنولوجي للتقارب الإعلامي ما هو إلا عملية لتجاوز الصعوبات وإحداث نقله نوعية باستخدام منجزات التكنولوجيا الرقمية التي تتساوى مع الكلمة المطبوعة وحركتها المرئية. والمضمون الرقمي يمكن نشره بمختلف الطرق دون التقيد بصناعة وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وتكنولوجيا الوسائط التقليدية.[19] حتى أن التقارب التكنولوجي يطرح مبدأ التفاعلات الدولية ويبشر بتحولها إلى واحدة من أهم مكونات الاتصالات الحديثة التي تؤدي في النهاية إلى التقارب التكنولوجي وتصغير حجوم وسائطه وهو ما أطلق عليه مصطلح تكنولوجيا النانو.

وبالدرجة الثانية: إن معنى التقارب والاندماج بين مختلف أشكال التعامل مع وسائل الاتصال والإعلام، هو أن يصبح معها التمييز عن أي وسيلة محددة يجري الحديث عنها يشكل صعوبة. لأن الإذاعتين المسموعة والمرئية دخلتا عالم الإنترنت، وسجلت الموسوعة البريطانية على أقراص مضغوطة، وغدت أفلام الفيديو تبث عبر قنوات الكابلات التلفزيونية، وعبر الإعلانات الإلكترونية التي تستقبلها أجهزة الحاسب الآلي صغيرة الحجم (كمبيوتر الجيب)، الذي غدا يؤدي مهام جهاز الحاسب الآلي الشخصي بكاملها. مما أدى إلى انتقال وظيفة وسيلة اتصال وإعلام جماهيرية معينة إلى أخرى، ورافقه تبادل للأدوار بين مختلف قنوات الاتصال، موفراً إمكانية الحصول على مضامين مختلف قنوات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاتصال والإعـلام الجماهيرية عبر وسيلة واحدة غيرت جذرياً التصورات السابقة عن مختلف قنوات الاتصال والإعلام الجماهيرية وقربت بينها، وأدت إلى ظهور قنوات مشتركة جديدة للحصـول على المعلومات، نتج عنها ظهور فنـون صحفية جديدة متقاربة ومواد إذاعيـة مرئيـة عصرية تحولـت كلها إلى معلومات ترفيهية، أو مضللة.

وتحول عصر شبكة الإنترنت إلى مصدر للمعلومـات التعليميـة، وتحولـت القنوات الإعلامية الشخصيـة الحديثة إلى مصدر متميـز للمعلومـات. وفي النهايـة تحـول التقـارب إلى اندمـاج الأسواق. وأخذت معه صناعـة وسائـل الاتصـال والإعلام الجماهيريـة بالتحرك مـن سلطة بارونات الصحف الذين كانوا يقودون تجارة الإعلام في القـرن الماضـي، نحـو تكامـل أكثر مع قطـاع الاتصـالات الإلكترونيـة، وتحولت إلى إنتـاج تكنولوجيـا الاستعمـال اليومي وتكنولوجيا المعلوماتيـة. مما أدى بالنتيجة لظهور سوق جديـدة للتكامل ارتبطت فيها خدمات الاتصال، وشبكات الخدمة، وإنتاج البرامـج اللازمـة لهـا. وأخـذ الكثير من الباحثين الغربيين ينشغلون اليوم بخلافات فارغة حول التقارب جذبت بعضهم للبعض الآخر، وهـو أشبه بالخلاف الذي كان دائر في يوم من الأيـام حول الدجاجة كانت أولاً أم البيضـة. لنرى أن عمليـة التقارب اليوم أخذت طريقها نحـو مستقبل تقدم وسائل الاتصال والإعـلام الجماهيرية. ومعروف أن الانتقادات التي وجهـت للباحثين الذي ربطوا في أبحاثهـم بين دور التكنولوجيا في تطوير وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وعملية التقدم التكنولوجـي لم تتوصل لأي نتائـج. وخاصة أبحـاث مارشال ماكلوهين الـذي كان رائداً في هذا المجال. ولكن على مـا يبـدو أن استخدام التقـارب الحاصل في التقـدم التكنولوجي يمكـن أن يؤدي في القريب إلى تحولات في اقتصاد سوق وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

ويبقى التقـارب جزئياً في فن الخطابة وأساليبهـا في المراكـز السياسيـة للـدول البـارزة في العالم، وبالدرجة الأولى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي. ومنها خطـاب قانون الاتصالات في الولايـات المتحدة الأمريكية لعام ١٩٩٦، والكتـاب الأخضر للتقارب الذي وافق عليه الاتحـاد الأوروبـي في ديسمبر/كانون أول عـام ١٩٩٧، التي بقيت حتى الآن من أشهر الوثائق السياسية التي تدعو لتشجيع التقدم في التقارب على المستوى السياسي. وانطلقت الوثيقتان من المبادئ القديمة لتنظيم وسائل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاتصال والإعلام الجماهيرية الإلكترونية المضطرة للتعامل مع مشاكل تحديد الموجات الإذاعية المسموعة والمرئية. ولو أن التقارب يلغي هذه المشكلة بحيث لن يضطر الوسط المعلوماتي والاتصالات الجديد لتوزيع الموجات الإذاعية المسموعة والمرئية بعد أن أصبحت وسائط للعمل المشترك في القنوات والمضامين الإعلامية الجارية بتناقض مع نظم القوانين التقليدية، مبنية على تحديد نشاطات مشغلي الشبكات، والإذاعتين المرئية والمسموعة. وليصبح الوصول الحر إلى شبكات نظم الاتصالات الحديثة بالكامل خاضع للسياسات الجديدة للدول إضافة لـ«الأشخاص العاملين» على تحديد أسعار الوسائط لينمو التقارب بشكل ملحوظ، ويصبح الدور النشيط لمشغلي الشبكات، ووسائط الوصول، ومنتجي المضامين الإعلامية والمستخدمين في تحديد أوضاعهم الخاصة.

ويعتبر تأمين فرص الوصول من أهم الاتجاهات السياسية اليوم، ويرافق تقارب الأسواق التخفيف من التركيز والاحتكار الذي يمكن الكثير من الشركات الصغيرة من العمل بنجاح في السوق الإعلامية الحديثة. ناهيك عن أن التخلف عن التقدم التكنولوجي قد يصبح عائقاً جدياً للوصول إلى البنية التحتية العالمية للمعلوماتية والاتصالات في عدد من الدول لا بل ومناطق كاملة من العالم أثناء تكاملها مع البنية التحتية العالمية للمعلوماتية والاتصالات. ويصبح وصول أشخاص محددين للإعلام المتقارب صعب بسبب إمكانياتهم المادية، أو بسبب الأمية التكنولوجية. لأن عملية التقارب الإعلامي اليوم تحتاج لأموال ومعارف جديدة للأشخاص العاديين، وموارد كبيرة وإرادة سياسية من الدول والتكتلات السياسية. ومن المعروف أن حقيقة توافق تفاعلات التقارب التكنولوجي لوسائل الاتصال، والتقارب الاقتصادي في الأسواق. توفر لمشغلي الاتصالات دخول سوق شبكات التوزيع بالكابلات، وينصهر معها دور النشر مع شركات أفلام الفيديو. ويظهر منتجو البرامج العملية اهتماماً بشبكات الإذاعة المرئية. ليحدث نوعاً من المستويات المتعددة للتفاعل مع اتحادات الاتصال التي تصبح منجذبة نحو الصناعات التقليدية لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، من: الصحافة المطبوعة، والبث الإذاعي المسموع والمرئي، والعمل التجاري في مجال الاتصالات. ولو أن الحياة الواقعية مختلفة بين المتنافسين تكنولوجياً في مجالات الاتصالات الهاتفية والإذاعة المرئية، رغم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنهم احتفظوا ولوقت محدد بدورهم بالكامل إلا أنه من الواضح هناك ضرورة لإعداد سياسة اتصالات موحدة.

ولاحظت السياسة الحديثة لليبرالية سوق الاتصالات في سوق الاتحاد الأوروبي دقة الفصل بين البنية التحتية لإعطاء المعلومات والوصول للمضامين، والخدمات التي تقدمها من خلال البنية التحتية هذه. وراعى الكتاب الأخضر للتقارب الصادر عام ١٩٩٧ الفرق بين النقل عبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التقليدية أو التوزيع، وتقديم الخدمات مع مضامين إعلامية.[٢٠] ولكن في ظروف التقارب التكنولوجي يبقى الضمان الواقعي لتنوع المضمون ممكن فقط في حال خلق الظروف الملائمة لجميع اللاعبين، والعاملين في مجالات التقارب الاتصالي وفي الأسواق الإعلامية، ومشغلي الشبكات، وعقد التوصيل في الإنترنت، ومنتجي مواد المضمون الإعلامي، وخدمات الأشخاص الكثيرين العاملين الذين يحتاجون لوصول متساوي لنظم الاتصال.[٢١]

ويبقى التقارب التكنولوجي الجاري تطبيقه بالمعنى الملموس عبارة عن «إعادة توزيع للأدوار» في وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التقليدية، وتغيير الأدوار على ساحة المستفيدين، من كتلة سلبية إلى كتلة إيجابية، تستهلك المضامين المقدمة لها، وتتحول إلى مجموعات محددة بالكامل، من حيث الاستهلاك المعلوماتي للاتصالات المعتاد عليه ويمكن تحديد أطرافها بدقة. ليحظى الجمهور الإعلامي من خلال التقارب مع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بخاصية رئيسية كما يجري اليوم. والإعلام الدولي النشيط الجديد يقدم للمستهلكين التقليديين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بإمكانيات غير محدودة لاختيار المضمون. ولكن في الوقت ذاته نرى أن مستخدمي «الأون لاين ميديا» يصبحون مشاركين في تحرير المواد، وحتى في إدخال مواد ومضامين جديدة. ليجري من خلالها توحيد المستخدم والمنتج وتؤدي إلى تقارب مختلف الأدوار والوظائف، بدلاً من التقسيم. فالمستخدم المحدد يتحول إلى احد الحقائق التي هي فعلاً توجه عملية التقارب. ويتحول معها وصول المستخدم في الإعلام الجديد إلى مجموعة من المشاكل التي يتميز بها عصر التقارب، وتجاوزها ممكن من خلال تعاون اللاعبين الكبار في سوق الاتصالات والدولة والقطاع الخاص ومن خلال مساهمتهم النشيطة والفاعلة وبمشاركة المستخدمين لاختيار الدور الإنساني والاجتماعي والاقتصادي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإيجاد الضمانات القانونية للوصول إلى التكنولوجيا الجديدة وشبكات الإنترنت.[٢٢]

ومنه نستنتج أن توقعات اختفاء الصحف أمام منافسيها السينما والإذاعتين المسموعة والمرئية لن يتحقق في عصر الإنترنت لأن الأسباب الحالية هي أكثر تعقيداً من السابق. وتفاعلات تقارب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية فتحت الطريق عملياً أمام الكثير من الآفاق التي لم تكن معروفة من قبل، وستؤدي لنفس النتائج السلبية أو أكثر. ومن دون الإرادة السياسية في الدول القومية ومن دون تجديد الإسهام النشيط للتجارة الإلكترونية، ومن دون المستوى العالي والنشيط للساحة الإعلامية يمكن أن يبقى التقارب إمكانية فقط وهي الإمكانية التي تحدث عنها الباحثون على عتبة القرن الجديد.

مصطلحات ومبادئ الأمن المعلوماتي الدولي: وتنطلق أهمية المصطلحات المستخدمة من المبادئ التالية:

١- **المجال المعلوماتي:** وهو مجال النشاطات التي تؤدي إلى صناعة المعلومات ونشرها واستخدامها، ومن ضمنها المعلومات الشخصية والاجتماعية، والمعلومات، واستخدام البنية التحتية للاتصالات الهاتفية، والمعلومات الخاصة.

٢- **الموارد المعلوماتية:** وهي البنية التحتية للمعلوماتية (الأجهزة، والنظم المحدثة، والتعامل، وحفظ، ونشر المعلومات) ومن ضمنها الصفحات الإلكترونية وبنوك المعلومات، والمعلومات الخاصة، وسيل المعلومات.

٣- **الحروب المعلوماتية:** المواجهات الحاصلة بين الدول في مجالات المعلوماتية، مثال إلحاق الضرر بنظم المعلوماتية، وعمليات تبادل المعلومات، والموارد الحيوية للأجهزة الهامة، وتخريب النظم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسيطرة على الحالة النفسية العامة للسكان، وإلحاق الضرر باستقرار المجتمع والدولة.

٤- **الأسلحة المعلوماتية:** وهي الطرق والوسائل المستخدمة من أجل إلحاق الضرر بنظم المعلوماتية وعملياتها ومواردها، والقيام بأعمال سلبية للتأثير المعلوماتي على الدفاع الوطني، والإدارة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها من الأجهزة الهامة لحياة الدول، والسيطرة الأوضاع النفسية العامة للسكان، بهدف ضرب استقرار المجتمع والدولة.

٥- **الأمن المعلوماتي:** وهو حماية المصالح الحيوية للأفراد، والمجتمع، والدولة، في مجال المعلوماتية، ومن ضمنها البنية التحتية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للمعلوماتية والاتصالات الهاتفية، وحماية المعلومات الخاصة، ومقاييسها، وإيجابيتها بالكامل، والوصول إليها، وسريتها.

٦- **تهديدات الأمن المعلوماتي:** وهي العوامل التي تهدد مصالح الأفراد، والمجتمع، والدولة، في مجالات المعلوماتية.

٧- **الأمن المعلوماتي الدولي:** وهو أوضاع العلاقات الدولية، التي تهدد الاستقرار العالمي، وترافقها تهديدات لأمن الدول، والمجتمع الدولي، في مجالات المعلوماتية.

٨- **الاستخدام المخالف للقانون:** لنظم المعلوماتية، والاتصالات الهاتفية، والموارد المعلوماتية دون الحصول على موافقة أو مخالفة القواعد المتبعة، والقوانين، أو مبادئ القانون الدولي.

٩- **التدخل غير الشرعي:** في النظم المعلوماتية، والاتصالات الهاتفية، والموارد المعلوماتية، والتدخل في عمليات جمع، والتعامل، وتخزين، وحفظ، وتقديم، والبحث، ونشر، وتداول، واستخدام، المعلومات بهدف تخريب العمل الطبيعي لنظم المعلوماتية، أو التسلل للوصول إلى الموارد المعلوماتية السرية.

١٠- **النظم الهامة لحياة الدول والأجهزة والمؤسسات،** وهو التدخل المقصود في الموارد المعلوماتية المؤثرة مباشرة على الأمن القومي (النقل، والطاقة، والمالية والقروض، والاتصالات، وأجهزة الإدارة الحكومية، وإدارة الدفاع، وأجهزة الأمن، والموارد المعلوماتية الاستراتيجية، وأعمال منظمات البحث العلمي والتقني، لزيادة الأخطار التكنولوجية والبيئية، وأجهزة مواجهة الحالات الطارئة).

١١- **الإرهاب المعلوماتي الدولي:** وهو استخدام الاتصالات الهاتفية ونظم المعلوماتية ومواردها أو التأثير عليها في مجالات المعلوماتية الدولية بهدف القيام بأعمال إرهابية.

١٢- **الجريمة المعلوماتية الدولية:** وهي استخدام الاتصالات الهاتفية ونظم المعلوماتية ومواردها أو التأثير عليها لأهداف تخالف القانون في مجالات المعلوماتية الدولية.

ويعتمد الأمن المعلوماتي على المبادئ التالية: **المبدأ الأول** ويشمل:

١- نشاطات الدول وغيرها من الأطراف الدولية في مجالات المعلوماتية الدولية يجب أن تشجع التطور الاجتماعي، والاقتصادي، وفقاً لمتطلبات الحفاظ على الاستقرار والأمن العالمي، ومراعاة استقلال غيرها من الدول، ومصالح الأمن، ومبادئ التسوية السلمية للمشاكل والصراعات،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعدم اللجوء إلى القوة، وعدم التدخل بالشؤون الداخلية، ومراعاة حقوق وحريات الإنسان.

٢- وهذه الأعمال يجب أن تتم وفقاً لحقوق كل إنسان بأن يطلب، ويحصل، وينشر، المعلومات، والآراء، التي تضمنها وثائق الأمم المتحدة، مع مراعاة حصر هذا الحق بالنظم القانونية الوطنية بهدف حماية مصالح وأمن الدولة.

٣- ويجب أن تحظى أي دولة أو أي طرف من أطراف العلاقات الدولية بحق المساواة لحماية الموارد المعلوماتية وأجهزة حياتها الهامة من الاستخدامات غير القانونية أو التدخل المعلوماتي المخالف للقانون، وأن تعتمد على دعم المجتمع الدولي من خلال استعمالها لهذا الحق.

المبدأ الثاني: امتناع الدول من خلال سعيها لمنع التهديدات في مجال الأمن المعلوماتي الدولي، عن: -الإعداد، وإقامة واستخدام وسائل للتأثير أو إلحاق الأضرار بالموارد المعلوماتية ونظم الدول الأخرى؛ -استخدام المعلومات من أجل التأثير على الأجهزة الهامة لحياة الدولة الأخرى؛ -استخدام المعلومات من أجل تحطيم النظم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية لغيرها من الدول، والسيطرة النفسية على السكان بهدف إشاعة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار في المجتمع؛ -التدخل غير المصرح به في نظم المعلوماتية والاتصالات الهاتفية والموارد المعلوماتية، واستخدام هذه النظم والمجالات بشكل غير قانوني؛ -محاولة الدخول والسيطرة على مجالات المعلوماتية؛ -منع الوصول للتكنولوجيا المعلوماتية الجديدة وخلق أوضاع تمنع الدول الأخرى من الوقوع في تناقضات مع مصالحها وتبقيها تابعة للغير في مجال المعلوماتية؛ -دعم نشاطات الإرهاب الدولي والحركات الانفصالية والمنظمات والمجموعات الإجرامية، أو بعض الخارجين عن القانون الذين يهددون الموارد المعلوماتية، أو الأجهزة الهامة لحياة أي دولة من دول العالم؛ -وضع وتنفيذ خطط وبرامج، تتطلع لإمكانية إثارة الحروب المعلوماتية وتهيئ الظروف لخلق سباقات التسلح وتدعو لخلق حالة من عدم الاستقرار في العلاقات الدولية، وتهيئ الظروف للقيام بالحروب المعلوماتية؛ -استخدام التكنولوجيا ووسائل المعلوماتية لإلحاق الضرر بحقوق وحريات الإنسان في مجال المعلوماتية؛ -نشر المعلومات عبر حدود الدول بشكل مخالف لمبادئ الحقوق الدولية أو القوانين النافذة في دول بعينها؛ -السيطرة على سيل المعلومات، ونشر الأنباء

المضللة والمختلقة، بهدف زعزعة الأوضاع النفسية والمعنوية في المجتمع، وتخريب القيم والتقاليد الثقافية، والمعنوية، والأخلاقية، والجمالية؛ -التدخل المعلوماتي والسيطرة على البنية التحتية للمعلوماتية والاتصالات الهاتفية لغيرها من الدول، ومنعها عن العمل وأداء وظيفتها على الساحة المعلوماتية الدولية.

المبدأ الثالث: توفر منظمة الأمم المتحدة وأجهزتها المختصة الظروف للتعاون الدولي، في مجال منع تهديدات الأمن في مجالات الساحة المعلوماتية الدولية، ووضع القواعد القانونية اللازمة من أجل: -تحديد طبيعة وتصنيف الحروب المعلوماتية؛ -تحديد طبيعة وتصنيف الأسلحة المعلوماتية والطرق والوسائل التي يمكن اعتبارها أسلحة معلوماتية؛ -الحد من تجارة الأسلحة المعلوماتية؛ -منع إعداد ونشر واستخدام الأسلحة المعلوماتية؛ -التصدي لتهديدات الحروب المعلوماتية؛ -مساواة تهديدات استخدام الأسلحة المعلوماتية ضد الأجهزة الهامة للحياة، بتهديدات استخدام أسلحة الدمار الشامل؛ -تهيئة الظروف من أجل التبادل المتساوي والآمن للمعلومات على الساحة الدولية من خلال المبادئ والقواعد الدولية المعترف بها؛ - منع استخدام تكنولوجيا ووسائل المعلوماتية لأهداف إرهابية وغيرها من الأهداف الإجرامية؛ - منع استخدام تكنولوجيا ووسائل المعلوماتية من أجل التأثير على الوعي الاجتماعي، وإشاعة حالة من عدم الاستقرار في المجتمع والدولة؛ -إعداد إجراءات للتعاون المشترك في مجال تبادل المعلومات ومنع الاستخدامات غير المشروعة للمعلومات من أجل التأثير على غيرها من الدول؛ -إحداث نظم دولية للرقابة ومتابعة التهديدات في المجالات المعلوماتية؛ -إحداث آليات للرقابة على احترام نظام الأمن المعلوماتي الدولي؛ -إحداث آليات لتسوية حالات الصراعات في مجالات الأمن المعلوماتي؛ -إحداث نظم دولية للترخيص في مجالات المعلوماتية وتكنولوجيا ووسائل الاتصالات الهاتفية (وضمنها التقنيات وبرامج الاستخدام) بهدف ضمان الأمن المعلوماتي؛ -إحداث نظم دولية للتعاون بين الأجهزة الأمنية من أجل منع ومحاربة الجريمة في المجالات المعلوماتية؛ -إجراء تعديلات طوعية في القوانين الوطنية لتتلاءم مع ضرورات توفير الأمن المعلوماتي.

المبدأ الرابع: تحمل الدول وغيرها من أطراف العلاقات الدولية المسؤولية الدولية لقاء نشاطات في المجالات المعلوماتية تقوم

بها أو يقوم بها الغير تحت غطائها القانوني، أو ترعاها منظمات دولية تنتسب إليها.

المبدأ الخامس: تسوية الخلافات الناشئة بين الدول أو بين أطراف العلاقات الدولية، من خلال القواعد الدولية، وبالإجراءات السلمية المعترف بها دولياً.

الهوامش

١- للمزيد انظر: التقرير الاستراتيجي العربي

http://acpss.ahram.org.eg/ahram182001/1//RARB.22HTM

٢- للمزيد أنظر: مصر تتصدر الدول الواعدة لتقديم الخدمات التكنولوجية للشركات العالمية. //القاهرة: صحيفة الأهرام، ٢٠٠٩/١١/١٥.

٣- للمزيد انظر: مصر أول دولة عربية تتقدم لتسجيل المواقع بالعربية على الإنترنت. //القاهرة: صحيفة الأخبار، ٢٠٠٩/١١/١٧.

٤- للمزيد انظر: مسيرة العلم والتكنولوجيا في إسرائيل.// القاهرة: مجلة السياسة الدولية، إبريل ٢٠٠٨، ص١٢٩.

٥- للمزيد انظر: أعلنت وزارة التجارة في الولايات المتحدة الأمريكية. //عالم الإنترنت، العدد: ١٩٩٨/٦. (باللغة الروسية).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦- للمزيد انظر: بوفت غ.: من يعيش جيداً على الأرض. //موسكو: صحيفة سيفودنيا، ١٩٩٩/٧/١٤. (باللغة الروسية).

٧- للمزيد انظر: الإنترنت للصحفيين (www.press.ru). (باللغة الروسية)

٨- للمزيد انظر: الـnternet دخلت مرحلة جديدة من التطور. عالم الـnternet، ١٩٩٨/ العدد:٥. (باللغة الروسية)

٩- للمزيد انظر: كنيازوف أ.: - غصن جديد للتنمية. HARD'n'SOFT، ١٩٩٨، العدد/٥. (باللغة الروسية)

١٠- للمزيد انظر: فيكتور خارسين: هذا هو واقع الفضاء المعلوماتي. //الأخطار والأمن، ١٩٩٦ العدد:٦. (باللغة الروسية)

١١- للمزيد انظر: يدينون نائب رئيس الجمهورية بعدم المصداقية في استخدام موارد الـ// .Internet HARD'n'SOFT، ١٩٩٨ العدد:٢. (باللغة الروسية)

١٢- للمزيد انظر: أسلحة غير منتظرة للثوار. //HARD'n'SOFT، ١٩٩٨ العدد:٤. (باللغة الروسية)

١٣- للمزيد انظر: المقاتلون البروانيون ينشرون دعايتهم للحرب في الـInternet. //كونفيدينت، ١٩٩٧ العدد:٢. (باللغة الروسية)

١٤- للمزيد انظر: فيكتور خارسين: هذا هو واقع الفضاء المعلوماتي. //الأخطار والأمن، ١٩٩٦ العدد:٦.

(باللغة الروسية)

١٥- للمزيد انظر: مينشينينا ف.: عاصفة معلوماتية في الخليج. //كونفيدينت، ١٩٩٧ العدد:٢. (باللغة الروسية)

١٦- للمزيد انظر: موتوز و.: الأطفال والـInternet. //كونفيدينت، ١٩٩٨ العدد:١. (باللغة الروسية)

١٧- للمزيد انظر: المخابرات الأردنية في الـInternet. //كونفيدينت، ١٩٩٧ العدد:٢. (باللغة الروسية)

١٨- للمزيد انظر: معلومات وزارة التجارة في الولايات المتحدة الأمريكية. //عالم الـInternet، ١٩٩٨، العدد ٦. (باللغة الروسية)

١٩- للمزيد انظر: بوفت غ.: لمن الحياة ستكون جيدة على الأرض.// موسكو: صحيفة سيفودنيا، ١٩٩٩/٧/١٤. (باللغة الروسية)

٢٠- للمزيد انظر: بانارين ي.: التأمين السيكولوجي المعلوماتي للأمن القومي الروسي // موسكو: ١٩٩٨. (باللغة الروسية)

٢١- للمزيد انظر: الإنترنت Internet قادم على مرحلة جديدة // عالم الإنترنت، ١٩٩٨ العدد ٥. (باللغة الروسية)

٢٢- للمزيد انظر: كينيازيف أ.: الإنترنت ٢ Internet ٢ فرع جديد للتطور؟ //HARD'n'SOFT، ١٩٩٨، العدد ٥. (باللغة الروسية).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشرق والغرب لن يلتقيا

أحمد عمران الزاوي ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا

كلمة تداولها الغربيون

بعـد معركة عين جالوت[1] وخاصة بعد سقوط المدن الساحلية الست من أيدي الصليبيين[2]، وبعد وجود استعماري استمر مئتي عام (١٠٩١-١٢٩١م) عادوا إلى أوروبة فلولاً وهم يكررون عبارات ورثتها عنهم الأجيال اللاحقة: إن الـدم لا يموت، وسوف يظهر من ينتقـم له، ودوام الحال من المحال،

✿ باحث من سورية.

وحينما تتبدل الظروف سوف يغسل الثأر دماء العار التي نزفت في بلاد الشرق منذ الغزو النابليوني ومازال مستمراً وهذا ما جرى بالفعل فقد بدأت أوروبة بعمليات الثأر.

القبضة العثمانية تراخت من حول رقبة الشرق.

- انفرط الشمال الإفريقي عن الجسد العثماني.

- وعلاقة السلطات مع الأقاليم الآسيوية أدركتها الشيخوخة.

- وفي المستعمرات الأوروبية تساقطت أسنان الشيخ العثماني.

بعد ذلك:

أي بعد أن تساقطت شرفات الشرق وبدأ يتدهور إلى الحضيض، صرخت أوروبة بأجمعها تقريباً «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا!!».

مهمة هذا المقال أن يتحدث بالاختصار والممكن عن المواضيع التالية:

- المراحل التاريخية التي مرّ بها هذا المفهوم «مفهوم الشرق الأوسط».

- ماذا يعني لإسرائيل وأوروبة وأميركا.

- رسم صورته القادمة على ضوء ما جرى ويجري.

مفهوم الشرق الأوسط في التاريخ

حتى وقت قريب كانت له أسماء قاموسية ثلاثة.

«الشرق الأدنى» كان يطلق على الدول الواقعة شرقي المتوسط (تركيا وسورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن).[٣]

«الشرق الأوسط» كان يطلق على آسيا الشرقية (الصين- الهند- الفيليبين- الهند الصينية- أندونيسيا- شرق روسيا).

«الشرق الأوسط» صار يطلق حديثاً على بلدان الشرق الأدنى وإيران وشبه الجزيرة العربية والعراق.

أما التسمية الرابعة «الشرق الأوسط الجديد». فقد طرح حديثاً في الكتاب الذي أصدره شمعون بيريز، في سنة ١٩٩٤ تحت اسم «الشرق الأوسط الجديد».[٤]

وقد حمل الاسم الأخير بعداً سياسياً وجغرافياً أثناء حرب المقاومة ضد الغزو الإسرائيلي للبنان في عام ٢٠٠٦- حينما حضرت وزيرة خارجية أميركا- السيدة كوندي ليزا رايس في اليوم الثالث من الحرب ودَعَت إلى السفارة الأميركية في بيروت كبار الحكومة والساسة اللبنانيين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأعلنت لهم- فيما كانت الطائرات الأميركية تقصف الجنوب اللبناني-وصواريخها تدمّر مساكنه وطرقه ومؤسساته- إن هذه الحرب هي المخاض الميمون الذي سوف يلد طفله العظيم «الشرق الأوسط الكبير».

فعمَّ الارتياح وتوَزعت على الحاضرين علب السيكار الفاخر وكؤوس الشراب وأقداح البن.

لقد كان هيرتزل «في مؤتمر بال» بسويسرا[٥]، أول من طرح هذا المفهوم طرحاً سياسياً إذ قال: نريد شرقاً أوسط متحرراً من الأتراك ولكن «المجزأ إلى دويلات وأقاليم لا تستطيع الاتحاد ضدنا».

طبعاً كان هيرتزل يعني المنطقة العربية لأنها منطقة الأحلام الصهيونية.

وحينما استوضحت السيدة «رايس» عن ماهية هذا المولود قالت:

هو مخطط يشمل الشرقين الأدنى والأقصى مضافاً إليهما دول تمتد بعدهما، تلك كانت-ومازالت- رغبة أميركا وتصميمها السياسي.

نعم:

لقد وضعت خرائط دول الشرق الأوسط على المنضدة لكي تعمل فيها مباضع جراحي السياسة الأميركية قَطْعاً وإلحاقاً حتى تحولها إلى مسوخ كانتونية، عاصمتها إسرائيل في السياسة والاقتصاد والثقافة والحرب.

ولكن:

النتيجة التعيسة التي أفرزتها حرب لبنان بددت أحلام أميركا وأسقطت نبوءات رايس فقد أفرز مخاض الحرب «خديجاً» ناقص النمو فاقداً للحياة.[٦]

وانسحب الجيش الإسرائيلي ومعداته الأميركية حاملاً «عار الهزيمة».

ومادمنا، قد ألمحنا في الاستهلال إلى إيداع الثأر الأوروبي في جيب الزمن بعد الهزائم الصليبية بات من المفيد والضروري أن نتحدث بالقليل السريع عن الحروب الصليبية.

انطلقت تلك الحروب حاملة غيظاً قديماً ظل متوارياً في الصدر الغربي منذ سقطت «مصر» و«سورية» و«آسيا الصغرى» تحت الحكم التركي.

ظل ذلك الغيظ مكبوتاً في الصدور إلى أن دفع به إلى الظهور هدم «كنيسة القيامة» في سنة ١٠٠٩ - والمضايقات التي كان يلقاها الحجاج في طريقهم إلى زيارة

الأماكن المقدسة وقد بلغ الغيظ أوج القارّة على أثر الخطب النارية التي ظل البابا يلقيها في محافل وساحات المدن الأوروبية الكبرى.[٧]

ففي تلك الخطب- قال مؤلف قصة الحضارة :

كانت مهاميز شدت على البطن الأوروبي لمباشرة الحروب الصليبية.

وفي «كلير مونت» نصب الناس خيامهم في العراء مستهينين ببرد الشتاء لكي يستمعوا إلى خطبة البابا.

لقد كانت خطبته في «كلير مونت» أعظم الخطب في القرون الوسطى.

وقد أورد منها فقرات نورد بعضها :

«يا شعب الفرنجة» شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله طغى وبغا في تلك البلاد على من تقع تبعة الانتقام من هذه المضايقات والمظالم إن لم تقع عليكم؟ ألا فليكن من أمجاد شالرمان وأعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم.

(قصة الحضارة- ص١٦- وما بعدها من المجلد ١٥- ١٦)

وحينما أنهى خطبته علت أصوات الجماهير مثل الرعد «هذه إرادة الله»

بعد الفشل الصليبي عاد الأحياء منهم حاملين ثابتتين:

أولاهما:

أطنان من العلوم والمعارف والكتب وأنماط العيش العربي وأصول الزراعة والصناعة والتجارة التي كانت تفتقر إليها أوروبة وكانت فيما بعد أول أبجدية الحضارة الأوروبية.

الثانية:

القناعة المطلقة أنهم هزموا في بلاد الشرق على يد الشعب الذي لعنوه ووصفوه بالنجاسة والإلحاد.

والأماكن المقدسة التي حاربوا من أجلها مئتي عام عادت إلى الأيدي التي كانوا يتقززون منها ومن أصحابها.

ثم، ماذا صار يعني الشرق للأغيار

قبل مؤتمري:

- بال في سويسرا بعام ١٨٩٨م.
- ولندن بعام ١٩٠٧م.

لم يكن يحمل الشرق غير معناه الجغرافي المستمد من واقعه على الأرض.

ولكنه حمل معناه السياسي في مؤتمر بال كما هو ماثل في عبارات هرتسل.

أما في مؤتمر لندن فقد حمل إلى جانب معناه السياسي معنى آخر هو استراتيجية تلاقي المصالح.

ففي بال:

قال هرتسل: «نحن نريد شرقاً أوسط متحرراً من الأتراك، ولكن المجزأ إلى دويلات وأقاليم العاجز عن الاتحاد ضدنا».(٨)

كان ذلك منه بعد أن عاد وفده، فاشلاً من مقابلة السلطان عبد الحميد ذلك الذي رفض الرشوة التي حملها الوفد إليه والبالغة مليون ونصف مليون ليرة ذهبية لقاء تأجير اليهود مئة قرية في فلسطين.

رفض طلب التأجير والرشوة وقال: أبلغوا مستر هرتسل: أنه إن نجحت الدول الغربية في إسقاط السلطنة فسوف يحصل على فلسطين دون ثمن.

أما أنا فلن أتنازل عن شبر منها، لأنها ملك أبنائي.

وفي لندن:

نهج كامبل بنرمان، رئيس الوزارة البريطانية آنذاك نهجاً يتفق مع نهج هرتسل في النتيجة ولكن يختلف في الأسباب والدوافع.

انطلق بنرمان من مصلحة بريطانيا التي التقت مع مصالح بعض الدول الأوروبية الجاثمة آنذاك على صدر الوطن العربي من شرقه إلى غربه، فقال»(٩):

هذا الامتداد الجغرافي الذي ينساح على ١٤ مليون كم٢ تقوم الآن فيه دول ويعيش ويتوالد فيه شعب يتكلم لغة واحدة وقد عاش الوحدة السياسية قروناً مديدة.

والآن، إن دخلت إليه أسباب الحضارة الحديثة من العلوم والتقنية وامتلأ من جديد بالمشاعر القومية الوحدوية، فسوف يكون مصيرنا فيه لا يختلف عن مصير أجدادنا الصليبيين. لذلك علينا أن نتلافى الخطر قبل وقوعه وأن نأخذ العبرة مما جرى للأجداد. ولهذا دعوتكم، جمعتكم لكي تتفقوا على خطة تحمي بقاءنا في هذا الشرق.....

ولخطورة المهمة، كلفوا خبراء من جميع بلدانهم لكي يضعوا خطة كفيلة بعرقلة نهوض الشرق لأن في ذلك وحده دوام سيطرتهم.

فاجتمع الخبراء وبعد ستة أشهر خرجوا بتقرير يتألف من مقدمة، تليها خطة مستقبلية.

قالوا في المقدمة:

هذا الشرق الذي يتنعم فيه الغرب منذ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمد: فمنه ودون عائق تصل بريطانيا إلى الهند، ومنه دون عائق تصل فرنسا إلى جاوة وسومطرة[10] ومنه دون عائق تصل هولاندة إلى أندونيسيا[11].

وللمحافظة على الوضع الراهن، يجب استبعاد شبح وحدة العرب إلى الأبد وذلك بإجراء عملية ذبح جغرافي بفصل الرأس العربي الجاثم في فلسطين شرقي المتوسط عن الجسد الممتد في الشمال الإفريقي وإخلاء الرأس من العنصر العربي وإملائه بجنس جديد يختلف مع العرب في الدين واللغة والتاريخ والجنس.

هنا يكمن الاختلاف في الأسباب بين مؤتمر لندن ومؤتمر بال.

ففي بال لم يكن منظوراً أمام هرتسل والمندوبين غير المصلحة اليهودية، أما في مؤتمر لندن فقد تصافحت المصالح اليهودية مع المصالح الغربية.

فكل ما هو حق لطالبه، يقابله واجب على صاحبه.

- انكلترا ودول الغرب: تلتزم بتركيز اليهود في فلسطين وحماية وجودهم عسكرياً واقتصادياً وسياسياً.

- وإسرائيل تلتزم لقاء ذلك بالاستمرار على إشعال الحرائق في الوطن العربي وتغذيتها بالوقود لكي تبقى قائمة، أما الوقود فهو «الإقليمية» و«الطائفية» و«الشعوبية» و«الأقلية».

لقد راودت عقل نابليون الأول فكرة تبادل المصالح حينما أراد بناء امبراطورية في هذا الشرق فتطلع إلى اليهود لكي يكونوا طابوراً خامساً يقدم إليه حركات السكان ومشاعرهم لقاء إغرائهم في تجميعهم بفلسطين تحت حماية الجيش الفرنسي كما جاء في ندائه التاريخي الشهير.

كما وردت هذه الفكرة لنابليون الثالث (عاش بين ١٨٠٨- ١٨٧٣) وأمر وزيره لاهارن بوضع كتاب المسألة الشرقية.[12]

ولكن جبال الموانع حالت دون هذه الأماني.

بالإضافة إلى عدم اقتناع يهود ذلك الزمان بالفكرة.

إن العوز العلمي والفقر الصناعي، وتشتت الرأي العربي، ثلاثية اتفقت عليها الاستراتيجية الجديدة.

فعدم وجود العائق هو الذي سهل الالتقاء بين الجيش المصري والجيش السوري تحت قيادة صلاح الدين فتحقق بذلك النصر في حطين.

وعدم وجود العائق حقق بعد مئة عام نصر «عين جالوت» لذلك:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

-كان الذبح الجغرافي في استدعاء اليهود لإملاء فلسطين.

-وكانت الإقليمية، حيث استقل كل إقليم بدستوره وقوانينه وجيشه وأمنه وقامت في أغلب الأقاليم حكومات تتبع الأوروبيين والأميركيين في التخطيط السياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري، مثلما يتبع الذيل صاحبه.

مات هرتسل في سنة ١٩٠٤. تاركاً ديناميكيته إلى خلفه «وايزمن» دون أن يبدر عنه أي قول يدل على أنه أخذ بجدية تهديد الفلول الصليبية بتحريض الأجيال القادمة على الثأر من العرب.

ولكن مؤتمر لندن من حيث يدري ولا يدري تحقق فيه الثأر جنباً إلى جنب مع المصالح من دون اختلاف أو افتراق وكان للمؤتمر المذكور رؤوس متعددة مثل رؤوس الشياطين وكانت له أنياب ومخالب فهو الأب الشرعي:

- للزحف على الشرق.
- واقتراحات كرزون في سنة ١٩١١.
- ووعد بلفور.
- واتفاقية «سايكس- بيكو».
- ومقررات بلتيمور.[١٢]
- والدعم الأميركي غير المحدود لإسرائيل في السلاح والمال والسياسة.
- وجميع ما يزال في رَحِم الأحداث بالنسبة للدول التي هي خارج سلطة الاستعمار...... تدخُّلُ الحماية والدعم لم يقف عند حد.

بل جميع ما يجري في الشرق، من جهل وأمية وكانتونات وصراعات طائفية وإثنية مسقوف بالخطوط الحمراء التي رسمها مؤتمر لندن.

إن جميع ما يجري في الشرق العربي منذ خمسينيات القرن الماضي والذي يسير سيراً تصاعدياً يؤكد أن الخطوط الأولى لهذا المسير وضعت منذ مؤتمر لندن وتركت بين أيدي الأجيال السياسية القادمة ينفذون منها المصالح وفقا للظروف الراهنة.

فحتى حرب السويس لعام ١٩٥٦ كانت انكلترا وفرنسا العرابين الأساسيين اللذين أخذا عل عاتقهما تنفيذ بنود قرار لندن بنداً بنداً.

إن أشد وأخطر بند كان إخلاء فلسطين من العرب وإملاؤها باليهود والإمساك بالإبط اليهودي حتى إعلان الدولة اليهودية وتكامل قدرتها مالاً ورجالاً وسلاحاً.

أثناء حرب السويس برزت الولايات المتحدة، قوة طاغية، في المسرح الدولي.....

فبادرت إسرائيل على الفور إلى فك عربتها عن ظهر الجوادين الإنكليزي والفرنسي وربطها بإحكام على ظهر الحصان الأميركي فتعايش الحصان منذ ذلك الوقت مع هذا العبء وقام ومازال قائما بهذه المسؤولية...

منذ أن ألقي الوجود اليهودي في فلسطين على عاتق الأميركيين، لم تعد أميركا تنظر إلى هذا الشرق إلا بالعين اليهودية «الحلال والحرام»، «المنح والعطاء»، «الرضا والغضب».

ينطلق من مصالح إسرائيل حتى الفيتو في مجلس الأمن بدا وكأنه لم يعط لأميركا إلا لكي تسقط به جميع القرارات التي تدين اختراقات إسرائيل للقوانين الدولية وحقوق الإنسان.

لقد أحصيت حالات استعمال أميركا للفيتو فبلغ ٨٢ مرة أسقطت به أميركا أكثر من أربعين قراراً يدين إسرائيل حتى أنها منذ عدة أيام فقط أسقطت قراراً بالإجماع يدين عمليات الاستيطان.

الفيتو الأميركي أسقط القرار- الذي اتخذته دول مجلس الأمن الـ١٥مع أن وسائل الإعلام العالمية كانت قد نشرت رفض السياسة الأميركية للاستيطان واعتباره مقوّضاً للسلام ومعطّلاً للمفاوضات وبعد:

ومن أجل إبراز التكامل السياسي الاستراتيجي بين الغرب وإسرائيل ضد الشرق نقدم لمحة خاطفة عن أحد أرهاط السياسية الإسرائيلية.

لقد رسم هذا السياسي مفاصل السياسة التي يجب-كما يرى- أن تعم الشرق العربي وذلك في كتابه الذي قامت بترجمته «دار الأهلية الأردنية» تحت اسم «الشرق الأوسط الجديد» وذلك في عام ١٩٩٤.

بيريز في كتابه: «رقيق إلى درجة الملائكة» «دقيق إلى درجة الشفافية».

قال في ص٣٥ منه:

«إن المفتاح للمحافظة على نظام إقليمي كامل وعادل يكون في النواحي السياسية والاقتصادية أكثر منه في امتلاك القوة العسكرية وفي عالمنا اليوم فإن تأمين مستوى معيشي عال يتطلب «علاقات تجارية تنافسية» و«حدوداً مفتوحة» و«اعتماداً على العلوم والتكنولوجيا».

وفي ص(٣٨-٣٩) قال:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«أضحت التنمية الاقتصادية هي المعيار الأساسي للديمقراطيــة الناجمة في الشرق الأوســط حيث يوجــد ٦٠٪ مــن المصادر النفطية العالمية كما يمثـل الشرق الأوسط سوقاً هائلة».

وفي ص(١٩٢) قال:

«نحن في حاجة إلى «حدود مرنة» وليس تلك التي تحولـت إلى جدران فليس بنا من حاجة لأن نحيط أنفسنا بجدران بل حاجتنا إلى الاتصال المباشر».

وتابع:

«نعني بالحدود المرنة، الحدود المفتوحة، لأن ذلك يطـور السياحة ويمثـل الطريقة الأفضل لحل مشكلة الحياة».

حينما قلت «رقيق» و«شفاف» كنت أعني العكس تماماً.

فهذا الذي يدعو إلى إلغاء الجدران.

هل كان يستطيع أن يوقف الجدار حينما كان في وزارة شارون؟

وهل يستطيع وقـف استمراره الآن، وهو رئيس الدولة؟

وهـل يستطيع أن يـدل أي قارئ على أي جدار عازل في البلدان العربية؟

وهـذا الـذي يدعو إلى إحـلال العلاقات التجاريـة محـل القـوة العسكريـة هـل يستطيـع أن يلـزم دولتـه في التخفيـف من أسلحتها الفتاكـة وقنابلها الذرية وسلاحها الجرثومي؟

وبالمقابل هل يستطيع أن يدل على جيش عربـي أو جيوش عربية لديهـا مجتمعة ما لدى إسرائيل (دولته) من السلاح؟

في المثل العربي «لو ذات سوار لطمتني».

نعم:

ولكنه «بيريز» جـزار قانا ووزير شارون ورئيس جمهورية إسرائيل الآن.

إسرائيل، هي صاحبة الأيادي التي تقطر منهـا الدماء العربيـة، ذات الشهية التي لا تمتلـئ إلى بترول العرب ومعادنهم وموادهم الأولية.

إسرائيــل التي تنادي بمرونة الحدود، لا تريـد المرونة إلا في الحــدود العربية كي لا تعيق جماركهـا ومخافرها، بضاعة إسرائيل الذاهبة والآتية.

وهــو إذ يدعـو إلى «وحـدة إسرائيــل الإقليمية» إنما يريدها بالصيغة التي نادى بها جده «هرتسل» كانتونات هزيلة مستحيلة التوحد.

ثم:

هل يعتبر الفلسطينيــين المشتتين جزءاً من هذه الأسرة؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أم سوف يبقى هو وضباطه ورجال الدين والسياسة في إسرائيل يرفضون الوجود العربي في فلسطين؟!

تلموده يقول «خير تصرف مع العربي هو قتله».

فهل يستطيع بيريز أن يمحو هذا النص من التلمود؟

أو أن ينتزعه من قناعات اليهود؟

هل تعيد حكومته ٩٠٪ من مياه الليطاني التي سحبتها إلى أراضيها؟(١٤)

هل ترفع يدها عن مياه جبل الشيخ التي سحبتها كلها إلى أراضيها؟(١٥)

صورة الشرق العربي على ضوء ما جرى وما يجري

قبل الحديث عما يجري في هذا الشرق العربي في شوارعه وساحاته.

قبل الحديث عن سقوط «بن علي» في تونس وفراره مع ملايينه إلى السعودية حيث يرقد اليوم في أحد مشافيها.

وقبل الحديث عن تدهور «مبارك بعد ثلث قرن من الحكم المطلق» وفراره مع اثنين وسبعين ملياراً من الدولارات.(١٦)

وعما يجري في اليمن والبحرين.

وقبل الحديث عن دماء الثوار التي ملأت ساحات ليبيا وشوارعها وتهديد سيف الإسلام بمقاومة الثورة حتى آخر رجل وامرأة وطفل وطلقة.

قبل ذلك نذكر بأن عبارة «الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا»

والمقصود بـ«لن يلتقيا» أي أن يظلا على تعاكس واختلاف.

بهذا المعنى آمن الغربان (الأميركي والأوروبي).

وعملا معاً -وما زالا- على أن يبقيا بين الغرب والشرق أخدوداً طويلاً عميقاً لا يمكن للشرق اجتيازه.

-فديمقراطية الحكم عندهم: يجب أن تقابلها في الشرق العربي ديكتاتورية متسلطة تتحكم في الأقلام والأفواه وتراقب شهيق الصدور وزفيرها.

-والدساتير التي فرضت على الحاكم الغربي أن يتقيد بها حرفاً حرفاً في حياته الخاصة والعامة وفي علاقاته مع المواطنين وألا يتقلد منصبه أكثر من دورتين متتاليتين.

يفرض في الشرق العربي مقابل ذلك، الدستور والقانون والنظام مجموعة من النصوص التي وجب عليها أن تحمي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

امتيازات المميزين ذوي الحظوظ والحظوة ويقابل فترتي الحكم في الغرب الالتصاق بالكرسي حتى آخر رمق.

- والشعب الذي هو عندهم مصدر السلطات، عنه ومنه ينبثق الحكام والأحكام فالمسؤول أياً كان موقعه، هو مفوض من الشعب لتسيير أموره وفق القوانين السائدة. أما في الشرق فيقابله، شعب عبارة عن جماعة من الخدم والعبيد ترى في السلطان، كائناً مميزاً، هو أول الخلق وبدء التكوين وإن نطق فما ينطق عن الهوى.

- الوطن في المفهوم الغربي هو المنطقة الجغرافية ذات الحدود المحمية «أرضاً وبحراً وفضاءً» يجب أن يقابلها في الشرق العربي أقاليم رخوة الحدود تخترقها من الجهات الأربع، سياسات الغرب وجواسيسه.(١٧)

- الثروة العامة: «ما تهبه السماء» و«وما تنتجه الأرض» هي ملك للشعب عندهم حتى إذا اعتدى عليها الحاكم أو أساء التصرف والإنفاق، قام عليه الشعب، وأحاله إلى القضاء لكي ينال الجزاء.

أما في الشرق العربي، فالثروة العامة تحت مشيئة السلطان، يعطي منها-كما قال معاوية- من يشاء متى يشاء ويمنع من يشاء متى يشاء.(١٨)

تساءلنا وتساءل الكثيرون:

إن لم يكن هدف الغربيين هو الإبقاء على «دونية الشرق» و«بُعد المدى بينه وبين الغرب» و«الحفاظ عليه مخلوقاً عارياً من القدرة» وعاجزاً عن حماية نفسه وقد تحقق جميع ذلك.

إن لم يكن فماذا سواه:

- تكبد نصف مليون جندي أميركي مشقة اجتياز آلاف الكيلو مترات مع طائراتهم وسياراتهم ودباباتهم وبوارجهم حتى العراق، ليسقطوا صدام.

نعم، والأميركان لا يرتبطون مع العراق بجنس أو حدود أو لغة أو دين؟

لماذا - وقد كان العراق بجيشه ووحدة أبنائه القوة الضاربة الأولى والقوة الحضارية والعلمية الأولى- لماذا حولوه إلى كانتونات؟

لماذا بددوا جيشه، وصادروا فكره واغتالوا عروبته؟

-تلك المئات من الثكنات العسكرية الغربية التي تتوزع على أراضي الشرق العربي(١٩).

-الغبي وحده هو الذي يقتنع بأن معاهدات «عدم الاعتداء» التي عقدتها أميركا مع دول الخليج ناجمة من خوف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأميركيين على أمن أميركا من دول الخليج.

هذه اللماذا وسواها لن تجد لها غير جواب ذي رؤوس متعددة، هي:

- أن يظل الشرق، أميّ الثقافة والحضارة.

- وأن يبقى أفواهاً تأكل ولا تتكلم.

- وأن يبقى صامتاً صمت القبور على نهب ثرواته.

- وأن يبقى من شرقه إلى غربه أفواهاً مستهلكة.

- وأن يبقى بينه وبين الحضارة قروناً وأن تبقى بينه وبين العلم والوحدة مسافات شاسعة لقد ثبت دون شك.

إن الغرب يهمه أن يبقى مضيئاً وأن يبقى الشرق مظلماً، أي أن يبقى الشرق شرقاً والغرب غرباً ولن يلتقيا.

هنا، في هذه الأيام، نتطلع مثلما تتطلع الأصداف إلى أشعة الشمس،إن ما جرى في الساحة العربية وما يجري وما سوف يجري أعاد إلى ذاكرتنا فهم الغرب وممارسته لعبارة الشرق شرق والغرب غرب.

إن ما قالته فلول الصليبيين: «إن دوام الحال من المحال» يتجسد اليوم في ساحاتنا العربية فسلاطين الحكم يتساقطون رغماً عن اللاصق الغربي الذي ألصقهم بالكراسي.

والشعب يصنع التاريخ الجديد.

ذلك أن طريق الأمم، خط بياني فيه المرتفعات والمنخفضات، فالارتفاع يبدأ من القاع والانخفاض يبدأ من القمة[٢٠].

الشعب الذي عاش الهوان زمناً طويلاً يخرج اليوم من القمقم، ويشكل جبهة واحدة تصرخ بصوت واحد إن الشعب هو أمير الأمور، وأن الأنظمة المخالفة للشعب هي أنظمة من المسوخ.

زين العابدين، خلعته الجماهير، وحطمت كرسيه، وكشفت حبال اتصاله مع الغرب وحسني مبارك الذي جثم على صدر مصر أكثر من ثلث قرن لا يتنفس شعبها إلا من بين سبابته وإبهامه. ودهورته الجماهير من شاهقه ففر بملياراته إلى خارج مصر، يبكي مثلما بكى الملك الصغير حينما طرد من الأندلس، وزفر زفرته.[٢١]

في ليبيا، حيث «حاكم الدهر».

منذ نصف قرن تقريباً، لا يرى الليبي غير وجه واحد ولا يسمع غير صوت واحد ولا يتلقى الأوامر إلا من آمر واحد... منذ نصف قرن وفي ليبيا حاكم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وفي المغرب والجزائر والبحرين.

وهذه المظاهرات والحشود المليونية التي أصرت على البقاء، تفترش الأرض وتلتحف

السمـاء، يوحدها الجوع والعـري وانتهاب حقوقهـا ويجمعها هدف واحد: هو «إيقاف الانهيار القومي».

نعم:

الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

ولكن:

ليس مثلمـا سلف، بل بالميـاه الجديدة التي هطـل بها الشعب على الأرض العربية الميتة وها هي ذي تهتز وتربو وتبشر بالزوج البهيـج (اقتباس من الآيـة- ٥- من سورة الحج ٢٢).

لقد صمم الشعب العربي على ألا يبقى في الحضيض.

لذلك لم يعد يهمـه أن يلتقي بالغرب بل كل همه أن يلتقي بالحقائق.

الهوامش

١- عـين جالوت- موقع في فلسطين قـرب الناصرة جرت فيه المعركة التي سجل فيهـا بيبرس انتصاره على هولاكو سنة ١٢٦٠م.

٢- المـدن الساحلية الست هي: «عكا» و«صور» و«صيدا» و«بـيروت» و«طرطوس» و«إنطلياس» و«حيفا» (تاريخ العرب- فيليب حتي ص٧٤٩ وقصة الحضارة ج١٥-١٦ ص٦٠ وما بعدها).

٣- ظل لبنان وفلسطين وشرقي الأردن، جوارح في الجسد السوري حتى بترتها عن معاهدة سايكس بيكو.

٤- ترجمته دار الكتب الأهلية في الأردن.

٥- انعقد مؤتمر بال في سويسرا بعام ١٨٩٨م وكان عدد المندوبين اليهود، الحاضرين ثلاثمئة.

٦- خديج- من الثلاثي خدج. والخديج: هو الولد الذي يسقط ناقص الخلقة، وقبل الأوان.

٧- هـو مـن أطلق على الحملات المتتاليـة اسم الحملات الصليبيـة أما في الأدبيـات العربية فهي (حروب الفرنجة).

٨- عاش هرتسل بين ١٨٦٠- ١٩٠٤ وهو مجري يهودي، مؤسس «الحركة الصهيونية» (المنجد في الإعلام) وثمة من يقول إنه نمساوي.

٩- كامبـل بترمان رئيـس وزراء بريطانيا استقال في سنـة ١٩٠٨ ومات بعد بضعة عشـر يوماً ومؤتمر لندن الـذي انعقـد في ١٩٠٧ وردت أسبابـه ومقرراته في «قصـة الحضارة» بالتفصيـل كذلك في ص١٠٦ من مقارنـة الأديان- اليهودية- للشلبي وفي الثقافة القومية الاشتراكية ص ٧١ التي تدرس في جامعات القطر السوري.

١٠- جاوة: جزيرة بركانية في شرقي المحيط الهندي إحدى جزر اندونيسيا مساحتها ١٣٢٠٠٠كم وعدد سكانها مليون نسمة.

سومطرة: إحدى جزر أندونيسيا مساحتها ٤٧٣٦٠٦كم وسكانها ٢٨١٦٠٠٠٠

١١- أندونيسيا: جمهورية تقع جنوب شرقي آسيا: مساحتها ١٩١٩٢٧٠ كم٢ وعدد سكانها ١٨١ مليون و٤٠٠ ألف نسمة.

١٢- نابليون الأول عاش بين ١٧٦٩- ١٨٢١ عزل فانزوى في جزيرة القديسة هيلانة.

نابليون الثالث عاش بين ١٨٠٨- ١٨٧٣ صار خلعه بعد هزيمته أمام ألمانيا في حرب ١٨٧٠ واعتزل بعدها في انكلترا.

كان قد كلف وزيره لاهاران بوضع كتاب عن «المسألة الشرقية» وجه فيه النداء إلى اليهود بحماس وحرارة يزيدان على نداء نابليون الأول.

١٣- بلتيمور- مرفأ أميركي على خليج نشيسابيك- مدينة صناعية عدد سكانها ٢١٢٧٠٠٠ نسمة.

١٤- الليطاني: نهر لبناني ينبع من العليق جنوب بعلبك، ويخترق البقاع من الشمال إلى الجنوب ويجتاز جبل عامل ويصب في المتوسط شمال صور. حيث يعرف هناك باسم القاسمية، عليه ومنه سد وبحيرة القرعون.

١٥- جبل الشيخ أو حرمون يطلق على القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود اللبنانية- السورية: يقال أنه «أبو المياه».

١٦- لقد أذيع مؤخراً أنه لا يزال في مصر تحت الإقامة الجبرية.

١٧- في لبنان البلد الصغير، اكتشفوا حتى الآن أكثر من خمسين شبكة تجسس ينتمي إليها أكثر من مئة وخمسين جاسوساً.

١٨- يكفي التذكير بالفضائح المالية التي ركبت ظهر السلطانين «زين العابدين بن علي». و«حسني مبارك».

١٩- السفارة الأميركية في بغداد أكبر سفارة في العالم تمتدّ على نحو مئة وأربعين ألف متر مربع وتضم أربعة آلاف موظف.

٢٠- قال الشاعر: إذا تمّ شيء بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

٢١- ثمة في الأندلس هضبة معروفة عند الجميع بأن الزفرة العربية الأخيرة صعدت من الملك من على قمتها.

ما هو شكل الكون؟

موسى ديب الخوري ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة تاريخية

عندما نطرح سؤال ما هو شكل الكون فإننا نجازف بالخوض في معارف لا يـزال العلماء أنفسهم يعملون على بلورتها. ومع ذلك فإننا سنحاول تقديم صـورة عما يحاول العلماء الخوض فيه. والحق إن أهمية شكل الكون بدأت تظهـر لتوهـا. ففيزيائية الكون ظلت تعبر حتى عهـد قريب عن الشكلانية المحتملة التـي تخضع في النهاية لموضوعة تجانس الكـون. لكن الشكلانية تأخـذ اليوم بعداً جديـداً من حيث أن البنية الرياضيـة هي التي أصبحت

✪ نائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

تعطي المعنى الفزيائي للكون. وهذا يعني أنه لا يمكن فصل شكل الكون عن معرفته بأي حال من الأحوال.

كانت المعرفة القديمة عن الكون تأخذ منحىً شكلياً صرفاً، وذلك بسبب غياب المعرفة الفيزيائية. ولكن حتى المعرفة الشكلية للكون لم تكن صحيحة في الحضارات القديمة. وكما نعلم كانت المعارف في تلك الحضارات تختلط بالأفكار الغيبية والخرافية وهي كلها خاطئة في المنظور العلمي المعاصر. لذلك لا نلحظ عند دراستنا لهذه الحضارات أية مقاربة ولو بسيطة لما نعرفه اليوم عن شكل الكون وحتى عن المنظومة الشمسية.

هكذا نجد عند الحضارات المصرية والبابلية والفارسية والصينية وغيرها أشكالاً مختلفة للكون تجتمع كلها على وصف الأرض والسماء والنجوم في إطار قصص أسطورية تجمع بين الخرافة وبعض التصورات عن عالم لانهائي مجهول. ولاشك أن الحضارة اليونانية كانت قد قاربت بعض الطرق المنهجية في تشكيل تصور وصفي لحركات الكواكب. وعلى الرغم من أن بطليموس وضع نظاماً متجانساً نسبياً للكون كان هو قمة ما يمكن الوصول إليه بحسب الإمكانيات والمعارف المتوافرة منذ ألفي سنة، لكن علينا ألا ننسى النموذج الأهم الذي وضعه أريستارخوس للمنظومة الشمسية والذي جعل الشمس فيه مركز العالم. لكن في المحصلة ظلت المعرفة العلمية الناتجة محصورة في إطار عام لم يخرج كثيراً عن رؤية فلسفية أو غيبية في معظم الأحيان. وهكذا يمكننا القول إن الحضارات القديمة لم تستطع الخروج مثلاً من فكرة السموات السبع، ولا من مركزية الأرض، ولم تستطع بحال من الأحوال اختراق السماء كمفهوم مادي لا علاقة له بالآلهة!

أما بالنسبة للعرب فقد طوروا كما نعلم العلوم في مجالات مختلفة، لكن هل ساهموا في تغيير المنظور اليوناني القديم للكون؟ ناقش العرب مطولاً مبدأ ثبات الأرض في الكون، وخاصة علماء القرن الحادي عشر منهم. ومن بين العلماء الذين اهتموا بهذه المسألة فلاسفة مثل ابن سينا والرازي، أو علماء فلك مثل السجزي والبيروني والحسن المراكشي. لكن الشهادة الأكمل والأوثق كانت بلا شك شهادة البيروني الذي يحدثنا عن حركة الأرض كمؤرخ وكفلكي في آن واحد. وهو لا يتردد في إبداء رأيه حول المسألة. ويخبرنا في كتابه «تحقيق ما للهند» أن فرضية دوران الأرض كانت موجودة عند الفلكي الهندي آريابهاتا (القرن السادس الميلادي). وهو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يوحي لنا بأن هذه الفرضية مقبولة لديه وأنها لا تهدم أوتناقض أسس علم الفلك. لكن البيروني عاد في النهاية عن رأيه هذا أمام الضغوط التي كانت سائدة في عصره، ونحن نعتقد أنه لم يكن مقتنعاً تماماً بثبات الأرض ومركزيتها.

تدل الأبحاث الأخيرة[1] أن أعمال الفلكيين العرب والمسلمين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر انتقلت إلى أوروبة، ولا بد أنها حرضت لدى فلكيي القرن السادس عشر الشعور بضرورة تجديد نظام بطلميوس أو تغييره. لكن العرب لم يستطيعوا في النهاية الخروج عن الإطار العام لنظرية بطليموس للكون الذي ظل يتألف من طبقات سبع متمركزة حول الأرض. وحتى كوبرنيكوس الذي عدّل هذا النموذج لم يستطع الخروج عن هذا الإطار العام لشكلانية الكون التي كانت مبنية على تصورات خيالية تماماً بلا أي أساس علمي حقيقي. وكان لا بد من انتظار بدايات القرن العشرين والمراصد العملاقة ليفتح الإنسان باب الكون على مصراعيه ويبدأ بمعرفة أبعاده الحقيقية.

١- هندسة الكون من الإقليدية إلى النسبية

ماذا إذاً عن معرفة شكل الكون وفق المعطيات العلمية الحديثة؟ تصطدم

محاولات معرفة شكل الكون كافة باستحالة تحديد شكل أي جسم بمشاهدته فقط من داخله. لقد مرّ شكل الكون بذي الاثني عشر وجهاً المنتظم لأفلاطون، وبكرة أرسطو، وبالأجسام ذات الأوجه الخمسة المنتظمة القائمة في كرة لكبلر، وبالفضاء الإقليدي لنيوتن وليبنتيز، وأخيراً بفضاء رباعي الأبعاد لأينشتين ترتكز هندسته على توزع الكتل فيه. أما اليوم فإن الأبحاث الرياضية والفيزيائية تلعب دوراً كبيراً في تعديل الكثير من وجهات نظر العلماء حول ما يمكن أن يكون عليه شكل الكون. فنحن نعرف أن الجاذبية تحكم حركات النجوم والمجرات والحشود المجرية في الكون. وتفترض الكوزمولوجيا الحديثة أن الجاذبية هي الوحيدة التي تحكم بنية الكون على مستواه الأكبر. وهي فرضية ترتكز على النظرية الأكثر ثباتاً في الفيزياء، ألا وهي نظرية النسبية العامة. والنسبية العامة تعرّف الجاذبية على أنها انحناء أو تشوّه النسيج الهندسي للكون الذي تخلقه المادة في محيطها. وهكذا يُعرَّف نموذج الكون الحديث على أنه فضاء منحني من أربعة أبعاد يسمى الزمكان. وهو ينتمي إلى سلسلة من الفضاءات غير الإقليدية أي غير المسطّحة(٢).

وتتميز هندسة فضاء ما ذي أبعاد معينة بقياس المسافة التي تفصل بين نقطتين متقاربتين جداً فيه. وهو تعريف قياسي يرجع إلى غاوس وريمان. وفي النسبية العامة يوصف الكون كفضاء رباعي الأبعاد ذي قياسية خاصة. ومثل هذا الفضاء يعرف بين العلماء بفضاء ريمان. ولكن ليس كل فضاء ريماني يمكن أن يكون فضاء يوجد فيه حقل جاذبية وبالتالي يوجد فيه كون. وحدها الفضاءات الريمانية التي تحقق معادلات النسبية العامة من حيث المواصفات الهندسية (القياسية والانحناء) يمكن أن تحتوي على مثل هذا الكون الثقالي. فهذه المعادلات تربط هندسة الزمكان مع توزع المادة والطاقة في الكون. ويمكن حل هذه المعادلات اعتماداً على فرضيتين اثنتين: أن الخصائص الهندسية والفيزيائية لكوننا متماثلة في نقاطه كافة في لحظة معطاة كما وفي الاتجاهات كافة حول هذه النقطة. وهذا يعني أنه لمطابقة الفضاء اللاإقليدي لريمان على النموذج الجاذبي للكون لا بد من الافتراض أن الخصائص الهندسية والفيزيائية لكوننا هي نفسها في كل النقاط في لحظة معطاة، كما وفي كل اتجاه حول كل نقطة من الكون. وبعبارة أخرى هذا يعني أن الكون متجانس ومتناظر(٣).

هل يعني ذلك أن الكون يشبه الكرة؟ لقد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أثبتت الفرضيتان القائلتان بأن الكون متجانس ومتناظـر، واللتان طرحهما أينشتين في عام ١٩١٥ ثـم كل من جورج لوميـتر وألكسندر فريدمان في العشرينات، من خلال الأرصاد الفيزيائية الفلكية بشكل خاص. ولعل أهمها بنية الكون المتجانسة على المستوى الفيزيائي كمـا وتناظر الإشعاع الكوني البدئي. أما أن يشبـه الكون كرة فليس الأمر بهذه البساطة كما تخيل أرسطو. فحلول معادلات أينشتين التي توصل إليهـا كل من فريدمان ولوميتر تقود إلى نماذج كونيـة عدة فائقة البساطة علـى المستـوى الهندسي طالمـا أنها تملك انحناء متماثلاً في كل نقطة منها. لكن هذا الانحناء يمكـن أن يختلف مـن لحظة إلى أخـرى الأمر الذي يعطـي النماذج الكونية أشكالاً ديناميكية غير متوقعة، وهو ما أكده الانزياح نحو الأحمـر الذي يعني أن الكون في حالـة تمدد. أما في حالـة السكون، فإن النمـاذج التي يمكن أن يكـون الكون عليها ثلاثـة: الأول كروي ناجم عن سطح منحني موجب مغلق، والثاني ناجم عن سطح منحني سالب يأخذ شكل قطـع مكافئ مفتوح، أما الثالث فانحناؤه معدوم وهو نموذج إقليدي مفتوح. وهو الـذي يسمى بنموذج أينشتين. دو سيتر.

٢- الولادة الكمومية للكون

قبـل أن نعرضـ للنظريـات الهندسية الحديثـة حول شـكل الكون لا بـد لنا من العـودة إلى بداياته، خاصـة وأن النظريات الحديثة أثبتت أن هذه البدايات ذات علاقة وثيقة بشكل الكون الحالي. تتفق النظريات الفيزيائية حالياً على ولادة الكون من انفجار بدئـي. فما الـذي حدث لحظـة الانفجار الكوني الأول؟

لم يكن العلماء حتى فترة قريبة قد حاولوا الاقتراب من هذا السؤال. فمعرفة اللحظة الأولى مـن عمـر الكون تعنـي معرفة لماذا كان الكون حـاراً إلى هذا الحد الكبير؟ وما الآلية التي حرضت ولادته؟ وما هي الحالة الفيزيائية التي كان عليها الكون قبل ولادته؟ لم يكن العلم يستطيع طرح هذه الأسئلة حتى عهد قريـب. لكن العلـم استطاع الاقتراب من هذه الأسئلة خـلال العقدين الأخيرين. ففي عام ١٩٨٠ قدم آلان غوث نموذج الكون المتضخم. ويرتكـز سيناريو الكون المتضخم على نوع من الفراغ المزيف إن صح التعبير. وهو شكل للمادة المتميزة بطاقة مرتفعة جداً وحقل ثقـالي قوي دافـع. والمقصود بكلمة مزيف عكس كلمة حقيقي أو عكس الفراغ العـادي. فهذا الفراغ غير مستقر ولا يمكن أن يوجـد إلا خلال فترة قصيرة من الزمن.

ومعظم نظريات الجسيمات الدقيقة تتنبأ بوجود عدة فراغات مزيفة. ووفق هذا العالم فإن الثقالة الدافعة لفراغ مزيف يمكن أن تولد فترة توسع كوني متسارع سماه التوسع التضخمي. وهذا التوسع البدئي سريع إلى درجة أنه يمكن أن يوسع جزءاً بسيطاً من الفراغ إلى نسب هائلة. وعندها مع تحلل الفراغ المزيف فإنه يفرغ طاقته في كرة من النار من الجسيمات الأولية التي تستمر في التوسع إنما في إيقاع أبطأ بكثير. وهكذا فإن التوسع التضخمي يُنتج كوناً حاراً ابتداء من لا شيء عملياً. فكل ما يلزم للبداية عبارة عن كون دقيق ممتلئ بالفراغ المزيف.

كيف يمكن معرفة أصول هذا الكون الذي يحتوي على الفراغ المزيف؟ يساعدنا الميكانيك الكمومي على الإجابة[٤]. فالآثار الكمومية تكون كبيرة عادة على المستوى ما تحت الذري ومهملة تماماً على المستوى الكبير الجهاري. وهكذا فإن الميكانيك الكمومي ضروري لفهم حالة الكون البدئي الذي كان صغائرياً. وكان علم الكونيات الكمومي قد انطلق منذ الستينيات لكن لا يمكن تطبيقه على بدايات الكون إلا مع ظهور نظرية التضخم الكوني. ووفق هذا العلم الجديد فإنه يمكن أن يظهر آنياً كون صغير من العدم. والعدم يعني هنا ليس فقط غياب المادة بل وأيضاً المكان والزمان. إن العالم الكمومي مختلف كثيراً عن العالم المألوف لدينا. فالأجسام الدقيقة لا تخضع لميكانيك نيوتن. وهي توصف بما يسمى التموجات الكمومية. وهذا يعني أن الحالة البدئية نفسها يمكن أن تولد عدداً من النتائج المختلفة التي لا يمكننا سوى حساب احتماليتها. وذلك لأنه توجد دائماً احتمالية كمومية لسلوك الجسيم بشكل لا يمكن توقعه على المستوى الجهاري. والمثال المدهش على ذلك هو ما نعرفه بالأثر النفقي. فمثلاً الكرة الموجودة في منخفض لا يمكن لها الانتقال وفق الفيزياء النيوتنية منه إلى منخفض آخر، وهي ستبقى دائماً في مكانها. أما بالنسبة للميكانيك الكمومي فهناك احتمال ولو ضعيف لإفلات الكرة من الحفرة خلال وقت صغير جداً خارقة بذلك قوانين انخفاض الطاقة الكلاسيكية.

ما المقصود بكون صغير جداً سبق الكون المتضخم؟ يرتكز إدراكنا للفراغ على هندسة مستوية إقليدية كما سبق أن ذكرنا، وهي تفترض أن الفضاء يمتد إلى اللانهاية. ومع ذلك يمكن للفضاء أن ينحني وفق النظرية النسبية العامة بل وحتى أن ينحني على نفسه. ويصبح الكون عندها مكافئاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بثلاثة أبعاد لسطح كرة. ولهذا يقال إن مركبة فضائية يمكن أن تعود إلى النقطة نفسها التي انطلقت إذا استمرت بالاتجاه نفسه. ويبدو لنا شكل الكون شبيهاً بسطح الكرة لأننا لا نرى ربما سوى جزء بسيط من كوننا. فإن كان كوننا يتوسع فهذا يعني أنه كان صغيراً جداً في الماضي. ولدراسة التوسع التضخمي لهذا الكون فإننا نحل معادلات أينشتين من أجل كون مؤلف من فراغ كروي ممتلئ بفراغ مزيف متفجر أو مندفع. ويوافق الحل كوناً ينكمش ثم ينتفخ فجأة ويتمدد. وأصغر نصف قطر في لحظة الانتفاخ يتحدد بطاقة الفراغ المزيف. كلما كانت طاقة الفراغ شديدة كلما كان نصف القطر صغيراً. إن مرحلة التوسع هي وحدها الملائمة لسيناريو التضخم. لكن هذا الحل لا يفيد بالنسبة لمسألة البداية. ويأتي الحل من الأثر النفقي. فلو ماثلنا بين الكون المتوسع والكرة الواقعة في التجويف يمكننا أن نتساءل ما الذي كانت عليه الكرة قبل نزولها على منحدر الفجوة. في الفيزياء الكلاسيكية لا يمكن للكرة أن تصعد المنحنى. لكننا نعلم الآن أن الكرة يمكن بدلاً من صعود المنحنى أن تخترق الحاجز مباشرة. وهذا يعني أن الكون يمكن أن يخترق حاجز الطاقة وذلك ابتداء من حالة بدئية لأبعاد تنحو إلى الصفر وصولاً إلى نصف قطر الانتفاخ. وعندها تبدأ فترة الانكماش في حلّ الفراغ المزيف، ويبدأ الكون توسعه ويتطور بعد ذلك وفقاً لسيناريو التضخم.

أين المكان والزمان في هذا السيناريو الكوني؟ الحديث عن كون قطره صفر يعني أنه غير موجود! والحديث عن زمن في مثل هذا الكون أمر غير ذي معنى. بالمقابل يمكن القول إن الكون انبثق بشكل آني من العدم. والعدم هنا يعني غياب المادة والمكان والزمان. ويدعو العلماء ذلك صيرورة تشكل الكون. والكون المتشكل لا يحتاج أن يكون كروياً تماماً. فهو يمكن أن يأخذ أشكالاً مختلفة وأن يكون ممتلئاً بفراغات مزيفة. وكما هو الحال في الميكانيك الكمومي حيث لا نستطيع معرفة أي الاحتمالات سيتحقق فإننا لا نستطيع هنا أيضاً سوى حساب احتمال هذه الأكوان. وهذا يعني أنه يمكن أن توجد أكوان أخرى كانت قد بدأت بشكل مغاير لكوننا. وبالطبع لا يمكننا التأكد من وجود أكوان أخرى بالرصد المباشر. وهذا يعني أننا لا نستطيع حتى الآن التيقن من وجود هذه الأكوان فعلياً. ومع ذلك فإن علماء الكونيات الكموميين يعتبرون أن وجود هذه الأكوان ضروري في معادلاتهم. ويرى بعض العلماء أن تطبيق القوانين الكمومية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على الكون أمر مبالغ فيه. ومع ذلك فإن علم الكونيات الكمومي فتح آفاقاً جديدة أمام معرفة بدايات الكون وشكلانيته. ويمكن لنا أن نستنتج أن معرفة شكل الكون ترتكز كثيراً على معرفة بداياته ذات السمة الكمومية والشواشية في آن واحد. والكون في النهاية يتشكل بالتالي نتيجة احتمالية أكوان البداية التي لا نعرف الكثير عنها.

٣- البنى الكونية وهندسة البدايات

يطرح العلماء حالياً نظريات جديدة حول تشكل البنى الكونية ترجع إلى لاتجانسات بدئية في الكثافة الكونية أدت لاحقاً إلى ولادة البنى الكونية الكبرى. والفكرة الأساسية في النظرية الجديدة هي أن تخلخلات بسيطة بدئية في الكثافة وسّعتها الجاذبية أدت في النهاية إلى تشكل المجرات والحشود المجرية والنجمية والفراغات الكونية الكبرى إلخ. وثمة تقديرات بسيطة تبين ضرورة وجود مثل هذه التخلخلات البدئية من رتبة ١٠ ‎$^{-5}$‎ إلى ١٠ ‎$^{-4}$‎ من أجل تفسير تشكل البنى من خلال هذه اللااستقرارية الجاذبية. وقد اختفت هذه التخلخلات البدئية من على خلفية المشهد الكوني، لكن القمر الصناعي غوبي أعطى إثباتاً مدهشاً لوجودها ولهذه الفكرة الجديدة.

من أين ولدت هذه التخلخلات البدئية؟ هناك تفسيران أساسيان مختلفان مطروحان حالياً. الأول هو سيناريو التوسع الكوني، ووفقه ظهرت فجأة توسعات كمومية بدئية ثم تجمدت على شكل تخلخلات لكثافة الطاقة. والتفسير المحتمل الآخر هو التشوهات الطبولوجية. والتشوهات الطبولوجية هي عبارة عن لاتجانسات في كثافة الطاقة تتشكل عند انتقالات المرحلة. وانتقال المرحلة أو الانتقال الطوري هو تغير مفاجئ لعدة خصائص فيزيائية لمنظومة ما عند حصول تغير مستمر في الحرارة. ومثال ذلك جليد الماء في درجة الحرارة صفر مئوية أو تبخر الماء في درجة الحرارة ١٠٠ مئوية. والتشوهات الطبولوجية معروفة جيداً في فيزياء الجسم الصلب. ولكن ثمة فارق جوهري بين التشوهات الطبولوجية في فيزياء الجسم الصلب وفي الكوزمولوجيا. ويتمثل هذا الفارق في درجة الحرارة التي يتم فيها الانتقال الطوري. ففي فيزياء الجسم الصلب تكون درجات الحرارة النموذجية بضعة آلاف درجة كالفن في حدها الأقصى، الأمر الذي يعني طاقات تقع بين ١٠ ‎$^{-4}$‎ إلى ٠،١ إلكترون فولت. أما في الكوزمولوجيا، فإن حساباً بسيطاً يبين أن طاقة التشوهات يجب أن توافق درجة حرارة تصل إلى ١٠ ‎^{16}‎ جيغا إلكترونفولط.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنهـا القيمة الضرورية لكي يستطيع الحقل الثقالي الذي تسببه التشوهات الطبولوجية أن يكون هو أصل التخلخلات التي لاحظها القمر الصناعي غوبي. فالإختلاف بالتالي يصـل إلى ١٠^٢٦، وهي طاقـة تفوق بمرات الطاقة العظمى التي يمكـن الوصول إليها في أعظم المسرعات على الأرض.

ما هي الانتقالات الطورية التي شهدها الكـون؟ إن كوننا في حالة توسع وهو يبترد. وكما في كل منظومـة تتغير درجة حرارتها، تظهر انتقالات طوريـة. والانتقال الطوري الأحدث هو تلاقـي الإلكترونات والنوى في ذرات حيادية. ولا شك أنه في الكون البدئي حصل انتقال طوري تحولت فيه الكواركات إلى باريونـات أي إلى بروتونات ونوترونات. وحصـل هـذا الانتقال الطـوري في درجة حـرارة تـتراوح بـين ١٠٠ ميغـا إلكترون فولـط إلى ٢٠٠ جيغا إلكـترون فولط، وتم التحول الكهرضعيف والذي تمايز فيه الأثر الكهرمغنطيسـي عـن تأثير القـوة النووية الضعيفة. وفي درجة حرارة أعلى أيضاً تتوقع فيزيـاء الجسيمات الدقيقـة انتقالاً طورياً يصف انكسار التناظـر الفائق. وأخيراً من المتوقع حصول انتقال طوري في درجة حرارة هائلـة تصل إلى نحـو ١٠^١٦ جيغا إلكترون فولط والتي تتوحد عندها تفاعلات القوى الأساسية كافـة باستثناء الجاذبية. ويسمى هذا الانتقال الافتراضـي بانتقال النظرية الموحدة الكبرى. وهو الانتقال الوحيد القابل لإنتاج تشوهـات ذات طاقـة كافية لتوليد البنى الكونية الكبرى. ويحاول العلماء اليوم التيقن من هذه الانتقالات الطورية وإثباتها رصدياً. وحـده الانتقال الطوري الذي أدى إلى التحام النوى والإلكترونات مثبت اليوم. أما الانتقال الكهرضعيف فتتنبأ به النظرية الخاصة بالقـوة الكهرضعيفـة التي يوجد عليها الكثير من الإثباتات التجريبية. ولكن للتيقن منـه مباشرة يجب أن نستطيع توليد بلازما في المختـبر درجة حرارتها تصل إلى ٢٠٠ جيغا إلكترون فولط، وهو أمر بعيد عن التحقيق حتى الآن. أما الانتقالات الخاصة بانكسار التناظر الفائق فهي افتراضية تماماً بلا أي تأييد تجريبي. فالكوزمولوجيا تشكل بما تملكه من آثـار التشوهات الطبولوجية على الإشعاع البدئي المنفذ الوحيد التجريبي إنما غير المباشر لفيزياء الطاقات العالية.

كيـف يتشـكل التشـوه التبولوجي عند حصـول انتقال طوري(٥)؟ في غالب الأحيان يمثـل الانتقال الطوري انكسـار تناظر ما. فمثلاً الماء السائل لا يتغير بالنسبة للدوران في حـين أن القطعـة الجليديـة تملك بنية بلورية وبالتـالي فهي تتغير عندما نخضعها

للدوران الأمر الذي يسمى انكسار تناظر الدوران. وانكسارات التناظر التي تنتج التشوهات الطبولوجية موصوفة بشكل عام بوساطة عامل قياسي، أي بوساطة قيمة تساوي الصفر في الحالة المتناظرة في درجة الحرارة العالية والتي تصبح غير معدومة عندما ينكسر التناظر. وهذه القيم غير المعدومة هي التي تشكل ما نسميه بتغير الفراغ. فمثلاً يأخذ حقل هيغز الرياضي قيماً مختلفة لمواضع مختلفة منه. ولأسباب تتعلق بالطاقة يتم تخفيض أو تقليل هذه الانكسارات إلى حدها الأدنى. وفي غالب الأحيان لا يكون من الممكن وفق طبولوجية تنوع وتغير الفراغ الوصول إلى حقل ثابت. وعندها يكون على الحقل لكي يقلص الطاقة الكلية أن يتخذ في بعض المواضع قيماً لا تنتمي إلى تغيرات الحقل أو الفراغ، والتي توافق طاقة أعلى. وهذه المواضع ذات الطاقة المرتفعة هي تشوهات طبولوجية. ويتم تحديد شكل التشوه في الزمكان من خلال طبولوجية التغير الفراغي. وبحسب هذه الطبولوجية يمكن أن تتولد أربعة أنماط من التشوهات. وهي الأقطاب والنسج والأوتار الكونية والجدران الكونية. وتصنف هذه التشوهات في فئتين كبيرتين: التشوهات المحلية التي لا تتفاعل فيما بينها إلا عبر مسافات قصيرة جداً، والتشوهات العامة وهي أكثر امتداداً وتتفاعل على مسافات بعيدة جداً. إن الانعكاسات الكونية لهذه الأنماط المختلفة هي ببساطة وفق العلماء المفتاح الذي قد يؤدي إلى تفسير ولادة المجرات والبنى الكونية الكبرى. وهذه البنى الكونية الكبرى تمثل في النتيجة الشكلانية الكونية الحالية.

٤- الهندسة الفيزيائية للكون

هل يعني ذلك أن هندسة الكون مرتبطة بشكل ما بتطور المادة فيه؟ إن لكل هذه النماذج سمة تطورية: فهي تبدأ بمرحلة كثافة وانحناء وسرعة للتوسع هي التي يسميها العلماء «الفرادة» أو «الانفجار الكبير» Big Bang. ومع ذلك فلكل نمط هندسي ممكن ديناميكية مختلفة ترتبط به. ففي نموذج الهندسة الكروية المغلقة يجب أن تنتهي مرحلة التوسع الكوني بما يسمى الانكماش الكبير Big Crunch، في حين أن التوسع الكوني لانهائي في النماذج المفتوحة. ومع ذلك فهذا التوسع يتباطأ تدريجياً لينتهي إلى التوقف في مستقبل لانهائي من عمر الكون في النموذج الإقليدي. وهذا يعني أن هندسة الكون مرتبطة بمصيره في نماذج فريدمان - لوميتر. ويمكن التعبير عن هذا الفارق بين الهندسات من خلال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كمية تقيس نسبة التباطؤ في توسع الكون. والقيمة الحدية لهذا المعيار تساوي النصف في نموذج أينشتين دو سيتر. أما القيم الأعلى فتوافق النماذج الهندسية الكروية، بينما توافق القيم الأدنى النماذج القطعية المكافئة. وقد أمكن التثبت من هذا المعيار تجريبياً بطرق عديدة منها دراسة التغيرات الفيزيائية للأجسام الكونية البعيدة تبعاً لمسافاتها. وتظهر اختلافات معينة تبعاً للنموذج الكوني، وتكون هذه الاختلافات أكبر كلما كانت الأجسام المرصودة أبعد. ومع الأسف لا تزال خصائص الأجسام الكونية غير معروفة بشكل جيد، ولهذا فهي لا تعطي بشكل واضح آثار التباطؤ الكوني. ومع ذلك فإن ما نعرفه بشكل مؤكد هو أن معامل هذا التباطؤ يجب أن يكون مساوياً أو قريباً من ½.

ومن جهة أخرى تربط النظرية بمعيار التباطؤ هذا قيمة للكثافة المتوسطة للكون، والقيمة الحدية الموافقة لها هي من رتبة ٥×١٠ ⁻³⁰غ / سم٣ والتي توافق ٣ ذرات هيدروجين في المتر المكعب. لكن لا يمكن حتى الآن حسم مسألة القيمة الدقيقة للكثافة الكونية مما لا يسمح بالحسم بين نموذجي الكون المفتوح والكون المغلق. ومع الأسف فلا يزال من الصعب تحديد القيمة الدقيقة للكثافة الكونية. فإلى جانب المادة الضوئية هناك نسبة أكبر بكثير من المادة المعتمة إنما ما زلنا نجهل شكل وجودها. ولا شيء يشير من ناحية أخرى إلى أن هذه المادة المعتمة كافية لتجعل الكون مغلقاً. وإحدى الفرضيات الشائعة حالياً هي أن هذه المادة المعتمة يمكن أن تكون على شكل جسيمات ترجع إلى بدايات الكون مثل النبوترينو الثقيل أو الجسيمات الافتراضية، مثل الفوتينو أو الغرافيتينو أو الأكسيون. وهي جسيمات تتنبأ بها النظريات الموحدة للكون. هذا يعني أن مسألة التمييز بين الهندسات المفتوحة والمغلقة مسألة مطروحة بشكل دقيق، لكن الأرصاد لم تسمح بعد بحلها بشكل حاسم.

لقد طرح العلماء خلال الخمسين سنة الأخيرة عدة فرضيات حول الكون، وهي تفضل الكون المغلق إنما دون حجج كافية. ومن هنا جاءت الفكرة القائلة بأن الكون مغلق إنما غير محدود. وبالنسبة للفيزيائي الشهير جون أرشيبلد ويلر فإن النموذج المغلق يتفوق بأنه يعطي منظومة محددة تماماً ومنغلقة على نفسها وتحتوي على عدد منته من المجرات. وهي بالنسبة له منظومة أسهل للدراسة من الكون المفتوح الذي يتطلب إدخال اللانهايات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البنى الكونية الكبرى

لا بد لنا الآن من العودة إلى المحاولات التي يقوم بها العلماء لوضع تصور عن البنى الكونية الكبرى اعتماداً على إحصاء ملايين المجرات للوصول إلى شكل عام للكون كله.

يرسم توزع المادة المرئية على المدى الكبير بنى غريبة على شكل فقاعات متسلسلة شبه فارغة تحدها المجرات. إن أساس النموذج الكوني المعياري للانفجار الكبير فرضية بسيطة جداً. وهي تقول إن الكون على المستوى الكبير متجانس. إن هذا المبدأ الذي طرحه أينشتين يسمح بحل معادلات النسبية العامة. وبالتالي فإن التحقق منه ضرورة جوهرية بالنسبة لعلم الكونيات. ومما لا شك فيه أن وجود النجوم والمجرات بحد ذاته يظهر شكلاً غير متجانس لتوزع المادة على مستوى كوني محدود نسبياً. ومع ذلك فإن هذه الأجسام لا تمثل سوى تخلخلات بسيطة في المعيارية، وهي بنية رياضية تسمح بتحديد خصائص الزمكان وحساب المسافات. والمعيارية هي القياس الأساسي في النسبية العامة. وبعبارة أخرى فإن هذه اللاتجانسات تؤثر على محيطها بتخلخلات بسرعة محددة وأقل بكثير من سرعة الضوء. ولهذا فهي لا تنقض فرضية تجانس الكون. لكن وجود هذه التخلخلات هو مصدر هام لقواعد أي نموذج كوني. وهكذا، وبعد أن عرّف أينشتين الكون المستقر وغير المتوسع ببضع سنوات، بين كل من إدينغتون ولومتيتر أن مثل هذا الكون لا يمكن أن يكون مستقراً، إذ إن تخلخلاته البسيطة لابد أن تزيد بشكل كبير مع مرور الزمن. وأثبتت أرصاد أدوين هابل في نهاية العشرينيات ذلك ببرهانها أن المجرات تتباعد عن مجرتنا بسرعة متناسبة مع بعدها، وهذا يعني أن الكون يتمدد. ومع الوقت أصبحت مسألة توزع المادة في الكون مسألة أساسية في العلم. أولاً لأن هذا التوزع يجب أن يظهر تجانس الكون وفق نموذج الكون المتوسع، وثانياً لأنه يكشف عن آليات تشكل البنى الكونية الكبرى.

وقد عرف العلماء منذ البداية التوزع التراتبي للمادة في مجرات وميل هذه الأخيرة للتجمع في حشود. وعرف العلماء وجود تنوع كبير من هذه التجمعات المحلية. لكن هذه الأخيرة ليست سوى مظهر من توزع المجرات. واستطاع العلماء التعرف على بنى ليفية أو إسفنجية إن صح التعبير أكثر توسعاً وانتشاراً لا يمكن تقسيمها بسهولة إلى كينونات أدق وأصغر. وقد لجأ العلماء إلى الأدوات الإحصائية من أجل وصف هذا النمط من التوزع. فيمكن مثلاً قياس العدد الوسطي للمجرات في كرة يتمركز نصف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قطرها على مجرة أخرى. فإذا كانت المجرات موزعة عشوائياً فإن هذا الرقم سيكون حاصل جداء الكثافة الرقمية المتوسطة للمجرات في الكون مع حجم الكرة. ولكن الرقم الذي يتم الحصول عليه هو بالمتوسط أعلى بكثير الأمر الذي يشير إلى ميل إلى التجمع. إن ترابط المجرات هذا يميز السعة الوسطية للتخلخلات على مختلف المستويات.

وقد أجريت أولى الدراسات اعتمادا على كتالوغات ذات بعدين تعتمد على موضع المجرات في السماء وقدرها إنما ليس على مسافتها. ولهذا فالتوزع المدروس كان عبارة عن مسقط للتوزع الحقيقي ثلاثي الأبعاد. ومع ذلك بينت هذه الدراسات أن التوزع يكون متجانساً كلما أضفنا للمجموعة المدروسة أجساماً ذات قدر أقل.

هل أمكن إنجاز دراسة على مستوى الأبعاد الثلاثة للكون؟ إن الولوج إلى البعد الثالث، أي إلى مسافة أو بعد المجرات عنا يتضمن قياس انزياح المجرات نحو الأحمر. وقد بنى العلماء برامج ضخمة لقياس المطيافية منذ الثمانينيات. وكان الأول منها يشتمل على نحو ٢٠٠٠ مجرة. وبقيت النتائج محدودة لأن حجم هذه الكاتالوغات لم يكن يسمح بدراسة توزع المجرات إلى ما وراء عدة عشرات ميغابارسك. ومع تطور الإمكانيات استطاع العلماء خلال العقد الأخير وضع كاتالوغات أكبر بخمسة أضعاف على الأقل من الكاتالوغات السابقة. فاكتشفوا بنى لم تكن متوقعة. إذ بدت المجرات وكأنها تتوزع على بنى ذات بعدين، وعلى شكل وريقات تحيط بفراغات كبيرة جداً تذكرنا بهندسة إسفنجية أو بفقاعات الصابون. إن معرفة المزيد عن هذه البنى يتطلب دراسة عشرة أضعاف هذه الأعداد من المجرات، أي ألف ضعف الحجم المدروس على الأقل، أي نحو مليون مجرة. وهذا تحديداً هو هدف مشروعين دوليين. ويفترض أن يقدما خلال فترة قريبة أولى النتائج من رصد مئات آلاف المجرات. أما مشروع التلسكوبات التداخلية الذي انتهى بناؤه فسيعطي للعلماء إمكانية رصد المجرات الباهتة التي تعود إلى ماضي الكون وهذا يعني إمكانية رصد تاريخ البنى الكونية القديمة وتطورها.

ومع الحصول على هذه العينات لمئات آلاف المجرات فمن المرجح أن العلماء سيحتاجون لأدوات تحليل جديدة. ولا يعتقد العلماء الآن أن الصلة بين السيناريوهات النظرية التي تفسر أصل توزع المجرات في الكون والمؤشرات الإحصائية التي يتم قياسها يمكن أن يتم الحصول عليها بطريقة تحليلية. ولهذا لا بد عندها من اللجوء إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مماثلات رقمية علـى الحاسوب. ويبدو أن مسألـة أخرى تزيد الأمر تعقيـداً. فعلماء الكونيـات يعتقدون أن تـوزع المجرات ليس تمثيلاً أميناً لتوزع المادة السوداء. فاختلاف نوع المجرات أكانت عدسية أو حلزونية مثلاً يؤثر على تحليلنـا لتوزع المادة. ولهذا يكون مـن الصعب معرفة أي نمـط من المجرات يشهد بشكل أكثر أمانة على توزع هذه المادة الخفيـة. ولهذا يبحث العلمـاء عن أرصاد محددة يمكـن أن تكشف عن السيناريوهات التـي تنبأ بها جورج لوميتر منذ الثلاثينات. وهي سيناريوهات التخلخلات الناجمة عن الجاذبية الخاصة لكل بنية مع تقدم الزمن. والأرصـاد التي يمكـن أن تعطـي العلماء معلومـات دقيقـة حول هـذه التخلخلات البدئية هي لا شك أرصاد الإشعاع البدئي. لكـن كافة الأرصاد التي تمـت حتى الآن لم تكشـف بشكل حاسم عـن وجود تخلخلات حاسمة في هذه الخلفيـة الإشعاعية للكون القـديم. وهكـذا ينتظر العلمـاء الأرصاد الأكثر دقة في المستقبل القريب لإثبات وجود هذه البنية التخلخلية أو الإسفنجية للكون والتـي تشبه إلى حد كبير فقاعات الصابون المتراكبة[6].

معايير أخرى للهندسة الكونية

وفـق النمـاذج الحديثة المرتكـزة على نمـوذج التوسع الكوني الديناميكي، وخاصة على نماذج التضخم التي شهد الكون وفقها مرحلة قصيرة جداً من التوسع المتسارع بعد الانفجار الكبـير مباشرة (نحو 10^{-32} ثانية) يفضل العلماء نموذج أينشتين دو سيتر، إنما مع ضرورة تحديد واكتشاف الكتلة الناقصة في الكـون التي تعطـي الكثافـة المطلوبة. ويفضـل العلمـاء هـذا النمـوذج لأنهم لو قبلوا بنموذج فريدمـان لوميتر المفتوح (أي اللانهائي) والمتجانس، فيجب عندها القبول بأنه علـى كل فعل فيزيائـي، يتم باحتمال غير معـدوم في هذا الكون، أن يتوالد عدداً لانهائيـاً من المرات، وهذا يعني أن كل شيء في هـذا الكون يتضمن نمـاذج لانهائية من ذاته. يعنـي ذلك على سبيل المثال أن الكون يحتـوي عدداً لانهائياً مـن النماذج عن كل منا!

لكـن المسألـة تـزداد تعقيـداً بالنسبة لهندسة الكون مـع عاملين آخرين[7]. الأول هو الثابتـة الكونية التي طرحهـا أينشتين عام ١٩١٧ ليجعل نموذجـه للكون سكونياً. فعندما تكون الثابتـة الكونية غير معدومة يمكننا أن نـرى أكواناً محدودة فضائياً إنما يستمر فيها التوسع بشكل لانهائي. وهذا هو حال كون لوميـتر المتأرجح أو النابض الذي ينكمش بعد توسعه ليعود فيتوسع من جديد.

لكن لا أحد يعرف اليوم إن كانت هذه الثابتة الكونية معدومة أم لا. وهي في كل حال لا يمكن أن تكون إلا صغيرة جداً وإلا فهي تدخل تغييراً جوهرياً في بنية وهندسة الكون كما نعرفه.

والصعوبة الثانية التي تواجه العلماء هي أن الهندسة التي توضع للكون هي هندسة محلية تماماً. ويمكن من خلال المقاييس نفسها بناء أكوان مختلفة تماماً من منظور غير محلي. ولهذا فإن العلماء يقولون إن النسبية العامة التي وضعها أينشتين لا تحدد هندسة الكون، ولهذا يجب تحديد وتوسيع مفهوم شكل الكون من خلال خصائصه التي لا تتغير عندما تتعرض لتحولات مستمرة. ويعتمد العلماء اليوم على علم الطبولوجيا لتحديد هذه الخصائص الهندسية للكون، وبعبارة أخرى لتحديد الخصائص التي لا تتغير عندما نقوم بإجراء تغييرات لا تشتمل على الثقب أو الخرق أو التمزيق. وهكذا يمكن للطبولوجيا أن تميز أكواناً توصف محلياً بوساطة المترية أو القياسية نفسها. فالسطح الإقليدي مثلاً يكافئ السطح المكافئ في الأبعاد الثلاثة وهما عبارة عن سطحين أو فضاءين بالأحرى مسطحين يوصفان بوساطة مترية إقليدية. لكنهما مع ذلك فضاءان غير متكافئين بشكل كلي. فالأول حجمه لانهائي في حين أن الثاني محدود الحجم.

٥- طبولوجيا كونية

يقودنا ذلك إلى الحديث عن الأبحاث الحديثة التي تعالج مسألة الهندسة الكونية من منظور مختلف وأوسع وأكثر تجريداً ربما. كان كل من هيرمان ويل ثم جورج لوميتر قد أشارا في عام ١٩١٨ إلى أن الحل نفسه لمعادلات النسبية العامة يمكن أن يوافق فضاءات مختلفة طبولوجياً وغير متكافئة. وهكذا اقترح لوميتر نموذجاً كونياً كروياً غير مقترن سمي بالقطعي أو الإهليلجي: وهو عبارة عن كرة بأبعاد ثلاثة تتطابق نقاطها المتقابلة قطرياً مثنى مثنى. ومع ذلك كان يُفترض في الأعمال النظرية الأساسية في الكوزمولوجيا وحتى عهد قريب أن الكون كان ذا خصائص طبولوجية هي الأبسط من نوعها. وبعبارة تقنية أكثر كان يُعتقد أن طبولوجية الكون كانت مقترنة. ففي الطبولوجيا يمكن دراسة سطح ما اعتماداً على المنحنيات المغلقة المحددة في نقطة معطاة. فإن كان يمكن تشويه الخطوط المنحنية المغلقة كافة في نقطة ما دون أن نصادف عائقاً ما كالثقب مثلاً فنقول إن التنوع من الأجسام الموافقة مقترن اقتراناً بسيطاً. أما إذا لم يمكن ذلك فنقول إنها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقترنــة اقتراناً متعدداً. ومن هنا فإن الكرة مقترنة اقترانــاً بسيطاً في حين أن الدولاب مقترن اقتراناً متعدداً لأن المسارات التي تمر حول الثقب لا يمكن أن تتشوه بشكل مستمر دون إعاقة في نقطة ما.

وهكــذا يمكــن لفضــاءات لا يمكــن تمييزهــا محليــاً من خــلال انحنائهــا أن تكــون ذات خصائص مختلفــة طبولوجياً. فعلى سبيل المثال هنــاك ١٧ شكلاً فراغياً متعددة الاقتران ومتكافئة محلياً مع الفضاء الإقليــدي، لكنها مختلفــة طبولوجياً فيما بينها اختلافاً كبــيراً. والمثال على مثل هذه الفضــاءات هو الــدولاب مأخــوذاً بثلاثة أبعاد. ومثل هذا الــدولاب يمكن الحصول عليه مــن خلال مكعب نطابــق بين نقاطه المتقابلة قطرياً. وهــذه المقابلة تجعل أحد الأشعة المنبعثة من إحدى النقاط يدخل من خــلال النقطة المقابلة. فإذا تنقلنا محلياً في دولاب بثلاثة أبعاد فإننا لا نلحظ أي انحناء وبالتــالي أي اختلاف مع الفضاء الإقليدي. ومع ذلك فإن هذا الــدولاب مختلف تماماً عن الفضاء الإقليدي طالما أن حجمه منته.

إن الكــرة الثلاثية الأبعــاد هي نموذج الفضــاء الكــروي. ويمكــن الحصول على فضاء مكافئ محليــاً لهذه الكرة إنما يملك طبولوجيــة مختلفة جداً، وذلــك بمطابقة نقاط السطح المتقابلة قطرياً. ويسمى هذا الفضاء المتعدد الاقتران فضاء قطعياً. وهو النموذج الــذي اختاره لوميتر لنظريته حول الذرة البدئية.

لقــد جذبت بعضــ الأعمــال الحديثة انتباه علماء الكونيات حول احتمال ألا تكون طبولوجية الكون بسيطة الاقتران، وهكذا تم اقتراح بعضــ المناهج الرصدية للتحقق من هذه الفرضية. ففي الحالة التي يكون فيها الكــون متعدد الاقتران يمكن الحصول على فضــاءات زائدية أو حتــى إقليدية (محلياً) محدودة فضائياً. وهو مثــلاً حال الدولاب الثلاثي الأبعاد. فإذا كان كوننا دولاباً بثلاثة أبعاد، فسنشعر أننــا نعيش في عالم إقليدي يمتد إلى اللانهاية في حين أن الأمر سيكون وهماً بصرياً أو مــا شابه ذلك. وهكذا فإن النجــوم الكثيرة التي نراها في السماء يمكن أن تكون صور أخيلــة للنجوم نفسها، وهذا يعنــي أن العدد الحقيقي للنجــوم أقل من العدد المحصى منها.

وهكــذا، بالنسبة لراصد مغمور في كون يملك طبولوجية غــير بسيطة الاقتران فإن الحقيقة الفلكية ستبدو له مثل تكرار لامنته للخليــة البدئيــة المحدودة نفسهــا. ويشبه ذلك إلى حد بعيد حجرة المرايا حيث تنعكس الصورة إلى ما لانهاية. ويصح ذلك في هذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النـــوع من الكـــون شرط أن يكـــون قد توفر للضوء الوقت الكافي لاجتياز الخلية الأولية. فالكون يبــدو لنا مثل بلورة كبرى تتكرر فيه حلقته الأساسية عدداً كبيراً جداً من المرات. وهكذا تصبح الطبولوجيا الكونية مثل دراسة تبلوريــة كونية ذات خصائص مدهشة. فإن لم تكــن الحلقة الأساسيــة أو الأولية للكون متجانسة فــإن تكرارها اللانهائي يمكن أن يعطي الانطبــاع على المستـــوى الكبير بأن الكون متجانس. ويذكرنــا ذلك بالفراكتال حيث يؤدي التكرار اللانهائي لأجزاء بسيطة وقد لا تكون متناظرة إلى تشكيلات هندسية متناظــرة تماماً[٨]. ويمكن لذلــك أن يفسر لماذا يبدو لنــا الكون متجانساً على المستوى الكبير جــداً أي الأعلى من مستوى الحشود المجرية، كما وأيضاً لماذا الخلفية الإشعاعية للكون متجانسة ومتناظرة إلى هذا الحد.

٦- ما هو شكل الكون؟

والســؤال المطروح هو هل يمكن التحقق مما إذا كنا نحيا في كــون متعدد الاقتران؟ والجواب يبدو إيجابياً، أي يمكن التحقق من الإجابــة سلباً أم نفيــاً اعتماداً على الطرق الرصديــة المتوفرة. ومع ذلك فــإن المسألة علــى غاية مــن التعقيد والنتائــج التي تم الوصول إليها حتى الآن ليست جازمة. وكان عالم الفلــك الفيزيائي الروســي فيكتورين شفارتزمان قد قاد منذ السبعينيات برنامج أرصـــاد في مرصد زلنتشـــوك في القوقاز، الأمـــر الذي سمح له بوضع حد أدنى لحجم كون متعدد الاقتران يكون متوافقاً مع مظهر كوننا. ومثل هذا الحـــد الجبري ينتج أيضاً عـــن دراسات أحـــدث حول تـــوزع الحشود المجرية في إطار كون بلوري وفق ما وصفناه أعلاه، وفي إطار البحث عن صور خيالية أو شبحية كما يسميها العلماء، مثل الكوازارات الخماسية المتجـــاورة أو الحشـــود المجرية الخاصـــة وهي المصـــدرة القويـــة للأشعة السينية. إن النتائج التي تم الحصول عليها حتى الآن تستبعد بطريقة نهائية كوناً متعدد الاقـــتران بأبعاد أقل ببضعـــة مئات ملايين السنين الضوئية[٩].

من جهة أخرى، فإن الدراسة التفصيلية لانكسارات التناظر أو للتخلخلات في درجة حرارة الإشعاع الخلفي التي كشف عنها القمر الصناعـــي غوبـــي GOBE تسمح بحذف النسخة الأبسط من الكون المتعدد الاقتران، وهـــو الكون الحلقي، لأن حجمه لا يجب أن يكون أقـــل بكثير من حجـــم كوننا الملاحظ أو المرصـــود حالياً، أي نحـــو ١٥ مليار سنة ضوئية. ومما لا شـــك فيه أنه توجد نماذج طبولوجية أخرى كثيرة لنموذج أينشتين. دو سيتر وللنماذج الزائدية لفريدمان. لوميتر[١٠]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يمكن اختبارها. ومن الممكن أن نجد أثراً واضحاً جداً لهذه الطبولوجيات مندرجاً في التوزع على المستوى الصغير والضعيف جداً لتخلخلات حرارة الإشعاع البدئي. وللتأكد من ذلك فإن القمرين الصناعيين MAP و Planck اللذين سيبدأ العمل بهما قريباً يجب أن يسمحا بدراسة هذه الخلفية الإشعاعية بشكل دقيق.

وهناك سيناريوهات كونية أخرى ذهبت إلى أبعد من ذلك فيما يتعلق بالبنية الشاملة للكون وشكله. فقد تخيل عالم الكونيات الروسي أندريه ليند نموذجاً تضخمياً للكون يرتكز على شروط بدئية شواشية. ويتألف هذا الكون ذو الامتداد الفضائي اللامتناهي من «طحالب كونية دقيقة» بحيث يكون لكل من هذه الفقاعات مواصفاته الفيزيائية الخاصة[11]. وثمة اعتبار آخر غير كلاسيكي أبداً يندرج في تساؤلنا إذا لم يكن ثمة وجود لـ «كون الأكوان»؟ وهكذا يمكن ألا يكون كوننا سوى كون خاص منغمر في صف واسع من الأكوان المختلفة من المنظور الطبولوجي. وحتى لو لم يكن كون الأكوان هذا سوى خيال رياضي، لكن هل يوجد وصف هندسي. طبولوجي يحتوي على كل الأشكال الممكنة للأكوان؟ كان جون ويلر قد درس هذا الفضاء الذي يسمى بالفضاء الفائق. وهو يشكل إطار معظم الأعمال التي تتعلق بالمراحل الأولى تماماً من عمر الكون والتي تسمى بفترة بلانك، والتي تخلي فيها النسبية العامة مكانها لنظرية افتراضية حتى الآن تزاوج بين الجاذبية والميكانيك الكمومي.

إن إشكالية شكل الكون لم تعد اليوم مندرجة في مجال التخيلات الميتافيزيائية أو الأسطورية. والأرصاد المستقبلية لتوزع البنى الكونية الكبرى كما ووضع خارطة دقيقة للتشوهات في الإشعاع الكوني البدئي ستعدل بشكل عميق مفاهيمنا التقليدية عن الكون.

لم نقل كل شيء بالتأكيد عن النظريات العلمية الحديثة حول البنى الكونية وشكل الكون. فنظرية الأوتار الكونية مثلاً تقود العلماء اليوم إلى منظور جديد تماماً للبنى الكونية. فهي تخبرنا أن كوننا هو أحد الأكوان اللانهائية الموجودة، والتي تختلف فيها القوانين الفيزيائية. بل إن الزمان والمكان فيها يتحولان بعيداً عن كونهما متصلاً مستمراً إلى واحدات محددة. ووفق النظريات المستقبلية التي بدأ العلماء يرسمونها الآن، وعلى رأسهم لي سمولين[12]، أن المكان والزمان ينتظمان ذاتياً تبعاً لمبدأ تطوري يوافق الأكوان المتعددة. تلكم بلا شك بداية لعلم متجدد باستمرار.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

1- Ahmed Djebbar. Panorama de l'Astronomie Arabe à travers ses aspects théoriques et pratiques. Les Cinquièmes Journées de Mathématiques et d'Astronomie (1618- mars 1998). Djerba.

2- V. Ougarov. Théorie de la relativité restereinte, éd. Mir-Moscou, 1974.

3- Encyclopaedia Universalis. Cosmologie, 1997.

4- Alexander Vilenkin, La recherche. HORS SERIE. Avant le Temps, l'Espace et la Matiere, p. 26, 1998.

5- Ruth Durrer, La Recherche, HORS SERIE, Des Brisures de Symetrie a l'origine des galaxies, p. 36. 1998.

6- Alain Blanchard, La Recherche, HORS SERIE, Une Architecture cosmique en forme d'eponge, p. 60, 1998.

7- J. Demaret et D. Lambert, La Recherche, HORS SERIE, l'Univers a-t-il une forme? P. 22, 1998.

8- Encyclopedia Univesalis, Fractals, 1997 .

9- D. Proust, C. Vanderriest, Les Galaxies et la Structure de l'Univers, Seuil, Points science, 1997.

10- A. Friedmann, G. Lemaître, Essais de Cosmologie, Seuil, 1997.

11- Nathalie Deruelle, La Recherche, HORS SERIE, Inflation, Chaos et Eternité, p. 30, 1998.

12- Lee Smolin, La Recherche, HORS SERIE, Une construction darwinienne de l'univers, p. 109, 1998.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيكولوجية السعادة

هبة الله الغلاييني ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هو أرقى خير يمكن أن يبلغه المرء بجهده؟ يتفق عامة الناس وصفوتهم على أنه السعادة، ولكنهم يختلفون في تحديد كنهها.

إذاً ما هي السعادة:

وجهت معظم الدراسات السيكولوجية في ميدان الانفعالات اهتمامها إلى البحث في حالات القلق والاكتئاب وغيرهما من الانفعالات السلبية، ونحن نعلم الآن أن جعل الناس سعداء يتضمن عمليات مختلفة عن تلك التي تجعلهم لا

٭ كاتبة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

يشعرون بالتعاسة، ويهتم هذا المقال أساساً بأسباب السعادة الإيجابية وتفسيراتها، وكيف يمكن استخدام هذا الفهم لجعل الناس، ونحن معهم -سعداء كذلك- فمن الممكن أن تكون بعض الأساليب ولا أقول كلها، التي تثبت نجاحها في تخفيف الاكتئاب، مفيدة أيضاً في زيادة الشعور بالسعادة لدى غير المكتئبين.

وتشير نتائج البحوث التجريبية إلى وجود بُعد واحد قابل للقياس، للسعادة، بينما تركّز بعض المقاييس على الجانب الانفعالي للسعادة -أي الشعور باعتدال المزاج- توجه مقاييس أخرى عنايتها إلى الجانب المعرفي التأملي، أو التعبير عن الرضا عن الحياة. فالناس قد يصفون السعادة إما على أنها شعور بالرضا، والإشباع، وطمأنينة النفس، وتحقيق الذات. أو أنها شعور بالبهجة، والاستمتاع، واللذة. وهكذا فإن البحث في مكونات الشعور بالاستمتاع والسعادة يؤدي إلى القول بوجود بعدين، مستقلين جزئياً يتسق كل منها مع واحد من هذين الجانبين.

وقد توصل عدد من الدراسات الأوسع نطاقاً إلى وجود عامل واضح هو عامل «الرضا الشامل» ويمكن تقسيم هذا العامل بالشعور بالرضا عن جوانب محددّة مثل العمل، أو الزواج، أو الصحة، أو القدرات الذاتية، أو تحقيق الذات.

كذلك قيست معايير السعادة التي يغلب عليها الطابع الانفعالي: مثل الشعور بالبهجة المزوجة بالتفاؤل، وغيرها من المشاعر الإيجابية. ويتم ذلك عادة بسؤال الأفراد أن يصفوا حالتهم المزاجية خلال الأسابيع الأخيرة، أو أن يحددوا طول الفترة الزمنية التي لازمتهم خلالها مشاعر السعادة. أما البعد الثالث والهام الذي تناولته الدراسات بالمقياس فهو «العناء النفسي» في علاقته العكسية بالشعور بالرضا، وترتكز المقاييس هنا على الأحكام التي يصدرها الأفراد بأنهم غير سعداء، أو مكتئبون أو قلقون.

والواقع أن هناك، على ما يبدو، ميلاً عاماً إلى المبالغة في التعبير عن درجة السعادة، فبينما يدّعي معظم الناس أنهم راضون جداً أو راضون، فإن قليلاً منهم يعترف بأنه مكتئب، أو يشعر بالقلق، أو بسوء الصحة. كذلك نجد أن معظم المتزوجين يدّعون أنهم سعداء جداً في زواجهم رغم أن حوالي نصفهم سينفصل بالطلاق، فيما بعد. وربما أمكن إرجاع هذا التوجه إلى المبالغة في التعبير عن السعادة إلى الميل العام لإعطاء إجابات مرغوب فيها اجتماعياً للباحثين الذين يوجهون الأسئلة،

ورغم هذا، فإن الارتباط منخفض جداً بين مقاييس السعادة الذاتية، ومقاييس الكـذب، أو بينهـا وبين مـا هـو مستصـوب اجتماعياً.

السعادة الإيجابية:

ننتقـل الآن إلى الجانـب الانفعـالي من السعادة، أي إلى المشاعر الإيجابيـة بالبهجـة والسـرور، والسؤال هنا، كيف يمكننا قياس هذه المشاعـر؟ فهي تتذبذب كثيراً، كمـا أن هنـاك مشكلـة أخـرى ترتبط بالانفعـال، تتمثل في أن لـه أبعاداً متعددة. ولعـل أهم هـذه الأبعاد هو بعـد «البهجة -الاكتئـاب» وهذا يمكن قياسـه باستخدام مقيـاس واحد يتضمـن سـؤال الناس أن يقدّروا مستوى مشاعرهم عموماً عبر اليوم السابق أو عبر مدة أطول، مثال ذلك:

ما مـدى شعـورك اليوم بالابتهـاج أو الكآبة، بالسعادة أو التعاسة؟

١- شعـور بالكآبة المخيّمـة والانقباض التام، في القاع تماماً، كل شيء أسود وقاتم.

٢- مكتئب جـداً وفي الحضيض. نفس مروعة بائسة.

٣- شعور بالاكتئاب وانخفاض في الروح المعنوية، كآبة واضحة.

٤- انخفاضـ في الحالة المعنوية وبعض الكآبة.

٥- شعور بأن الحـال ليس سيئاً تماماً، نصف النصف.

٦- شعـور بأنني في حالة جيدة، على ما يرام.

٧- شعـور بأننـي في حالة جيـدة جداً ومبتهج،.

٨- الشعور بالابتهاج والتفاؤل وارتفاع الحالة المعنوية.

٩- شدة البهجة وارتفاع الروح المعنوية والانشراح الشديد والفرفشة.

١٠- شعور بالبهجة التامة، والسرور الغابر والانتشاء.

تأثير العلاقات الاجتماعية على الشعور بالسعادة والرضا:

تكشف الكثير من الدراسات على أثر التفاعل الاجتماعي وشبكة العلاقات الاجتماعية التي نعيش في ظلّها على السعادة.

وهناك ثلاثة أبعاد للرضا، هذه الأبعاد هي: العون المادي الملموس، والدعم الانفعالي، والمشاركة في الاهتمامات. كما يمثّل الزوج أو (الزوجة) أهم مصادر الرضا، يليه الأقارب المقربون، ثم الأصدقاء، وفي النهاية نجد زملاء العمل والجيران، ويتضمن بعد الدعم الانفعالي درجة الثقة تجاه الآخرين، والقدرة على البوح إليهم بمكنون النفس، واستخدامهم كموضع للثقة.

- الحب والزواج:

من المؤكد أن الوقوع في الحب هو أوضح الأمثلة على علاقة سعيدة، إذ هو أشد العلاقات وأكثرها عمقاً، وهو الذي يستثير أشد المشاعر إيجابية (هذا بالإضافة إلى بعض المشاعر السلبية)، فالوقوع في الحب هو واحد من أهم أحداث الحياة التي تقدّر إيجابياً، ومن أهم سماتها الاقتراب الجسدي.

ويضاف إلى الاقتراب الجسدي البوح بمكنون الصدور، والاهتمام واللهفة المتبادلة، ويقضي الأحبة الساعات الطويلة مستمتعين بصحبة بعضهم البعض، ومن المعروف أن طريق الحب ليس ممهّداً دائماً، إذ تكشف نتائج البحوث أن هناك عادة الكثير من الصراع بين الأحبة، فكلما ازدادت معرفة فردين أحدهما بالآخر، وكلما تشاركا في المزيد من جوانب الحياة ازداد ما يختلفان عليه، فإذا ما أراد توثيق عرى العلاقة بينهما، فعليهما أن يواجها مصادر عدم الاتفاق، ويبذلا جهداً في التعايش معها.

إن المتزوجين أكثر سعادة - بوجه عام - من العزاب والأرامل، أو المطلقين، وتشير الدراسات إلى وجود ارتباط يبلغ مقداره ٠،١٤ بين الشعور بالهناء وبين حالة الزواج في مقابل عدم الزواج، وهذا التأثير أعلى لدى الذكور منه لدى الإناث، ولدى الأكثر شباباً. كذلك تشير بعض الأدلة إلى أن الرجال غير المتزوجين أقل سعادة من النساء غير المتزوجات، مما يوحي بأن فائدة الزواج للرجال أكثر من فائدته للنساء، ويعود جانب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من هذا إلى أن النساء عموماً يعبرن عن درجة من الشعور بالرضا أكثر من الرجال أضف إلى ذلك أن الرجال يحصلون على إشباع أكثر من الزواج، إذا قورنوا بالنساء، فالزوجات يوفرن للأزواج دعماً اجتماعياً أكثر مما يوفره لهن الأزواج، وهن يقمن بدور أكبر كمحل للثقة وحفظ الأسرار، كذلك النساء المتزوجات أكثر استعانة بصديقاتهن أو قريباتهن للحصول على الدعم إذا ما قورنَّ بالرجال المتزوجين.

كذلك تتوقف فوائد الزواج على نوعيته، وهناك العديد من الوسائل لقياس نوعية الزواج لعل أبسطها سؤال الفرد: «إلى أي مدى ترى زواجك سعيداً؟» فالرضا عن الزواج يرتبط ارتباطاً قوياً بالشعور العام بالرضا أو بالسعادة.

- الأصدقاء:

تشير نتائج كثير من البحوث إلى أن من لهم عدد أكبر من الأصدقاء، أو من يقضون وقتاً أطول مع أصدقائهم يميلون إلى أن يكونوا أكثر سعادة، ورغم كون الارتباط بين السعادة وكثرة الأصدقاء منخفضاً فإنه متسق، ورغم انخفاض أهمية الصداقة كمصدر مستقل للسعادة بالقياس إلى الزواج أو الحياة الأسرية، فإنها أهم في المتوسط من العمل والاستمتاع بوقت الفراغ، وإن كان هذا لا يصدق بالنسبة للبعض، كالرجال في منتصف العمر مثلاً، فالصداقة تصل إلى أقصى درجات أهميتها عند الشباب - بدءاً من المراهقة وحتى الزواج - حين تكون هي العلاقة الأساسية.

وتزداد أهمية الصداقة مرة أخرى مع التقدم في العمر، حيث يؤدي التقاعد عن العمل وفقدان الأعزاء إلى زوال العلاقات الاجتماعية الأخرى، وبين هاتين المرحلتين العمريتين تستحوذ الأسرة والعمل على قسط أكبر بكثير من الاهتمام والوقت. بيد أن هناك فروقاً هامة بين الجنسين في هذا الصدد. فالنساء يُكوّن علاقات صداقة أدنى مع الرجال، وتستغرقهن أحاديث أكثر خصوصية، ويكشفن عن درجات أنشطة مشتركة مع الأصدقاء كممارسة الرياضة وتدور معظم أحاديثهم حول الرياضة، والعمل، والموضوعات الأقل خصوصية.

ففي دراسة حديثة أُجريت في أكسفورد، تبيّن أن تناول الطعام والشراب والحديث، والاستمتاع بالوقت في الرقص والذهاب إلى المنتديات والتريض هي من أكثر الأنشطة التي يقوم بها الأصدقاء معاً شيوعاً. كذلك يكثر تبادل أطراف الحديث مع تناول الطعام والشراب في لقاءات الأصدقاء.

ولعلّ أول ما يوفره الأصدقاء لبعضهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البعض هو التحسن الفوري للحالة المعنوية، ويكـون ذلك إمـا بتوفير جو مـن المرح في حالة الأطفـال والشبان، أو نوع من الإشباع الهادئ بالنسبة للكبـار، ولعلّ السؤال الذي يطـرح نفسه هنا هو: لماذا يحتاج الناس إلى أصدقاء؟

هناك ثلاثة أسباب لذلك:

١- المساعـدة العمليّـة والمعلومات التي يوفرها الأصدقاء، رغم أنها أقل مما توفره الأسرة وزملاء العمل.

٢- مـا يوفرونه من دعـم اجتماعي في صورة نصائـح أو تعاطـف أو كونهم محلاً للثقـة أو لمجرد اشتراكهـم في نفس النظرة إلى العالم.

٣- تماثـل الاهتمامـات، والمشاركة في الأنشطة، وممارسة الألعاب معاً.

- الأبناء:

يختلف تأثير وجود الأطفال على الشعور بالسعـادة عمـا نتوقعه إلى حـد ما، حيث تكشف بحوث عديدة على أن الأزواج الذين لديهم أبناء أكثر قلقـاً، ويعانون من مشاكل زواجيـة أكـثر، ويشعـرون بعـدم التناسب مـع الأزواج أكثر، هذا إذا مـا قورنوا بمن ليسـ لديهـم أبنـاء، ففي بعضـ الأحيان نـرى أن درجـة السعادة الزوجيـة تقل في وجـود الأطفال بالمنزل، وخاصـة إذا كانوا مراهقين. وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك جانباً إيجابياً لوجود الأطفال نظراً للمزايا التي يجلبها وجود الأطفال على الأهل مثل: توفير الحـب والصحبة وإشاعـة الحيوية والمرح والاستمتاع برؤيتهم يكبرون، وتحقيق الذات، وإشعارنا بالرشـد والنضج. بيد أن هنـاك ثمناً غالياً لوجودهـم فهم ينهكوننا وهم صغار ويسببون لنا عنتاً انفعالياً عندما يبلغون سن المراهقة.

- الأقارب:

لعل علاقات القرابة هي أهم العلاقات وأقواها خـارج المنزل، وخصوصاً العلاقات بالأخوة والآباء والأبنـاء الراشدين، ويعيش الكثيرون من أبناء الطبقة العاملة على مقربة من أقاربهم، بحيث يرونهم يومياً أو أسبوعياً بانتظـام، كذلـك يعيش كثير مـن الأقارب في نفسـ المنطقة من البـلاد، ويظلّون على اتصال تلفوني ببعضهم، ويتبادلون الزيارات بانتظام، وتجمعهم المناسبات، كأعياد الميلاد مثلاً، وفيما عدا تناول الطعام معاً ومتابعة أخبـار الأسـرة، لا يدور كثير مـن النشاط عند اجتماع الأقـارب فهم فقط يستمتعون بصحبة بعضهم البعض.

ومـن أكـثر الأمـور فائـدة في علاقة «القرابة» أنهم مستعدون لتقديم أكبر العون عند الحاجة، ويتمثل هذا في رعاية الأطفال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإعطـاء الأموال وإقراضهـا والمساعدة في العمل، وتقـديم العون عند وقوع مشكلات، وعـادة ما تكون هـذه العلاقـات القرابية دائمـة: فمعـدلات الاتصـال، ومسـتوى المساعدة المتوقع لا يتغـيران بمرور الوقت، ومما يدعـم اللعـب في الطفولة، وتحافظ ذكريات الطفولة المشتركة على وثوق العلاقة مع الأقارب في السن المتأخرة.

- علاقات العمل:

يعتـبر الرضا عن العمل من أهم جوانب الشعور العام بالرضا فهناك:

أ) زملاء العمل:

يزيد الرضا عن العمل لدى أولئك الذين يتمتعـون بشعبيـة في بيئة العمـل، والذين ينتمون إلى جماعة عمل صغيرة ومتجانسة، ومن تتاح لهم فرص أكثر للتفاعل الاجتماعي أثناء العمل، ويتمثل أساس هذه الإشباعات في جوانـب عمليـة تتمثـل في المساعـدة والنصيحة في العمـل، والرضا المتحقق من التعاون في أداء عمل مشترك. وهناك فروق بـين الجنسـين في هذا الصـدد، فالرجال يحصلون من رفقـة العمل على رضا عملي أكثر، بينما تركّز النساء على التعاون.

ب) العلاقة مع الرؤساء والمرؤوسين:

وكذلـك يعتمد الرضا عـن العمل على العلاقات الإنسانية داخل التدرّج الوظيفي: فالمرؤوسون يكون أكثر سعادة في ظل أساليب معينة من الإشراف، وخاصة تلك التي تتصف بالتقدير من جانب المشرفين، والتشجيع على المشاركة في اتخاذ القرارات، ويوفر الرؤساء درجة أعلى مـن الرضا عن العمل بالمقارنة مع الزملاء، حيث إنهم يستطيعون أن يسهموا أكـثر في زيادة العائد المـادي للعمل، كذلك فهم في الوقت نفســه مصدر أكبر للصراع، بإلحاحهم على المزيد من العمل. من الجلي، إذن إن فوائـد علاقـات العمل ذات طبيعة عمليـة ويجني بعضها من خلال التعاون في أداء الأعمال، وبعضها الآخر يأتي من خلال جو المرح المحيط بالعمل.

- الجيران:

يمثـل الجيران مجـالاً أقـل أهمية من مجـالات الشعـور بالرضا، وأهـم مصدر للإشبـاع هنـا هـو المستوى المرتفـع من المساعدة في الأمور الأقل أهمية، مثل العناية بالحديقـة، وإعارة الأشيـاء، وري النباتات عنـد الغياب، كذلك فهنـاك معدلات أعلى مـن تبادل الحديث العابر، وربما كان هناك -بين الحين والحين- تعاون في مسائل أكثر جديّـة، ذات طابع محلي، مثـل شق الطرق الجديدة، أو تنظيف المرافق العامة.

والجيران مهمّون للأسر خصوصاً لأفراد الأسرة الذيـن يقضون معظـم أوقاتهم في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البيت، حيث نجدهم كثيراً ما يتبادلون المساعدة في التسوق ورعاية الأطفال، وهم أكثر أهمية لكبار السن، حيث يمثلون المصدر الرئيسي للاتصال الاجتماعي.

وقت الفراغ:

يمثّل النشاط الذي نقوم به في وقت الفراغ واحداً من العناصر الهامة للشعور بالرضا العام عن الحياة، وهو ما يهمنا على وجه خاص، فما دام ما يفعله الناس في أوقات فراغهم ليس عليه القيود التي على العمل، فإن كيفية قضاء وقت الفراغ يمكن أن تعطينا مؤشرات هامة عن ماذا يريد الناس، وما الذي يجعلهم سعداء، واختيارات طرق قضاء وقت الفراغ ليست حرة تماماً، فهي محدودة بما هو متاح، وبإمكانيات الأفراد، وبما هو مقبول اجتماعياً.

ومن المحتمل أن تكون نشاطات وقت الفراغ أكثر رسوخاً وأهمية في الحياة الإنسانية من العمل، إذاً ما المقصود بأنشطة وقت الفراغ؟

إن أبسط طريقة هي أن ندرج كل شيء يفعله المرء أثناء الساعات التي لا يكون فيها نائماً أو يعمل أو يأكل أو يرعى نفسه أو أسرته، وساد الاعتقاد زمناً طويلاً أن نشاط وقت الفراغ هو ما يفعله المرء في الوقت المتبقي بعد العمل.

ونحن نعرف الآن أن هذا تأكيد خاطئ، لأن بعض الناس لا يعملون، ولأن وقت الفراغ أكثر أهمية، بالنسبة للكثير من الناس من العمل، وكذلك تتداخل بعض أنواع نشاط وقت الفراغ مع العمل، وقد فرّق بعض السيكولوجيين تفرقة حادة بين العمل كفعل موجه أو وسيلي، وبين أنشطة وقت الفراغ كنشاط تعبيري يؤدى لذاته ويحقق إشباعاً ذاتياً. ورغم هذا، تتضمن الصور الأكثر جدية من أنشطة وقت الفراغ السعي نحو أهداف محددة، فالناس لا تسبح فقط للاستمتاع بالماء والمرح ولكن لتحسين أسلوب السباحة وسرعتها، وللمحافظة على اللياقة البدنية أيضاً. والمنحى الأفضل هو أن نعرف أنشطة وقت الفراغ على أنها تلك الأنشطة التي يقوم بها الأفراد لمجرد رغبتهم في ذلك ومن أجل إشباع أنفسهم، وللاستمتاع والترفيه والارتقاء بالذات، أو لأهداف اختاروها هم لأنفسهم، وليس من أجل عائد مادي، ومن أكثر أنشطة الفراغ شيوعاً مشاهدة التلفزيون والمشي، والقراءة، وسماع الموسيقى، وهذا أقل إشاعة للمرح من السفر وتسلق الجبال أو التزحلق على الجليد، ولكن مشاهدة التلفزيون والقراءة تتضمن جهداً أقل، وهي أرخص سعراً، ولا تتطلب مهارات خاصة أو معدات أو بيئة فيزيقية أو مناخ معين.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ويعد الشعور بالرضا عن وقت الفراغ أحد مكونات مؤسسة الشعور العام بالرضا، وقد تبيّن أن التعريف الضيق لنشاط وقت الفراغ على أنه الهوايات ليس مؤشراً جيداً للتنبؤ بالرفاهية، كذلك لم يقدّر على أنه مجال مهم، ولكن نشاط وقت الفراغ كان واحداً من أهم المؤشرات التي تتنبأ بالرفاهية بوجه عام، ويؤثر نشاط وقت الفراغ أيضاً على الزواج وعلى جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى، كما أن أنشطة وقت الفراغ التي تجري بصورة مشتركة بين الزوج والزوجة تقترن بدرجة أعلى من الشعور بالرضا عن الزواج، وخاصة في السنوات المبكرة من الزواج، وكذلك بعد أن يستقل الأبناء ويعيشون خارج البيت.

تأثير الدين:

يمكن النظر إلى الدين بوصفه واحداً من مجالات الشعور بالرضا، وأوضحت دراسة «نوعية الحياة الأمريكية» أن ٣٨٪ من الأفراد يرون أهمية شديدة للاعتقاد الديني القوي، بينما رأى ٢٢٪ منهم أن التديّن هام جداً، ولكن العلاقة بين الشعور بالرضا النابع من الدين وبين الرضا العام عن الحياة كانت ضعيفة عندما أخذت العوامل الأخرى في الاعتبار.

وتزيد أهمية الدين بالنسبة لبعض الجماعات -مثل النساء وكبار السن والمتدينين أنفسهم بالطبع.

ويبدو أن هناك ارتباطاً قوياً بين الشعور بالرضا الديني والتعلق بالدين وبين السعادة الزوجية، وقد أوضحت دراسة إنجليزية أن ٩١٪ من النساء المترددات على الكنيسة يعبرن عن سعادة شديدة في الزواج،وذلك في مقابل ٦٢٪ ممن لا يذهبن إلى الكنيسة.

فالأفراد الذين يفتقرون إلى معنى لحياتهم يميلون إلى أن يكونوا أقل سعادة في كل جوانب الحياة تقريباً، فهم أقل شعوراً بالرضا عن الاعتراف الذي يلقونه، وعن وضعهم المالي، وبيوتهم، ووظائفهم وحياتهم العاطفية، وبزواجهم وأصدقائهم وبمحل إقامتهم بل حتى وبجاذبيتهم الجسمية الشخصية، وإذا كان هناك شخصان بنفس درجة التعليم ومستوى الدخل، فإن الشخص الذي يشعر بأن حياته لها معنى يتزايد احتمال أن يكون أسعد بدخله من الآخر.

وهناك تفسيران ممكنان لفوائد الدين محتملان لفوائد العقيدة الدينية، الأول يتعلق بما تهيئه الأفكار الدينية من معنى وغرض للحياة وانتماء لها وتكامل.

بينما تشير الثانية إلى أن التدين هو مصدر من مصادر الدعم الاجتماعي.

الصحة:

تعتبر الصحة من المكونات الهامة للشعور بالهناء، وهي بحق أحد عناصره الموضوعية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسعادة، ويشيع النظر إليها على أنها واحد من أسبابها الرئيسية، ولا تتأثر مشاعر السعادة والرضا فقط بالصحة، بل إن الصلة بينهما تقوى أيضاً خاصة لدى المتقدمين في العمر، ويستمر وجود العلاقة بين الشعور والرضا عن الحياة والصحة حتى إذا ما تبيّن تأثير المتغيرات الأخرى مثل المكانة الاجتماعية والدخل.

ورغم هذا، فالسعادة، تسبب الصحة الجيدة أيضاً، مثلما أن العكس صحيح وبعبارة أخرى، يمكننا النظر إلى الصحة على أنها واحد من مكوّنات الهناء، وتعرّف منظمة الصحة العالمية الصحة على أنها «حالة من الرفاهية الجسمية والعقلية والاجتماعية الكاملة، وليس مجرد غياب المرض أو العجز».

فإلى أي حد يشعر الناس بأنهم في صحة جيدة؟ وكم منهم يعاني من أعراض سوء الصحة.

ولعل أحسن قياس لصحة الفرد هو الفحص الطبي الكامل بوساطة الطبيب مدعماً بعدد من الاختبارات الطبية، ولكن المشكلة في هذه الطريقة هي أن ٣٠٪ من الناس أو أكثر لم يزوروا الطبيب منذ سنة تقريباً.

وأكثر من ١٠٪ من الناس لا يذهبون إلى الطبيب على الإطلاق، وهناك أيضاً مشكلة الاختلاف بين الأطباء في استخدامهم المعايير الصحية السليمة، ومن الطرق الأخرى الشبيهة بهذا النوع من المسح استخدام الملفات الطبية وتسجيل الأعراض التي تشكو منها جماعات مختلفة.

ومن المقاييس الأخرى للصحة مجرد البقاء على قيد الحياة، حيث يتأثر الموت المبكر بسوء الصحة الجسمية بالتأكيد - رغم أن هذه يمكن أن تكون ناتجة عن - أو متفاقمة من - المشقة والحالات الانفعالية وأسلوب الحياة غير الحكيم، بيد أن الموت المبكر لا يتأثر بسوء الصحة النفسية، وليس من المعروف بعد عما إذا كانت التعاسة يمكن أن تسبب الموت، رغم أن هذا يبدو محتملاً جداً، وخاصة الموت بالانتحار أو حوادث السيارات وتليّف الكبد وأمراض القلب.

وأخيراً يمكن القول بأن هناك من الناس من يميل إلى أن يكون سعيداً دائماً، رغم التباينات في الحالة المزاجية الراجعة إلى الأحداث والمواقف المختلفة، تماماً مثلما أن هناك مكتئبين، والسعادة جزء من جملة خصائص أوسع نطاقاً، تتضمن اختيار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المواقف الداعمة، والنظر إلى الجانب المشرق من الأمور والمستوى المرتفع من تقدير الذات. ويميل الأشخاص التعساء إلى أن يشعروا بالوحدة وإلى أن يكونوا مرتفعين على العصابية.

وترتبط السعادة بقوة بعناصر أخرى للشخصية: مثل الانبساط، والضبط الداخلي، وغياب الصراعات الداخلية، والعلاقات الاجتماعية الجيدة، والانغماس في عمل وأنشطة وقت فراغ هادفة، والقدرة على تنظيم الوقت وترتبط ارتباطاً ضعيفاً مع عدد من الكفايات الشخصية مثل الذكاء الجاذبية.

وتبيّن البحوث التي أجريت على الاكتئاب أنه يرجع إلى التأثير المشترك لكل من أحداث الحياة الشاقة وعوامل الخطر المختلفة، مثل نقص الدعم الاجتماعي، وأن عزو الفشل إلى الذات وكذا الاعتقادات المشوّهة إنما هي قرائن تصاحب الاكتئاب بأكثر مما تسببه رغم أن تغيير هذه الخصائص يمكن أن يخفف منه.

والتدين هو مصدر أكيد للسعادة، رغم قلة تأثيره، وهو أكثر أهمية لكبار السن وأكثر ارتباطاً مع السعادة الزوجية والصحة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حضور الزوجة في قصيدة الغزل
(قراءة في نماذج شعرية من حلب)

عبد القادر حمّود *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الوقت الذي تعـدَّدت فيه قصائد قيس بن ذريح (ت: ٦٨هـ - ٦٨٧م) في لُبنى بصفتها حبيبته التي كانت قبل ذلك زوجته ثم فارقها مرغماً، فنحن لا نـكاد نعرف شيئاً عما كان يقوله فيها وهي زوجته التي تسكن إليها روحه وتقـرُّ بجوارها عيناه، وما قيس بن ذريح إلا نموذجاً لأمثلة بهذا الخصوص قد لا تحصى في حركة الشعر العربي منذ نشأتها.

هـذا، وإن فاضت قرائح الشعراء في رثـاء وبكاء زوجاتهم بعد أن غيّبهم هـادم اللذات ومفرّق الجماعات، فقرأنا في هذا الصّدد كلّ بديع من الشعر

* شاعر وكاتب سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

تنزُّ من حناياه آهات الشاعر وتهمي دموعه على تلك الحبيبة التي كانت كلّ شيء في حياته، إنما لم تكن قطّ ملهمته الأولى أو النموذج الأمثل للأنثى التي تتمحور حولها غزلياته.

وفي الحقيقة، إن المرأة بشكل عام ومن بوابة قصيدة الغزل بالأخصّ كانت صاحبة الحضور البهيّ والطاغي في الشعر العربي، وظلّت مرافقة للشاعر حتى في أحلك لحظاته، وأكثرها تعقيداً، حتى إنه لم ينس التغزّل بها، أو ذكرها على أقلّ تقدير، في لحظة الموت التي تذهل فيها الأنفس وتتقلص مساحات الأمل، أو في صميم المعركة حيث تدور رحى المنايا وتلمع السيوف والحراب، هذا إلى جانب حضورها في أماكن ومواقف مختلفة قد لا نظنّ أنّ ثمّة إمكانية لذكرها فيها، ولكن هل كانت الزوجة صاحبة نفوذ في المواقف التي تدعو الشاعر للغزل والتغنّي بمفردات الجسد والروح لهذه المرأة التي منحته السكينة والطمأنينة؟!، إنها مسألة لا تحسم بلا أو بنعم، إنما قد لا يكون نصيبها في قصيدة الغزل تحديداً هو ذاك النصيب الكبير الذي تستحقّه، أو الذي هي أولى به، ذاك النصيب الذي شاركتها فيه فأخذت الحصة الكبرى امرأة أخرى ربما كانت حقيقة مجسدة أو خيالاً من صنع الشاعر في سعيه للمرأة المثال التي طالما تحدثنا عنها.

ولا بدّ من الوقوف ولو بشكل عابر أمام خاطر يقول، هل التغزل بالمرأة الزوجة، يكون بذات الأدوات والأساليب التي يكون فيها التغزل بالمرأة بصفتها حبيبة أو معشوقة؟، وهل تمتلك قصائد الغزل بالزوجات ذات الأحاسيس التي تمتلكها قصائد الغزل بالمعشوقات من خارج الدائرة الزوجية؟!.

وثمة خواطر أخرى تتوافد إلى المخيلة، وهذه الخواطر تكتنفها أسئلة وأسئلة، فإن كنا لا نعدم قصائد غزلية في المحبوبة أو المعشوقة تتراوح بين أقصى درجات العفة وأقصى درجات الإباحية، وذلك عند شعراء اشتهروا بأنهم شعراء غزل، وضربت شهرتهم الآفاق، فهل نجد في دواوينهم وأوراقهم قصائد ذات أهمية في زوجاتهم تحديداً، هذا يقودنا إلى عوالم الشاعر نزار قباني أبرز شعراء الغزل المعاصرين، وأبرز من أولوا المرأة اهتماماً مبالغاً به في قصائدهم منذ فجر تجربته حتى لحظات حياته الأخيرة، وإن كنا قد توقفنا ملياً في محطات قصيدته (بلقيس) التي كانت إثر مقتل زوجته، والتي لا تغيب عنها عبارات الغزل رغم موضوعها الذي يندرج تحت فنّ الرثاء، إنما هل من قصائد غزل في هذه المرأة بصفتها زوجة؟!، هذا مثال لا يخصُّ نزاراً فحسب، إنما قد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نتساءل في هذا الصدد ذات السؤال عند تناول تجارب شعرية لشعراء كثر، بعضهم كتب ديواناً كاملاً في رثاء زوجته، وبعضهم بكاها في قصائد عديدة، وبعضهم قضى ما تبقى له من أيام محزوناً على فراقها الذي لا حيلة له فيه.

أسئلة كثيرة تطلقها الخواطر المتتابعة، وتدعونا إليها الوقوف أمام نماذج لقصائد غزلية تمحورت حول المرأة بصفتها زوجة وشريكة حياة، كتبها شعراء اختلفت زوايا الرؤية لديهم، وتعدَّدت المساحات الفنية المفترضة لديهم، إنما اتفقوا جميعاً في أمرين: أولهما، أنهم ينتمون إلى مساحة جغرافية وحقبة تاريخية واحدة، وتتمثل الجغرافيا بمدينة حلب، أما التاريخ فيتمثل بالزمن المعاصر. وثاني الأمرين، أنهم جميعاً يمتلكون زوجات محظوظات إذ هيَّأ القدرُ لهنَّ أزواجاً من الشعراء الذين لم يبخلوا عليهن بما هو حقهنّ في الأصل قبل غيرهنّ من النساء.

ولعلَّ العلاقة الأدبية، واللحظات الشعرية، تأخذ منحى آخر مع الزوجة منذ التيقُّن بأن أمر الزواج أصبح حقيقة واقعة، وهذا المنحى بالطبع يختلف عما كانت عليه تلك العلاقة قبل ذلك حين كانت تلك المرأة تحمل صفة حبيبة أو عشيقة أو غير ذلك، ففي قصيدة للشاعر نصرة سعيد (١٩١١ - ١٩٨٣م) تحمل عنوان (دعوة القلب)، وهي مؤرخة بعام ١٩٣٨م، تبرز جلية لغة الغزل الزوجية منذ أن أصبحت تلك المرأة تحمل صفة الزوجة وأصبح الشاعر يحمل صفة الزوج حتى قبل أن يحتفلا بزواجهما، وهنا نقف أمام حالة من التغيير يروّض الشاعر ذاته عليها ويحاول أن يخترع ألفاظاً غزلية جديدة تناسب الموقف، وتصلح لمثل هذا المقام، فقد صدَّر تلك القصيدة بقوله (إلى زوجتي قبيل الاحتفال بزواجنا)، وغير ذلك فهو منذ مطلع القصيدة وخلال غزله يحاول التأكيد على فكرة الشريكة التي تقتضيها حالة الزواج، فيقول:

حبيبةَ مهجتي، يا ركنَ حبِّي
تعالي واملكي بيتي وقلبي
وحلِّي فيهما ملكاً بهياً
يصونهما ويبعد كل كربِ
فصدرُ البيت مرتقبٌ، هلمِّي
وبين يديكِ آمالُ المحبْ
هلمِّي، واجعليه وكْرَ بشْرٍ
يقي أطيارَهُ من كلِّ خطْبِ
تعالي واسمعي ألحانَ شِعري
تعالي واجتني أزهارَ حبِّي

وتلحّ على مخيّلة الشاعر فكرة الزوجة بصفتها شريكة حتى تظهر في أحد أبيات القصيدة بشكل سافر وواضح وبلفظ حرفي للكلمة يتمثل بالفعل (شاركيني)، فيقول:

تعالي شاركيني في حياتي
لننهب مشتهانا أيّ نهْبِ

ومن هذه الأبيات التي لا تعدم الغمزات الغزلية، والإشارات التي تفيض بالبشر والمودّة، ينتقل الشاعر إلى غزل صريح عبر تأكيده المستمر على حضور تلك الزوجة بصفتها مانحة السرور الذي هو بحاجة إليه، وغير ذلك فهي الشمس، وهي زهرة الزنبق التي يفوح شذاها، وهي الأمل، ومثل هذه الصفات الحسية والمجردة رغم أنها مكررة ومعروفة تماماً للذائقة الشعرية إلا أنها لا تفقد نضارتها وطزاجتها وقدرتها على التعايش مع الأزمنة والأمكنة، يقول الشاعر:

تعالي وانشري حولي سروراً
يرنُّ صداه في شرقٍ وغربِ
وشعّي في سما عيشي كشمسٍ
تنير على المدى أنحاءَ دربي

وفُوحي فوحَ زنبقةٍ شذاها
تعطُر مرتعي والقلبَ تسْبي
تعالي نقطفِ الآمالَ قطفاً
ونرتشفِ الهنا جنباً لجنْبِ

وبرغم هذا الجنوح اللطيف نحو جُمَل غزلية صريحة، إلا أن الشاعر يبقى خجولاً في هذا المضمار ويعود ليهرب ثانية إلى فكرته الأساسية عبر خطاب مباشر تطغى عليه الجمل الإنشائية المتسلّحة بأفعال الأمر المتكررة، والتي تنفتح على التمني والرجاء وكل ذلك لا يخلو من المفردات الرقيقة واللطيفة، فيقول:

ونَقْضِ العمرَ في مرحٍ ووفقٍ
ونرضِ اللهَ في سهلٍ وصعْبِ
ونقتبلِ الحياةَ على ارتياحٍ
ونمزُجُ وقتنا جِدّاً بلعْبِ
ونبتنِ أسرةً تحيا مثالاً
لكلِّ فضيلةٍ من غير عيْبِ
ترفرف حولها ورقُ الأماني
طوال العمر سرباً بعد سرْبِ
إليكِ بدعوتي فتقبّليها
وخفقَ فؤاديَ الولهانِ لبَّي

هذا بالنسبة للشاعر نصرة سعيد وغزله بزوجته قبيل الزواج، أما بالنسبة للشاعر خليل عارف جعلوك (١٩٣٢- ٢٠٠٧م)، فالأمر يختلف بعض الشيء، فهو يكتب غزله بزوجته تحت وطأة الحنين وتفرعات هذه الوطأة في نفسه، وهذا أتى في مرحلة متقدمة من عمر زواجه، أي بعد أن أصبح لديهما عدد من الأبناء والأحفاد، والحنين المشار إليه نتيجة ترك الشاعر زوجته في إحدى مدن أمريكا عند أحد أولاده وعودته وحيداً إلى الوطن، لتكون نتيجة هذا الأمر ثلاث قصائد، أولاها كتبها إثر عودته وفراق تلك الزوجة، والثانية حين تذكرها بعد عودته وهي مسافرة، أما الثالثة فكانت بمثابة تعبير عن فرحه بلقائها بعدما عادت من السفر.

ويقدّم الشاعر لقصيدته الأولى (ذكرى وعبرة) بقوله: (عاد الشاعر من «موبيل» إلى وطنه وحيداً، وقد ترك هناك زوجته «أمل»، لتساعد كنّته في ولادتها، وفي عيد الأضحى، جلس في «الشاليه» في طرطوس يراقب البحر، وقد ذكّره بخليج المكسيك التي تقع عليها «موبيل»، فهاجت لواعجه، ولما أخذت ابنته «صبا» تحاول أن تسري عنه قال..):

خلّفتُ في «موبيل» أغلى قطعةٍ
من خافقي.. فدعي الكلام واقصري

وهذا البيت الذي هو مطلع القصيدة نجد فيه كيف يعبر الشاعر عن منتهى حبه لتلك المرأة زوجته التي خلّفها في ذلك المكان البعيد، وفيها يقول ذاكراً زوجته (أم

عرفان)، مسبغاً عليها صفات سامية وباهيه تشي بمزيد من الحب والألفة:

يا أم عرفان، ويا أغلى، ويا
كلَّ المراد، ومنيتي، ومقدَّري

وخلال تعبيره عن شوقه إليها، يتجه إلى نداء المستغيث، المتمني، الآمل، الذي ليس بإمكانه إلا الانتظار والتوسل، فيأتي فعل الأمر (عودي) الذي ينفتح على أمل بالقادم، يقول الشاعر:

عودي إليَّ مع الشراع.. حبيبتي
وخذي حياتي.. لا تطيلي أشهري

وهذا البيت بدوره يحيلنا إلى قصيدة الشاعر المهجري شفيق معلوف التي تحمل عنوان (عودة الشراع) والتي يصور فيها حنين المهاجر وشوقه للرجوع، ومطلعها:

أيّ صوتٍ أدعى غداة التنادي
مِن نداء الأكبادِ للأكبادِ

وتأتي القصيدة الثانية للشاعر خليل عارف جعلوك بعنوان (راهب)، وهي حالةٌ متقدّمةٌ من القصيدة الأولى، واستمرار لما بدأته من صراع عنوانه الشوق والحنين إلى الزوجة البعيدة، وفيها تنمو حرقة الحب وجواه، وتنهض لغة الغزل واضحة فيفوح عبير مفرداتها بشكل لم يكن له مثل هذا الحيّز في قصيدته الأولى، وإن كانت البداية من الغزل بالصوت القادم عبر المهتاف (الهاتف)، فقد امتدّ ذلك الغزل متجاوزاً عوالم المحسوسات ليصل إلى العوالم المجردة فلا ينجو منه حتى طيفها الذي يرجو الشاعر أن تمرّ به وتضمه في ليل انتظاره هذا، يقول الشاعر:

رنيمُ صوتكِ.. بالمهتاف يُنْشيني
مدّي ذراعيكِ، عبر البحر، واحييني
أنا المدلّهُ، مِنْ بُعْدٍ، ومِنْ وَلَهٍ
مرّي بطيفكِ، في ليلي، وضمّيني

وإلى جانب ذلك تتصاعد حدّة الشوق بما يحمله من لوعة الفراق وجواه، فلا يتوانى الشاعر عن إظهار ندمه على ما فعله حين ترك زوجته حيث هي وعاد وحيداً إلى الوطن، وإذا كان يعتبر ذلك تضحية يرضي بها من أحبهم هناك، فهذا لا يخفف عنه الكثير مما هو فيه، ولذلك فهو ينشد قائلاً:

قد شرّدتنا اللّيالي، ما أشدَّ لظىً
يَفْري شرايين قلبي.. ثمَّ يشويني!
ما كنتُ أعلمُ أنّي سوفَ أفقدها
هذي الحبيبة، ما أغبى تلاحيني
ضحّيتُ فيها لكي أرضي أحبّتنا
ماذا جنيتُ؟!، وفعلي فعلُ مجنونِ
لم أدرِ أنّ فراقَ الوُلْفِ.. أصعَبُهُ
أنْ يستقرَّ بعيداً.. لو إلى حينِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويـا ترى أليست هـذه اللوحة بعض ما كابـده قبل قرون ابن زريـق البغدادي (ت: ٤٢٠هـ - ١٠٢٩م)، يوم ودّع زوجته في بغداد ويمَّم شطر الأندلس ليقضي هناك ويخلّف رائعته العينيـة (قمر في بغداد)، التي أبدى خلالها ندمه على ذلك الأمر، حين قال:

أستودِعُ اللهَ في بَغدادَ لي قَمَراً
بالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارِ مَطلَعُهُ
وَدَّعتُهُ وَبِوُدّي لَو يُوَدِّعُني
صَفوَ الحَياةِ وَأَنّي لا أُودِعُهُ
وَكَم تَشَبَّثَ بي يَومَ الرَحيلِ ضُحَىً
وَأَدمُعي مُستَهِلّاتٌ وَأَدمُعُهُ

وفي العـودة إلى الشاعـر خليـل عارف جعلـوك، وقصيدتـه (راهـب) وبعد هذا الجـوى وتلـك الحركة، لا شـيء يملكه إلا انتظار الآتـي، فقد يأتي الشراع بمن أحبّ، وتقرّ عينه بعد سهْد واشتياق:

إني أعُـدُّ الـثواني.. والـنجوم معاً
مـاذا ألمَّ بـرأسـي.. أو بتكويني؟
فـوق الـثلاثين سبعٌ لا أفـارقُـهُ
هذا الحبيبِ الذي، بالبعدِ يكويني
عـاشرتُـهُ.. ولـيالي الرأس فاحمةً
حتى أتـى الفجرُ، فابيضت تلاويني
هـذي الشهور التي مـازلتُ أحسبها
دهـراً.. سأحسمها من عمريَ الدونِ

إنما الانتظـار الطويل، يدفعه إلى مزيد من الأمـل، ويطلق عصافير الحب في كيانه مزقزقـة ومرفرفـة، فيمتزج ذلـك الشوق بالغزل اللطيف الذي يأخذ القارئ إلى عوالم العطـر الفواح، والبسمـة الجميلة، والوجه الذي يصافح الشاعر ويدعوه إليه:

مدِّي إليَّ، حبيبي، من «مَبيل» يداً
رسـالـةٌ مـنـكِ.. أو هـتـفٌ يسلّيني
كـيفَ الـسلوُّ.. وأنـتِ الـيوم ماثلةٌ
وعَبَقُ عِطْرِكِ.. لا ينفكُّ يغريني
والبسمةُ الحلوةُ البيضاءُ حاضرةٌ
بالحبُ تغمرني، بالعطف ترويني
إن دُقَّ بـابـي.. فأرجـو أن يصافحني
وجهُ الحبيبة، خلف الباب يدعوني

وفي نهاية هذا الدفق الحار من العاطفة الجياشة والخواطر الملتهبة، يسكب الشاعر خلاصة حبـه وصفو غزله الذي يحاول من خلاله إعادة دقات قلبه إلى طبيعتها، وبالتالي يجـد لنفسه بعض السكينـة والاستقرار، فيقول:

أعـود للشعـر.. عـلَّ الشعر ينقذُني
يـغـيب فـيـه شـعـوري.. أو يـقـوِّيـنـي
أنـا هـنـا راهـبٌ، (أيـقـونـتـي) أمـلٌ
ما أبطأ الـوقتَ.. إن الوقت يعنيني
أنـتِ دمـي، وفـؤادي، وانـبـلاج غـدي
أنـتِ الحبيبة، فاحيَيْ في شراييني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد شوق وانتظار وقلق تمتاز به الذات المبدعة، تأتي اللحظة الجميلة المتمثلة بعودة زوجة الشاعر من غربتها، لتعيده هو الآخر من غربتـه، ويكتب الشاعر قصيدته الثالثة التـي تحمل عنوان (عـودة) والتي يقول في مطلعها:

أهـلاً.. رفيقـةَ عمـري، كنت أنتظرُ

وبعدَ صبري.. كـافانيْ بكِ القدرُ

ويمضي في قصيدته معبراً عما آلت إليه حاله من فـرح وارتياح، وخلال ذلك يسكب مزيداً من عباراته الغزلية الرقيقة، فتظهر مفردات وتراكيب هامة، مثل: (يا قمر، هذا الملاك، رفيق روحي، بل روحي، أراه مبتسماً، عاد الحبيب...)، فيقول:

الآنَ يـرتـاحُ قـلبـي.. أنـتِ في حلبِ

لا لـن تغيبَ مع النجمات يا قمرُ

أفيقُ في الليل مرعوباً.. هل ابتعدتْ

عنّي الهمومُ!.. نعم.. وليهنأ البشرُ

هـذا الملاك الـذي مـازال يحرسُني

في كـلِّ لحـظٍ، يـواسيـني ويعـتـذرُ

رفيـق روحـي.. بـل روحـي، وأكـثرُ ما

أعـطـانيَ اللّه.. جـلَّ اللّه.. يَقْـتَـدِرُ

أراهُ في كـلِّ شـيءٍ حَـلَّ.. مبتسماً

هل ما أرى الحقُّ؟ أم يخدعني النظرُ؟

اليومَ عدتِ، وعـادَ الصفوُ.. يا فرحي

عـادَ الحبيبُ.. وعـادَ السعدُ والسمرُ

وننتقـل إلى قصيـدة للشاعر مصطفى أحمـد النجار (ولد عـام: ١٩٤٣م)، تحمل عنـوان (ليلـى وقلبي)، فنجـد لغة الحوار الأُسـريّ النابـت والمترعـرع في فضاء من الصفاء والمودة و(الرومانسية) المتزنة، هذا الحوار الذي يستهـل الشاعر به القصيدة، وذلك بقوله:

سَـــألَـتْ لـيـلـى مـا ألحـاني؟

مـا أخـبـارُ الـقـلـب الـــواني؟

شـكـراً لـيـلـى،يـشـدو شـعـراً

قـلـبـي، قـالـت: هـل غـنّـاني؟

إنها البداية الحواريـة التي يظهر فيها صوت الزوجة وصوت الشاعر، والتي تنفتح على فضاء واسع من خـلال سؤال الزوجة الأخـير: (هل غنّاني؟)، وهـذا في الحقيقة سؤال الأنثى التي تحـاول أن ترى ذاتها في كل ما حولها، وتريـد أن تطمئن دائماً على مكانتها وحضورها بشكل طبيعي لا تختلف فيه امرأة عن أخرى، إنما زوجة الشاعر تنفرد عن سواها بالبحث عن موقعها في القصيدة وهذا بعض ما يُسعد الشاعر على كل حال، ولعله من حظّ الشاعر السعيد أن يهيئ اللّه له زوجة تسعد بما يكتـب وتحاول أن تظل بطلـة لخيالاته وأحلامه التـي سيجسدها شعراً في نهاية الأمر، إنما الشاعر مصطفى أحمد النجـار وقبل أن يجيـب على سؤال

زوجتـه يحاول أن يستغل الفرصة فيبوح لها ببعض مـا يعتمل في صدره من شكوى، غير متناسٍ دغدغـة مشاعرها بصفتها شريكته وعـون قلبه الذي أحبّهـا وفاض عليها نهر حنانه، يقول الشاعر:

قلبي مهموم؟ قالت: مَنْ
عجبٍ، عجبٍ أن ينساني!
قلبي.. لا ينسى من كانت
عوناً للقلب الحيرانِ
من صار بحبُكِ يا ليلى
قيساً في كل الأزمان!
قلبي يا ليلى ميناءٌ
ورفيف شراعٍ وأغاني
ينبوعٌ من غير ضفافٍ
يُسقى من كفِّ الرحمن!
شغفته براءاتٌ صغرى
وجمالٌ صافٍ ربّاني
في فجرٍ يندى مرتعشاً
في قلب وفي هيمانِ
في دهشة أجنحةٍ خفقت
لفراشٍ بكرِ الألوانِ؟

ويوغل الشاعر النجّار في بوحه لتلك الزوجة التي يرى فيها ملاذه الآمن وفضاءه الذي يستطيع أن ينشر فيه جناحيه، ويضع رأسه في فيافيه الماتعة لينال قسطاً من الطمأنينة، ويزيح عن كاهله بعض عناء الشاعر المشغول بقضايا وهموم تفرضها عليه حساسية المبدع تجاه مجتمعه وبيئته بشكل عام، قبل أن يتجه إلى ذاته التي تبحث فيها تلك المرأة عن فسحة حبّ، وعبارة غزل تحملها وتطير بها في مدارات المودة التي تجمعها بشاعرها:

شحرورُ قلبي يا ليلى
يتغنى، آهِ، ويعاني

وعلى كل حال، فالشاعر لا يغفل عن رغبة زوجته التي باح بها سؤالُها الأول، فيفوح عبق الكلمات في أبياته، وخاصة الأخيرة منها، وهو يحاول الهبوط من تحليقه في عوالم البوح والشكوى إلى جوار تلك الأنثى الرقيقة التي تراءت خلال القصيدة شريكة حقيقية للشاعر في شؤونه وشجونه، وفي هذه الأبيات يظهر الانسجام التام بين الشاعر وزوجته التي أدركت أن مكانها محفوظ في فؤاد الشاعر الذي عبر عن ذلك بكل صراحة، فقال:

غمرت ليلى لمّا سمعت
قلبي بدثارِ العرفانِ
في رقّةِ أنثى مخلصةٍ
قالت: وبحقِّ الديّانِ
من كان كريماً لا ينسى
أبداً.. إنسان الإنسان!

وحين ننتقل إلى الشاعر فوّاز حجّو (ولد عام: ١٩٥٧م) نجد أنَّ ثمّة حالة تجديدية في غزله، فهو ينتقل في ومضة شعرية بعنوان (عطر) من الغزل المباشر بالمرأة إلى الغزل باللحظة أو المساحة الزمنية التي التقطها، والتي تمثل المرأة أو الزوجة فيها دور البطولة، ومن خلال هذا الغزل يتمكن الشاعر من تتويج التقاطته بالتفاتة غزلية باهرة تخطّت التغنّي بالعطر الذي تسكبه المرأة على جسدها ليفوح ويعانق أنفاس الشاعر، فالعطر في هذه الومضة نابع من ذات المرأة، إنه عرقها المتساقط من جبينها على قميص الشاعر أثناء قيامها بـ(كَوْيِه)، وهذا العطر المنسكب من جبين الزوجة أغنى الشاعر عن العطر الذي كان يسكبه من قارورة العطر كما تعود سابقاً، فأي التفاتة غزلية هذه، وأي مساحة من الخيال تفتح هذه الكلمات التي يقول فيها:

وقفتْ زوجتي
في لهيبِ الحرِّ..
تكْوي قميصي
وهي بين نارين
ودونَ أنْ تشعُرَ، هطلتْ قطرتانِ من جبينها..
على القميص
ومن عادتي، قبلَ أنْ أخرجَ..
أن أسكبَ ما تيسّرَ لي..
من قارورةِ العطر
أمّا اليومَ.. فقد اكتفيتُ بما سَكَبَتْهُ زوجتي،
على القميص، من قارورة جبينها.

وفي ومضة شعرية أخرى بعنوان (شَيْب) يستطيع الشاعر فوّاز حجّو أن يقدم نصاً مكثفاً من حيث البناء الشكلي، إنما البناء المضموني فيروح بنا إلى مساحة واسعة وممتدة، وفي بعض لحظاتها تفضي إلى أن الغزل بالزوجة علاقة تمتلك صفة الديمومة والاستمرار، ولا تنتهي عند حدود التغني بنضارة شبابها الأول، بل تنمو مع مراحل عمرها ليرى الشاعر تلك الزوجة بذات العين التي رآها أول مرّة، وهذا كما أعتقد منتهى الحبّ وأسماه، يقول الشاعر:

شِبْتِ يا امرأتي
قُبَيْلَ الأربعينْ
وَلْيَكُنْ..
إنَّ هذا ليسَ شَيباً
بلْ بياض الياسمينْ

وتتفتح لغة الغزل بكامل مكنوناتها، في قصيدة للشاعر حجّو تحمل عنوان (غزليّة)، وهذا التفتح يقود إلى ربيع تتآلف مفرداته لتخرج سيمفونية ألوانه بانسجام قلّ نظيره، فالقصيدة تنطلق من أفق سام للغزل، وتدور في هذا الأفق، حاملة طاقات وحيها ببراعة وعذوبة:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قامت فماس الزنبقُ
ورنا إليها المشرقُ

وكما هي رحلة الغزل الأبدية، فاللغة تمتدّ من عيني الشاعر وأحاسيسه، لتتلاقى مع فضاء ساحر تتعانق مفرداته مشكّلة ذلك الجسد الذي طالما فتن الشعراء، وأرهقهم بالبحث عن صفاته ودلالاته ومعانيه، وقادهم إلى عوالم وآفاق غير محدودة، قد لا يتسع لها إلا الخيال، ولم يخرج الشاعر فوّاز حجّو في قصيدته عن القاعدة فقد تمكن من رسم ما صوّرته له حواسه وأحاسيسه بلغة بديعة، وسمح لتلك الصور بالمرور عبر شريط موشّى بالسّحر:

تمشي الهوينا، والدروبُ لخطوِها تتعشقُ
في قدِّها كم روضةٍ
فيحاء حولي تعبقُ
وعيونها، ما للحدائق دونها تتأنّقُ؟

وبعد هذا البوح البصريّ والشمّيّ، تتدخل حاسة السمع لتضفي بعداً آخر على المشهد ولتكوِّن مع حاسة النظر وحاسة الشمّ لوحة مثالية الإيحاء والمدلول:

تلك المليحة ما اسمها؟ أيجيب هذا الفستقُ؟
فالثغرُ منها برعمٌ
في غصنه يتفتّقُ
وحديثُها للظامئين كجدولٍ يترقرقُ

وتتعانق المفردات ذات المدلول الحسي، مفضية إلى آفاق مجردة ومعان تتماهى مع الحالة الغزلية التي تدور في فلكها القصيدة، وغير ذلك فثمة سموٌّ آخر يتولد مع حضور مفردة (القلب) التي تفضي إلى مدلول عميق خارج دائرة الحواس الخمس، وهذا يخرج بالقصيدة قليلاً عن مسارات الغزل لتدخل في أعماق حالة من الحبّ تفصح عنها القصيدة بشكل صريح، يقول الشاعر:

وإذا أطلّتْ فهي شمسٌ في فؤادي تشرقُ
وعلى لُجين جبينها
بدرُ الدجى يتألّقُ
نطق اللسان بحبِّها
والعين كادت تنطقُ
والقلب كم يصبو لها شوقاً وكم يتحرّقُ

ومرة أخرى يعود الشاعر لإشراك الأشياء من حوله في هذه الأحاسيس وتلك الرؤية، فكما أن المشرق قد رنا من قبل إليها، والدروب تعشّقت خطوها، فالرصيف يرنو هو الآخر بدهشة للتي تمشي عليه، وكذلك تفعل حجارة الطرقات، وكأنما لسان حال الشاعر يقول: لست الوحيد الذي يعرف ذلك، وإن لم تصدّقوا فاسألوا الأشياء:

حتى الرصيف إذا مشت يرنو وحيناً يشهقُ
وحجارة الطرقات تشدو تارة وتزقزقُ

وبعد هذا التصعيد الغزلي، والبوح المغرق في الوجد والهيام، يعود الشاعر ليجيب عن بعض أسئلته التي ما أرادها أسئلة قدر ما تمناها سلالم ارتقاء نحو الواحة المزهرة التي تشكل مجمل حالته الغزلية، وفي هذا الفضاء لا يتوانى الشاعر عن التعبير عن لهفته، وما في نفسه من حرقة الحب وجواه، خاصة وأنه لا يستطيع أن يجزم بأن تلك المرأة التي هي زوجته تعرف ما في قلبه من تباريح وأشواق، يقول الشاعر:

هي ناهدٌ وأظنّها لتنهَدي لا تُشفقُ
يا ليتها تدري بقلبي كيف بات يُحرَقُ

وتجدر الإشارة إلى اللغة الأنيقة التي نُسِجَتْ من مفرداتها وتراكيبها هذه القصيدة الغزلية، والتي يتوقف فيها حضور الزوجة على الاسم الصريح وما يعتمل في قلب الشاعر من حبّ لها، وغير ذلك فالقصيدة تقدم صورة لامرأة استطاعت أن تفتن الشاعر بكل ما فيها، وليس الشاعر فحسب، بل الأشياء من حوله، وتبرز لغة الغزل الأنيقة من خلال استخدام مفردات منتقاة بعناية، ولعلها أسمى وأبدع ما في قاموس الغزل: (ماسَ، رنا، الهوينى، تتأنّق، يتفتّق، يترقرق، لجين، يتألق...)، وهذه اللغة الأنيقة أفضت إلى مفردات تحمل جرعات متفوقة من الحميمية والدفء، وهذا ساهم في ضخ مزيد من الحيوية والحرارة في جسد القصيدة النابض: (تتعشق، يعبق، قدّها، عيونها، المليحة، الثغر، حديثها، فؤادي، جبينها، اللسان، بحبها، القلب، يصبو، شوقاً...)، وغير ذلك فالحضور الطاغي لمفردات الطبيعة كان عاملاً مهماً في تكوين اللوحة وإعطائها بعداً من العفوية والألفة: (زنبق، روضة، الحدائق، الفستق، برعم، غصن، جدول، شمس، بدر الدجى،...)، وفي نهاية الأمر يأتي البوح الصريح باسم الزوجة كعامل إرضاء لغرور المرأة من جهة، وعامل طمأنينة واستقرار لذات الشاعر المتأججة من جهة أخرى، وهذا وذاك خلق حالة مثالية من الغزل العفيف بامرأة اختارها الشاعر واختارته ليكونا معاً، ولتكون القصيدة بعد ذلك كتعبير عن حالة سامية من الحب الذي لا يخلو من رغبة بالمزيد من عطاياه الساحرة، والمزيد من الإبحار في حنايا بحاره المترادفة.

وبعد، نخلص إلى القول إن حضور الزوجة في قصيدة الغزل، برغم تواضعه إلا أنه حمل أبعاداً مختلفة، فقد أطلّ فيما استعرضناه من عبر نوافذ ذات ألوان وزخارف عديدة، وإن كانت لفظة حبيبتي أو الحبيبة هي أبرز ما طغى على قصيدة الغزل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبل أن يأتي المحدثون بمفردات أخرى مثل: مولاتـي، وسيدتي، وغاليتي، وأميرتي، وغير ذلك، فالزوجة وجدت لهـا مكاناً وحضوراً فيمـا استعرضناه من قصائد، عبر مفردات مباشرة مثـل لفظة (زوجتي) التي وردت في تصديـر الشاعر نصرة سعيد لقصيدته كما وردت مرتـين عند الشاعر فوّاز حجّو، وإلى جانب ذلك فقد وردت عنـد الشاعر حجّو لفظـة (امرأتي) التي تحمـل المدلول ذاته، وغير ذلك فقـد حضر اسم الزوجة صريحاً عنـد ثلاثة من هؤلاء الشعـراء، هم: خليل عـارف جعلوك، ومصطفـى أحمد النجار، وفـوّاز حجّو، ولعـل الشاعـر النجار كان متفوقـاً في احتضانه لاسـم زوجته إذ ذكره في قصيدته ست مرات، هذا، وقد حضرت في هـذه القصائـد مفـردات مختلفة ذات مدلـول يوحي بأن الزوجة هـي المقصودة، كقول نصرة سعيد (ركن حبي)، وقول خليل عـارف جعلوك: (أم الأحبـاء الكرام)، و(أم الأولاد)، و(أم الحقـول)، و(رفيقة عمري)، و(رفيقـة روحـي)، ومثـل هـذا ورد عند الشاعر مصطفى أحمـد النجار من خلال قوله (عوناً للقلـب)، كما حضرت مفردات تداولتها قصائد الغزل، إنما سياق القصائد التي بـين أيدينـا جعل منهـا ذات مدلول يفضي إلى الزوجة، وهـذا ظهر عن نصرة سعيدة مـن خلال قوله (حبيبـة مهجتي)، وحضر عند خليل جعلوك، من خلال قوله: (حبيبتـي)، و(هذي الحبيبـة)، و(الولف)، و(هـذا الحبيـب)، و(حبيبـي)، و(روحي)، و(الحبيـب)، كما ذكر الشاعر خليل جعلوك زوجته بكنيتها (أم العرفان) وهذا فيه مزيد من المودة المقترنة باحترام الزوج لزوجته.

وحين نتتبـع حضور الزوجة في قصيدة الغزل مـن خلال اسمها أو مـا يوحي بها، أو ما يـدلّ عليها، فإننا نتتبـع أكثر المنافذ حميمية، وأكثرها دفئاً، لأنها تفضي على كل حال إلى مساحات المودة والاحترام التي أشرنا إليها، ولعل التنـوّع في الأساليب والحالات التـي تناول الشعراء فيها قصائدهم، ساهم في تشكيل رؤيا ممتدة ومنفتحة على حقول من مختلف الألوان والأشكال، وقد ساهم في ذلك تنوّع الضمائر المستخدمة وخاصة فيما يتعلق بالمخاطب والغائـب، وكذلك الأفعال المختلفـة، والمفـردات ذات المدلول الحسّي أو المجـرد، وكل هذا ساهـم في دفع طاقة من الحياة والحركة في القصائد مما جعلها قريبة من الذائقة والوجدان.

وأخـيراً يمكننـا القـول إن مثـل هذه قصائـد قد توجّهت لـمن يستحقّها بالفعل، إذ لا يوجـد من هو أحـق من الزوجة بغزل زوجها الشاعر؟.

المراجع والمصادر

١- نصرة سعيد، شموع الكهف، شعر، مطبعة الضاد، حلب ١٩٥٩م، ص٣٨.
٢- خليل عارف جعلوك (أبو العرفان)، مرافئ الذهول، شعر، توزيع مكتبة الشرق الجديد، دمشق ١٩٩٩م، ص٩٢، ١٠٠، ١٠٣.
٣- مجلة (الأدب الإسلامي)، المجلد (١٧)، العدد (٦٧)، رجب/ رمضان ١٤٣١هـ، تموز/ أيلول ٢٠١٠م، ص٧٩ (قصيدة: ليلى وقلبي، للشاعر مصطفى أحمد النجار).
٤- فوّاز حجّو، الصعود إلى دم الحلاج، شعر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٠م، ص٥٥، ٨٨.
٥- فوّاز حجّو، كما لو أنني أحلم، شعر، دار نون٤، حلب ٢٠١٠م، ص٤٧.
٦- صحيفة (الأسبوع الأدبي)، العدد ١١٧٥، ٢١ / ١١ / ٢٠٠٩م، (قصيدة: غزلية، للشاعر فوّاز حجّو).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

زاد الطفولة

سليمان العيسى *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كنتُ طفلاً.. حينَ تحتَ التوتةِ الخضراءِ
أشْعَلتُ حروفي..
كنتُ طفلاً.. أتَهجّى سورةَ الفتحِ.
وكَنْزي في يَدِي.. داني القُطوفِ
وأنا الآنَ على عُكازِيَ الأسمرِ، ودَّعْتُ خَريفي
وشِتائي.. وتشبثتُ بأحلامِ الطفولة

* شاعر العروبة الكبير.
العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

بكتابِي الأوَّلِ..

ببقايا منهلي..
من رحيقِ الكَرْمِ، كَرْمي الأزلي
يا حروفَ السورةِ الأولى، ويا زادَ الطفولَةْ
لا تغادِرْني، فَعمري لم يكن لولاكَ شَيَّا
خَلِّني طفلاً بإرثي الضخم، طفلاً، أتقيَّا

• • •

عودة
بلوتُ أعاصيرَ الشبابِ..
جنونَه
رماليَ عطشى والزوابعُ في رأسي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صرختُ زماناً..
ثم لملمتُ نَبرتي
وعدتُ إلى نفسي أُحدِّثُ عن نفسي

• • •

ظمأ
أنا ما أزالُ على ركود مَجامري
ظمأً إلى اللهبِ القديم يتمتمُ

أتظُنني حَطَباً؟

كَفَتني جذوةٌ

صَمتتْ بأعماقي، وبَوحٌ مُلْجَمُ!

* * *

لنعرفَ..

جُنونَ الشبابِ، شبابَ الجنون،

ألاّ ليتَ أيامَكَ الخالِيَةْ

تُعربدُ في دَمِنا مرةً

لِنعرفَ طَعْمَ الصِّبا ثانِيَة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دمشق الشام

شعر: خير الدين محمود قبلاوي*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دمشقُ الشامُ بسمةُ ياسمينِ
تدلّى فوق «فسطاط» السنينِ

ذوائبها ضياءٌ مجتبى من
صحائفَ باقياتٍ في العرينِ

تكوّنَ رسمُها والأرضُ بكرٌ
فكانتْ رنوةَ الحُسنِ المصونِ

---

* أديب وشاعر سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

دمشـــقُ أحـــرفُ الإبـــداع طـــرّاً
و«عـــينُ الـــشـــرق» والـــغـــرب المَـديـــن

هـــي الجـــوزاءُ تُـــشـــرقُ كـــلَّ يـــومٍ
بـــذاكـــرة الـــشـــعـــوب عـــلـــى الجـبـــين

لـــهـــا فـــضـــلٌ عـــلـــى الـــدنـــيـــا عـظـيـــمٌ
بمـــاضـــيـــهـــا المُـــجـــلّـــي المُـــســـتـــبـين

هـــي الأولى بـــعـــمـــرانٍ وصـــرحٍ
تـــســـامـــى فـــوق هـــامـــةِ قـــاســـيـــونِ

هـــنـــا وُلـــد الأنـــامُ وشـــبَّ مجـــدٌ
تـــســـاقـــى عـــزّة الـــنـــصـــر المـبـــين

دمـــشـــقُ مـــعـــلّـــمُ الـــدنـــيـــا، وبـــاني
حـــضـــاراتٍ عـــلـــى مـــرّ الـــقـــرون

تـــســـمّـــتْ كـــلّـــهـــا أســـمـــاءَ تـــرنـــو
لأمّ قـــد رعـــتْـــهـــا في ســـكـــون
حـــمـــائـــمُ عـــزّةٍ تـــعـــنـــو بمـــحـــرا
بِ تـــاريـــخٍ تـــفـــجّـــرَ مـــن «رمـــون»

دمشقُ منابعُ التاريخ جهراً
وسرّاً ترتجى لغدٍ أمين

دمشقُ الشامُ زهرةُ أقحوانٍ
تغنّتْ باسمها كلّ الفنونِ

كأنّ ولادةَ الشام انتهاءٌ
تجدّدَ في أساطير الحنين

تعاورَ حكمَها أمراء كثرٌ
مَضَوا، ودمشقُ بوحُ الياسمين

سِوارُ الحسن غوطتُها ونهرٌ
يُردّد نبضَه همسُ الغصون

يروزُ السُّورُ زائرها فيُدعى
ويُرعى أو يُردّ إلى المَنونِ
أهذا بابُها الشرقيُّ يرقى
بخالده الوليد أمِ الأمينِ؟
تراقصَ قلبُ «جلّقٍ» يومَ فتحٍ
وغنّى الزهرُ بالعذْب المَعين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعانقَ لحنُ جامعها بعمقٍ
مع الترتيل في حُبٍّ ولينِ

وهل يُنسى غزاةٌ قد تسامتْ
بهم حتّى غدَوا نورَ اليقين

بنوا آثارَ خيرٍ وارتيادٍ
فأبقتْ ذكْرَهم مدّ العيون
وهذا جامعٌ يصبو لقصرٍ
يُزيّن كلّ عصرٍ بالفتون

عصورٌ قد توالتْ شارداتٍ
و«جلّقُ» قلعةُ الرُّكن المكين

تلاقى في فؤادها كلّ لسْنٍ
فصاغتْهُ عروبتُها بدينِ

تلبّس وجهَها رومٌ وتُرْكٌ
وإفرنجٌ وكُرْدٌ من سنين
وإنْ تصهلْ دمشقُ فمُهْرُ عُرْبٍ
له صوتٌ يجادُ بلا رنين

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وإنْ تختلْ على الأمصار تيهاً
رأيناها بكلّ صدىً رزين

وإنْ تتهادَ يخفضْ كلُّ ملْكٍ
لواءً ما علا إلا لحينِ

فيا حقباً، دمشقُ روتْ ثراها،
تعالي في السماء ولا تبيني

لنبصرَ قلعةَ «الفيحاء» نَسْراً
تألّق دونما الحُلْمِ الرصين

يُذكّر كلَّ جيلٍ بانتصارٍ
يهزُّ الروحَ بالمجد الثمين

ويُلقي الرعبَ في جَوف الأعادي
إذا جاشتْ رؤى الحقدِ الدفين

وحاراتُ العمارة ذات عهدٍ
قديم قد تطاولَ في عيون
وما أحلى المنازلَ والليالي
برمضان الندى بأريج دين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتلك الشُّرفة العليا تداني
هواها من شمالٍ أو يمين

تواشجتِ البيوتُ مع الدوالي
وكم في الذكريات من الشجون

تَزينُ بيوتَها أصصٌ حِسانٌ
يصافحُ وردُها خيرَ البنين

نرى نافورة الماء انطلاقاً
يطوفُ بنا بجنّاتٍ وعِين

نرى الحميديّةَ السوقَ المغطّى
يقصّ حكايةَ البشر المئين

ويحكي الجامع الأمويُّ أسمى
عهود يعربيّات الظنون

زخارفُه رواياتٌ وشِعرٌ
تموّجَ في ابتهال المستعين
تُردّدُ كلّ أسماع المعالي
أذانَ دمشق في عشقٍ سجين

وتشهدُ كلّ أقلام الخوالي
بأنّ الشام في خُلُقٍ حصين

دمشق تحبّني وأحبّها مذْ
فشا في القلب عطرُ الياسمين

غدوت رهينَ «جلّقَ» في صباحٍ
وفي ليلٍ وفي لمْح العيون

يموت الناسُ والمدنُ اليتامى
سوى «العذراء» باقية اللحون

دمشق الشام عَودٌ والتجاءٌ
إذا الدنيا تناءتْ في جنون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

ملك أبيض/ ملك أسود

نيروز مالك *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التفت رشيد إلى زهير وقال: «ما رأيك في أن نلعب دق شطرنج؟».

هزَّ زهير رأسه وقال: «لا مانع لدي». أما في نفسه فقال: ولكنك لا تعرف اللعب.. لا تعرف حتى ترتيب الأحجار فوق الرقعة!

توجها إلى الزاوية اليمنى من المقهى، حيث القسم المخصص للعبة الشطرنج. سأل زهير صاحبه رشيد بعد أن جلسا متقابلين وراء رقعة الشطرنج: «أتريد الأحجار البيضاء أم السوداء؟».

* قاص سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

أجابه رشيد: «لا يهم اختر أنت الأحجار التي تريد».

دفـع زهير بجميع الأحجـار ذات اللون الأبيض إلى صاحبـه رشيد وقال له: «تفضل».

تناول رشيد الأحجار ثم جمعها في زاوية الطاولة، محاولاً أن يتذكر، كيف كان أصدقاؤه، لاعبو الشطرنج، يوزعون الأحجار فوق رقعة الشطرنج. ثم مدَّ يده إلى الجنود وصفّهم لا على التعيين..

تنـاول زهير أيضـاً جنوده وراح يقلد صاحبه في ترتيبهـم، وهو يقول لنفسه: «لم تـر صاحبـك في يوم من الأيـام يلعب الشطرنج، ولم تسمع منـه حديثاً يتعلق بالشطرنج وبطولاته العالمية أو المحلية.غريب! أيكون لا يعرف اللعب مثلي؟».

انتهـى رشيد من توزيع جنوده في الصـف الأول من رقعة الشطرنج ثم تناول الفيـل والوزير والقلعة. قلّبها بين أصابعه وهو يسأل نفسه: «أين موقع كل واحدة مـن هذه القطع؟». وحاول أن يتذكر أصحابه الذين يعرفون لعب الشطرنج كيف كانـوا يوزعون قطع الصف الثاني من الرقعة.. ما لبث أن مدّ يده وراح يضع كل قطعـة في مربع ما من الصف الثاني قائلاً لنفسه: «إن كان هناك خطأ في توزيع القطع علـى الرقعة فلا شك سينبهك إليه صاحبك!!». ثم سأل نفسه: «إن فعل، بماذا ستبرر له خطأك؟ أجاب سأقول إنه الشرود.. أنا آسف».

رفـع زهير نظره إلى وجه صاحبه قبل أن يضـع آخر قطعة من أحجاره فوق رقعـة الشطرنج، وكانت «الملك»، ثم أرخى جفنيه علـى عينيه وهو يسأل نفسه: «كأن صاحبي لا يعرف اللعب، كأنه وزع قطعه مثلي تماماً».

«ماذا، ألن توزع أحجارك؟» سأله رشيد.

ابتسم وقال: «حاضر.. لقد شردت قليلاً»، ثم تابع في اتجاه آخر: «عادة الشرود هذه تنتابني في الآونة الأخيرة كثيراً، لا أعرف سبباً لذلك».

رد عليه رشيد وقال: «أنا أيضاً أعاني من هذه الحالة في الفترة الأخيرة». كان قد وزع أحجاره على رقعة الشطرنج بالطريقة نفسها التي وزع بها صاحبه زهير أحجاره في أثناء السؤال والجواب الذي كان بين الاثنين.

والآن قال زهير:«من سيبدأ اللعب، أقصد تحريك الأحجار؟».

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أجابه رشيد: «ابدأ أنت».

«لا. ابدأ أنت. لأنك الأكبر في السن».

ابتسم رشيد باستياء وقال: «من أين تعرف أني أكبر منك في السن؟».

«شعور قال لي ذلك، إحساس أخبرني به». أجاب زهير. ضحك رشيد وقال معلقاً: «دخيل إحساسك وشعورك اللذين لا تملك منهما شيئاً».

ضحكا.

«تفضل». قال زهير.

هزَّ رشيد رأسه وقال: «لا بأس إن كنت مصراً على ذلك». ومدَّ يده إلى الجندي الثالث على اليمين وتقدم به مربعين إلى الأمام، وقال: «تفضل.. دورك».

«نعم دوري. ولكن.. ولكن علي البحث عن الحركة الملائمة التي لن تجد حيلة ضدها»، ومدَّ زهير يده بحركة مترددة وهو يقول في نفسه: «سيظن صاحبك بعد الكلام الذي أسمعته إياه، أنك أحد أبطال الشطرنج!». ثم سأل بغضب: «ماذا تفعل؟ إياك أن تحرك جندياً، لو فعلت.. حتماً لكشف أمرك، وعرف أنك لا تعرف اللعب، إنما كل ما في الأمر، هو إنك تقلده في حركات لعبه.. لقد تقدم بجندي إلى الأمام، وأنت تحاول أن تفعل مثله.. ابحث عن نقلة أخرى، حاول أن تحرك أحد الأحجار القابعة فوق الصف الثاني.. مثلاً، القلعة، أو الحصان، أو حتى الملك.. يمكنك أن تحركه».

تناول رشيد الملك بأصابع يده، وتخطى به الجندي الذي يقبع أمامه، ثم ثبته في الصف الرابع، يسار الرقعة، على إحدى المربعات، ثم رفع رأسه إلى صاحبه وهو يضحك ويسأل: «ما رأيك بهذه النقلة؟».

تردد زهير في الجواب قليلاً ثم قال: «نقلة جريئة.. ولكني أعتقد بأنك مغامر لا تحسب لخطواتك أي حساب؟».

ضحك رشيد وقال: «أنا شخص أعشق المغامرة.. لولاها لما ضاهت حياتنا

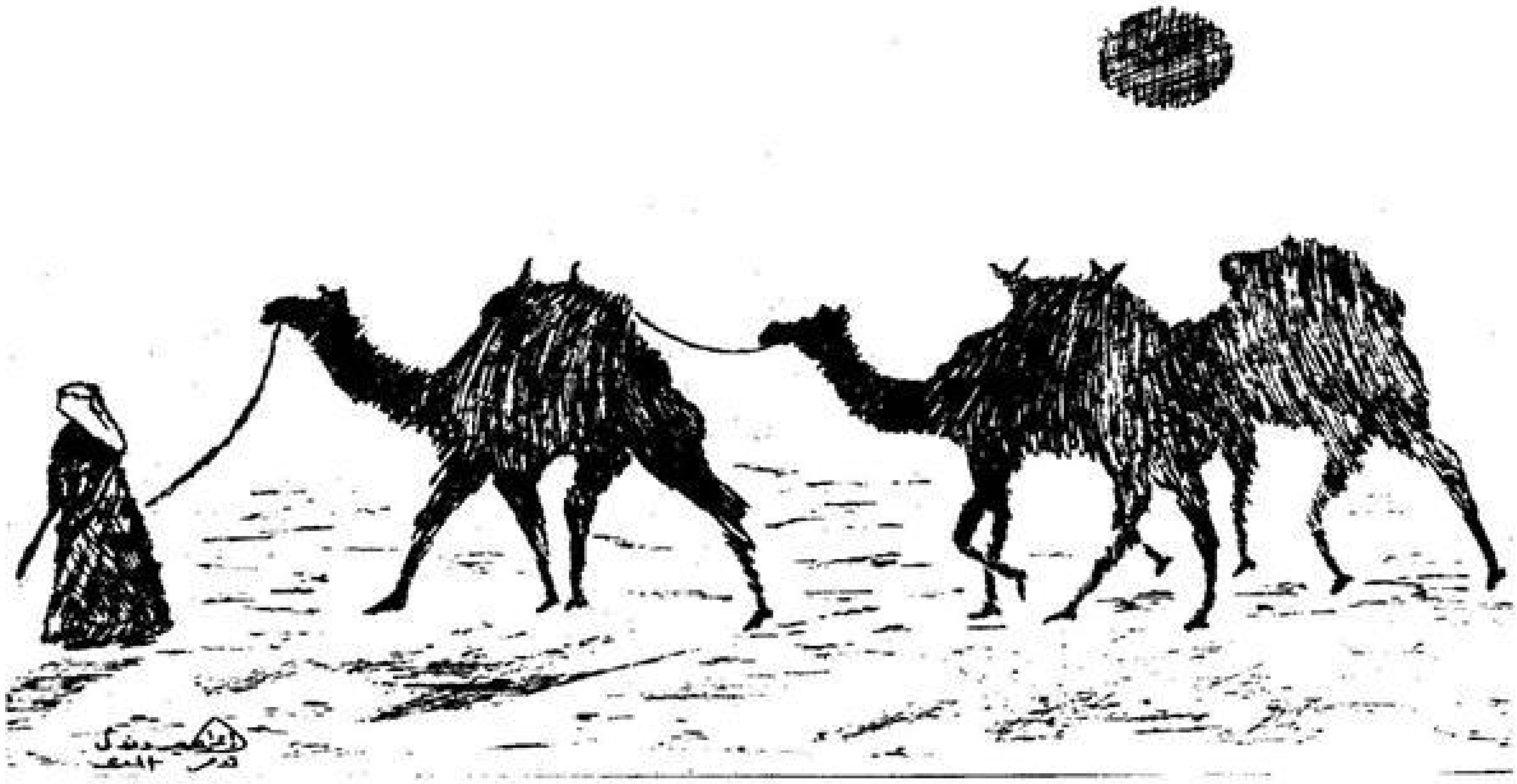

شيئاً». ثم تابع: «والآن جاء دورك يا صاحبي.. فكر على مهل، خذ راحتك في التفكير، واعمل كل حسابك قبل أن تحرك حجراً من أحجارك». ثم تابع متهكماً: «فقد عرفت منك التفكير الطويل.. لأنك كما أعرف، أنت ضد المغامرة». وارتد بجذعه إلى الوراء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظل زهير يتأمل الرقعة وينقل نظره ما بين أحجاره أولاً، وما بين أحجار صاحبه ثانياً دون أن يحاول أن يجعل من كلام صاحبه حجة لحوار طويل، إلا أنه تساءل: «إن كان قد تسرع في دفع الملك إلى الأمام، ووضعه في الصف الذي يسبق صف الجنود، من دون حماية، لقد بات ملكه مكشوفاً من الجهات الثلاث، عليه إذاً أن يحصن جانباً من جوانبه». ومدَّ يده والتقط بأصابعه الفيل ووضعه أمام الملك بالضبط.. وهو يقول لنفسه: «وفي الحركتين التاليتين سأحمي ملكي من جانبه الأيمن والأيسر، علي أن أحصن ملكي».

رفع وجهه إلى رشيد وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويقول له: «دورك». ثم تابع بشيء من التهكم: «حاول أن تكون أكثر جراءة في حركتك التالية». ثم تابع بعد صمت قصير: «أود أن أذكرك، أن في اللعبة هناك قتلاً.. والقتل سمة من سمات لعبة الشطرنج».

أجابه زهير: «أعرف. ولكي أؤكد لك ذلك، ها إني أقدم لك هذا الجندي لكي تقتلـه.. أو كما «يقال» في لعبة الشطرنج، كي تأكلـه!». وقدم جندياً من الصف الثـاني ووضعه أمام أحـد جنود رشيد وقال: «تفضـل.. كل هذا الجندي.. لقد اخترته لك من بين جنودي السمان».

تردد رشيد قليلاً، إلا أنه دفع بالفيل إلى الأمام وهو يقول: «مهما يكن جنديك سمينـاً فلن يكون أسمن من فيلـي!». ووضع الفيل فوق المربع بعد أن قفز به من فـوق الجندي. وقبـل أن يهتف بصاحبه طالباً منـه أن يلعب، كان زهير قد قال بحماس: «لقد وقعت في الفخ الذي نصبته لك يا صاحبي.. لقد أطعمتك جندياً لآكل اثـنين مـن جنودك بالمقابل» وحـرك حصانه طائراً به مـن فوق المربعات يتخطى جنديين وهو يقـول: «هذا الجندي مات وهذا الآخر أيضاً» ثم ارتد إلى الوراء وقال: «ما رأيك؟».

أصيـب رشيد بخيبة كبيرة عندما وجـد قتيلين بين جنوده، ملقيين إلى جانب رقعـة الشطرنج ثم خطف نظرة سريعة من وجه صاحبه، فرأى فرحاً كبيراً على تقاسيمه. فقال لنفسه: «معه كل الحق في أن يفرح، ثم تابع: لقد قتل لي جنديين عـبر خطة محكمة، وفخ سرت إليه بقدمي قبل أن أفكر بأسباب تقديم جندي لي لأقتلـه، قبل أن أسأل نفسـي إن كان ما قام به هو كرم أخلاق أم ماذا؟». ثم رفع صوتـه عالياً يهنئ صاحبه على براعته في اللعب، ولكن. ثم أضاف: «عليك أن لا تنسى من يضحك أخيراً يضحك كثيراً!».

ظل زهير على ابتسامته الواسعة: «كلام حق يراد به باطل».

سأله رشيد: «كيف؟».

أجابه زهـير: «الضعفاء والمهزومون والذين لا يعرفون سوى طعم الخيبة، هم الذيـن يتشدقون عادة بمثل هذه الحكـم والأقوال والأمثال مـن أجل أن يعزّوا أنفسهم للهزائم التي تلحق بهم». ثم علق: «أنت الآن تعيش حالة المنتشي بالنصر. لذا تحاول أن تتفه الخبرة الإنسانية».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظـل رشيد علـى انتشائه وهـو يقول: «المهـم.. تفضل قم بحركتـك.. فأنا بانتظارك».

هزَّ زهـير رأسه محاولاً بذلك القول لصاحبـه، سألعب. ولكن عليك بالتريث قليـلاً. ثم قال لنفسه: «على ما يبدو عليك أن تنظر إلى الأمر بجدية.. فالحرب باتـت مفتوحة، إن لم تحم جنودك بالقلاع التـي تملكها والفيلة والأحصنة، هذا إلى جانـب الوزير والملك.. فإنك ستهزم هزيمة منكرة.. ثم عليك أن تنتقم لمقتل الجنديـين المرميين أمامك كجيفتين». وراح يحرك يده حركات مترددة، ويضغط رؤوس أصابعـه ببعضها، يرفع ساعـده، ثم يعود ليسحبه مـن جديد، يمد يده المفتوحـة وأصابعه الممدودة فوق رقعة الشطرنج كطائر الرخ، متسائلاً بينه وبين نفسـه عن الحجر الذي عليه أن يلعب به، «أيكون جنديـاً أم حصاناً أم فيلاً؟». توقـف لحظة عن تساؤله ثم عاد إليه من جديد: «لقد سمعت في بعض الأحيان، عندما كنت أجالس المتبارين من الأصدقاء بالشطرنج، سمعت منهم أحياناً جملة: حرّك الرخ قليلاً، إن لم تفعل ذلك سيتفسخ! ولكن أي الحجر من الأحجار القائمة فوق رقعة الشطرنج هو الرخ يا ترى؟». لم يحاول الإجابة على هذا التساؤل، إنما طرحه على نفسه هكذا لا على التعيين. ثم أمسك برؤوس أصابعه الوزير وقدمه إلى الأمـام بحيث أصبح ما بين الجندي والملك، في مواجهة جنود صاحبه وقال: «تفضـل.. ها أنا قمت بالحركة، وهي، برأيـي، حركة مجنونة.. إلا إنها محسوبة بدقة، لأنه، عليها يتوقف مصير جنودك وملكك وبقية الأحجار التي أمامك على الرقعة».

لا شـك أنها حركـة بارعة، علق رشيـد ثم تابع: «ولكني لـن أجازف بجنون مماثل لجنونك، ليس خوفاً على نفسي، إنما خوفاً على جنودي وملكي»، وضحك ساخراً.

لا أحـد يطلب منك أن تكون مجنوناً! قال زهـير: «ما أطلبه هو أن تفكر قبل اللعب. لأنك، برأيي ستخسر عدة مواقع من مواقعك في أي اتجاه حرّكت أحجارك. أنت مقتول يا صاحبي».

ابتسـم بعـد أن تعززت الثقة بنفسه، لـذا تابع رشيد: «أطلـب منك أن تقرأ الفاتحة على روحك».

أنت تحلم. أجاب زهير، ثم مدَّ يده إلى الجندي الذي يقبع في أقصى المربع من جهة يمين الرقعة، ورفعه عالياً، فوق رأسه، ثم هبط به بحركة بطيئة وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويقول: «الآن ستعرف المصير الذي ستؤول إليه يا صاحبي». ثم وضـع الجندي في الصف الأول وقال آمراً: «كل.. يـا صاحبي.. ليس لك خيار، لأنك إن لم تفعل سأقول لك: كش ملك!».

أحس رشيد بشيء من الخوف عندما سمع الجملة الأخيرة من صاحبه، الجملة التـي تعني نهاية اللعبة والخسارة القاسيـة التي سيتعرض لها. لذلك ظل يتأمل الوضع فوق رقعة الشطرنج من دون أن يستوعب ما يراه.. إلا أنه تساءل: «ماذا لو كان يكذب، ويحاول زرع الخوف في نفسي، ليدفعني إلى العمل الذي يريد أن أقوم به، ليستفيد من الوضع ويحقق بذلك انتصاره الذي يسعى إليه؟ ليبقي ملكه حياً، سيداً يأمرني ويأمر جنودي وملكي وبقية الأحجار فوق رقعة الشطرنج؟».

مـاذا؟ ألا تريد المتابعة، قـال زهير: «أتقر بالهزيمة، وترفـع الراية البيضاء عالياً؟ لا بأس إن فعلت ذلك، فهي، أقصد الهزيمة، ستكون الأولى، ولك الحق في أخذ ثأرك، أمامك أربع جولات أخرى، يمكنك أن تربح، هيا يا صاحبي إن أردت، رغم اعتقادي بأن لا أمل لديك».

ضحـك رشيد وقال معلقاً: «لدي كل الأمل.. سـآكل الجندي الذي قدمته لي كقربان من دون أن أضحي بأي حجر يا صاحبي. أنت، وهذه مشكلة كل المتسرعين

للانتصار وتحقيق المكاسب يدفعون الثمن غالياً». وقام بحركة لم تخطر على بال زهـير، فإلى جانب الجندي الذي أكله رشيد أكل في طريقه، وبحركة غير متوقعة كلاً مـن القلعة والفيل والحصان، ثم وضع حجره قريباً من الوزير يهدد باجتياح بقية مواقع صاحبه من دون رحمة، وهو يضحك ويقول: «والآن من حقي أن أقول لك من يضحك أخيراً يضحك كثيراً».

أصيـب زهير بصدمة غير متوقعة، وتساءل منتقـداً نفسه: «كيف كان يفكر؟ كيـف كان يظن؟ ثـم حاول أن يعيد اللعبـة التي كان قد قـرر أن يلعبها عندما قـدم لصاحبه ذلك الجندي المجهول المسكين، كيـف لم يفكر بكل الحركات التي يمكـن لرشيد أن يرّد بها على حركته؟ لماذا اعتقد بأن رشيد سيتحرك بالطريقة التـي اعتقدها هو، لماذا لم يسأل نفسه، إن لم يتحرك صاحبه بالطريقة التي فكر بهـا، فكيف سيتحرك يـا ترى؟ لماذا فكر إن هو حرك حجـره فوق الرقعة على الطريقـة التالية، سيرد رشيد على حركته بالحركة التي تصورها هو، وليس كما يفكـر صاحبـه ويريد؟». ثم غضب زهـير في نفسه وقال: «كان علـى رشيد أن يفكـر بالطريقة التي أفكر بها أنا، فهو لا يعرف اللعب، إنه جاهل حتى بتحريك الأحجار فوق الرقعة، إنه..».

توقـف عـن الشجار مع نفسه، زفر هـواء كظيماً وهو يغـرز عينيه في رقعة الشطـرنج محاولاً أن يحسب عدد قواته التي بقيت لديه من جنود وفيلة وقلاع.. بينمـا كان صاحبه مرتداً بجذعه إلى الـوراء، وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يغني بصوت خافت أغنية من أغنيات نانسي عجرم..

سرق زهير نظرة خاطفة من وجه رشيد، فرآه ينظر إليه وعلى وجهه ابتسامة ساخـرة فيها الكثير من الشماتة. لذا ابتسم بـدوره وقال: «أعترف بأن خسارتي كبيرة. ولكني، لأكن صريحاً معك،لقد خففت بعض العبء عني، فمن رقعة مليئة

بالأحجــار، تشوشنــي وتثقل أصابعي على تحريكها تحريــكاً صحيحاً، إلى رقعة خفت عنها بعض الأحجار، طارت، اختفت.. يمكن لي الآن أن أفكر بطريق سهلة وأحرك الأحجار بمرونة، وأن لا أشغل ذهني كثيراً في مصير هؤلاء الجنود وبقية الأحجــار. لهذا قررت التــالي..». قال زهير ذلك وهو يبتسـم ويمد يده باتجاه الفيـل، يلتقطه برؤوس أصابعه، ويرفعه عالياً، ثم يثبته في الأمام ويقول لرشيد: «تفضل.. اقض عليه.. لا تتردد، ليس أمامك خيار آخر».

ضحــك رشيد: «أمرك عجيب يا صاح. لديك نزعــة التفريط في قواك.. ها أنــت تطعمني فيلاً، وحركتك هذه مكشوفــة، أقصد ما تريد أن تقوم به بعد أن آكل فيلك، كان بإمكانك أن تطعمني جندياً واحداً، لأن النتيجة هي هي من دون تغيير.. ولكن كما يقول المثل: «أنت كريم وأنا أستاهل»». وقام رشيد بالحركة فأكل بهــا الفيل وهو يقول لزهير: «تفضل قم بحركتك.. لن تستطيع أن تأكل إلا جانباً ضئيلاً وهزيلاً من قواي، إنه مجرد جندي».

اندفع زهير إلى الأمام، وهاجم بيده الرقعة وهو يقول: «أنت مخطئ يا صاحبي، لــن أكتفي بجندي واحد من جنودك إنما، إضافة إليه سأحطم لك القلعة، وأقتل لــك الوزير، أما الحصــان فسأكسر قوائمه الأربعة بحيــث يصبح عبئاً عليك لا تستطيــع التخلص منــه إلا بقتله». ثم ضحك وقال: «مــاذا يقولون في مثل هذه الحالــة، القتل الرحيم؟ أم رصاصــة الرحمة؟ اختر الطريقة التــي تقتله بها». وارتــد زهير إلى الوراء مزهواً بنفسه بعد أن قام بتنفيذ حركته بين دهشة رشيد واستغرابه وتأثره بما آلت إليه أموره.

ماذا؟ سأل زهير: «هل أنت حزين؟». ضحك ساخراً ثم تابع: «يجب أن لا تحزن يــا رجل، إنما عليك الاعتراف بأنــك مجرد لاعب غر لا غير». ولكن يوسف عبد الله تســاءل في نفسه: لــو استمريت في الكتابة على هذا المنوال لما انتهت القصة أبداً. قد تطول حتى تصبح رواية لا معنى لها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والحل؟.

لا أعــرف. ثم أضاف: «أعتقد بــأن أفضل حل هو سؤال البطلين كيف انتهت لعبتهمــا؟». والتفت إلى رشيد وسأله: «هل ما أخبرتني به من أمر وقع بالفعل. أم أنك كنت تثرثر لمجرد الثرثرة؟».

أجابه: «لقد حدثتك بالذي حدث معنا، أقصد أنا وزهير».

ابتســم يوســف ثم قال: «وكيف انتهــت اللعبة بينكما؟ أقصــد من انتصر في الختام، ثم كم دوراً لعبتما؟».

«لم نلعــب سوى دور واحد»، أجــاب رشيد، ثم تابع: «لقــد استمر الدور بقوة وعنف، كنا أنا وزهير، أعداء حقيقيين، لا نوفر دماء بعضنا بعضاً. لقد استمريت في قتــل جنوده، وتخريب قلاعــه، وأسر وزرائه وقادته، وحــرق مدنه وأراضيه، وتسميــم أنهاره وآباره وينابيعه.. لم يكن أي واحد منــا أقل قتلاً وتدميراً وحرقاً وتخريباً في ممتلكاته من الآخر، بحيث لم نترك شيئاً نحن الاثنين إلا وأهلكناه. لم نترك إلا الملك. هو لم يمس ملكي، وأنا أيضاً لم أمس ملكه».

«ثم بعد ذلك ماذا فعلتم؟» سأل يوسف.

«لم نفعل شيئاً»، أجاب رشيد: «لقد تحصّن كل واحد منا وراء ملكه».

تساءل يوسف عبد الله: «أعلى هذه الصورة أنهيتما اللعبة؟».

«نعــم». أجاب رشيــد، ثم تابع ببطء مكــرراً: «على هذه الصــورة.. أنهينا.. اللعبة».

قصة

الفتاة والنافذة

سائر جهد قاسم *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كل شيء قد انتهى..

ماعدا.. ماعدا تلك الخفقات في الجوارح.

قلبٌ يريد أن يحطّم جدار الصدر ويخرج.

روح حائرة.. هائمة لا تـدري مستقرها.. نفسٌ معذبة.. تواقة للهدوء تقبض بتلابيب الوقت تريد الانفلات.. فأنّى لها والوقت مقيّد بالرحيل..

أنـينٌ.. أنين.. وذكريـات لرجلٍ كلما مـرَّ طيفه تحترق له الذاكـرة ويغمرها الحنين.

* قاص سوري

لوحة الفتاة والنافذة لسلفادور دالي.

ذكريـــات.. لم يبــقَ منها سوى بعض الصور التي ما أن انتهت من النظر إليها حتى وضعتها في حقيبتها وخرجت من عملها هابطة الدرجات بسرعة، وكأنها تريد التخلص من ذلك الجو المشحـــون بالسّعـــال والشكوى والنـــكات.. كان عليها أن تمشي حتـــى موقف حافلات الركاب لتصـــل إلى الحي الذي تقطن فيه. تمرّ كعادتها إلى المكتبة تبتاع صحيفة وتقرأ عناوين الكتب والمجلات.

لفت نظرها صورة لغلاف كتاب.. (فتاة تقف أمام نافذة تتأمل البحر، دون أن تظهر ملامح وجههـــا)، وقفت في مكانها لتتأكد من العنوان واســـم صاحب الكتاب. انحنت قليلاً ثم دفعت الباب برفق ولكن بانفعال.

- متى وصلكم هذا الكتاب؟

- صباح هذا اليوم. قال البائع وتابع: رجل مغترب يكتب عن الحب والوطن والغربة.

- أعطني نسخة.

راحت تبحث في محفظتها، ثم أنقدته ثمن النسخة، وتابعت سيرها على الرصيف، مستعجلة الوصول كدجاجة تبحث عن فراخها، والكتاب بيدها.. ترفعه إلى صدرها كتلميذة.. تتخيّل أن كلماتـــه تغور بين أضلاعها.. تشعر بالدفء.. دفءٌ يجتاحها من رأسها حتى أخمص قدميها.. تجتاز الشارع.. تنعطف.. تدسّ جسدها الرشيق في الحافلة وتجلس تفتح الكتاب.. تقرأ.

- الوطن ليس خارطة نحددها بنقاط..

إنه الفاعل في جملة نقرؤها آلاف المرات.

الوطن دائماً مرفوع في الذات لا يمكن أن يكون مكسوراً.

تقلب الصفحة.

الحـب خليـة في الـدم تنشأ مـع الكائن وتبـدأ سريانها في الجسد.. تمـر في أطلسه.. توقظ أناته كمنبه للوقت.

ترفع رأسها.. تلتقي عيناها بعيني السائق.. تغلق الكتاب، ثم تفتحه.. عشرات المرات، تقرأ منه شيئاً.. ثم تغلقه.. تضعه قريباً من القلب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يشنف القلب.. تزداد دقاته.. ويغلي في جسدها الدم.. موجة على نار الانتظار.. تندفع باتجاه الرأس كما شمس الغروب حين ينسحب الضوء من العتمة برفق.. الطيور تنتبه.. تتهيأ للعودة إلى أعشاشها.. يمامة تسكن في قمة الجبل أيقظها الشروق فانتبهت.. ودعت صغارها.. هكذا كانت.. المركبة تقرض المسافة.. مركبة غير أكولة.. تزحف على الإسفلت.. تنتبه إلى شاب على الرصيف يده بيد صبية جميلة.. تنسحب من شفتيها الحمراوين ابتسامة رائعة.. وها هي تنزل.. تسرع بخطواتها نحو شارع فرعي ثم تصعد الدرجات.. تدخل شقتها وتندفع إلى سريرها.. دون أن تخلع ثيابها.. وتراخت على السرير.

فتحت الكتاب وبدأت في المقدمة

(لم أكتب بدافع الواجب، لكن الغربة امرأة وحشية تنهرني كلما تداعيت مع ابتسامة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عابرة صادرتها، أو نظرت إلى شجرة وارفة.. امرأة لا أعرف من أين جاءت، لعلها جاءت من كهوف الأوائل أو خرجت من الأرض، لكنها الغربة قبيحة المنظر، في عينيها سخرية الأقدار وعلى جسدها نبتت الطحالب، شيء مخيف هذا الكائن الخرافي حين يندس معك في الفراش ويهيمن على كل ذرة في جسدك).

هكذا أراد القول.. تقلب الصفحة ويبدأ قلم الكاتب.. كل ما فيه ارتسم على أول صفحة بمناجاة.

يا.. أنتِ.. يا من دفعتني إلى مخالب الاغتراب.

هل لكِ أن تشاهدي ناطحات السحاب أو شوارع الإياب؟

لعلك تسخرين.

أنا الذي كنت أداعب المنبسطات في الحقول.

عرفت الأوجار والأشجار وكتبت على شجرة السنديان.. هل تذكرين؟ حبنا الصامت والهروب من الصخب والاندفاع وراء رقراق الساقية والهيام بالمنحدرات.. النوم على الأغصان. يدك التي وخزها شوك الصبار.. لامسته بإصبعي.. أتذكرين..؟ أنت كيف لك أن تهربي؟.. يوم ودعتك وضعت على الطاولة زهرة مريم.. اقتربت منها وداعبت أناملك الرائعة وريقاتها العذرية.. بل رأيتك تقبلينها.. ألم تعرفي ذلك اللغز.. العذرية.. أنا في أمريكا بلد الاغتصاب.. في أقوى مدينة في العالم.. فلماذا قذفت بورودي..؟ أتحسبين أنك فاضلة.. يا لا الويل..!

أغلقت الكتاب وقذفته.. وقفت نظرت من النافذة.. حدثت نفسها.. أية لعنة كلماتك هذه.. لو أنك أتيت.. لو أنك طلبت.. لو أنك ملكت الجرأة.. لكنك كنت تريدني البادئة.. إذن، ما يميز الرجل، غير تلك الاندفاعة؟ خرجت وذهبت إلى المغسلة.. بللت وجهها ونظرت في المرآة.. ليمونة عبأت وجهها.. شحبت بسرعة.. أحست بالبرودة.. عادت إلى سريرها.. انحنت إلى الكتاب وراحت تقرأ وفجأة انتفضت.. ليس صحيحاً لعلك في تلك المدينة تعلمت الافتراء.. بالأصل هم مفترون.. أجل.. هذا ما كان أبداً.. عادت تقرأ من جديد.

كان ضوء النافذة يؤنسها وكانت الشمس ما زالت تدفع بالأتون ليضيء صفحات الكتاب

لكن الشمس ملت وراحت تهرول غاضبة من غضبها.. وقفت وتقدمت.. لقد هيجتها الكلمات.. ذهبت لتحضّر فنجان قهوة.. وضعت المقادير وهيأت كل شيء وقد اتقدت ذاكرتها.. شعلة انفتحت إلى الماضي.. تضيء حروفاً أتعبها الرحيل وراء عجف السنين.. في القرية وحقول القمح المتماوجة ثمة شاب يقف يثبت كاميرا تصوير على القاعدة وهو يوجه عدسته تارةً معايناً الحقول وتارة أخرى ينحني نحو عدسة الكاميرا لالتقاط تلك الصورة التي مازالت تحتفظ بها.. فتاة تركض في الحقول وهي تحف بالسنابل المنحنية برؤوسها وثمة نبتة مشعّثة دكناء ذات إبر حادة لسعت يدها بلحظة مباغتة، فسال الدم وقطرت الإصبع قطرات فوق الأحجار والنبات وارتسم الألم على وجهها.. ترك كل شيء من يده واندفع إليها وهو يبحث في جيوبه عن شيء يضمد به جرحها.

تقدم منها.. أمسك إصبعها ثم وضع منديلاً فوق الجرح وسألها:

- هل أنت بخير؟

نظرت في وجهه.. نظر في وجهها.. وهبط القلب. (سمكة قرب النبع، وغدير المياه الرقراق وقد سقط في الشباك يكاد يصرخ، فلم يستطع، أوليس هو رجل..؟). ترافقا.. مشيا على الطريق وهو يحمل آلة التصوير.. يسيران بصمت. بحث عن سؤال يخرجهما من اللحظة السائدة، لكنه لم يجد طريقه.. كانا يمشيان وقد سكن كل شيء من حولهما غير وقع خطواتهما الرتيبة وصوت عجلات لعربة خيول قادمة. غير أنها سألته مبددةً الوجوم والصمت والحرج.. وتحركت الحروف من فمها كأنها نغمات موسيقى:

- سمعت أنك أنهيت دراستك الجامعية في قسم الصحافة على ما أظن.

- هذا صحيح.

- ما هي مشاريعك بعد..؟

- أحب التصوير وسأسافر لأتعلم الإخراج.

- آه.. صحيح على ذكر التصوير ماذا كنت تصور؟ وقبل أن يجيب كانت القهوة قد طفحت.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان كل شيء يمضي كما لو أنه طائر يعود في المساء.. ذكرياتها تمضي.. أحلامها.. أنوثتها ولم يبقَ أمامها غير كلماته.. وورودا ذرت في الطرقات أينعت في الأحاسيس وعرّشت إلى القلب تأخذ بميسم النبضات وإن بدا فيها بعض الوخزات.. حالة تقبلتها وهي تقدم لطفلها الطعام الـذي دخل عائداً مـن المدرسة.. حتى إذا انتهت من تقديم الطعام عـادت إلى الكتاب تقرأ. راحت بجريرة الماضي تكنّ خطوط العمر وهي تنحني في عروق المسرة والفراق.

هكذا هو الحب.. محسوس غير ملموس.. روح تهيم توقظ الشباب والذكرى يخضور يرفد شمس الحب المشرق أبداً تسافر.. تترك كل ما وراءها إلى الظلمات.. ليموت البغض.. أي نوع من أنواعه.. واللاحب جذر في مخبر الحياة يشرف على العدم.

العـدم؟ وليس الموت.. العدم شيء بلا كون وبلا هوية والموت هوية بفراق التكوين قد يعود لينبشـ الحياة مـن أجداثها.. يعود ليلغـي العدم ويثبت قدرة الحب على أنـه الباعث الأول والأخير لهذه الدنيا.

يحدثنـي عن الانبعاث بعد الموت وأنا أحدثه وأثبت نظريته فليكن.. هاهو يجيب في كتابه على أسئلتي التي ما فتئت تعذبني.

صمتت قليلاً ثم قالت وفي نفسها تمطر الأسئلة لا عن شيء بل عن صورة تتذكرها أهداها إياهـا.. كان شعـره جميلاً.. مسبلاً.. ناعمـاً يلف بصنعة دون اصطنـاع.. عيناه السمحتان الشاردتـان دائماً.. كتفاه العريضان وصدره العارم أصابعه الطويلة الناعمة تليق بعازف هائم صورته مازالت هنا.. وضعت بنانها على رأسها.. تراه ما زال كذلك..؟! أم إن الشعر الرفراف قد انكشح عن الهضبة وخطه البياض.. من يدري..؟

عيناه أصبحتا مقنعتين بنظارة طبية.. لابد فيه شيء قد تغير..!

واندفعـت إلى المرآة.. تقـرأ وجهها.. ثم عادت إلى الكتاب تكبر في الأحرف كامرأة وتتداح السنـون شابـة كلها جمـال ورقة وأنوثة وعذوبـة في الصوت.. حركات تهمـس وانسياب في الأفعال.. قالت معزية نفسها:

الآن أجمـل.. الفتاة صفحـة بيضاء لا تجد من يقرؤها.. أما المـرأة فقد سجلت عناوين إقامتها على الصفحات ترف مع كل نسمة.

تقرأ:

- لا براءة في غصن يحمل ثمراً.. البراءة في البراعم.. أن تعيش مع البراءة يجب أن تمتلك بعضها وإلا غدت البراءة حملاً ولكنك أنت يا ذا التجارب عليك بكتاب ليس بأي كتاب تصعب فك حروفه المثقلة بالتجارب.

قالت:

- ها هو يؤيد أقوالي..

تقرأ.. وفجأة تنتفض.. الكآبة تطهم وجهها:

- لا شيء يهدم أبراج اليمام غير الرحيل، فقد يحدث لليمامة أن تسافر بحثاً عن طعام آلاف الكيلو مترات ولكنها تعود.. قد تتعرض في رحيلها إلى السقوط ولكنها وهي في أوج حركات اليأس تتذكر برجها الذي غادرته تاركةً بيوضها أو فراخها للأقدار.

أنا رحلت ورحلتي طالت.. تراني سأجد حين العودة أبراجي القائمة على الحدود أم لعلني أجدها مليئة بالصقور؟ ومع ذلك سوف أجدها جميلة كما لو أنها النبع يبقى جديداً حين يصب من المنحدر ليروي السهول لكن ربما لن أجدها لأنها غادرت برجها ولن تعود لا لأنها سقطت أو لأن الريح دفعتها بل لأنها غادرت أبراجي بملء إرادتها متنكرة لكل ما أسسناه في الشباب.

عندئذ وضعت الكتاب مقلوباً وظل اسم الكاتب يحدق بها وتحدق به في مشاكسة دفعتها للبكاء.

دموع الحب والفراق.. دموع صامتة.. مصحوبة بغصة في الحلق وتداعيات.. ربما لا توقفها الأحداث الماضية.. ربما تحتاج إلى وخزة أو اهتزاز في المشاعر. ربما غضب من نوع مختلف.. أوليس الحب هو ذلك الكائن في الإنسان مدفوع باللاشعور نحو عالم قد يكون الوهم وقد يكون وقد يكون.. وجدت نفسها تتداعى مع نار راحت تحرق داخلها.. إحساس بالذنب.. أوديب تضخم لديه هذا الإحساس فاندفع ليقتل نفسه.. وحين لم يجد الأداة وقع نظره على عشيقته (أمه في الأصل) رأى المشبك في صدرها وراح يصرخ كأنما يريد أن يغادر

جثة هامدة وفقأ عينيه.. الجرأة بعد الإحساس بالذنب تفيض تتحول إلى فعل لإنهاء الحياة.. هكذا هو الإحساس بالذنب الذي قد يتضخم ليشمل الحياة ويرمي وشاحاً من الليل على كل شيء. نظرت إلى طفلها وهو يجلس وراء طاولته.. كان الطفل منكبّاً يرسم حروفاً بريئة كبرعم هزه غبار الطلع ولكنه غادره لأنه لم يجد البيوض التي تستقبله.. عادت إلى الكتاب فتحته وتضخمت حروفه بدت كأنها مكتوبة بالغيوم.. والغيوم تتعرض للريح.. تدفعها محملة بالأمطار إلى مكان قصي ولكنها صرخت رباه أكان يجب أن يكتب عن حبنا.. قذفت الكتاب بعيداً في محاولة لإنهاء الحالة التي انتابتها.. تقدمت من طفلها سألته:

- ماذا ترسم؟

- أرسم الشمس.

وأمسكت الدفتر كان الطفل قد رسم وراء خط مائل قوساً انبثقت منه خطوط كأنها الإشعاع سألته اشرح لي ما هذه الخطوط..؟؟

- هذه الخطوط المائلة هي الجبال.

- جيد.. وهذه.

- هذه هي الشمس تخرج من وراء الجبال.

- شاطر.. هل تشرق الشمس كل يوم؟

- نعم ويأتي الليل.. مظلم.. أنا لا أحب الظلام.

- إذن، ارسم الشمس فهي دائماً تصنع النور.

عادت إلى الكتاب.. حدق العنوان بشراسة.. فيما الصورة التي على الغلاف تمثلت أمامها بأحداثها وكيف التقطت لها هذه الصورة.. كان ذلك اليوم موعد سفره.. ذهبت إلى منزله لتودعه.. كان يقوم بحزم أمتعته.. حاولت أن تمنعه لكنه ظل مصراً على السفر.. وقفت حزينة تنظر من النافذة إلى المدى البعيد.. إلى ما وراء هذا البحر.. تتأسف على كل الذين رحلوا ولم يعودوا..

نظرت إلى الجدار.. طالعتها صورة زوجها المتوفى.. والد طفلها.. ألقت نظرة على الطفل فاعتصر قلبها.. وقالت في نفسها:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- البراعـم تبتسم للشمس لأن الشمس تقدم لها اليخضـور والشجرة الباسقة تهتز للريح تقـاوم تتساقط منها البراعم.. أنا شجرة أثمرت وبرعمي هـذا الطفل.. كان الغراس جميلاً والنبـات أجمل.. وقد أجاد زوجي في العناية.. أنا أخذت حياتي والحياة القادمة للبرعم لهذا الطفل الذي يرسم الشمس أملاً.. ترمح السعادة في وقب عينيه..

نظـرت إلى عنـوان الكتاب رأته يكشر عن حروف يباس.. لكنها من جديد عادت من حيث وصلت.. فقرأت:

الخيانـة ليست طبعاً في الإنسان ولكنها انحلال في الدم تسمح لفيروس اللامبالاة أن يعبر الشرايين باذراً سموم الخديعة في كل جزء من كل الكريات الحمر والبيض مندفعاً إلى المبيض يسممه لينتقل بالوراثة من جسد إلى جسد كالمرض الساري..

وصلـت إلى هنا وانسدل أمامها ستار من سواد وسقطت أرضاً.. فاندفع الطفل إلى والدته وهو يصرخ ويبكي بنشيج رهيب.. ثم خرج منادياً الجيران الذين اجتمعوا في المدخل يتساءلون مـاذا حدث.. وأسعفت إلى المستشفى. (لقد وصلت حد العصاب.. كانت الصدمة قوية جداً). قال الطبيب.

بعـد عدة ساعات استيقظت علـى كف الممرضة.. فتحت عينيها وهـي تتلفظ بكلمات لم تستطع الممرضة ترجمتها.. كانت في أشد حالات الانفعال حين قالت الممرضة:

- اطمئني فصغيركِ هنا.. إنه بحاجة إليك..

طلبـت أن تـراه، ودخل الصغـير مندفعاً إلى حضـن أمه.. راحت تقبلـه بشغف ليس له حدود.

في صبـاح اليوم التالي عادت إلى البيـت.. كان الكتاب مرمياً على الأرض فرفعته وراحت تبحـث بين السطور عن المكان الذي وصلت إليه وبدأت تقـرأ غير أن تغضنات وجهها راحت تتغير بين انكماش وفرح إلا أن الكتاب ضحك هذه المرة. قرأت:

- هكذا هي جدلية الحياة.. إذا الحب انبعث في الأعماق يبحث عن الممكن يرفض التكرار.. يرضى بالواقع مرحلياً.

الحـب قائـد عظيم يحـوّل الممكن إلى فعـل ويدفعـه إلى المستقبل ليري حقولـه تنتشر في السهب دائمة الاخضرار.

وبينما هي على هذا الحال وقع نظرها على التلفاز الذي كان يعلن خبراً عن استشهاد فتاة اختـارت الكوفية رمزاً لها.. وبأنها مازالت على العهـد وفية كاسمها كالصفة وكالمعنى (وفاء إدريس).

اسـم شعّ لحظـة انفلات الزمن وهو صفة لغاية لحظـة إرادة التوحيد.. شطبت من دفتر الحياة (الجسد) فكانت بركاناً تفجر لحظة العودة من أرخبيل الصور إلى نقطة الهيولى لتكون نجمـة تشعّ وحجراً في مملكة الحلم في زمن تحول الحجر إلى متراس وربما قذيفة وقد تكون شيئاً آخر.. كانت المحطة تعرض وصية الفتاة.. راحت تتساءل في نفسها وقد سالت من عينيها الدموع:

- كيف يمكن للإنسان أن يشطب الجسد بإرادته؟

غـير أن الإجابـة جاءت على لسان المذيـع الذي راح يشيد بمزايا الفتـاة التي انتهت من قـراءة وصيتهـا بعبارة (حب الوطن). لقد عبـأت من إشعاع الشمـس حراراتها ومن فضية القمـر جمالها ومن صراخ الجرحى ألم الجرح ومن معاني الأمة رسالة إلى أمها.. ومن الجسد الفلسطينـي كانت ترسـم أيقونة، عرفت أن الحياة نهايتها الموت المجاني.. وأن الموت في سبيل ذلـك الحلـم هو الحياة.. كان المخزون يـزداد مع الأيام حتى طفح المصـاب واعتنقت الروح سحائب الحياة الأخرى.. كان جسدها رشيقاً مثل يعسوب خرج من جلدته وكان عقلها متألقاً ومخزون ذاكرتها كتباً وقصصاً تروي الآلام منذ طفل المغارة وشجرة النخيل إلى القديسة جان دارك لآلاف البطـلات العربيات حتى جاء هذا اليوم فتفجر المخزون المعبأ في ذاكرتها عبأته بمتفجرات وقالت: كي نعيش علينا أن نموت كألف ميت.. وكما تشاهدون الآن ها هي أجساد القتلى الصهاينة تتوزع في الشوارع كقمامة عبثت فيها القطط.

بكت وهي تقول في نفسها:

- عرفت كيف تعيش وعرفت كيف تموت.

في المساء فتحت الكتاب لم تقرأ.. لم تحاوره بل اكتفت بوضعه في المكتبة وهي تلملم جزئياتها التـي تناثرت على بلاط الأرض أغلقت زجاج المكتبة وخرجت إلى الشرفة كانت أسطح الأبنية

متراكمة وكأنها القبور.. صرخت بكثير من القهر:

- الحـب مصادر.. الغربة تقضم نصفه والنصـ الآخر يعيش على أمل، دمه مسفوح منذ لحظة ولادته الأولى..

كانت ما تزال بقايا من حروفه عالقة على وجهها وشعرها وثمة أغنية من بعيد ربما كانت مـن بيت الجيران جعلتها تعبـث بسيجارتها التي لم تنته كانت يدها ترتجف.. عيناها غارقتان في نهايـة المدينة حيث البعـد رسم لوحة لغبش شكّل قوساً أصهبـاً وراءه في اللانهاية وكانت الحقول الواسعة ترقد نائمة من بعيد وقد اتشحت بالسواد.. قال: البعد دائماً أسود يبدو أنه يمثـل الأمل المجهول.. الآمال التي لا تقوم علـى قاعدة تبدو في الأحلام سوداء وأنا هل أبدو كذلك..؟ حياتي مجرد روتين.. أذهب إلى العمل وقد خبأت كل مذكراتي وآمالي داخل حقيبتي. في الوظيفة حـين أخرج صوره ينتابني حزن شديد.. حزن من نوع خاص.. ربما لأنني قلقة.. وربما.. لا أعرف.. كل ما أعرفه هو أنني أحببته.. علقت أول حرف من اسمه في عنقي فكان يطـرق على صـدري طرقات ساعة جدارية.. وأعرف أنني أحببـت زوجي وابني فوقعت بين نارين.. هل ثمة امرأة وقعت بين نار الحب المتوهج وبين خمود الواجب..؟ هذا يشدني وذاك يشـدني وقلبي وحده يتمزق كما لـو أنه راية معلقة بصارية والريح تلاعبها والصارية تتمسك بها.. هذه أنا.... امرأة هوت من عليائها بعد أن فقدت أطراف جناحيها.. هكذا هو اليمام.. أو الحمـام.. قد يأتي مـن يقص أطراف الجناح فكيف لها عندئذ أن تغادر أدراجها من بعيد ومـن وراء البحـار استخدم مقصاً بكل بـرودة أعصابه وقص ما قصـ.. وإلى أن يبزغ ريشاً جديداً قد نسيت الطيران.. أولا يحدث..

هو يتهمني بالخيانة.. وأنا أتهمه بالطعن.. وبين الخيانة والطعن ثمة خيط مربوط ما إن تفك عروته حتى ينفلت ويتحول صالحاً لخياطة ثوب مرقع.. ضرب أمثاله في كتابه باليمام.. اختـار اليمام لزبد حريتـي دون أن يفكر بالزمان والمكان.. اليمام حر تدفعه غرائزه.. أما أنا فقطار العمر يمضي مسرعاً وقد نساني ونسي كل شيء.. من يدري ماذا في رأسه بعد أن مارس حريتـه بعيداً عن الأنظار في بلد يدعو إلى الحريـة يفردها على العالم والحرية لا تفرض ولا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

توهب.. الحرية فضاء في القلب والفكر يمارسه الإنسان ضمن الممكن.. من يستطيع أن يقول للأعور أعور..؟

مسألة الحرية في القول لا تعبر عن حرية الفعل..

الفعل مبني دائماً ما عدا الحاضر منه..

فالحاضر الفعل كالحاضر الزمن مبني ومرفوع وأحياناً يقبض عليه السكون..

أخطر الأفعال ما كان ممنوعاً..

في اللغة ممنوعاً من الصرف وفي الواقع ممنوعاً من الممارسة..

الأقوال العلنية غير الأقوال السرية التي كثيراً ما يكلم الإنسان ذاته فيها وكثيراً ما يكرر ذاته.. من يستطيع أن يمنع امرأة من أن تفكر في رجل أي رجل.. لا أحد.. أنا نفسي هل أستطيع أن أقول لزوجي أنني أحببت فلاناً..؟ زوجي نفسه هل يستطيع أن يسألني إن كنت أحببت يوماً شاباً ما..؟ هكذا.. مسألة تحتاج إلى كثير من الإمكانيات..

حين يصل المجتمع إلى امتلاك حريته الحقيقية تسير هذه الأمور تلقائياً حتى التلقائية لها سلبياتها.. من قال إن ما نعرفه هو آخر معارفنا.. من قال إن معارفنا اكتملت..؟ من يجرؤ أن يقول مثل هذا الكلام والبينة تكذب هذا القول.. لو اكتملت المعارف لتوقفت الشمس عن الشروق والبحر عن الاصطهاج والقمر عن تحولاته ومنازله.. من يدري ربما عدم اكتمال المعارف يدفعنا للمعرفة الأعظم والأمثل مندفعين نحو شيء ربما هو المطلق..

مضت ليلتها تارةً تحلق في الماضي.. تستدعيه كما لو أنه عجوزاً يسير على عكازين تحدثه.. تومئ له.. تتأسف لرحيله.. تقبله.. تتمنى ولو عاد على جناح طائر العنقاء.. وتارةً تعيش لحظاتها محاولة الهروب من نفسها نحو الطعام والشراب أو لفائف الدخان أو التلفاز لكن الماضي لباس لا يمكن خلعه.. أما الآتي فلم تكن لتفكر به.. كان مجرد سراب في صحراء يرمح لها وميضاً ثم ينداح..

في الصباح أوصلت طفلها إلى المدرسة واتجهت إلى العمل وفي ذهنها ينتصب عامود من شعاع كأنه سقط من علوٍّ على صفحة ماء البحر.. تتذرع في داخل الحافلة مع امرأة تجلس

قريبها في الحديث عن أحدث الموديلات والموضة لكنها تصل وتمارس عملها.. حين تنتهي تخرج محاطة بألف سؤال:

- ماذا بعد..؟

وكعادتها تمرّ إلى المكتبة تبتاع جريدة وتمضي فيما طرقات حذائها على الإسفلت.. تبعث فيها الإحساس بالمكان.. تمر قرب بائع للمرايا.. ترى صورتها.. لم تتوقف.. تمضي في الشارع.. كل المرايا أمامها لامعة مصقولة.. حتى الجدران بدت لها مرايا معلقة.. راحت تقرأ ذاتها دون أن تجيب.. تحاول أن تهرب من أجوبة صارخة إلى أن تصل إلى البيت.. في البيت تتهاوى على السرير تفتح الجريدة ثمة عنوانٌ في أعلى الصفحة.. تقرأ.. حفل توقيع كتاب (الفتاة والنافذة).

راحت تتأمل صورته.. رجل ذو صحة جيدة ووجه ممتلئ تخفيه لحية فيها بياض الشعر مبعثر وعينان بنظاراتٍ سوداء..

ها هو يعود لينبش الماضي من مدافن الزمن. يعود ليطعنني هذه المرة في صدري ولكن ماذا سيجد غير تهشيم أنيني على رصيف عبره رجل آخر.. كل الأشياء تبدو جميلة للوهلة الأولى لأن القلب سرعان ما يخفق.. وإذا ما خفق مرة واحدة ستظل الخفقة الأولى هي الخفقة الحقيقية.

خفق قلبي حين وخزتني شوكة.. فقفز وجاء ليعالج أصابعي.. لم أكن بحاجة ولكن قلبي خفق لحظتها.. نظرت في عينيه.. كانتا تموران بشيء مجهول قوي وخاصة حين لامس إصبعي.. رأيت شفتين قد ارتعشتا.. أحسست باللذة وهو يعصر إصبعي.. أخذني إلى مدارات بعيدة.. اختصر كل الأزمان وكل الذكريات التي دونتها على صفحات قلبي وعقلي.. كان لطيفاً جميلاً صادقاً والآن يعود إلى الوطن مرتدياً نظاراتٍ سوداء..

- لماذا يلبس البعض نظارات سوداء..؟ ليس ليخفي الهلع الذي بداخله.. وها هو يريد أن يخفي هلعه.. خوفه الذي سبقه على صفحات الجرائد..

في موعد الحفل.. حضرت ساعة الأمسية هي وابنها.. شاهدته يصعد المنصة.. يداه فوق الطاولة مبتدئاً الأمسية بقصيدة بعد أن قدمه المشرف الثقافي..

- أهذا الذي أحببت..؟ سألت نفسها وتابعت حوارها مع نفسها..

راح يظهر أمامها عظيماً في كل شيء وها هو يجيب على أسئلة الحضور فتكتشف أنه ذهب لأجلها وعاد لأجلها.. حياته كانت مرهونة كلها لأجلها.. لقد طعنته بخنجر هي نفسها لا تعرف من أية مادة مصنوع..

حين انتهى.. تقدمت منه ماسكة يد ابنها.. وقفت أمامه الوجه بالوجه والعينان بالعينين وثمة صراخ في العيون ما برح يدوي مؤكداً أن الحب تحول إلى شيء والشيء يزول.. ويزول.. ويزول..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إساءة معاملة الأطفال

د. محمد قاسم عبد الله ۞

العنف الأسري سلوك موجــود في جميع المجتمعات وفي مختلف الأزمنة، وللعنف الأسري أشكال كثيرة حيث يتعرض له في الغالب الضعفاء في الأسرة، ولكــن جــزءاً كبيراً من هــذه الأفعال لا يتــم الحديث عنهــا والتصريح بها فتبقى سرية ضمــن الأسرة، من هنا فإن الإحصائيات لا تعبر عن حال واقع الظاهرة تماماً. وأشكال العنف الأسري قد لا تعتبر أفعالاً مستهجنة في بعض المجتمعات أو في بعض الأزمنة. فقد يعتبر ضرب الأطفال مثلاً أو حتى ضرب الزوجة ضمن برامج التنشئة الاجتماعية للأسرة.

۞ أستاذ الصحة النفسية جامعة حلب، ووكيل كلية التربية للشؤون العلمية.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

معنى العنف الأسري:

- العنف هـو: استخدام القوة المادية أو المعنويـة لإلحاق الأذى بآخر استخداماً غير مشروع.

- إن العنـف الأسري يشمل عنف الزوج تجـاه زوجته، وعنف الزوجـة تجاه زوجها، وعنـف الوالديـن تجـاه الأولاد وبالعكس، كمـا أنه يشمل العنـف الجسدي والجنسي واللفظـي وبالتهديد، والعنـف الاجتماعي والفكـري، وأخطر أنواعه ما يسمى بـ (قتل الشرف).

للعنف أسبابـه التي يمكن تلخيصها في التالي:

أ-) ضعـف الـوازع الأخلاقـي (الأنـا الأعلى) وسوء الفهم.

ب-) سوء التربية في بيئة عنيفة.

ج-) غياب ثقافة الحوار والتواصل المثمر داخل الأسرة.

د-) سـوء الاختيار وعـدم التناسب بين الزوجين في مختلـف الجوانـب (العمرية، التعليمية، والثقافية، والانفعالية).

هـ-) ظـروف المعيشـة الصعبة كالفقر والبطالة.

قد يحدث العنف في مجالات عدة:

١- في الأسرة (يسمى العنف الأسري).

٢- في المدرسـة (يسمـى العنـف المدرسي).

٣- في العمـل (العنف المهنـي، ويدخل فيها العنف الموجه ضد الأطفال فيما يسمى ظاهرة عمالة الأطفال).

- يترتب على العنف الأسري آثار خطيرة على الزوجين والأولاد والمجتمع.

ويمكن تعريف العنف الأسري Family Violence بما يلي:

هـو كل استخـدام للقـوه بطريقة غير شرعية من قبل شخص بالغ في العائلة ضد أفراد آخرين من هذه العائلة!

فـأركان الأسرة هي: الـزوج، والزوجة، والأولاد.

يعـرّف البعض العنف بأنـه نمط من أنماط السلوك يتضمن إيذاء الآخرين، وقد يكون مصحوباً في بعض الأحيان بانفعالات

ونجد الدكتـور مصطفى عمـر يعرّف العنـف بأنه (كل فعـل أو تهديد به يتضمن استخدام القوة بهدف إلحاق الأذى والضرر بالنفس أو بالآخرين وبممتلكاتهم).

أما اللجنـة الأمريكيـة لدراسة أسباب العنف في الولايات المتحـدة الأمريكية عام ١٩٨٠م فقد عرفـت العنف بأنه (استخدام أو تهديد باستخدام القـوة لضمان تحقيق هدف خاص ضد إرادة شخص).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضحايا العنف: هم الأفراد الأضعف في الأسرة ممن لا يستطيعون أن يصدوا عن أنفسهم الأذى الواقع عليهم من قبل من هم الأقوى بين أفراد الأسرة، إذن ضحايا العنف هم الذين يقع عليهم ضرر أياً كان نوعه، نتيجة تعرضهم للعنف على يد أحد أفراد أسرهم. وحين نتحدث عن العائلة، فإنها تشمل المقربين أيضاً مثل الأجداد والأخوال والأعمام. وقد يقع العنف على المسن (الجد أو الجدة) لأنه الأضعف.

أنواع العنف الأسري

١- العنف المادي البدني:

- الإيذاء الجسدي
- القتل
- الاعتداء الجنسي

٢- العنف المعنوي والعاطفي:

- إيذاء لفظي
- حبس منزلي وانتقاص الحرية
- الطرد من المنزل
- الإهمال والتجاهل

وقد بين عمر التير في دراساته أن العنف الأسري في المجتمعات العربية يأخذ الأشكال السبعة التالية:

- الضرب بأنواعه.
- حبس الحرية
- الحرمان من الحاجات الأساسية
- الإرغام على القيام بفعل ضد رغبة الفرد
- الطرد
- التسبب في كسور وجروح
- التسبب في إعاقة
- القتل

في إحدى الدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية تبين مايلي:

(٩٥٪) ضد الزوجات (الإناث).

(٥٪) ضد الأزواج (الذكور).

ومثل ذلك أو قريب منه جدا في أوروبة.

أما في مجتمعات العالم الثالث ومنها الأردن فقد كانت النسبة كالآتي:

(٩٧٪) ضد الزوجات (الإناث).

(٣٪) ضد الأزواج (الذكور).

صعوبة دراسة الظاهرة في المجتمعات العربية:

يفضل الكثير من أعضاء الأسر في المجتمعات العربية الاحتفاظ بما يحدث داخل الأسرة من أعمال عنف، وحين يصل العنف لدرجة شديدة وظاهرة، فقد يتحدث عضو الأسرة الذي تعرض للعنف إلى الآخرين. هذا في الأسرة كمؤسسة اجتماعية، ولكن العنف يحدث أيضاً في المؤسسات الرسمية، ففي المدرسة كثيراً ما يتعرض الأطفال إلى أشكال مختلفة من أعمال العنف من قبل القائمين على تعليمهم.

يعتبر معظم المختصين إساءة معاملة الطفل من أبرز أشكال العنف الأسري، وقد جذب هذا الموضوع اهتمام الباحثين في علم النفس والتربية والقانون، والاجتماع، لدراسته والكشف عن أشكاله وأسبابه بسبب زيادة انتشاره والآثار النفسية والاجتماعية والجسمية التي تنتج عنه.(التير، ١٩٩٧)

ستتناول هذه الدراسة طبيعة إساءة معاملة الأطفال، وأشكاله، ثم التطرق إلى أسبابه وآثاره النفسية والاجتماعية والجسمية.

ظاهرة إساءة معاملة الأطفال:

يعتبر إساءة معاملة الطفل نمطاً من أنماط المعاملة الوالدية للطفل. وقد حدد بعض المختصين في علم النفس أن أنماط المعاملة الوالدية هي:

١- الدفء مقابل البرودة (القبول أو الرفض).

٢- الضبط مقابل الاستقلال

٣- الحماية الوالدية الزائدة (التدليل).

٤- التسلط الوالدي.

٥- الثواب والعقاب الوالدي

٦- إساءة معاملة الأطفال

وهكذا فإن ظاهرة إساءة معاملة الأطفال شكلاً من أشكال المعاملة الوالدية. مع التأكيد بأن الأطفال قد يتعرضون إلى إساءة معاملة خارج المنزل، كما في المدرسة، أو الحي، أو العمل (عمالة الأطفال). وقد وضعت تعريفات متعددة لإساءة معاملة الأطفال، بعضها يركز على الأفعال التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعبر عن الإساءة، وبعضها يركز على النتائج المترتبة عنها.

من هذه التعريفات:

«السلوك الذي ينتج عنه أذى وضرر بدني لشخص آخر هو الطفل»

تعريف يركز على العمد «أي طفل يتلقى أذى أو جرحاً مقصوداً وعمدياً كنتيجة لسلوك أو إهمال والديه أو القائم على رعايته» (حسين، ٢٠٠٦).

ويمكن أن إساءة معاملة الطفل بشكل عام بأنها:

«المعاملة غير اللائقة والأفعال المقصودة المؤدية إلى إيذاء الطفل نفسياً، أو جسدياً، أو عقلياً».

ومن خلال هذا التعريف يتبين لنا أشكال سوء معاملة الطفل.

أشكال إساءة معاملة الأطفال:

يتفق معظم علماء النفس والاجتماع على أن إساءة معاملة الأطفال لها أربعة أشكال رئيسية هي:

أولاً- الإساءة الجسدية: وهي الأذى البدني الذي يلحق بالطفل على يد أحد القائمين على تربيته وخاصة الوالدين أو ذويه، وهو لا ينتج بالضرورة عن رغبة مقصودة ومتعمدة في إلحاق الأذى بالطفل، بل يكون في حالات كثيرة ناتجاً عن أساليب تربوية قاسية وعقوبة بدنية صارمة أدت إلى إلحاق الضرر المادي الفيزيقي أو الجسمي بالطفل. وكثيراً ما ترافق سوء المعاملة البدنية للطفل مع أشكال أخرى من سوء المعاملة كالإساءة العاطفية. فعند ضرب الطفل عادة ترافقه كلمات نابية تخدش مشاعر الطفل ولا تنمحي حتى لو انتهت الآثار الجسمية.

ثانياً- الإساءة الجنسية: وهي استخدام الطفل لإشباع الرغبات الجنسية لبالغ أو مراهق. ويشمل تعريض الطفل لأي نشاط جنسي كملامسته أو حمله على ملامسة المعتدي جنسياً أو حتى تعريضه لأفلام إباحية.

الإساءة العاطفية: وهي نمط سلوكي يهاجم النمو العاطفي للطفل وصحته النفسية، وقيمته عن ذاته. ويشمل: الشتم، الترهيب، الإذلال، الرفض، السخرية، النقد اللاذع، التجاهل. فالإساءة العاطفية مستبطنة في جميع أشكال الاعتداء الأخرى كما أن آثاره على الطفل وإهماله على المدى البعيد تتبع غالباً الجانب العاطفي من الاعتداء، والجانب النفسي لمعظم سلوكيات الإساءة هي التي تصبغ صفة الاعتداء.

مثال: الطفل الذي كسرت ساقه نتيجة القفز من مكان مرتفع، فإن هذا الطفل سيتغلب على مشكلته الجسمية جسدياً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونفسياً وربما تقوى شخصيته ويتعلم دروساً حياتيه قيمه بسبب هذا الحادث، ولكن إذا كسرت ساقه نتيجة ضرب والده له، فإنه قد يتعافى بدنياً، ولكن قلما يتعافى نفسياً وعاطفياً من هذه الخبرة.

رابعاً- الإهمال: يمكن تعريفه بأنه نمط من أنماط سوء المعاملة الذي يعبر عن الفشل في توفير الرعاية المناسبة لعمر الطفل من مسكن، وملبس، وغذاء، وتعليم، وتوجيه ورعاية طبية وغيرها من الحاجات الأساسية لحياته وتنمية قدراته العقلية. فالإهمال يتسم بصفتي الاستمرارية، والعمد، ويتمثل في نمط غير مناسب من الرعاية والتربية. (قاروني، ٢٠٠٤).

إساءة معاملة الأطفال جنسياً:

تعتبر الدراسات التي بحثت الإساءة الجنسية للأطفال شحيحة جداً، فقد أجريت دراسة لإيبي وزملائه عام ١٩٨٧ على عينة مجتمعية مكونة من أكثر من ٥٠٠ شخص، بينت أن ٢٣٪ منهم أنهم اعتدوا جنسياً، وأن ٨٠٪ من هؤلاء منهم اعتدوا على جنس واحد، بينما اعتدى ٢٠٪ على الجنسين.

في الولايات المتحدة الأمريكية ارتفع عدد الحالات إلى ٣٠٠٪ في الثمانينيات من القرن الماضي، وتشير التقديرات إلى أن هناك ١٣ مليون امرأة قد اغتصبت في أمريكا خلال مختلف مراحل حياتهن، وأن ٦١٪ كن أقل من سن ١٨ عند حدوث الاعتداء، وأن ٣٠٪ كن تحت سن الحادية عشرة.

المعتدون جنسياً خليط غير متجانس في خصائصهم وأفعالهم ودوافعهم، وحاول المختصون في الطب والقانون تصنيف هؤلاء، تبين أن المعتدين من الأحداث، أو النساء، أو المغتصبين، ولكن قلة من الدراسات التي بحثت في الاعتداء على الأطفال أو البالغين.. لقد تبين أن ٩٠٪ من المعتدين على الأطفال هم ذكور، وأشارت بعض التقديرات أن فئة الأحداث تسجل ارتفاعاً ضمن فئات المعتدين الجنسيين، فنسبة ٣٠٪ من المغتصبين، و٢٠ حتى ٥٠٪ من المتحرشين جنسياً ضد الأطفال هم من الأحداث والمراهقين. (المحروس، ٢٠٠٤).

الحالة العقلية والنفسية للمعتدين:

١- **اختلالات عضوية:** معدلات جريان دم أقل في الدماغ.

٢- **قدرات عقلية:** فالإيذاء يتناسب عكساً مع القدرات العقلية والمتخلفون عقلياً أكثر عرضة للاعتداء.

خصائص الشخصية: باستخدام اختبار مينسوتا متعدد الأوجه للشخصية تبين أن أبرز صفات المعتدين: انحراف سيكوباثي،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اكتئاب، أعراض فصامية. Wolfe، D.(١٩٩٩)

آثار ونتائج إساءة معاملة الأطفال:

تترك سوء معاملة الطفل آثار عميقة من الحزن والإحباط والألم على المدى القريب ولكن آثارها على المدى الطويل أكثر خطورة. وقد تبين أن الإساءة تؤدي إلى النتائج التالية (عبد الله، ٢٠٠٥):

١- الحيلولة دون تحقيق الأهداف التي يطمح لها الوالدان لأطفالهما.

٢- إعاقة نمو الطفل نفسياً وعقلياً وجسمياً.

٣- نفور الطفل من الدراسة وعدم اقتناعه بأهميتها، وربما ينقطع عن المدرسة

٤- السلوك العدواني وصعوبة إقامة علاقات مع الآخرين.

٥- الانحراف الاجتماعي والميل للتعاطي (كحول ومخدرات)

٦- تدهور صحة الطفل

٧- انحراف سلوكي قد يصل إلى الجنح والجنايات والقتل.

٨- العزلة، والاكتئاب.

٩- التعرض لنكسات وأزمات نفسية وصحية مفاجئة.

١٠- سوء معاملة الأزواج/الزوجات والأطفال مستقبلاً.

في دراسة لبتول أسيري (٢٠٠٤) أجريت في البحرين تبين منها مايلي:

الأطفال الذين تساء معاملتهم هم:

- أقل سعادة وطموحاً من الأطفال الآخرين وعادة مايعانون من الاضطراب النفسي وخاصة: اضطراب الشدة بعد الصدمة النفسية، والاكتئاب.

- هناك علاقة عكسية بين مستوى الطفل التعليمي وسوء المعاملة، وكلما ضعف المستوى التعليمي للطفل ازدادت نسبة تعرضه للإساءة.

- الطفل الذي تُساء معاملته تتكون لديه مشاعر سلبية نحو والديه ويفقد الثقة بهما.

عوامل الظاهرة متعددة:

١- الدوافع الذاتية:

وهي تلك الدوافع التي تنبع من ذات الإنسان، ونفسه، والتي تقوده نحو العنف الأسري ومنها إساءة معاملة الطفل.

٢- الدوافع الاقتصادية:

في محيط الأسرة لا يروم الأب الحصول على منافع اقتصادية من وراء استخدامه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العنف إزاء أسرته وإنما يكون ذلك تفريغاً لشحنة الخيبة والإحباط الذي تنعكس آثاره بعنف من قبل الأب إزاء الأسرة.

٣- **دوافع أخرى مثل المستويات التعليمية المنخفضة**، وعدم اتباع نمط حياة سوي يتضمن العمل، وشغل وقت الفراغ والأنشطة.

٤- الدوافع الاجتماعية:

العادات والتقاليد التي اعتادها مجتمع ما والتي تتطلب من الرجل -حسب مقتضيات هذه التقاليد- قدراً من الرجولة في قيادة أسرته من خلال العنف، والقوة، وذلك أنهما المقياس الذي يبين مقدار رجولته.

وهذا النوع من الدوافع يتناسب طرداً مع الثقافة التي يحملها المجتمع، وخصوصاً الثقافة الأسرية فكلما كان المجتمع على درجة عالية من الثقافة والوعي، كلما تضاءل دور هذه الدوافع حتى ينعدم في المجتمعات الراقية، وعلى العكس من ذلك في المجتمعات ذات الثقافة المحدودة، إذ تختلف درجة تأثير هذه الدوافع باختلاف درجة انحطاط ثقافات المجتمعات.

السؤال الذي نطرحه من المتسبب في العنف الأسري عامة وإساءة معاملة الطفل خاصة؟ الزوج أم الزوجة، أم البيئة المحيطة، أم الخبرات الطفولية كونهما سبق وأن تعرضا للعنف حين كانا صغيرين.

إن الحياة الزوجية مسرح يمثل عليه الأزواج ما تعرضوا له في طفولتهم، فمن شب على عداء لا شعوري لوالديه، يمكن أن يفرغ عداءه على شريكه في الزواج من شاهد أمه تهين والده وتذله شب وفي نفسه شيء ضد المرأة، والطفلة إذا شاهدت والدها يهين أمها ويضربها، غرست تلك المناظر وتعمقت في نفسها وكرهت الرجل، فإذا كبر الطفل والطفلة وكوّن كل منهما أسرة، كانت تلك المناظر التي تعيش في لا شعورهما (العقل الباطن) دافعاً أساسياً لسلوك العنف، حتى إذا ما حدث أي خلاف أو مشكلة وهذا طبيعي أن يحدث داخل الأسرة، ظهرت على مسرح الأحداث تلك الشخصيات التي ما زالت تعيش في العقل الباطن، فالزوجة ترى في زوجها شخصية والدها الذي كان يضرب أمها، والزوج يرى في زوجته شخصية والدته التي كانت تهين والده، وقد يكون العكس صحيحاً، ومن هنا يبدأ كل منهما في التهيؤ للدفاع عن نفسه، وما زالت تلك المناظر من الماضي البعيد ماثلة أمام عينيهما، فهي لا تريد أن تُضرب مثل أمها، وهو لا يريد أن يهان مثل أبيه.

أما الطفل الذي نشأ مدللاً مسرفاً في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاتكال على والديه سنجده إن لم يجد في شريكه الشخص (الوالد) الذي يمكن أن يعتمد عليه، فسيثور ويغضب ويتمرد كما كان يفعل في طفولته، أما الطفل الذي لم يذق طعم العطف في صغره عز عليه أن يشعر به فيما بعد، واستحال أن يهبه لغيره، أما من شب ولديه شعور بالنقص حقيقي أو موهوم، ضعيف الثقة بنفسه كان شديد الغيرة في زواجه، شديد الحساسية لأية ملاحظة أو نقد، أما من شب أنانياً مسرفاً في حبه لنفسه، عاجزاً عن حب غيره، كان زواجه ناقصاً يعجز عن التضحية التي يتطلبها كل زواج سعيد، وإن رزق الزوجان بأطفال كان هؤلاء الأطفال هم كبش الفداء.

وهنا نتعرف على الأسباب التي تتسبب في حدوث المشاحنات والعنف، وأن منشأها نفسي، ونتبين أن لحياة الطفولة أثرها الفعال، وللأسرة دورها المهم في حياة الأفراد والمجتمع، فالأسرة لها التأثير في تعيين شخصيات أفرادها وتشكلها وتوجهها إلى الخير أو الشر وإلى الصحة أو المرض وإلى السواء أو الشذوذ، وقد يكون سبب العنف والمشاحنات والخصومات من البيئة المحيطة بالزوجين، إما أهل الزوجة بتدخلاتهم وعدم رضا الزوج عن ذلك، وإما بتدخل أهل الزوج وعدم رضا الزوجة عن ذلك، ومن هنا تنشأ الخلافات والمشاحنات، وقد يعود الزوج من عمله متعباً محملاً بهمومه ولا يجد الراحة في البيت، بل يجد زوجة بانتظاره، وبدلاً من تهيئة الجو المريح له لينسى هموم ومتاعب العمل، يجدها سبباً آخراً في متاعبه، مما يجعله يقوم بأفعال وسلوكيات لا إرادية قد تصل حد العنف، ولم تتصرف الزوجة بحكمة عندما شعرت بتعب زوجها، فكانت السبب المباشر لحدوث الخصام الذي قد يصل إلى العنف.

إن العنف وتوتر العلاقة بين الوالدين تؤثر في سلوك الأبناء، حيث أثبتت الدراسات والأبحاث ذلك، فالخلافات والمشاحنات والعنف الحاصل بين الزوجين تؤثر على سلوك الأبناء، كما أن تربيتهم لن تصل إلى الطريقة المثلى، وتخلق في البيت جواً من التوتر يؤثر في حياة الأبناء تأثيراً بالغاً، وتحدث صعوبات في التكيف.

وإذا أدى الخصام أو العنف إلى انقطاع كامل أو ما هو قريب منه في العلاقة بين الوالدين كالطلاق العاطفي، وأصبح البيت متصدعاً ومفككاً غدا البيت من الجحيم في نظر الأبناء، وإن عاش الزوجان معاً مراعاة لجميع أبنائهما، لكن ليس بينهما أي مودة أو اتصال أو تقارب، عاش الأبناء أجواء الطلاق النفسي العاطفي والذي هو

أشد وقعاً وتأثيراً على شخصية الأبناء من الطلاق الحقيقي.

وحتى يجنب الآباء والأمهات الأبناء مثل تلك الأجواء والبيئات فعليهما التنازل عن بعض المطالب والتفاهم والابتعاد عن الأطفال أثناء المناقشة، كما يجب الابتعاد وتجنب الأسباب التي قد تؤدي بهما إلى الخصام والمشاحنات.

باختصار نقول إن تحقيق الأمن النفسي والتربوي للطفل يتم من خلال التنشئة الاجتماعية السوية التي تبتعد عن أنماط المعاملة السيئة والقاسية في العائلة.

المراجع

أسيري: بتول (٢٠٠٤) تأثير معاملة الأطفال على الأسرة والمجتمع البحريني. مركز البحرين للدراسات والبحوث.

التير، عمر (١٩٩٧) العنف الأسري. أكاديمية نايف للدراسات الأمنية. الرياض

حسين، محمد عبد المؤمن (٢٠٠٦) مشكلات الطفل النفسية. دار الفكر الجامعي. الإسكندرية.

عبد الله، محمد قاسم (٢٠٠٥) مدخل إلى الصحة النفسية. دار الفكر: الأردن.عمان

قاروني، سرور (٢٠٠٤) دراسة في نظرة المجتمع البحريني لسوء معاملة الأطفال والإهمال. مركز البحرين للدراسات والبحوث.

المحروس، فضيلة (٢٠٠٤) التعاطي مع حالات سوء المعاملة. مركز البحرين للدراسات والبحوث.

Wolfe, D.(1999).Child abuse. Implication for child development and psychopathology. AGE Publications. London.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

موسيقى القرن العشرين وأسلوب كوميداس

✪
د. نورا أريسيان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد تصريح البروفسور الشهير هاردمان في تيفليس ١٩١٩م في اكتشاف المؤلف كوميداس، لم يتجرأ أحد على مناقشة دور كوميداس الفريد في تشكيل الأسلوب الوطني للموسيقى الكلاسيكية الأرمنية.

وقد بات واضحاً أن كوميداس من خلال التأليف قام بتنفيذ طرق الانسجام وتعدد الأصوات بحيث تكون قريبة من طبيعة الموسيقى الشعبية الأرمنية، وهيكلية السلم وخصائص التنغيم والإيقاع والتأليف. ولكن تلك

✪ أديبة ومترجمة (سورية).

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الأفكار العامة الصحيحة لم تكن مؤكدة بتحليل أسلوب كوميداس الموسيقي. والأكثر من ذلك، لم تتكشف علاقته مع فن الموسيقى العالمي. وبعيداً عن ذلك، فمن الصعب فهم كوميداس المؤلف ودوره في تطوير الموسيقى الشعبية الوطنية الأرمنية.

إن ما كتب عن المؤلف كوميداس قليل جداً، وما بلغنا من كتابات عن أسلوبه لم يكن وافياً. وينبغي أن نلفت النظر إلى مقالة الباحث شاهان بيربيريان الصادرة في باريس كأول صدى بعد وفاة الفنان المبدع. فالمقالة تحتوي على تفاصيل وتحليلات هامة من المؤلف، الذي كان الشخصية المقربة من كوميداس. فكتب حول دوافع كوميداس الحديثة في مجال تعدد الأصوات والتناغم والنغمة واللحن والقصيدة الخطابية. وشدد على رفض كوميداس مقام السلم في الموسيقى الغربية لسلم الماجور والمينور.

وكما يتضح لنا، أن بيربيريان هو أول من برهن على وجود الانسجام الرباعي-الخماسي في تناغمات كوميداس، وهذا تحليل هام جداً. كما يتحدث عن اهتمام كوميداس في باريس بالموسيقيين المعاصرين الفرنسيين والروس، وتأثير ذلك على فن كوميداس في فترة النضوج الأخيرة.

وتعدّ دراسة الباحث روبين أتايان حول مبدأ الانسجام في الأغنية الشعبية لدى كوميداس أول محاولة في الدراسة النظرية لقضايا الأسلوب الموسيقي لدى كوميداس. فيرى أنه من المهم تمييز السلالم الأرمنية الأحادية من السلالم الموسيقية الأوروبية في القرون الوسطى، التي تم اعتمادها لتفسير السلالم الإبداعية لدى كوميداس. ويؤكد أن تشكل البعد الخماسي لدى كوميداس تم ابتكاره من سلم الأغنية الأرمنية الشعبية.

ومن جهة أخرى خلص الباحث شاهفيرديان إلى أن المسألة المحورية في أسلوب كوميداس هي تعددية الأصوات، حيث قام بحل هذه المسألة عبر طرق مختلفة. فرأى أن تعدد الأصوات لدى كوميداس عملياً يحل المسألة التاريخية المعقدة فيما يخص مرافقة هيكلية وسائل التعبير والمضمون والقيم الخاصة بالفن الشعبي وتجربة الثقافة الموسيقية العالمية.

ويكمن اللغز في كيفية فهم الأسلوب الإبداعي لدى كوميداس. ويبدو أنه من أجل فهم كوميداس الملحن ينبغي ألا ينظر إليه كفنان محلي، بل ضمن الثقافة الموسيقية العالمية في الحقبة التي عاش فيها.

فعندما ظهرت أول أوبرا أرمنية عام ١٨٦٨ «الملك أرشاك الثاني»، وأكد المؤلف الموسيقي الأرمني كارا-مورزا مبدأ تعدد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأصوات، خرجت الموسيقى الأرمنية من انعزاليتها الفنية طيلة القرون الماضية ودخلت في مسار الثقافة الموسيقية العالمية. وإن شاء الملحنون الأرمن أم أبوا، فقد أضحوا أعضاء في بوتقة الموسيقى العالمية من خلال طرح قضايا تطور فن الموسيقى الوطنية. حيث كان بعضهم يبحث وينقب في البعيد أمثال كوميداس.

ففي أوروبة نجد أن الملحنين المرتكزين على خصائص نظام الموسيقى الشعبية لديهم قاموا بإسهامات جديدة في تطور الموسيقى العالمية. وبقيت تلك العملية ضمن إطار نظام الماجور-والمينور التقليدي.

ونلاحظ أن بعض الملحنين الأرمن عملوا في هذا الإطار أيضاً أمثال كارا-مورزا وماغار يغماليان. والحقيقة أن اتباعهم وسائل موسيقية مألوفة ومعروفة لا يعني أبداً أن نحط من قيمة أعمالهم من الناحية الوطنية والشعبية. والتحليل الموضوعي لأعمالهم يبين أنهم أبدعوا موسيقى ذات طابع وطني وذلك باستخدام طرق لحنية وانسجامية في إطار النظام التقليدي الأوروبي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبهذا المعنى، كانت تلك المبادئ الإبداعية لا تختلف كثيراً عن مبادئ ملحني الشعوب الأخرى في المنطقة نفسها.

وكما تشير التجربة الموسيقية العالمية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فإن الخصوصية الوطنية تظهر في مختلف الأنظمة بحسب اختيار الفنان. فإن الخاصية الفنية في «القداس» عند يغماليان تبين كيف وجد الملحن حلاً فنياً مقنعاً لذلك. فإن الخطوط الناعمة والسلسة والواضحة والصوت المثالي والتتابع الانسجامي أمور

ساعدت على التعبير عن المشاعر الداخلية النبيلة. وبذلك فإن المقاييس التقليدية للموسيقى في «القداس» لا تخل بإبداع ظاهرة فنية وحيدة من نوعها.

لكن يغماليان كان في البدايات فقط. فالتجربة الإبداعية لكثير من الملحنين في القرن العشرين تشير إلى أن النظام التقليدي ماجيور-مينور سيحافظ طويلاً على مكانته.

ففي نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت طبيعة نظام ماجور-مينور التقليدي بقوانينها الخالدة والأكاديمية ظاهرة خارجية أكثر من أن تكون حالة حقيقية. وفي العقد الأول من القرن العشرين راحت الإصلاحات في منطق الموسيقى التقليدية تنتشر في العديد من البلاد، مما أحدث تغييراً في الثقافة الموسيقية الوطنية. فعملية سلبية النظام الموسيقي القديم لها طابع حواري، وتحافظ على الإرث التاريخي الضروري من أجل التطور الطبيعي للثقافة الموسيقية.

لقد اختلفت طرق إصلاح النظام الموسيقي التقليدي في دول مختلفة، ولدى ملحنين على قدر كبير من الأهمية في القرن العشرين.

ولا بد أن نذكر بعض الصفات الهامة لفن الموسيقى العالمي الذي ظهر في القرن العشرين:

١- تزايد الاهتمام بالموسيقى الفلوكلورية بين القرنين التاسع عشر والقرن العشرين. فكان الملحنون يسعون لإظهار النماذج الحقيقية للموسيقى الشعبية، ومن جهة أخرى الاستيلاء على اللحن الشعبي قدر المستطاع، وهذا السعي تحول إلى «رمز للزمن»، وأثر كثيراً في التجربة الإبداعية. يذكر بأن «كاسدالسكي» حاول لفت أنظار الملحنين لاحتواء خصائص النظام الموسيقي الشعبي الروسي. وفي الحقيقة، إن شهرة «سترافينسكي» العالمية مبنية على فكرة دور الملحن في إعادة تجسيد عنصر الفن الشعبي الروسي (بيتروشكا والربيع المقدس والعرس وغيرها). ففي السنوات الأخيرة، أعيد إحياء عملية إدراك قوانين اللغة الموسيقية الشعبية الحقيقية في عملية التأليف في الموسيقى الروسية، واقترنت بها كافة الإبداعات ذات القيمة الفنية العالية تقريباً مثل (إبداعات سفيريدوف وسلونيمسكي وكافريلين وغيرهم). وفي بداية القرن العشرين بدأت بيلا باردوك وزولتان كوتاي في هنغاريا عملية جمع ودراسة للموسيقى القروية الشعبية القديمة. وكان لذلك تأثير في مسيرة تطور الموسيقى الهنغارية الوطنية لاحقاً وكذلك لاقت انتشاراً عالمياً واسعاً.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

٢- لقد شملت الإصلاحات الجذرية في الموسيقى في القرن العشرين المجالات كافة: اللحنية والإيقاعية والانسجام والبوليفونية (تعدد الأصوات) وغيرها. والجدير بالذكر أن الإصلاحات لم تتعلق فقط بالعناصر الأساسية للغة الموسيقية بل غيرت بشكل أساسي معنى كل واحدة منها.

وبدأ الدور المتنامي لتعدد الأصوات وتزعزع مكانة الانسجام التقليدي يشدّ انتباه المنظرين والباحثين الموسيقيين في القرن العشرين. وبدأ اللحن يخضع شيئاً فشيئاً لمقاييس نظام الانسجام من خلال تطور نظام الماجور والمينور التقليدي. كما حدث في أعمال «فاغنر».

وعند إدراك إطار تطور عدد من النزعات الموسيقية العالمية في القرن العشرين، يمكن توضيح أسلوب كوميداس وخصائصه. فعندما نتعرف على فن كوميداس، أول ما نلاحظه هو التطور التدريجي في رؤية الملحن على طريق الإبداع الطويلة.

لم يتوصل كوميداس إلى المبادئ الأساسية في علم الجماليات إلا بعد بحث مضن وطويل، وما نجده في الوثائق المكتوبة بخط يده والتي يمكن أن يعدّ من أهم إنجازات الفكر الفني في القرن العشرين. ومنذ البداية توضحت دوافع كوميداس في جمع نماذج الإبداعات الشعبية ودراستها. حيث ورث هذا الاندفاع في تناول الأغنية الشعبية وتأليفها فنياً من أسلافه، أمثال كارا-مورزا ويغماليان وغيرهما. فقد كان تعامل كوميداس ومن سبقه من الموسيقيين الأرمن حيال الموسيقى الفلوكلورية متماثلاً.

فبالإضافة إلى الموسيقى القروية، كان يتناول الفلوكلور المدني والأغاني الوطنية ونماذج من أغاني فن العشق. إلا أنه سرعان ما ميز الظاهرة الفلكلورية والوطنية الحقيقية. وعبّر عن أفكاره ورؤيته في الصحافة والتجربة العملية. ومن المهم أن نشير إلى أن فلكلور الموسيقى الأرمنية يحمل تاريخاً لثلاثة آلاف سنة، مثل تاريخ الشعب الأرمني.

لقد تناول كوميداس الموسيقى الشعبية في الفترة اللاحقة كفنان، أكثر من كونه باحثاً. ففي فترة جمع المواد الشعبية كان اختيار المواد مما يتناسب مع قناعاته الإبداعية.

ويمكن القول إنه وجد ما يبحث عنه في الموسيقى الشعبية. وكأنه يهمس باعتراف أن للموسيقى الشعبية الأرمنية طابعاً صوتياً بحتاً. من هنا يمكن للاختصاصيين في الفلكلور أن يبحثوا فيه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في كل الأحوال، تجدر الإشارة إلى أن كوميداس تناول بشكل خاص الإبداع الشعبي واكتشف أموراً ذات قيم فنية وخصوصية وطنية في الموسيقى الشعبية. كان لها تأثير بالغ على مصير الموسيقى الأرمنية. استطاع كوميداس المحافظة على الثقافة الروحية والوطنية الماضية. ويمكن دراسة هذا العمل ضمن إطار أوسع، أي من خلال تطور الثقافة الموسيقية في القرن العشرين.

فقد لاقت موسيقاه في باريس وبرلين والمراكز العالمية الأخرى نجاحاً باهراً، بفضل المادة غير المألوفة. إلا أن الموسيقيين في الغرب كانوا يقيّمون أيضاً أسلوب كوميداس في تقديمه للألحان الشعبية بشكل مختلف عن المبادئ التقليدية في موضوع الصوتيات مما يقربه من دعوات الفن الموسيقي الحديث.

يمكن تقسيم تطور أسلوب كوميداس الموسيقي إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى وتشمل ما كتبه عند تخرجه من المعهد العالي للموسيقى في برلين عام ١٨٩٩. وهي كتابات متماثلة، حيث استفاد المؤلف من الطرق التقليدية الأوروبية. واستخدم في الكتابة أسلوب الانسجام، في حدود نظام الماجور- مينور الكلاسيكي العادي. ويذكر في هذه المرحلة توزيع أغنية «السنونو» للغناء والبيانو.

أما المرحلة الثانية فكانت بانتهاء عام ١٩٠٥-١٩٠٦، وهي فترة غنية بإبداعاته، حيث كان يسعى إلى أسلوب خاص به. فهو لم يتبع المبادئ الأوروبية بل حاول تجسيدها بشكل إبداعي عبر تعدد الأصوات للتعبير عن خصائص الموسيقى الشعبية. فهو يرتكز على المدرسة الإبداعية وخاصة على الثقافة الموسيقية الروسية، موجهاً نظرة انتقادية إلى تجارب أسلافه أمثال كارا- مورزا ويغماليان.

ومما نلاحظه التتابع العادي في أعمال كوميداس، فهو يستخدم بشكل واسع نظام الأبعاد الثلاثي. وفي حال كتابة اللحن بالانسجام يظهر تحرير الأصوات وبذلك يشدد على النماذج الموسيقية بطابعها الشعبي-الوطني. وهنا تبرز أغنية الجوقة «أغنية المحراث»، حيث يركز كوميداس على الغضب من خلال التوافق وتضخيم قوة النغمة الرنانة. وتشير تتابعية الانسجام إلى أن كوميداس تابع منطق الفكر الموسيقي الأوروبي، وسرعان ما أظهر الطابع الوطني في الشكل الموسيقي.

وهكذا من دون الخروج على حدود النظام الكلاسيكي قام كوميداس بتحجيم تأثيره وخلق أشكالاً موسيقية وطنية من أجل تجسيد أفكاره الفنية. ونصادف هذا الطابع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أعمال تلك الفترة حيث يكون الانسجام متعدد الأصوات.

وفي الحقبة نفسها نرى في بعض الأعمال ذات الطابع الشعبي، أن مجالات النظام الموسيقي التقليدية قد أصبحت محدودة وضيقة. وهذا ينطبق على «أغنية الحصاد في لوري». وكما هو معروف، فهي تعد من أهم الألحان في الفلكلور العالمي بهيكليتها المعقدة والفريدة. فالسلاسل المعتمدة على الثلاثية غريبة عن المسامع الأوروبية التقليدية، حيث بدؤوا باستخدامها في أوروبة في منتصف العقد الأول من القرن العشرين في أعمال «بارتوك» و«سترافينسكي» لأنها إحدى أقوى الألحان المؤثرة التي تمثل موسيقى القرن العشرين.

وهذا يشهد على جرأة كوميداس في استخدام اكتشافات تعدد الأصوات الغنائية واستخدامه الحر للأصوات الموسيقية الاثني عشر وإبرازه مؤثرات السلالم. ولقد هيأت بعض الأعمال مثل «أغنية الحصاد في لوري» الأرضية المناسبة من أجل الإصلاحات الجذرية في الانسجام لدى كوميداس. وبدأت المرحلة الجديدة في إبداعات كوميداس حيث يمكن أن يعد ذلك رفضاً للتقليد وتأكيداً على مبادئ الانسجام في السلالم.

ولنبدأ بالشكل الخارجي في الأغنية الجماعية «آخ، حبيبتي مارال». فهناك ثلاث نسخ من هذه الأغنية في مجموعته. وما يلفت الانتباه هو قيمتها الفنية العالية واستخدام الخماسي في الأصوات (باص وتينور). فهذه التقنية استخدمت في أعمال الملحنين الروس وشوبان لخلق تلوين شعبي خاص.

وبذلك، نجد أن تناول كوميداس للصوت المخفي في إبداعاته ليس اكتشافاً خاصاً في إطار الماجور والمينور، بل أصبح أحد المبادئ الأساسية في تشكيل تعدد الأصوات. أي إن المؤلف يحاول إيجاد مقاييس جديدة لتعدد الأصوات الآتية مباشرة من جذور تعدد الأصوات الشعبية الأرمنية.

وهناك فروق أساسية بين تعدد الأصوات الأوروبية التقليدية ومبادئ تعدد الأصوات في الموسيقى الشعبية الأرمنية. حيث يعتمد كوميداس في النغمة على الأبعاد الثلاثية والسداسية على النقيض من التجربة الشعبية حيث تتشكل النغمة بأحادي الصوت. وتوضح الأصوات المستخدمة من قبل كوميداس خصائص سلم الموسيقى الشعبية الأرمنية. ومن الأمثلة على ذلك نذكر أغنية «أندوني» (الشريد).

ومن جهة أخرى، إن المرافقة الموسيقية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أعمال كومبداس تبرز دور الأصوات. مما يسهم في إظهار تطور السلالم للألحان الشعبية.

ونستعرض مبدأ آخر لتعدد الأصوات لدى كوميداس، وربما له دلالة أساسية إلى جانب مبدأ المقام أو درجة الأساس. ويمكن القول إن تعدد الأصوات لدى كوميداس نابع بشكل طبيعي من الشكل البنائي للسلم الخاص بالأغنية الشعبية الأرمنية.

لقد لاقى مبدأ خلق اتفاقات من ذات السلم الموجود في السلم اللحن انتشاراً واسعاً في موسيقى القرن العشرين وأضحى من ميزات الأسلوب الخاص في إبداعات عدد من المؤلفين. أمثال دوبوسي وسكريابين وبارتوك وسترافينسكي. وطبعاً لا يمكننا استثناء المتوازي كوميداس-بارتوك. حيث كانا من أصحاب الرؤية نفسها فيما يخص الألحان الشعبية.

فيمكن القول إننا في كل خلية موسيقية من المقاطع الغنائية لدى كوميداس نشعر بالنبض الحي للأغنية الشعبية. وهنا يكمن سر إبداع كوميداس.

وأخيراً، نخلص إلى أنه لأسباب عديدة، بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر عملية تجديد جذرية لفن الموسيقى العالمية. وشملت تلك العملية اللغات الموسيقية كافة.

وبطبيعة الحال، شمل ذلك أساس السلم، وتنتهي سيادة الماجور-مينور التقليدية في الموسيقى الأوروبية. ويأخذ السياق الذي كانت تستخدم فيه السلالم القديمة والشعبية في عدد من الأعمال في القرن التاسع عشر شكلاً جديداً.

فقد استخدم «بارتوك» و«سترفينسكي» السلالم الشعبية، أما «ديبوسي» فتناول السلالم الشعبية غير الاعتيادية مثل السلم الخماسي. وتجدر الإشارة إلى أن تناول تلك السلالم بالنسبة للملحنين في القرن التاسع عشر مشترط بضرورة الحصول على تلوين خاص، دون خرق الماجور والمينور. وبالنسبة للملحنين في القرن العشرين فتحدد تلك السلالم مبدأ جديداً في التشكيل الموسيقي. ومن الواضح أن استخدام السلالم الشعبية لدى كوميداس أيضاً لم يكن يعبّر عن اللون فقط. فالسلالم الشعبية تشكل أساساً للفكر الموسيقي لدى كوميداس والعمق الأساسي لتشكيل المادة الموسيقية.

وكان يفترض أن يصل التجديد في أساس السلم إلى تحديثات أخرى. أولها الاتفاقات الجديدة. حيث كان كوميداس يستخدم البعد الخماسي والسلم الطبيعي بالتوزاي مع تشكيلة الائتلاف الثلاثي التقليدية.

ومن الطبيعي أن يغير الأساس الجديد

للسلم والاتفاقات كل نظام الاتفاقات الفعالة. فظهر مفهوم الاتفاقات الذي يأتي عند كوميداس من السلم الخاص للموسيقى الشعبية الأرمنية. وهكذا، نستخلص أن انسجام كوميداس لا يعتمد كلياً على الفعالية الكلاسيكية المألوفة في القرن التاسع عشر، بل على العكس فقد ظهرت فيها خصوصية مبادئ أسلوب كوميداس.

ومن الواضح أن المبادئ الجديدة التي ابتكرها كوميداس لا تظهر فقط في إطار الموسيقى الوطنية الأرمنية بل في إطار أوسع، أي في آفاق تطور الفن الموسيقي العالمي أيضاً. وتكمن عظمة كوميداس في أنه استطاع رفع حل المسائل المستعجلة في الثقافة الوطنية إلى مستوى حل مشاكل الفن الموسيقي بأكمله في القرن العشرين. حيث لم يعتمد فقط على تجارب ونجاح أسلافه ومعاصريه، بل أيضاً على من وضعوا أسس الفكر الموسيقي بشكل مباشر.

لقد ظهر كوميداس في حقبة صعبة بالنسبة للفن الموسيقي حيث كانت تتكسر صوره التقليدية، ومن الصعب تقبل الجديد. لقد أتت المبادئ الجديدة لتكوين المادة الموسيقية بهدف التعمق في فن الموسيقى الشعبية وكيان الموسيقى الشعبية والتعبير عنها بشكل متقن وتام. وكما يؤكد التاريخ، فقد بات ذلك من أبرز توجهات الحداثة لفن الموسيقى في عصرنا هذا. وبذلك، يتضح أن كوميداس لا يتبوأ فقط مكانة الملحن الوطني، بل مكانة أحد المجددين الأوائل في فن الموسيقى العالمية في القرن العشرين.

المصدر

كتاب «كوميداسيات»، كيفورك كوتاكيان، يريفان، ١٩٦٩، ص ٨٤-١٢٠.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النقود الإلكترونية ودورها في رسم معالم السياسات النقدية المعاصرة

د. فايز حداد *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غني عن القول أن النقود الإلكترونية قد حققت، خلال السنوات الأخيرة تقدماً كبيراً في مجال الخدمات المصرفية والمالية، لا سيما بعد اتفاقية أورغواي لتحرير تجارة الخدمات المصرفية والمالية حيث تم فتح الأنظمة المالية والمصرفية لمعظم دول العالم (خاصة الحسابات الجارية) الشيء الذي يؤكد ضرورة تبني أو استعمال أدوات نقدية جديدة لإدارة السياسة النقدية من قبل البنوك المركزية. من هنا يمكن القول أن تعويم أنظمة سعر الصرف

* باحث وناقد سوري.

وتطبيق التقدم التكنولوجي الإلكتروني الهائل في النشاط النقدي

والمصرفي وتغيير المشهد المالي نحو وضع جديد يحتم على صناع السياسة النقدية استخدام آليات جديدة تستجيب للوضع النقدي القائم على أدوات نقدية متطورة.

النقود الإلكترونية واتجاهات المعاملات المصرفية

من خلال الواقع النقدي الحديث يمكن القول إن التعامل بالنقود الإلكترونية عبر المصارف، ومن خلال شبكة الإنترنت يزداد يوماً بعد يوم، فالتعامل بالنقود الإلكترونية يكتسب مواقع جديدة بتزايد عدد البنوك التي تنشأ مواقع لها على شبكة الإنترنت، حيث تمكن لعملائها عن طريق الشبكة ليس فقط الاستفسار عن رصيد حساباتهم وأسعار الفائدة والصرف، بل تمكنهم أيضاً من إجراء شتى المعاملات المصرفية، وتباين الأجهزة المصرفية في العالم من حيث بيانات اعتماد التعامل فيها على الإنترنت إلا أن المعاملات المصرفية بوساطة هذه الأداة (شبكة الإنترنت) منتشرة على نطاق واسع حسب توافر الأدوات النقدية الإلكترونية وحسب تجهيز هذه المصارف آلياً، وهي بشكل خاص أكثر انتشاراً في النمسا، كوريا الجنوبية، اليابان، كندا، الولايات المتحدة، والدول الإسكندنافية، وسنغافورة، وإسبانيا وسويسرا حيث يقدم ما يزيد عن ٧٥ ٪ من البنوك هذه الخدمة، ففي فنلندا والسويد مثلا أكثر من ثلثي عملاء البنوك يستفيدون من ميزة المعاملات المصرفية الإلكترونية.

وحتى الآن يلاحظ في معظم دول العالم الأخرى أن أغلبية البنوك قد أضافت قنوات لتقديم الخدمة الإلكترونية الجديدة إلى خدمات فروعها التقليدية المشيدة سابقاً، والمعروفة باسم BRIC and CLICK أي مشيدة من الطوب ومجهزة بأجهزة اتصال. وبالتالي فهي تقدم الخدمات الإلكترونية عن طريق قنوات التوزيع الإلكتروني. ومع التطور الحاصل في هذا المجال ظهر مفهوم البنوك الافتراضية المرافق لظهور البطاقات النقدية الافتراضية (بنوك الإنترنت فقط)، وهذه البنوك تعمل في الوضع الجديد ككيانات مستقلة مرخصة أو كمؤسسات تابعة أو كفروع لبنوك فعلية مشيدة من الطوب والآجر.

التحديات التي تواجهها جهات التنظيم ومؤسسات الإشراف

في هذا العصر الرقمي الذي ينتشر فيه الإنترنت انتشاراً مذهلاً، والذي شاع فيه مفهوم التجارة الإلكترونية، هذه الأخيرة المتميزة بالعديد من المزايا تطرح تحديات

جديدة لمدراء البنوك المركزية وسلطات التنظيم والإشراف، ومنشأ أهم هذه التحديات ناتج عن ازدياد المعاملات التي تجري عبر الحدود، والانخفاض الشديد في تكاليف المعاملات والسهولة الشديدة في الأنشطة المصرفية، وكذلك الاعتماد على التطور التكنولوجي الحاصل وطواعيته في توفير أيسر الخدمات المصرفية، وتوفير الحماية والأمان اللازمين للمعاملات المالية، ويمكن تلخيص وتصنيف هذه التحديات حسب المخاطر الناشئة عنها فيما يلي:

- المخاطر التنظيمية والإشراف: انطلاقاً من أن شبكة الإنترنت تسمح بتقديم الخدمات من كل مكان في العالم وفي أي وقت كان، فإن هناك مخاطر تكمن في محاولة البنوك التجارية والأعمال التهرب من التنظيم والإشراف، فما الذي يمكن أن تفعله جهات التنظيم للحيلولة دون ذلك؟

وعلى مستوى التنظيم يمكن أن تطالب جهات الرقابة والإشراف البنوك التي تقدم خدماتها من أماكن بعيدة عن طريق شبكة الإنترنت بالحصول على ترخيص بذلك. والترخيص وسيلة مناسبة خاصة عندما يكون الإشراف ضعيفاً وفي حالات عدم التعاون بشكل كاف بين البنك الافتراضي المرخص له ومعطيات مصلحة الوطن، لاسيما إذا كان نشاطه خارج مناطق الاختصاص، والبنك الذي يرغب في تقديم الخدمات المصرفية الإلكترونية وتلقي الودائع في تلك البلدان لابد له من الحصول على فرع مرخص له أولاً.

إن تحديد الوقت المناسب الذي يستوجب فيه تقديم الخدمات المصرفية الإلكترونية لبنك ما وربطه بالحصول على ترخيص أمر صعب وعليه قد يكون استخدامه في تقليل المخاطر دون جدوى بسبب تعقّد العمليات وسريتها، إلا أن معرفة المكان الذي تصدر منه الخدمة المصرفية الإلكترونية المطلوبة والمكان الذي تقدم فيه قد يساعد على ذلك، فمثلاً إذا كان بنك افتراضي يتم الترخيص له في بلد (أ) لا يعد متلقياً للودائع المصرفية في البلد (ب) إذا ما قام العملاء بالإيداع عن طريق إرسال الشيكات إلى عنوان ما في البلد (أ)، وإذا ما قام أحد العملاء بالإيداع في إحدى آلات المصرف الآلي في البلد (ب) فإن هذه المعاملة تعد تلقّياً للودائع في الدولة (ب) ويقتضي الأمر أن تقوم جهات التنظيم بوضع مبادئ توجيهية لتوضيح المناطق المسموح بها وغير المسموح بها في غير هاتين الحالتين.

- المخاطر التشريعية والقانونية: تنطوي المعاملات المصرفية الإلكترونية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على درجة عالية من المخاطر القانونية بالنسبة للبنوك حيث يمكن للبنوك أن توسع نشاطها جغرافياً عن طريق المعاملات الإلكترونية وبدرجة أسرع مما كان عليه الحال في البنوك التقليدية، ومع ذلك في بعض الحالات قد يصعب على هذه البنوك القيام بمهمتها بسبب عدم المعرفة الكاملة للقوانين واللوائح المحلية المطبقة في بلد ما، سواء كان ذلك بترخيص أو من دونه ويزداد ذلك خطراً عندما لا يكون الترخيص مطلوباً وهذه هي حال التعامل المصرفي الإلكتروني اليوم ويزداد خطراً عندما لا يكون الترخيص مطلوباً حيث يفقد البنك الافتراضي وسيلة الاتصال مع الجهات المشرفة في الدولة المضيفة له، وبذلك يبقى على جهل بالتغيرات التنظيمية، ونتيجة لذلك فإن البنوك الافتراضية لا تستطيع توفير الحماية الكافية لعملائها إضافة إلى صعوبة جمع البيانات واللوائح الخاصة بالترويج وعليه فستعرّض نفسها لخسائر كبيرة عن طريق الدعاوى القانونية أو الجرائم التي لا تتم ملاحقتها بسبب عدم الاختصاص. وكما هو معلوم فإن غسيل الأموال والنشاط الإجرامي قديمي العهد، تيسّره كثيرا اليوم المعاملات المصرفية الإلكترونية بما توفره من سرية في التعامل وسرعة في التنفيذ، إذ بمجرد فتح العميل لحسابه الاسمي يصبح من المستحيل على البنوك أن تعرف ما إذا كان صاحب الحساب يقوم بمعاملة أم لا، بل لا تعرف أين وإلى من يتم إجراء المعاملة. وللحد من هذا الخطر (محاربة غسيل الأموال) أصدرت كثير من البلدان مبادئ توجيهية محددة بشأن تحديد العملاء وضبط نوع العملية وتشتمل عادة هذه المبادئ على ما يلي:

- التأكد من هوية طالب الحساب.
- عنوانه قبل فتح الحساب ووجهات تحويله الممكنة.
- اليقظة الشديدة لربط العناصر الثلاثة والمتغيرات المستجدة.

إن الانشغالات السالفة الذكر لا يمكن الإجابة عنها إلا في إطار تنسيق التشريعات واللوائح التنظيمية دولياً لدرء خلق ملاذ آمن للأنشطة الإجرامية عن طريق الاستفادة من التطور التكنولوجي في مجال الخدمات المصرفية.

- مخاطر التشغيل والعمل: إن استخدام التطور التكنولوجي في تقديم الخدمات المصرفية تنتج عنه مخاطر كبيرة تسمى بمخاطر العمليات، فالخطر الأساسي ناجم عن حالات التشغيل الناجمة عن الأعمال

المصرفية الإلكترونية، حيث يهدد النظام المصرفي في أمنه، لاسيما ذلك الخطر الآتي من داخل النظام نفسه، أو من خارجه، ومن ثم يتعين على الجهات المشرفة تنظيم هذه المعاملات والتأكد من سلامة البرمجيات والبرامج إضافة إلى ضرورة التزام البنوك في ممارستها درجة معينة من السلامة في الحفاظ على سرية البيانات ومراجعتها دورياً بوساطة خبراء المصرف والخبراء الخارجيين، ودراسة حالات الاستيعاب وأثرها على الاستثمارات وعلى الموازنة بحيث يمكن للمصرف جذب موظفين يتمتعون بالخبرة اللازمة، ويتطلب الأمر هنا أن تصبح إدارة المخاطر المرتفعة جزءاً لا يتجزأ من الإدارة العامة للمصارف كما يتطلب الأمر أن يدرج المشرفون مخاطر التشغيل ضمن تقييمهم لمدى الأمان والسلامة عند إعداد البرامج الآلية الخاصة بكل عميل من جهة وبنظام الأمن والأمان للمصارف.

- مخاطر الثقة والائتمان: قد تدمر انتهاكات الأمان وظهور بعض الاضطرابات في توفير الخدمات المصرفية ثقة العملاء وضعف الوعي الائتماني وبالتالي تشويه سمعة المصرف وشهرته المصرفية وكلما ازداد اعتماد المصرف على قنوات تقديم الخدمات الإلكترونية ازدادت احتمالات مخاطر فقدان الثقة فإذا ما واجه أحد البنوك الإلكترونية مشاكل تؤدي بالعملاء إلى فقدان الثقة في قنوات تقديم الخدمات الإلكترونية أدى إلى انتشار ذلك في مجموعها وبأسرع وقت مما يؤثر على درجة الإشراف ومراقبة النظام المصرفي، إن هذه المشاكل ستؤثر في النهاية على باقي المصارف الموردة للخدمات الإلكترونية. وفي البلدان التي تأخذ فيها المعاملات المصرفية الإلكترونية اتجاهاً توسعياً قامت الجهات المنظمة والمشرفة (البنوك المركزية) بوضع إرشادات وملاحظات داخلية لمن يقومون بالفحص والمراقبة، كما قامت بتوزيع المخاطر على النشاط المصرفي لدرئها أو التحكم فيها. وفي مجال هذا النوع من المخاطر يمكن أن تنشأ مخاطر الأمان أو الجهل بأهميتها، وهذا ما يؤدي إلى فقدان العامل الائتماني في قنوات تقديم الخدمات الإلكترونية ولتفادي ذلك يرى كثير من الخبراء التركيز على نوعية العملاء، الشيء الذي يساعد في التقليل من أثر مخاطر الثقة، على سبيل المثال كأن تسمح الجهات المشرفة على العملاء بالاتصال المباشر على مواقعها على الإنترنت التي لديها نظم قانونية أساسية تتعلق بتأمين النشاط المصرفي الإلكتروني وشروط التأمين على الودائع، أو توفر خطوط المساعدة للعملاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من خــلال تحذيرات عن كيانات محددة قد تقوم بنشاطات مصرفية غير مسموح بها في بلد ما أو على المستوى المحلي.

أدوات المنظومة الجديدة في رسم السياسة النقدية

من خــلال ما سبــق ذكــره، يتضح أن جانباً مهمّــاً من المعامــلات النقدية اليوم يخضع لنوع جديد مــن النقود (هي النقود الإلكترونيــة) وإلى تنظيم جديد (هو النظام النقــدي الآلي) لقد تزايــد دور هذه النقود وأهميتهــا وتزايد بنــاءً عليــه دور النظام المصــرفي الإلكتروني تبعــاً لأهمية الأسواق الرقميــة المتزايدة التــي تكاثر عددها على شبكــة الإنترنت، وبات الوضع الجديد يؤرق مديري البنوك المركزيــة وراسمي السياسة النقدية والحكومــات على حد سواء في كل من الدول المتقدمــة والمتخلفة، حيث أصبح مــن المؤكد انتظــار مشكلات عديــدة أمام سيطرة الحكومات المركزية على الاقتصاد، وعلى سلــوك الفاعلــين الاقتصاديين، كما أصبحت الحدود المحيطة بالأسواق القومية أكــثر قابلية للاخــتراق، ففي عــالم أصبح فيــه النقد مجرد عــدة نقرات علــى فأرة الحاسوب أو على أحد أزرار الهاتف النقال، والبطاقات الافتراضية والمكافئ الإلكتروني والمصــرف الافتراضي حقيقة تتجسد يومياً من خلال ملايين المتعاملين وعدد تدخلاتهم المتزايدة التي تكاد لاتعد ولا تحصى وبأسرع وقت ممكن، أمام هذا الوضع تجلت دعوات متكررة لإعادة تعريف مدى لزومية الحدود الجغرافيــة بصورة جدية، ومــن ثم إعداد سياسة نقدية غير قابلة للاختراق تكون أكثر انسجاماً مــع دور النقود المصرفية والجهاز المصرفي بالصفــة المذكورة أعــلاه، ونقول هنا إن الصفة التي تجلــت فيها إشكاليات مفادهــا: كيــف يحــدث انقطــاع تقليدي بين القضايــا النقدية الداخليــة (المحلية) والخارجية (الدولية)؟

فالنقــد الإلكتروني ونظامــه الآلي يثير مــن جديد أسئلة جدية حــول فكرة المحلي والــدولي كمفاهيم متميــزة وذات معنى في العــالم الرقمي الجديــد، خاصة فيما يتعلق بقضايا الحكــم ورســم السياسات وحركة رؤوســ الأمــوال، من هنا يــبرز معنى تغير السياسة النقدية كأحد أعمدة العالم الرقمي الرئيسة. وعليه يمكن معاودة الأسئلة الواردة في بداية المداخلة بنوع من التدقيق، كعلاقة الحكومــات بجهازهــا المصــرفي والنقدي المتمثل في البنك المركزي الذي تمتد آثارها خــارج الحــدود. هــل تستطيــع المصارف المركزية مراقبة النمو وكمية عرض النقود؟ وهل ستظــل هناك معاملات رسمية بالنقد

الأجنبي؟ وهل سيزداد الاحتيال والاختلاس وتبييض الأموال بعدّه نشاطاً إجرامياً في ظل النظام المصرفي الإلكتروني؟.

وهل سيوسع النقد الإلكتروني والمعاملات المصرفية الإلكترونية الهوة بين الأغنياء والفقراء؟

برأينا إضافة إلى ما تمَّ ذكره حول خصائص النقود الإلكترونية والمعاملات المصرفية الإلكترونية سابقاً فإنه من الممكن الحد من مخاطر التعامل الذي يفرضه الوضع الجديد أو التخفيف منه على الأقل وفق إجراءات السياسة النقدية التي تتبناها الجهات المشرفة (البنوك المركزية) بالارتكاز على ما يلي:

✿ **التطويع والمواكبة**: انطلاقاً من سرعة التطور التكنولوجي وعلى ضوء المستجدات النقدية المصرفية الحديثة، وما تمليه من تغيرات في المجال الهيكلي والفني وتقييم الأداء، فإن اللوائح التنظيمية والتشريعات ستظل الأداة المهمة المعوّل عليها بيد المصارف المركزية في تفويض هذه المخاطر، خاصة وأن نجاح السياسة النقدية يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ذي الأثر بعيد المدى عند الاعتماد على أي لوائح أو تنظيمات.

✿ **التشريع والتقنين**: العمليات المصرفية الجديدة تقتضي تبني الطرق الجديدة لإجراء المعاملات والأدوات النقدية الحديثة ضمن عملية التعريف والتصديق والترخيص القانوني، فعلى سبيل المثال من الضروري تحديد التوقيع الإلكتروني وتعريفه من أجل إعطائه نفس الرتبة القانونية، مثل التوقيع بخط اليد، كما يقتضي إعادة التفكير في التعريفات والتراخيص للأدوات الضابطة إلكترونياً مثل محددات الائتمان الإلكتروني، والتعريف القانوني للبنك الافتراضي، ومفهوم الحدود الوطنية للتعامل النقدي بوساطتهما، حتى يصبح بالإمكان ضبط وضع السياسة النقدية الجديدة، وعليه تصبح عمليات إدارة الشيكات الإلكترونية، والأوراق المالية والمصرفية الآلية ممكنة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

✿ **التنسيق والانسجام**: من أجل ضبط الحياة النقدية الجديدة عبر الحدود وخارجها يجب أن يتحقق نوع من الانسجام والتنسيق الدوليين في مجال المعاملات المصرفية الإلكترونية، وهو ما يعني تكثيف التعاون بين جهات الإشراف (البنوك المركزية) العابر للحدود وهذا يتطلب تنسيق القوانين والممارسات محلياً ودولياً سواء عبر الالتزام باتفاقية بازل أو عبر بنك التسويات الدولية أو عبر مؤسسات أخرى

قائمة أو جديدة. إلا أن الواقع في عالم اليوم يطالعنا بمشاكل عديدة في هذا الشأن حيث لا زالت مشكلة الاختصاص القانوني تلقي بظلالها على المعاملات المالية والمصرفية غير معلومة الحدود، لذلك أرى أنه على كل بلد أن يقرر من له الاختصاص القضائي في المعاملات الاقتصادية الإلكترونية التي تمس مواطنيه أو مؤسساته، ويبقى مشكل الانسجام والتعاون الدوليين أكثر المهام تثبيطا لوضع السياسة النقدية الملائمة في مواجهة مخاطر الوضع النقدي والمصرفي الجديد من قبل البنوك المركزية.

● **التكامل والتوحيد**: أمام عملية إدراج قضايا تكنولوجية المعلومات ومخاطر التشغيل المصاحبة لها في مجال المعاملات المصرفية والنقدية تتصاعد النداءات حول ضرورة توحيد الأحكام الواردة في التشريعات والقوانين من ناحية ورسم سياسات نقدية ناجعة من ناحية أخرى.

إن تقييم الوضع الحالي من حيث السلامة والأمان يتطلب معرفة الخصوصية للأدوات النقدية وأجهزة إدارتها، ولكي يستجاب لهذه النداءات يتحتم على القائمين والمشرفين فحص دقيق لكل المعاملات المصرفية الإلكترونية وفق برمجيات كفوءة لضبط المعاملات وأنواع الأدوات النقدية وهذا في حد ذاته يعد تحدياً قوياً أمام الجهات المشرفة. وهنا أقول إن البنك المركزي بيده التركيز على عامل الترخيص من عدمه بعدّه متوفراً باليد، تحديد أولوية حماية المعاملات الوطنية، والإشكال يظل قائماً في ظل تشتت الجهود الدولية وتناقضها في حالات كثيرة نحو تحقيق التكامل والتوحيد في هذا المجال والأمر الذي أراه مناسباً في ظل الوضع السائد هو اعتماد المصارف المركزية على رسم سياسة نقدية مفتوحة قابلة لاستيعاب ما سيفرزه تطور وتكامل النظام المصرفي الإلكتروني، وما ينتجه الاتجاه العام لمشتقات النقود الإلكترونية الذي لم ترتسم ملامحه كاملة بعد، حيث لا زال كل من النقد الإلكتروني والمعاملات الاقتصادية الإلكترونية يطرح تحديات منتظرة.

آفاق السياسة النقدية في الوضع الجديد

ينادي مدراء النقود الأكثر تحفظاً من الوضع الجديد، بمزايا الامتناع عن استعمال المشتقات النقدية الإلكترونية قائلين أن التحديات المطروحة في الوضع الجديد (النقود الإلكترونية) لا تقتصر على جهات التنظيم والإشراف فقط لأن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعامل المصرفي الإلكتروني يؤدي بسرعة إلى تغيير المشهد المالي والمصرفي ويزيد من احتمالات تحركات رؤوس الأموال السريعة عبر الحدود، وعليه فإن واضعي السياسات النقدية سيواجهون عدداً من الأسئلة الصعبة التي لا يمكن الإجابة عنها لأن من غير الممكن معرفة مخاطر سعر الفائدة، ومخاطر سعر الصرف، ومخاطر السوق، ومخاطر حقوق الملكية، ومخاطر التقلبات في كل منها مجتمعة أو منفردة، ناهيك عن أساليب التعامل معها، وفي هذه الحال يبقى الحل الوحيد في انتهاج التحليل القائم على « ماذا سيحدث لو؟ » للإجابة عن هذا التساؤل نفرق بين جدليتين قابلتين للتفكير:

– الأولى: أن الثورة التكنولوجية التي تؤدي إلى التوسع في النقد الإلكتروني تؤدي إلى التوسع في كل نواحي التقدم لممارسة المصرفية الإلكترونية، هذا الوضع يمكن أن يسفر عن انفصال في القرارات التي تتخذها الأسر والعائلات وكذلك المؤسسات والمنشآت عن العمليات النقدية والمالية البحتة للبنك المركزي في ممارسته للسياسة النقدية، وهكذا تتعرض قدرته للخطر في التأثير على التضخم والنشاط الاقتصادي.

– الثانية: عند التوسع في المعاملات المصرفية الإلكترونية قد تتناقص تكاليف العمليات المالية بدرجة كبيرة، مما يجعل القيام بالتدفقات الرأسمالية أكثر سهولة، الأمر الذي يؤدي إلى احتمال القضاء على فعالية السياسة النقدية المحلية، وفي هذا الصدد، فإن مناصري ضريبة بذلتين لبذلة واحدة التي ستفرض على التدفقات الرأسمالية قصيرة الأجل هي الحل. الشيء الذي يزيد من تكلفة حركة رؤوس الأموال وبالتالي تباطئها، هذا الإجراء بنظري يمكن أن يوفر مبرراً لضبط المعاملات المصرفية الإلكترونية ويعطي فرصة أخرى لجهات التنظيم والإشراف إلى أن تطور أساليبها حسب ما تمليه الأوضاع الجديدة.

بطاقات الائتمان

تعد بطاقات الائتمان من أنجح ابتكارات العصر لأنظمة الدفع الآجل. وبدأ استخدامها في الولايات المتحدة الأمريكية منتصف القرن العشرين المنصرم، ويطلق عليها مصطلح النقود البلاستيكية، ويعتقد كثيرون أن البطاقات الائتمانية ستحل في المستقبل محل النقود بشكل نهائي عاجلاً أم آجلاً. وقد لا يكون مصطلح الائتمان دقيقاً في التعريف بهذه التقنية الشرائية الحديثة «كريديت كارد»، ولكن هذا ما اصطلح عليه عربياً. والائتمان في اللغة، هو عملية مبادلة ذات قيمة في الحاضر، مقابل وعد

بالدفع في المستقبل، وبطاقة الائتمان هي البطاقة الخاصة التي يصدرها المصرف لعميله كي تمكنه من الحصول على السلع والخدمات من محلات وأماكن معينة، عند تقديمه لهذه البطاقة. ويتطلب حصول المستخدم على بطاقة الائتمان موافقة من الجهة المانحة للبطاقة، والتي تكون في الغالب مصرفاً تجارياً أو في بعض الأحيان شركة متخصصة في إصدار هذه البطاقات. وبموجب هذه البطاقة يمكن للمستخدم دفع قيمة مشترياته، بالتوقيع على فاتورة تحوي تفصيلا لتاريخ الشراء والقيمة المستحقة، على أن لا تتجاوز قيمة المشتريات الحد الأقصى المحدد للبطاقة.

ووفقاً للأنظمة الإلكترونية الحديثة، تمت إضافة شريط ممغنط على كل بطاقة يمكن من خلاله التأكد في غضون دقائق من المعلومات المطلوبة كافة لإتمام عملية الشراء. وتتيح بطاقات الائتمان الاستفادة من خدمات الدفع عبر الهاتف وفي عمليات الشراء الإلكتروني عبر الإنترنت، وذلك من خلال الرقم السري الخاص بالبطاقة، ومع نهاية كل شهر يتم إرسال فاتورة مفصلة لحامل بطاقة الائتمان تتضمن المبالغ المستحقة عليه والذي يفترض به دفع حد أدنى منها خلال مدة زمنية معينة، كما يمكنه أن يدفع أكثر من الحد الأدنى أو أن يسدد كامل المبلغ إذا أراد ذلك، ويتم إضافة نسبة فائدة شهرية على المبلغ المتبقي تصبح تراكمية في حال عدم سداد الحد الأدنى من الدفعات. ويرى بعض مستخدمي بطاقات الائتمان فيها وسيلة مهمة للادخار في صورة تختلف عن وسائل الادخار المألوفة، على اعتبار أن البطاقة تسمح لهم بالحصول على مشتريات لم يكونوا ليحصلوا عليها لولا امتلاكهم لبطاقة الائتمان والتي سيضطرون إلى تسديد فواتيرها بعد ذلك، مما يعد شكلاً من أشكال التوفير. وفي المقابل فإن النسبة الأكبر من حملة بطاقات الائتمان في العالم العربي ذوي الطبيعة النهمة في الشراء، يعانون بعد فترة من تراكم المبالغ الواجب تسديدها وعدم الإحساس مطلقاً بقيمة النقود، حيث تشجعهم البطاقة على شراء ما يلزم وما لا يلزم، فقط لأنهم يستطيعون شراءه ودفع ثمنه بهذه الوسيلة.

خلاصة

وكخلاصة لهذا الموضوع نقول بينما يمكن للمعاملات المصرفية الإلكترونية أن توفر عدداً من المزايا للعملاء وتتيح للمصارف فرصاً جديدة، فإنها تزيد من تفاقم المخاطر في المصارف التقليدية، وعلى الرغم من أن قدراً كبيراً من العمل قد تمّ إنجازه من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تطويع اللوائح وقواعد التنظيم والإشراف فإن المعاملات المصرفية الإلكترونية لا تزال تتطلب الكثير من الجهد لإقامة التنسيق وتحقيق التناغم على المستوى الدولي والمحلي للتقليل من مخاطر الوضع المصرفي الجديد، وإضافة إلى ذلك فإن السهولة التي يحتمل أن يتم بها تحريك رؤوس الأموال بين البنوك العابرة للحدود في بيئة إلكترونية تخلق قدراً كبيراً من الحساسية بالنسبة لواضعي السياسة الاقتصادية والسياسة النقدية على الخصوص، ويفهم من هذا أن أثر المعاملات المصرفية الإلكترونية على إدارة السياسة النقدية يظل الشغل الشاغل لجهات التنظيم والإشراف ويفرض عليها الترقب والحذر من جهة، وإيجاد أساس تحليلي سليم يعتمد عليه في مواجهة كل ما يمكن احتماله وربما بتكلفة اقتصادية أعلى، ومن ثم فالاعتماد على الموضوعات المتصلة بالسياسة النقدية وأثرها على المصارف المركزية والحكومات في ظل المعاملات الإلكترونية في مجال النقد والمصارف يعد مسألة حاسمة في الفترة القادمة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رواية المرأة في سورية مصطلحاً

د. خليل الموسى ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدأت المرأة العربية في سورية تنشر كتاباتها على الملأ في أوائل الخمسينيّات من القرن الماضي، وكانت هذه الكتابات خجولة ومتواضعة بعض الشيء، وهي محاولات أولية في مجتمع ذكوري محافظ، ولكنَّها لاقت تشجيعاً من بعض رجالات الفكر والأدب، فإذا هذه الكتابات تتزايد يوماً بعد يوم شعراً ونثراً، وما انقضى زمن يسير حتى اندفعت المرأة في كتاباتها، وخاصة في المجال الروائي موضوع هذه الدراسة، فإذا هي في التسعينيات والعقد الأول

٭ أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

من الألفية الثالثة تقف بصلابة أمام الرجل لتشكّل معه حركة الرواية العربية في سورية يداً بيد، وتزاحمه بغزارة الإنتاج وجودته، وليس جديداً أن يُقال إنَّ روايات غادة أحمد السمّان -مثلاً- أوسع انتشاراً وأكثر مبيعاً وحضوراً لدى المتلقّي العربي من الروايات التي كتبها الرجال في سورية والأقطار العربية الأخرى، وقد ذهب بعضهم إلى أنها تتلاقى وتقف في مبيعات أعمالها إلى جانب شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ وتزاحمه في كتابات النقاد، وليست غادة السمان وحيدة في هذا المجال، فثمة روايات كوليت خوري وسمر يزبك وهيفاء بيطار وماري رشو وسواهنّ،وليست هذه الشهرة ناجمة عن كون الكاتبة أنثى تتكلّم على تجربتها في الحياة وتنشر سيرتها وذكرياتها وإحساساتها على الملأ، ولكنْ لأنَّها تقدّم أعمالاً روائية تلاقي صداها لدى القرّاء، ثمَّ إنَّ الحياة في سورية تطوّرت تطوراً ملحوظاً في العقود الأخيرة، ولم تعد المرأة سراً من الأسرار ولغزاً لا حلّ له بعد أن دخلت معترك الحياة على صعيد العمل في الوزارة والجامعة والطبّ والصيدلة، ثمَّ إنَّ حركة تأنيث التعليم وصلت إلى درجة مرتفعة، ولذلك فإن المتلقّي لا يُدلي بصوته مجاناً، ولا يقرأ إلاّ ما يراه مناسباً، وخاصة في المجال الجمالي، ونحن نتلمّس ذلك بوساطة طالباتنا وطلابنا في مقرّر النثر الحديث وفي تدريس الرواية في سورية تحديداً، فمعرفة هؤلاء بالأعمال المقروءة وحدودها الجمالية وخاصة في كتابات المرأة الجديدة تشير إلى انتشار واسع لدى الأجيال الجديدة التي خرجت على سلطة الثقافة الذكورية التي تحكّمت بذهنية الأجيال السابقة إلى حدّ بعيد.

ومع ذلك فإنَّ الرواية التي تكتبها المرأة في سورية في موضاعاتها وجمالياتها وتقاناتها اليوم ليست واحدة، وهي- بطبيعة الحال- كالرواية التي يكتبها الرجل، فهي عمارة فنّية، ومنها ما وصل إلى درجة عالية من الجودة، وكأنَّها مبنية على الصخر، ومنها أيضاً ما هو عادي وغير قادر على الاستمرار في الحياة، وكأنَّه مبني على رمال متحرّكة، وهذا معروف في الأعمال الفنية عامة، وليس في الرواية وحدها، ولا يقتصر ذلك على مكان من دون آخر أو زمان محدّد.

بناء على ما تقدّم، ونظراً للإنتاج الروائي

المتزايد يوماً بعد يوم، وخاصة ما تكتبه المرأة فإنّنا نرى أن يُقسّم هذا الإنتاج حسب طبيعته وطبيعة الإشكالات والأسئلة التي يطرحها ضمن الحقول الاصطلاحية الآتية:

أولاً: الكتابة النسائية المذكّرة:

(ecritue feminist masculine)

نوع من الكتابات النسائية التي لا تخرج على دائرة البلاغة الذكورية، وهي مرحلة ضرورية في المجتمعات المغلقة والمحدّدة بالمحظورات والمحرّمات والألغام، وهذا ما كان عليه المجتمع العربي في سورية قبيل الاستقلال، ولكي تجد امرأة مكان قدم في دنيا الرجال كان عليها أن تبدأ بهذا النوع من الكتابة لتنال رضى المتلقّي من جهة وأساطين البلاغة الذكورية من جهة أخرى، فلا يختلف عليهم سوى جنس الكاتب (امرأة)، أما البلاغة والأفكار فهي مدوّنة ومعروفة، ولها تاريخها وقواعدها، ولذلك اقتحمت المرأة هذا النوع

من البلاغة اقتحاماً خجولاً جزئياً بسيطاً من دون المساس بجوهر البلاغة الذكورية، ومن هذا الباب دخلت الروائيتان وداد سكاكيني وسلمى الحفار الكزبري اللتان أسّستا لرواية المرأة في سورية.

ولدت وداد سكاكيني في صيدا (لبنان) سنة ١٩١٩، وتخرّجت في كلّية المقاصد الإسلامية في بيروت، ثمّ تزوجت من زكي المحاسني (سوري)، وعادت مع زوجها إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دمشق لتتفرّغ للكتابة وتوفيت فيها سنة ١٩٩١، وهي روائية وقاصة وناقدة وكاتبة مقال[١]، ولها روايتان: صدرت الأولى عن دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٥٠، وهي بعنوان: ((أروى بنت الخطوب)) تروي فيها سيرة المرأة الجميلة ((أروى))، وهي تقوم فيها على فكرة صمود المرأة الجميلة إزاء الطامعين بجسدها في مجتمع ذكوري تقليدي، وتتمحور أحداث الرواية حول هذه الشخصية التي يقابلها مجموعة من الرجال، ولكنَّهم من طينة واحدة، بدءاً من عبيد أخي زوجها الذي راودها عن نفسها، فلما أبت عليه ادَّعى خلاف الحقيقة، ففرَّت خوفاً على حياتها إلى الصحراء، فالتقت الأعرابي حمدون لتستنجد به، ولكنَّ جمالها فتن لبّه، فذهبت نخوته العربية أدراج الرياح، فحاول الاعتداء عليها، فالتجأت إلى عبده وأسيره رباح وخلَّصته ليكون عوناً لها، ولكنَّه راودها عن نفسها، فأبت، فاحتال لبيعها جارية لقافلة مسافرة إلى مصر، ومع ذلك ظلت المرأة الطاهرة المخلصة لزوجها، وهكذا إلى أن نراها سيّدة على جزيرة كريت، وتشتهر باجتراح المعجزات، فيقصدها هؤلاء الرجال الثلاثة الذين عوقبوا بسببها من دون أن يعرفوها، فقد رماها عبيد بتهمة الزنى للوصول إلى غرضه، فأصابه العمى، وأصيب رباح بالصرع والإنسان المغلول بالشلل، فلما اعترف كلّ منهم بخطيئته شُفي من مرضه.

تمثّل هذه الرواية مرحلة البدايات، ولذلك فالملاحظات عليها كثيرة، فأحداثها غير منطقية وغير مقنعة فنّياً، وهي أقرب إلى الحكايات الشعبية، ثمَّ إنَّها مبنية على الحيل والمصادفات، فقد أوصى ملك جزيرة كريت قومه بأن ينصّبوا عليهم ملكاً أول قادم من البحر، فكانت أروى على لوح خشبي، وهذا يشبه ما حصل مع أوديب حين أصبح ملكاً على طيبة، وكذلك فإنَّ الخاتمة غير مقنعة أيضاً، وهي ملفّقة تلفيقاً، وخصوصاً أنَّهم وصلوا إلى جزيرة كريت على مركب واحد قاصدين تلك القديسة صاحبة الشفاعات والعجائب من دون أن يعرفوا أنَّها المرأة التي فعلوا معها ما فعلوا، ولذلك لجأت الكاتبة إلى أمرين لإقناع القارئ بحكايتها: الأول ذهبت فيه إلى أنَّ أحداث الرواية جرت في دمشق قبل ألف عام: ((طلع الربيع على دمشق وأرباضها منذ ألف عام، كما طلع هذا العام))[٢]، والثاني أنَّ الكاتبة جعلت بطلتها خارقة الجمال في مجتمع ذكوري

عرَّضها للمضايقات المتتالية لتصل إلى مقولة صديقها الفيلسوف، وهي أنَّ الجمال كالذهب أتعب الرجال في طلبه وأعيا المرأة الحفاظ عليه.[٣]

أما الرواية الثانية فهي بعنوان ((الحبّ المحرّم))، وهي تحكي أخوّة الرضاعة التي لفّقتها أم سهيل حين أراد الزواج من نديدة، فكانت ضربة قاصمة لأساس هذا الحبّ، وعلى الرغم من أنَّ الرواية اقتربت من شخصياتها أكثر ممّا هي عليه في الرواية الأولى غير أنَّها ظلّت تؤمن بأنَّ المرأة خُلقت من أجل الرجل، وإذا كانت أميّة فهي أكثر طاعة[٤]، حتى أم العروس التي أنفقت على حفل العرس تلقّت الطبيب سهيل قائلة: ((هذه بنتي يا دكتور خادمة في بيتك وفي عهدتك))[٥].

وسلمى الحفار الكزبري (١٩٢٢-٢٠٠٦) قاصة وباحثة وشاعرة بالفرنسية وروائية، وهي صاحبة الرواية الأولى في سورية، فقد صدرت ((يوميات هالة)) عن دار العلم للملايين في بيروت أواخر عام ١٩٤٩، وهي يوميات فتاة أرستقراطية دمشقية تصف فيها حياتها وحياة أسرتها ومدينتها، وسجّلت فيها كثيراً من العادات والتقاليد وخاصة في الأعراس، ثمَّ نشرت روايتها الثانية ((عينان من إشبيلية)) بعد خمسة عشر عاماً تقريباً، وهي تحكي فيها حكاية زواج أمير إسباني من عارضة أزياء من أسرة متواضعة بعد حبّ متبادل، لتقول فيها إنَّ الحبّ أقوى من الفوارق الطبقية، وهي رواية لا تخلو من المصادفات، كما هي الحال في رواية ((أروى بنت الخطوب))، ثم نشرت بعد ذلك روايتين: الأولى بعنوان ((عنبر ورماد)) صدرت عن دار عويدات في بيروت سنة ١٩٧٠، وهي سيرة ذاتية لا تختلف كثيراً عن ((يوميات هالة))، والثانية بعنوان ((البرتقال المرّ)) صدرت عن دار النهار في بيروت سنة ١٩٧٤، وهي أيضاً يوميات مدوّنة، ولكنَّها لشاب سوري طبيب جراح يدعى عصام يعيش في أمريكا، ويعمل للعودة إلى بلاده ليشارك في حرب تشرين، ويذكر فيها لقاءه هناك بمنى الفلسطينية التي تحبّ البرتقال، ولكنها تمتنع عن أكله لأنه كُتبَ عليه عبارة (يافا- إسرائيل)، وأمنيتها الوحيدة أن يصبح هذا البرتقال حلواً حين تعود فلسطين إلى أصحابها.[٦]

يتوقف المرء عند جملة من الملاحظات عند هذا النوع من الروايات التي تختلف

أيضاً بين روائية وأخرى، ورواية وأخرى نظراً لاختلاف درجة زاوية الرؤية، ومنها أنَّ المرأة فيها ليست خصماً للعادات والتقاليد، وليست ثائرة على سلطة الرجل، ولكنَّها تستعطفه لإنصاف المرأة، فهي مخلوق ضعيف ومسالم ووفيّ ويستحق المعاملة الحسنة، ثمَّ هي روايات ذات منحى تقليدي، فالمتن الحكائي فيها أهمّ من مبناه، والشخصيات مرسومة من الخارج رسماً ظاهريّاً، فلا يعرف القارئ سوى القليل ممّا يدور داخل هذه الشخصيات، ثمَّ إنَّ لغتها واحدة للشخصيات والوصف والسرد، وهي صالحة للشعر أيضاً والأجناس الأخرى، وهي اللغة أو البلاغة التي يستخدمها الكاتب الرجل في رواياته وشعره، وخاصة لدى الكزبري التي تتدفّق الشاعرية في رواياتها كونها شاعرة إضافة إلى أنّها ساردة، وربما كان الجامع الأكبر بين هذه الروايات الحذر من الاقتراب من المحظورات أو المسكوت عنه من جهة، والكتابة بقلم الرجل من جهة أخرى، علماً بأنَّ هذا النوع من الروايات ليس مرحليّاً، ولا يقتصر على رواية من دون أخرى، وهو شائع فيما يصدر اليوم أو غداً، وهذا ما يفرزه كل نصّ على حدة.

ثانياً: الكتابة النسائية المؤنثة

(ecriture feministe feminine)

يختلف هذا النوع من الكتابات النسائية اختلافاً جذرياً عن النوع الأول، ولا يقتصر هذا الاختلاف على جنس الكاتب والإشكالات والأسئلة التي يطرحها، وإنّما هو في بنية النص الروائي الذي يخترق عالم البلاغة الذكورية والحدود المرسومة سلفاً، ليسعى إلى تأسيس بلاغة سردية نسوية بديلة بوساطة آليتي الهدم والبناء تأثراً بالأفكار الوجودية الفرنسية التي انتشرت في أرجاء الوطن العربي عامة، وطروحات سيمون دي بوفوار في المرأة الجديدة خاصة.

كانت رواية ((أيام معه)) (١٩٥٩) الرواية العربية الأولى التي تمثَّلت فيها هذه الكتابة، وهي أقرب الروايات العربية إلى مقولة دي بوفوار ((إنَّ المرأة لم تخلق امرأة، ولكنَّ المجتمع حوّلها إلى ذلك))، ومن هنا كانت بطلة هذه الرواية عنيفة ضد الرجل الشرقي والعادات والتقاليد، وضد التهميش التاريخي والثقافي والبلاغي الذي لحق بها، وليس ذلك وحسب، وإنَّما هي مستعمرة لرجل ضعيف مستعمَر، وهو خاوٍ من الداخل على الرغم من غروره وادعائه

بالرجولة والفحولة، فهو عبد للحياة وأسير للتقاليد ولا يصلح لأن يكون رفيقاً في الحياة، هذا ما تقوله هذه الرواية والرواية الثانية (ليلة واحدة) على الأقل، ولذلك اقتحمت ريم الممنوعات والمسكوت عنه دفعة واحدة في مجتمع دمشقي محافظ، فهي ذهبت أولاً لتؤكد أنَّ مصيرها هي التي تحدده وليس الآخر، فلا الأسرة ولا المجتمع ولا التقاليد، وإما أن تكون حرّة أو لا تكون، وهي ثانياً تقرّر أن تدرس في الجامعة في زمن كانت الجامعة مقتصرة على الذكور، وهي ثالثاً تكتب الشعر وتنشره أيضاً في زمن كانت فيه كتابة الأنثى عيباً، وخاصة الشعر الذي يفضح مكنوناتها، وهي رابعاً رأت أن تتوظّف وتعمل مع أنَّها من أسرة ميسورة، فجوبهت بشدة من قبل عمّها، واتهمها بأنها فتاة مستهترة، فأجابت بعناد وحزم: ((أنا مستهترة... وسأظلّ مستهترة))[٧]، وهي خامساً تريد أن تبحث بنفسها عن عريس في عصر كانت المرأة فيه مطلوبة لا طالبة، وكانت الخاطبة الدمشقية في أزهى عصورها، وهي سادساً تتحدّى رجولة زياد مصطفى الموسيقي الدمشقي القادم من الغرب، وتدعوه للجلوس معها في المقهى الدمشقي كما يفعل الرجال والنساء في البلاد الأخرى، فتكتشف أنَّه شرقي ذكوري في داخله وإن ارتدى الزيّ الأوروبي، وهي سابعاً تتمرّد على الشرائع الدينية وترضى- وهي المسيحية- بالزواج من زياد مصطفى المسلم الذي يحبّها وتحبّه، ولكنها تكتشف أنَّه غير قادر على هذه المغامرة.

وقد ذهبت بطلة رواية ((ليلة واحدة)) ١٩٦١ إلى أبعد من ذلك، فقد كتبت رشا في رسالتها إلى زوجها سليم أنَّها أحبّت الرجل الفرنسي (كميل)، وشرحت له بالتفصيل الأماكن التي ذهبا إليها في باريس وأنواع المشروبات والرقص، وانتهت ليلتهما على السرير في أحد الفنادق.. ولم تكتفِ بذلك، وإنَّما شرحت له بكلّ صراحة بأنَّ جسدها تفتَّح أول مرة للحياة مع هذا الرجل في حين ظلَّ جسدها معه (الزوج) مغلقاً عشر سنوات من الزواج، ولذلك عدّت صكّ الزواج في الشرق وثيقة لاستعباد جسد المرأة واستعماره.

لم يُعرف هذا الزخم من المواجهة بين المرأة وما يُحيط بها في الرواية النسوية حتى هذه اللحظة، وإن رأينا الكثيرات يطرقن هذا الباب لمواجهة الظلم واقتحام

المسكوت عنه كسمر يزبك وهيفاء بيطار وبعض الروائيات المبتدئات، ولكنّه لا يشكّل هذه الفلسفة الوجودية الراسخة في الكتابة النسوية المؤنثة التي تستهدف الانتقال بالمرأة من دائرة المهمّش إلى دائرة المركز، وهو ما تعبّر عنه نوال السعداوي في كتاباتها المختلفة.

ثالثاً: الكتابة النسائية العامة (ecriture feministe generale):

وهي الكتابة التي تخرج على ما جاء في النوعين السابقين، وهي في الرواية الموضوعية التي لا تختلف عن كتابات الرجل إلاّ في جنس الكاتب، فإذا حذفنا- مثلاً- اسم المؤلف فإنّنا لا نعرف جنسه ذكراً كان أو أنثى، ويمكن أن نجد ذلك في معظم روايات قمر كيلاني (أيام مغربية) وناديا خوست (حبّ في بلاد الشام- أعاصير بلاد الشام) وتوفيقة خضور ((قيامة العنقاء))....إلخ.

هذه هي أهمّ الحقول الاصطلاحية التي يمكن للقارئ أن يواجهها في كتابة المرأة العربية في سورية عامة، وكتابة الرواية التي برزت فيها بروزاً واضحاً خاصة، وهي قابلة للتعديل والزيادة حسب ما ينتج من أعمال أخرى لا تنضوي تحت هذه الحقول.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- انظر: الموسى، د.خليل: المقالة في سورية، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١١، ص٥٧.
٢- أروى بنت الخطوب، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٥٠، ص٥.
٣- المصدر نفسه، ص٩٦.
٤- الحبّ المحرّم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٠٧- ١٠٨.
٥- المصدر نفسه، ص١٢٦.
٦- البرتقال المرّ، دار النهار، بيروت، ١٩٧٤، ص١١٢.
٧- أيام معه، دار الفارسة، دمشق، ط٦، ١٩٩٧، ص٢٧.

الحضارة الكوكبيّة: تحدياتٌ جديدة

تأليف: البروفيسور يوري ياكوفيتس- البروفيسور بوريس كوزيك

ترجمة: د. ثائر زين الدين- د. فريد حاتم الشحف ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانت بداية القرن الحادي والعشرين أيام محنٍ قاسيةٍ للحضارة الكوكبية، تماماً مثلما كانت للأمم المتحدة ممثلة هذه الحضارة، وممثلة مصالح البشرية كلّها.

لقد أصبَحَ واضحاً، بعد مرور الدورة اليوبيلية للجمعية العامة للأمم المتحدة المكرسة للدخولِ في القرن الجديد، المتزامنة مع الذكرى الستين لميلاد الأمم المتحدة، أن المجتمع الدولي ما زالَ غير مستعدٍّ لتقديم الردود الفعالة

✿ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

علـى تحديات القرن الجديد التي من بينها ليس فلتان موجة الإرهاب فحسب، بل خطر الكارثة الطاقيـة – البيئية، وتقلص عديد السـكان في عدد متزايد مـن الحضارات، والهـوة التي تزدادُ عمقـاً بين الدول الغنية والفقيرة، والأمراض الوبائية.

ينبغـي البحـثُ عـن مداخـلٍ وحلولٍ جديدة مبدئياً؛ اعتماداً على توقعاتٍ كوكبية بعيدةِ المدى كثـيراً، وعلى أنشطةِ مؤسسات الشراكـة المستحدثة والجديدة، شاعرين في الوقت ذاته بالمسؤولية المشتركة للحضارات والأجيال جميعها عن مستقبل البشرية.

أولاً - تحديـاتُ الحضارة الكوكبيـة الجديدة في القرن الحادي والعشرين:

ولّدَ القرن الـذي حَلَّ علينا منذُ سنوات قليلة تحديـاتٍ وأخطاراً مفاجئـةً جديدةً للحضـارة الكوكبيـة. منهـا التراجُـعُ في عديـد السـكان، وأزمة الطاقـة، والكارثة البيئيـة وازدياد الفجوة التقنية والبيئية بين الحضارات والدول؛ نتيجـةَ إدخال أنموذج العولمة الليـبرالي – الجديد علـى حياتنا، وانحطاط الناس الأخلاقي والثقافي، وزوالِ التنـوّع الحضـاري أو الدخـول في صدام حضـاراتٍ واسـع يمكـن أن ينتهي بهلاك البشرية، وإنهاءِ التاريخ فعلياً.

يجـب علـى أجيـال القـرن الحـادي والعشريـن أن تجـد الـردودَ المناسبة لهذه التحديات الكوكبية.

ولندرس أدناه جوهر هـذه المشكلات وسبل حَلِّها الممكنة.

١- انخفاض عديد السكّان.

شـكّلَ الانفجـارُ السـكاني في النصف الثاني من القـرن العشرين تهديداً للبشرية: فقـد ازدادَ عديدُ سـكان الكوكب ٢،٤ مَرة خلال نصف قرن فقط، فـكانَ الأمرُ سبباً في التضخّم السكاني، وازديادِ الضغط بشدة على البيئة والوسـط المحيط، وفي كثير من الدول؛ ولاسيّما الناميـة منها. في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين لن يبقى التضخم السكاني يمثّـلُ خطراً على سكان الأرض: فعديدُ سـكان الكوكـب سيزداد حسـب التوقعات الوسطية لـلأمم المتحدة ١،٥ – حتى عام ٢٠٥٠ أي سيبلغ (٩،١ مليار نسمـة). وسيبقى هذا الخطـرُ ماثلاً أمام الحضارات: الأفريقية والهندية والإسلامية والأمريكية اللاتينية،على أن معدلات النمو السكاني هنـاك أيضاً آخذة في التباطؤ. إلا أنّ تهديداً جديداً أكثر إثارة للفزع ظهر في الأفق؛ تهديداً لم يتوقعه لا مالتوس ولا الكثيرُ من أتباعه: إنّهُ التراجع السكاني، أو انخفاض عديـد السـكان، فحسـب الإحصائيـات الوسطية للأمم المتحدة سيشمل هذا التحدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦٢ دولة ضمنها دول الحضارات: الأوروبية - الغربية، واليابانية، والأوروبية - الشرقية والأوراسيّة، ومن ثم الصينية، وإذا استمرت هذه النزعة حتى نهاية القرن الحادي والعشرين، فسيتوقف نمو عديد السكان على الكوكب، وحتى أواسط القرن الثاني والعشرين سيعودُ عديد سكان الكوكب إلى المستوى الحالي أي ستة مليارات نسمة، ويمكن لهذه الظاهرة في المستقبل البعيد أن تؤدي إلى تراجع البشرية وموتها - أي كارثة سكّانيّة، لا تقلُّ خطراً عن الكارثة البيئية.

المسألة ليست مسألة عدد أو كمية فحسب، بل مسألة نوعية سكان الكوكب.

عند تراجعِ عدد الولادات، وزيادة متوسط العمر ستحدثُ لا محالة شيخوخةُ السكّان؛ يزدادُ عددُ العجزة الذين ينبغي أن يقدمَ المجتمعُ لهم المساعدة،ويتقلصُ عدد الناس القادرين على العمل، والفعالين المجددين، وتتغيرّ التركيبة الحضارية، والعرقية لسكان الكوكب: تزداد بشكلٍ كبير حصةُ حضارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وتتقلص حصة أوروبة وشمال أمريكا، أي الجنس الأبيض خاصة. تزدادُ تياراتُ المهاجرين من الشرق والجنوب إلى الشمال والغرب وتصبحُ معظمُ الحضاراتِ الإقليمية ذات طبيعة مختلطة، وهذا ما يزيدُ من التناقضات داخلِ الحضارات، وفيما بينها.

يمكنُ للحضارة الكوكبية أن تردّ على هذا التحدي السكاني (الذي واجهته من قبل في أطوار غروب الحضارات بأن تتمكن من إعدادِ سياسةٍ سكانيةٍ تفاضلية

وتطبيقُها بشكلٍ متتابع؛ أساسها يقومُ على تخفيض عدد الولادات في الحضارات التي تُعاني من تضخم سكاني، وتشجيع زيادة الولادات في الحضارات التي تُعاني من تراجع سكاني وتستطيع الدياناتُ والأخلاق الاجتماعية وحركة المجتمع المدني الكوكبية أن تؤدّي دوراً كوكبياً في تجاوز ظاهرة التراجع السكاني هذه، وفي مساندة غريزة استمراريّة النوع، وفي المسؤولية عن الأجيال القادمة. ويمكنُ في هذه الحالة كسْرُ نزعة التراجع السكاني، والحفاظ حتى نهاية القرن الحادي والعشرين وفي المستقبل اللاحق على معدلاتِ نمو معتدلة لعديد السكان، ولنشاطهم الإبداعي المتجدد.

٢- أزمةُ الطاقة وتردّي المناخ على الأرض

بدأت البشريةُ تنظُرُ في هذا التحدي بصورةٍ أكثر وضوحاً من ذي قبل، مع بداية القرن الحادي والعشرين، يزدادُ كثيراً حجم استهلاك الطاقة، لكن الجزء الأكبر منه كما في السابق هو من الوقود المستخرج من باطن الأرض.

احتياطياتُهُ تستنفدُ بسرعة، وسعرُهُ يزداد بشكلٍ حاد، وهو إلى كل ذلك يلوث البيئة كثيراً، ويؤدي ذلك إلى تغيراتٍ سلبية في المناخ، وإلى ازدياد عدد الكوارث البيئية.

لقد بلغت البشريةُ عتبةً بيئية وطاقية جديدة، ولن يكون بإمكان أية حضارة، أية دولة أن تظل بمنأى عن هذه التغيرات. تصبح ضرورةُ الطاقة البيئية مسألةً هامة لاستمرار حياة الحضارة الكوكبية.

لم تعد استراتيجية التطور المستقر المتخذة في ريو - دي جانيرو عام ١٩٩٢م، والمؤكد عليها في يوهانسبرغ عام ٢٠٠٢م كافيةً لتقديم إجابات وافية على هذا التحدي. ولهذا ينبغي - على الأقل حتى منتصف القرن - إعداد استراتيجية كوكبية طاقية بيئية، تهدفُ إلى إيجاد مصادر طاقة بديلة متجددة عوضاً عن الوقود المستخرج (ومن ضمن هذه المصادر الهيدروجين وعناصر وقود أخرى)، وتهدف إلى التقليص الشديد للملوثات البيئية الناتجة عن الوقود، وتأسيس نظام كوكبي للمراقبة، والتنبؤ بالكوارث الطبيعية والبيئية، وهذا سيسَمحُ - حتى نهاية القرن الحالي - بإحداثِ تغيرٍّ جذريٍّ في بنية التوازن الطاقي العالمي. وكان قد اقتُرحَ أحد سيناريوهات هذه التغيرات من قبل قادة الدول الكبرى، والوكالة الدولية للطاقة، في اجتماع القمة الذي عُقدَ في يوهانسبرغ عام ٢٠٠٢م كما تبين واقعية هذا الطريق البرامجُ الوطنية لاستخدام الهدروجين المطبقة في الولايات المتحدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والاتحاد الأوروبي واليابـان والبرامجُ التي تعمل في هـذا الاتجاه في روسيـا والصين وبعضـ الدول الأخرى. وقـد رسمتْ طرقٌ مُحدّدة للتعاون الدولي في هذا المجال، وأبعاد أمن الطاقة الكوكبي، وذلك في قمة «الدول الثمانية الكبرى» في تموز (يوليو) عام ٢٠٠٦م في مدينة سانكت – بطر سبورغ.

٣- استقطـابُ[1] مستوى تطور الدول والحضاراتِ التقني والاقتصادي، وتوسع الهوة بين الأقلية الغنية، والأكثرية الفقيرة من سكان الكوكب.

إن الثورة الصناعية، والنظام الاستعماري، وازدياد الفجـوة في مستوى التطور التقني، وعائـدات الدول والحضـارات في القرنين التاسع عشر والعشرين، والانعطاف التقني، الـذي انتشـر في بدايـة القـرن الحـادي والعشريـن، المرتبط بامتـلاكِ ونشر النمط التقني السادس، الموظفِ أساساً للاستخدام النفعي من قبل الشـركات العابرة للقارات، والعولمة – كلها أمور تقوي هذا الاستقطاب، وتقسمُ الحضـارة الكوكبية إلى جزأين غير متساويـين: عـدد قليلٌ من الـدول الغنية، وآخر كبـيرٌ من الدول الفقـيرة. فمن جهةٍ – تشدُّ عملياتُ العولمة التقانات والاقتصاد العالمـي إلى نظـام واحد. ومـن جهة ثانية – تُهـدِّدُ الفجوة بين أجزاء هذا النظام التي بلغت مرحلةً خطيرة، وكأن تلك الأجزاء تعيش عصوراً مختلفة، بتفجير النظام نفسه، وتزيد من خطر اندلاع نزاعٍ اجتماعيٍ كوكبي.

يبينُ المثال الـذي تضربُهُ الصين والهند والبرازيـل والدول الصناعيّـة الجديدة، أنّ بالإمكانِ تجاوز الفقر والتخلف خلال حياة جيلٍ واحد، عن طريـق الاختراق الإبداعي المتجدد، لكن مثل هذا الاختراق لا يمكن أن يحدث في الدول كلها.

المهمـة المُلحةُ للقرن الحـادي والعشرين هـي إعدادُ استراتيجيـة كوكبيـة اقتصادية – تقنيـة إبداعيـة متجـددة، تسمحُ بتوحيدِ موارد الدول المتطورة تقنيـاً، والأكثرُ غنىً، بهدف مساندة الدول المتخلفة حالياً. يجبُ على الـدول الغنيـة – ولأجـل مصالحها الخاصـة – أن تساعـد الـدول الناميـة: وترفع مـن مستواها الاقتصـادي والتقني إلى المستوى العالمي، وتنظم تحويل التقانات المتطورة إليهـا، وتدرب كوادرها وتساعدها على تقليصـ الفجوة الكبيرة بـين الفئات الغنية والفقيرة مـن سكانها: وخلق ملايين فرص العمـل، للتقليل من هجـرة السكان المحليين إلى الدول الغنيّة.

٤- خطرُ صدام الحضارات والإرهاب

في النصـف الأول من القـرن العشرين يتصدرُ المركز الأولَ خطرُ الإرهاب، وصدام

الحضارات. وتصبحُ النزاعات الإقليمية والأعمالُ الإرهابيةُ، صورةً إقليمية حادة لصدام الحضارات.

وتعجزُ محاولاتُ القضاءِ على هذه الظواهر بالطرق القسرية، وبتأسيس تحالفاتٍ معادية للإرهاب، وبفرضِ ديكتاتورية دولة عظمى واحدة، عن تحقيق نتائج جوهرية. بل تتجمد الدول خوفاً، ويفقدُ الناسُ الشعور بالأمان. وعليه فيجبُ مُحاربةُ أسباب تلك الظواهر، وليس نتائجها: وذلك بمحاربة الفقر، وازدراء المصالح القومية والحضارية. سيكونُ المستقبلُ لعالم متعدد الأقطاب، مؤسسٍ على الحوارِ والتعاون والشراكةِ متساويةِ الحقوق؛ مع إنها غير متساوية في العلاقاتِ التقنية والاقتصادية والعسكرية.

لقد اتخذت الجمعيةُ العامة للأمم المتحدة بتاريخ ٩ تشرين ثاني /نوفمبر/ ٢٠٠١م جدول أعمالٍ كوكبيٍ لحوار الحضارات. وكانت المبادرة الجديدة منذُ فترة في هذا المجال هي الاقتراح الذي قدمته اسبانيا وتركيا حول تأسيس «تحالفِ الحضارات» وساندته روسيا ودول أخرى وعدا عن ذلك فقد اعتمدَ مؤتمرُ كوندراتييف الدولي الرابع في موسكو نظرية: ضمانِ التطور الكوكبي المستقر، وحل القضايا الدولية على أساس الحوار وشراكة الحضارات.

إن الانتقال من المواجهة مابين الحضارات إلى الحوار والشراكة فيما بينها - هو الشرط الأهم لحماية وتطور الحضارة الكوكبية، أما في حالِ الصدام الواسع فيما بينها؛ فإن أيامها تصبح معدودةً.

٥- انحطاط النظام الاجتماعي- الثقافي، والخطرُ على التنوع الحضاري.

إن أساسَ استمرار حياة أي نظام وتقدمه - سواء كان طبيعياً أم اجتماعياً - هو التنوع والتفاعلُ المتوازنُ لعناصره، لقد أصبحَ الخطرُ المحدقُ بالتنوع الحضاري والثقافي للبشرية، حقيقةٌ واضحة في القرن الحادي والعشرين وبدأ النظام الحسّي الآخذِ في التحلل يفرض نفسهُ، وهو الذي سيطرَ في الغرب وأخلاقهُ الخاصة به على الحضارات الأخرى، وخاصة على الأجيال الفتية الجديدة، بمساعدة القنوات الإعلامية الضخمة.

لقد شاخت الباراديغما الصناعية، ولم تعدْ قادرة على تفسير التغيرات الجارية في المجتمع، أو توقعِ آثارها. كما أن الكثير من الإنجازات العلمية باتت خطرة على البشرية، وأصبحَ التعليمُ أكثر براغماتيةً، وفاقداً للإبداعِ والأسسِ، ويستندُ إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العقائد الجامدة والخبرات التقنية الآخذة في التقادُم. كل ذلك يعيق تشكل المجتمع، الذي يتأسس على المعارف، وينسفُ التجديد الإبداعي فيه، كما أصبحت الثقافةُ تجارية، مقولبة، وتفقد القواعد الأخلاقية المتراكمة خلال آلاف السنين قوتها حتى الديانات الناهضة حالياً تصبح غير قادرة على مواجهةِ ذلك.

وتنتشرُ مُثل العنف، وتتراجعُ قيمةُ الحياة البشرية. لقد نضجتْ ضرورةُ توحيد جهودِ المفكرين، ورجال الثقافة والتعليم وديانات الحضارات جميعها؛ للإسهام في إقامة النظام الاجتماعي- الثقافي التكاملي، الذي تنبأ به ب.سوركين، ولنشر ثورة علميةٍ جديدة، وتمكين الأجيال الجديدة من استيعابها وامتلاكها عن طريق التعليم المستمر والخلاق، وأنسنة التيارات الإعلامية (الإنترنيت، ومنظومات الاتصالات) تحت رقابة المجتمع المدني الكوكبي.

ثانياً: على الطريق نحو كونفدرالية عالمية للدول والحضارات:

تثبتُ التحدياتُ غير المسبوقة قوةً وخطورةً، ما ستواجهه الحضارة الكوكبية بداية القرن الحادي والعشرين، وضرورة تقديم ردود عليها شافيةً ومماثلةً من حيث حجمها وعمقها.

أن البشرية مضطّرة أن تُعدّ وتدخل - بالسرعة القصوى - صيغاً مؤسساتية لتطوير نفسها ولإدارة شؤونها؛ ذاتياً.

يجري البحثُ عن هذه المؤسسات منذ زمن؛ فقد طرحَ غ. أويللس في الثلاثينيات من القرن الماضي فكرة تأسيس فدرالية عالمية تضم الدول، وتتمتع بصلاحيات واسعة جداً؛ لكن أويللس نفسه كتب بعد ذلك يقول: إن تحقيق الفكرة سيحتاجُ عملاً طويلاً وصعباً وكان أ.اينشتاين وأ.توينتي قد دافعا في مرحلةِ تأسيس الأمم المتحدة عن فكرةِ تأسيس حكومةٍ عالمية تتحالف فيها الدولُ. واتفق قادةُ دول التحالف المعادي للهتلرية على تأسيس هيئة الأمم المتحدة، كمنظمةٍ تمثيلية عالمية، قادرة على منع نشوبِ حربٍ جديدة، وعلى دعم تطور البشرية كلها. وقد فعلت الأمم المتحدة ومنظماتها المختلفة - خلال ستة العقود التي مضت على تأسيسها - الكثير جداً، من أجل تحقيق هذه الأهداف وتحولت إلى جهازٍ كوكبيٍ شامل لتعاون معظم دول العالم.

إلا أن بنية الأمم المتحدة وصلاحياتها الحالية، لم تعد قادرة على الاستجابة للتحديات بطابعها المعقد والطويل، وبحجمها الضخم في القرن الحادي

والعشرين، وكذلك للحالةِ المعاصرة، وآفاق تطور الحضارة الكوكبية. طبعاً؛ ليس من الصحيح رفض وجود هيئة الأمم المتحدة، أو تأسيس منظمة دولية جديدة موازية لها، لقد أصبحت هذهِ المنظمة بالفعل ساحة للحوار وتعاون الحضارات،وبمساعدتها يحل الكثير من المسائل الجيو سياسية، والاقتصادية والبيئية والاجتماعية - الثقافية (بغض النظر عن صعوبتها وتناقضاتها)، لكنّ إبقاء هذه المنظمة الفريدة على شكلها الحالي والاكتفاء بزيادةِ عدد أعضاء مجلس الأمن، وتغيير مسمياتِ عددٍ من أجهزتها، أمرٌ خطيرٌ ومن دونَ معنى؛ كما بينت تجربة الدورة اليوبيلية للأمم المتحدة عام ٢٠٠٥: إن سفينة المنظمة العالمية قد لا تستطيع تحمل أعباء المشكلات الجديدة

وعلى ما يبدو يجبُ السيرُ في طريق آخر.

فالبنية التكوينيّة أو التشكيلية لأية منظمة تحددها البنية الوظيفية؛ تلكَ الوظائف التي عليها أن تنفذها في الظروف المتغيرة. وحسبَ وجهةِ نظرنا ينبغي أن تكون البدايةُ **إعدادَ قراءةٍ تنبُئية طويلة الأمد لتطورِ الحضارة العالمية حتى عام ٢٠٥٠؛ وعلى أساس هذه القراءة يتمُ وضع استراتيجية (أو نظرية) لتحوّلِ (أو إعادةِ تشكيل) هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتٍ وظيفيةٍ أخرى وتطويريةٍ لهذه الحضارة.**

إن إعداد قراءةٍ تنبّئية طويلة الأجل - هي مهمة العلم وقد أشيرَ في تقرير نخبة من العلماء:

((تخطي الحواجز. حوار الحضارات))، نوقشَ في الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين ثاني (نوفمبر) عام ٢٠٠١، أنه «يمكن للعلماء أن يحتلوا موقعاً قيادياً في هذه المنظمة العالمية» والحقيقة أن تجربة التوقعات طويلة الأمد قد حدثت في إطار الأمم المتحدة،حيث استخدم اختصاصيو الأمانة العامة للأمم المتحدة في سبعينيات القرن العشرين ثلاثة نماذج كوكبية؛ لإعدادِ تنبؤات طويلة الأمد (حتى عام ٢٠٠٠م) لتطوّر الاقتصاد العالمي، وقد اعتُمِدَ أنموذج ((فروع الاقتصاد العالمي)) للعالم الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد ف.ف ليونتيف؛ وهو العالم الروسي الأمريكي العظيم الذي مَرّت الذكرى المئوية لميلادهِ عام ٢٠٠٦م. ومن المُلائم -والحال هذه- أن يستمرّ العملُ ضمن أطرِ الأمم المتحدّة لإعدادِ تنبؤاتٍ أو استقراءاتٍ طويلة الأجل حولَ تطور الاقتصاد العالمي؛ باستخدام أنموذجٍ مُحدّثٍ لما وضَعهُ العالم فاسيلي ليونتيف، وتأسيس مجموعة دولية من العلماء لدراسةِ سيناريوهات تطور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحضارة الكوكبية في الجوانب السكانيّة والبيئيّة والتكنولوجية والاقتصادية والجيو سياسية والاجتماعية - الثقافية، وتحديد نزعات وتحديات القرن الحادي والعشرين والردود الممكنة عليها.

على قاعدة هذا الاستقراء أو التوقع - الذي يجب أن يخضع للاختبار العلمي، والنقاش مَرات عدة، ويجب أن ينشر في وسائل الإعلام الجماهيرية والإنترنت - وعلى أساس مجموعةٍ واسعةٍ من المشكلات المعقدة ينبغي بمشاركة علماء من اختصاصاتٍ مختلفة وسياسيين ونشطاء اجتماعين، يمثلون الحضارات كلها وفئات المجتمع المدني الكوكبي كله البدء بإعداد نظريّةٍ (أو رؤيا) لتحوّلِ مؤسساتِ الإدارة الذاتية للحضارة الكوكبية. ويمكن في السياق التمهيدي لذلك قول أو طرح عدد من التصورات عن الاتجاهات الممكنة والمرجوة لمثل هذا التحول. إن الهدف النهائي الذي يمكن بلوغهُ، على الأغلب في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين، هو تشكيل كونفدرالية عالمية ثلاثية المستويات للدول والحضارات. **المستوى الأول** منها ينبغي أن يتكون من تلك الدول التي تقدّمُ جزءاً من صلاحياتها للمستوى الأعلى. **المستوى الثاني** - هو تلك الاتحادات الحضارية؛ مثل الاتحاد الأوروبي ونافتا، والاتحاد الإفريقي ورابطة الدول المستقلة: التي تمثل المصالح الحيوية للحضارات الإقليمية. **المستوى الأول والأعلى** - هو الأمم المتحدة والمؤسسات الكوكبية الأخرى التي تقتطعُ صلاحياتٍ محددة وموارد خاصة لحل المهمات الملقاة على عاتقها. صلاحياتُ كل مستوى من المستويات الثلاث السابقة تُحدّدُ وتوثق في دستور كوكبي أو أية وثيقة مُلزمة أخرى؛ تُصادقُ عليها الأغلبية المُطلقة من الدول والاتحادات الحضارية وينبغي أن يشارك في تأسيس وأداء عمل هذه الكونفدرالية المجتمعُ المدني الكوكبي أيضاً.

قد يقول أحدٌ ما إن فكرة تأسيس كونفدرالية كوكبية - فكرة طوباوية. وقد قَيمَّ فلاديمير إيليتش لينين في زمنه فكرة تشكيل أوروبة موحدة بالطريقة نفسها. لكن براهين جديدة تثبتُ اليوم إمكانية تحقيق هذه الفكرة: أولاً - ما من شيءٍ قادرٍ على توحيد البشر، سوى إدراك المخاطر القاتلة التي تهدّد الجميع - وهي كما سبق وأوضحنا كثيرة جداً تلك التي يحملها القرن الحادي والعشرين للبشرية.

ثانياً: يمثُل أمام أعين الجميع التجربة التاريخية التي تقدمها الكونفدرالية السويسريّة، محققةً الازدهار والتعاون

السلمي لشعوبٍ ولغاتٍ عديدة مختلفة. وهناك مثال أكثر حداثةً - إنه الاتحاد الأوروبي، الذي حول أوروبة خلال نصف قرن من بؤرةٍ لحربين عالميتين إلى اتحادٍ دولي، قاطعاً شوطاً طويلاً على طريق الكونفدرالية، وأخذ الآن يُنفذ عدداً من الوظائف فوق الحكومية أو الدولية.

ترى الحركة الهادفةُ إلى تأسيس كونفدرالية عالمية؛ أن من الضروري تشكيل نظام أجهزة سلطةٍ على المستوى الكوكبي، مؤسسٍ على مبدأ تقسيم السلطات الذي تمّ اختباره وتجريبه مدى قرون. وهذا يعني بصورةٍ ما أن الجمعية العامة للأمم المتحدة (مثل مجلس الدول أو الحكومات) ومجلس الأمن (مثل مجلس الحضارات) يتحولانِ تدريجياً إلى أجهزة نيابية تشريعية، تتخذ ضمن صلاحياتها إجراءاتٍ مُلزمة. إن الأمين العام والأمانة العامة للأمم المتحدة يأخذان على عاتقهما حقوقَ وواجبات السلطة التنفيذية، كما في دولةٍ أو حكومةٍ عالمية، تؤدي دور الوزارات فيها ووظائفها مؤسساتُ الأمم المتحدة الحالية (المجلس الاقتصادي والاجتماعي، بروون، اليونيب واليونيسكو، وفوز، وفاو، وغيرها)، وتظهرُ منظومةٌ كوكبية لأجهزة حفظ النظام - محاكم دولية، وقوى حفظ النظام، وقوات حفظ السلام الدولية..إلخ ويؤدي القانون الكوكبي خلال ذلك دور منظّم نشاط أجهزة السلطة الكوكبية، هذا القانون الذي وجدت حتى الآن عناصر مُحدّدة منه، على شكلِ اتفاقاتٍ؛ منها اتفاقية منع انتشار الأسلحة النوويّة، وأسلحة الدمار الشامل. حظر التجارب النوويّة..إلخ

وتعدُّ المسألة الأكثر صعوبة في هذا الشأن تأمين القاعدة الماليّة أو التمويلية لنشاط أجهزةِ السلطة الكوكبية، التي تؤمنُ اليوم عن طريق اشتراكات الدول - أعضاء منظمة الأمم المتحدة، ومن خلال المنظمات الدولية الأخرى، وبحصصٍ توافقية، وكذلك من خلال تأسيس أرصدة منفصلة (كالرصيد البيئي الكوكبي) أو بمساندة ممولين (على سبيل المثال، في نشاط اليونسكو) إلا أن هذه الموارد غير كافية لحل المشكلات الكوكبية في القرن الحادي والعشرين. لقد اقترحنا في اجتماع ((الطاولة المستديرة)) للقمة، المُقامةِ حول التطور المستقر، المنعقد في يوهانسبرغ عام ٢٠٠٢م تأسيس أرصدة أو صناديق كوكبية ثلاث: بيئية وتقنية، واجتماعية - وثقافية، على حساب تخصيص الأموال المحولة من الأرباح الزائدة في السوق العالمية. (الريع الطبيعي، الضرائب والمخالفات البيئية، والكفازيرينتا(٢)

التقنيــة والمالية) وصادقَ على مقترحنا هذا المشاركون في الطاولةِ المستديرة.

نعرضُـ في الشـكل (٨-١) واحداً من احتمالات الكونفدرالية الكوكبيّة المستقبليّة للـدول والحضاراتِ ويمكـن أن تتكون هذه البنية من ستة أقسام أو مكونات:

- **التشريعـي**: الجمعية العامة؛ كمجلسٍ لممثلي الدول، ومجلس الأمن؛ كمجلسٍ لنواب الحضارات.

- **التنفيـذي**: في المستوى الأعلى الأمين العـام لـلأمم المتحدة والأمانـة العامة، ثم الأجهـزة الفرعية والوظيفيـة (التي تقوم بدور الوزارات في الكونفدرالية) - المجلس الاقتصـادي والاجتماعـي، منظمة العمل الدوليّـة، الفوز، اليونيب، البروون، الفاو، اليونيسكـو وعـدد آخـر وكذلـك قـوات حفظ السلام الدوليـة، والمكاتب الإقليمية لقارات: أوروبة وآسيـا، وأفريقيا، وأمريكا، وأوقيانوسيا.

القضائي: المحكمة الدستورية الكوكبية، والمحكمـة الدولية، ومحاكم حقـوق الملكية والتحكيم الدولية، والإنتربول.

المجتمـع المدني: المجلس المجتمعـي العالمـي؛ كجهـازٍ تمثيلـي للمجتمع المدني الكوكبي، والمجلس العلمي العالمي((مجلس الحُكمـاء)): كجهـاز علمـي استشـاري أعلـى، يتم التنسيق فيمـا بينهُ وبين مجلس الاستقراءات الكوكبيّـة المستقبليّة، ومجلس حقوق وواجبات الإنسان والمجتمع، ومجلس ممثلي الديانات، والمجلس الدولي لوسائل الإعلام الجماهرية، والمنظمات التخصصية والاجتماعية الدولية، والاتحادات (مثـل الصليب الأحمر الدولي، والغرين بيس وغيرهما).

- **المالي - الاقتصادي**: صنـدوق النقد الـدولي، البنك الـدولي، منظمـة التجارة العالمية، الصندوق الكوكبي للصحة والسكان، الصندوق البيئي الكوكبي، الصندوق الدولي للتقنيّـةِ والتطور، الصنـدوق الدولي للعلم والتعليم والثقافةِ والمعلوماتّية.

- **الحضـاري - الإقليمـي**: الاتحـادات الحضاريـة (الاتحـاد الأوروبـي، رابطـة الـدول المستقلة، منظمة الدول الإسلامية)، والاتحادات مابين الحضارية (نافتا، أتيس، الاتحـاد الإفريقي، منظمـة البحر الأسود للتعـاون الاقتصـادي، منظمـة شنغهـاي للتعـاون) والاتحادات الإقليمية للدول (مثل ميركاتور)

إن ما قدمناه هنا مُجـرد مسودة أوليّة، يجـب أن تخضع للنقاش والتدقيق ويمكن أن تتحقق خلالَ عددٍ غير قليل من العقود، لكن من المهم تحديد الاتجاهات الأساسية، واستراتيجية الحركة تجاه الوحدة الواقعية للحضارة الكوكبية، التي ستكون قادرة على

الاستجابة لتحديات القرن العشرين.

إن اقتراحاتنا المذكورة أعلاه كانت قد قُدِّمت على شكلِ تقريرٍ إلى المؤتمر العالمي حول الحضارة الكوكبية (نيويورك ١٤-١٦ تشرين ثاني /نوفمبر ٢٠٠٥م/ وسُلِّمت إلى وزارة خارجية روسيا الاتحادية، والممثلية الدائمة لروسيا في الأمم المتحدة.

الشكل (٨ – ١)

أحد احتمالاتِ بنية الكونفدرالية الكوكبية للدول والحضارات

القسم القضائي	القسم التنفيذي	القسم التشريعي
المملكة الدستورية الكوكبية	الأمين العام	الجمعية العامة (مجلس الدول)
المحكمة الدوليّة	الأمانة العامة	مجلس الأمن (مجلس الحضارات)
		قسم المجتمع المدني
محاكم حقوق الملكية	المجلس الاقتصادي الاجتماعي	المجلس المجتمعي العالمي
	منظمة العمل الدولية	المجلس العلمي الكوكبي
محاكم التحكيم الدولية	المنظمة العالمية للصحة والسكان	
الأنتربول	اليونيب	
	اليروون	مجلس الاستقراءات الكوكبية المستقبلية
القسم المالي الاقتصادي	الفاو	
صندوق النقد الدولي	اليونيسكو	مجلس حقوق وواجبات الإنسان والمجتمع
البنك الدولي	قوة حفظ السلام التابعة للناتو.	مجلس ممثلي الديانات
منظمة التجارة العالمية		
الصندوق الكوكبي للصحة والسكان		
الصندوق البيئي الكوني	المكاتب الإقليمية للقارات: أوربا	المنظمات التخصصية والاجتماعية الدولية
الصندوق الدولي للتقنية والتطور	آسيا وأوقيانوسيا	المجلس الدولي لوسائل الإعلام
الصندوق الدولي للعلم والتعليم والثقافة والمعلوماتية	إفريقيا	
	أمريكا	

القسم الحضاري – الإقليمي

منظمة البحر الأسود للتعاون الاقتصادي	منظمة شنغهاي للتعاون	منظمة الدول الإسلامية	رابطة الدول المستقلة	الاتحاد الإفريقي	أتيس	نافتا	الاتحاد الأوربي

الهوامش

١- نقصد بهذا المصطلح هنا ظهور قطبين مختلفين من مستوى التطور التقني والاقتصادي /المترجمان/.

٢- راجع معنى هذا المصطلح في هامش سابق /المترجمان/.

الحلول العربية لمنع هجرة الأدمغة العربية إلى أوروبة

د. رحيم هادي الشمخي ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

استطاعت أوروبة أن تنقل آلاف العلماء والخبراء والمهرة العرب إليها للعمل في شتى مناحي الحياة العلمية والعملية حسب برامج خاصة أعدت لهذا الغرض، وترجع ظاهرة الهجرة إلى أسباب متعددة، منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو سياسي، فالظروف الاقتصادية مثل شحة الغذاء، وما يتعرض له الإنسان من بطالة وفقدان القدرة على إشباع حاجاته المادية،

٭ أكاديمي وكاتب عراقي.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

تدفع الإنسان في كثير من الأحيان إلى الانتقال من بيئته الاجتماعية الطبيعية إلى بيئة اجتماعية غريبة عنه، كما أن الظروف السياسية وما يلاقيه

الإنسان في بيئته الأصلية من فقدان الجو للحرية الحقيقية ومن اضطهاد، قد يكون أحياناً بفعل قوة خارجية كما يحدث أثناء الغزوات الاستعمارية للوطن العربي، ترغم الإنسان العربي على هجرة موطنه الأصلي، كما حدث في العراق وفلسطين بحثاً عن الأمان في مكان آخر يمكن أن يسجل فيه حداً أدنى من الحرية والأمن، وتتعدد الأسباب وتتنوع بتعدد المهاجرين، ولكنها تتجمع كلها لتدل على وجود بيئتين، بيئة طاردة وبيئة جاذبة، ويكون اتجاه حركة السكان من البيئة الطاردة إلى البيئة الجاذبة ويدلنا التحليل النفسي لهذه الحركة على وجود بعض العوامل في البيئة الطاردة التي تحدث في نفسية المهاجر شعوراً داخلياً ينفره من بيئته الأصلية ويدفعه للبحث عن بيئة جديدة يتوقع أن تكون ظروف الحياة فيها أفضل من الظروف التي يعيش في ظلها، ويعتمد ذلك على تقييم المهاجر تقييماً مهنياً وعملياً أثناء اللحظة التي يقوم فيها باتخاذ قرار الانتقال، ولكن عملية الهجرة لا تكتمل إلا باستعداد البيئة الأخرى لاستقبال المهاجر.

ولايختلف وضع المهاجرين العرب في أوروبة عن هذا الوضع فانتقال جزء من سكان الوطن العربي من بيئتهم الأصلية إلى البيئة الأوروبية، من المغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، وسورية، والعراق بعد الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م وفلسطين بعد النكبة عام ١٩٤٨م قد تم بفعل عوامل متعددة وخاصة (هجرة الأدمغة العربية) التي ساهمت في صنع حضارة أوروبة في المجالات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية، فهؤلاء العلماء العرب حققوا نجاحات باهرة في المجتمعات الأوروبية والورشات الصناعية ومزجوا عاداتهم وتقاليدهم العربية ضمن مجتمعات أوروبة مما احتفى ذلك دوراً جميلاً في تكوين التفاهم الثقافي العربي الأوروبي، وبالمقابل فقد اتخذت سوق العمل الأوروبية طابعاً دولياً بالنسبة للأفراد الذين لهم خبرات تقنية وهندسية (الأدمغة العربية) لذلك فقد هرب الكثير من بلدان الجنوب بحثاً عن مداخيل مرتفعة ومنافع أخرى إلى بلدان الشمال، وتدعي النظرية الهامشية أنه لا موجب لأن ينتاب القلق البلدان التي تفقد تلك الفئة من الأدمغة والعمال لأن العامل العربي مثلاً يتلقى في اقتصاد قائم على المزاحمة دخلاً مساوياً لنتاجه الهامشي، بيد أنه كثيراً ما يتفق

ألا يكون هـذا النموذج قابلاً للتطبيـق، فمن الممكن أولاً ألا يكون العامـل العربي قد دفع كامل كلفة تعليمه ومن الممكن أن تكـون الدولـة هـي التي أنفقت علـى تعليمه، وفي مثل هذه الحال فإن البلد الأصلي يخسر (الرأسمال البشري).

ثانيـاً: إذا كان العامـل العربـي يؤدي عمـلاً لصالح الدولـة فـإن الأجـر المحدد له مـن نطاق احتـكار الدولة يمكن ألا يكون مساوياً لنتاجه الهامشي، وهكذا فإن المقاومة العالميـة لا تقيـس الجـدوى الهامشية الاجتماعية النسبية، وأخيراً إذا ما تجاوز خسران الاختصاصيين العرب حداً معلوماً، فـإن الخسارة بالنسبة للاقتصـاد يمكن أن تكون أكبر من النتاج الهامشي للأفراد المهاجرين.

إن اليـد العاملة العربيـة المهاجرة إلى أوروبـة تعاني ما تعانيه اليد العاملة المحلية مـن الأزمـة الاقتصاديـة ومظاهرهـا في غلاء المعيشة والبطالة والتضخّم بالإضافة إلى المشـاكل الخاصـة بفئتـين مـن هؤلاء العمال المهاجرين، فئـة المهاجرين الدائمي الصلـة بالوطـن الأم، وفئة الجيـل المولود في الهجـرة والمعروف باسـم الجيل الثاني، وبالطبـع يشترك هـذان الجيلان في تحمل ظـروف السكـن وشـروط المعيشـة، ولكن طبيعـة المشاكل تختلـف خاصة في التعامل مـع المجتمـع الأوروبـي وفي البحـث عن الحلـول المتعلقة بالهجرة وبالعودة إلى البلد الأصل، كما أن تـأزم أوضاع العمال العرب المهاجرين جعلت الكثير منهم يتركون العمل فشروط العمل للمهاجرين العرب أصعب من

شروط عمل العمال الأوروبيين سواءً لجهة الاختصاص المهني أو لجهة وقت العمل ونوعيته، فهناك ٧٥ بالمئة من العمال العرب المهاجرين يعملون في مرافق وقطاعات اقتصادية أوروبية تتصف فيها شروط العمل بالقساوة (عمل الليل والساعات المرهقة من العمل اليدوي) وهناك ٧٩ بالمئة من العمال العرب في حالة تخلف مهني بسبب توزيعهم على مؤسسات تتطلب عملهم الجسدي في القطاعات الثانوية للاقتصاد الأوروبي وليس في قطاعاته الحديثة وحتى عندما يعملون في قطاع صناعة السيارات فإنهم يقومون بأعمال روتينية، أما الأجور المدفوعة للعمال العرب فتظل منخفضة عن غيرها من أجور العمال المحليين إضافة إلى جهل عدد كبير منهم بحقوقهم وللنسبة الضئيلة من العمال المنتسبين منهم إلى النقابات.

أما مأزق الجيل الثاني من المهاجرين العرب وفقاً للتحقيق الذي أجرته المنظمة الأوروبية للتعاون والتنمية الاقتصادية O.C.D.E والذي صدر عام ٢٠١٠ فإن عبارة الجيل الثاني تعني جيل الذين تقل أعمارهم عن عشرين عاماً من أولاد العمال المهاجرين، إن النسبة العددية لأبناء الجيل الثاني مهمة في أوروبة وإن لم تتوافر إحصائيات دقيقة في هذا المجال.

إن هذا الجيل يطرح على المجتمع الأوروبي مسألة قُدرة هذا الأخير على قبول الفوارق والحوار وكذلك قضيته وكذلك قضية تمتّع المجموعات الاجتماعية باستقلالية، بل إن وضع أبناء هذا الجيل يُعّبر عن تناقضات سياسة الهجرة في أوروبة وعن ضحاياها المحتملين في حال تصاعد الحلول التعسفية لهذه الأزمة، كما أن أبناء هذا الجيل بحكم أوضاعهم المعيشية والسكنية والمدرسية لا يكتسبون من الثقافة المهيمنة في المجتمع الأوروبي سوى بعض الجوانب التي تبثها المدرسة إضافة إلى التأقلم في الملبس والتسلية واللهو، إلا أن الثقافة العربية تظل مغيبة، مما يجعل هؤلاء الشبان في وضع يشعرهم بفقدان الجذور والأصول دون أن يستبدلوها بهوية ثقافية جديدة، لقد ساهمت المدارس الأوروبية مثلاً في السنوات الأخيرة من عام ٢٠١٠م في تنويع الإعداد الثقافي لأبناء هذا الجيل الثاني من خلال تشجيع تعليم اللغة العربية في بعض المدارس الابتدائية، إلا أن تعليم اللغة العربية لا يزال يثير مشاكل هيكلية فعلية مع الآداب الأوروبية وخاصة في (فرنسا) لعدم تكيفها أصلاً مع مهمة كهذه، خاصة إن هذه المهمة تُنفذ خارج ساعات الدوام الرسمي وعلى صورة ساعات إضافية، إضافة إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن الأدمغة العربية المهاجرة قد تمَّ توزيعها بعيداً عن العمالة العربية في أوروبة وهذا ما جرى في ألمانيا- فرنسا- كندا- بريطانيا مما أدى إلى عدم وجود علاقة بين العلماء العرب في المهاجر والتجمعات العربية بالفائدة من هؤلاء العلماء.

مما تقدم لابد من وقفة نوعية لمعالجة وضع المهاجرين العرب في المهجر من قبل الحكومات العربية والمؤسسات الواجهية الناشطة في الوطن العربي، تتعدد إمكانات الوطن العربي فهو يمثل رقعة واسعة تمتد من المحيط الأطلسي وحتى الخليج العربي شرقاً وتربط بين ثلاث قارات وتبلغ مساحتها (١٤) مليون كيلومتر مربع، ويعد هذا الموقع من أهم المواقع الاستراتيجية، وقد كان دائماً محط أنظار الدول الاستعمارية وأطماعها، ويعيش على هذه الأرض حوالي ٢٥٠مليون عربي كما يحتوي على ما يقارب ثلثي احتياط العالم من النفط القابل للإنتاج والتصدير (٦٥) بالمئة، كما يحتوي على خامات أخرى كالحديد، والألمنيوم، والذهب، والفوسفات، والقصدير، واليورانيوم، وغيرها من الخامات الضرورية للصناعة والزراعة خاصة في السودان والعراق والشام ومصر كما توجد فيه الأنهار الكبيرة مثل دجلة والفرات والنيل وغيرها من الأنهار والوديان، ولذلك نستنتج أن إمكانيات الوطن العربي لا تتجاوز كثافة السكان في غرب أوروبة ولذلك فإن إمكانات الوطن العربي يمكن أن تستوعب على أقل تقدير، ثلاثة أمثال حجم سكانه حالياً ويمكن أن يجزم بأن إمكانيات الوطن العربي لا تعتبر عائقاً أمام عودة المهاجرين إلى أوطانهم، فما الذي يقف إذاً حجر عثرة أمام هذه العودة؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالمطلوب من الحكومات العربية الحالية دراسة هذا الواقع الذي يعيشه المهاجرون العرب من علماء وعمال ومهرة.

أولاً: تختلف إمكانيات الوطن العربي باختلاف المناطق العربية، إذ تعتبر بعض المناطق غنية وبعض المناطق الأخرى فقيرة مثل مصر، تعتبر فقيرة الموارد ومكتظة بالسكان نسبياً وتعمل أوضاع التجزئة على عرقلة حركة السكان بين هذه المناطق وأحداث التوازن فيها.

ثانياً: ينعدم وجود الديمقراطية الحقيقية في معظم المناطق العربية ويفتقد المواطن العربي فيها إلى جو الحرية، وتختفي قدرة المواطن العربي على الإسهام في اتخاذ القرارات القومية ويعتبر ذلك عاملاً مشجعاً على هروب الكثير من العقول والأدمغة العربية التي كان يمكن أن تسهم في حركة التنمية والتقدم.

ثالثاً: يعتبر أسلوب الإنتاج السائد في الوطن العربي متخلفاً على وجه العموم، وهو غير قادر بوضعه الحالي على الاستغلال الأمثل لإمكانيات الوطن العربي وموارده، ويتسم أسلوب الإنتاج في معظم أقطار الوطن العربي بالاستغلال والتبعية وهو عامل يهدد مصير الشعب العربي ويعرقل حركة التنمية.

هذه العوامل الثلاث مجتمعة هي التي تعمل على تكريس وضع التخلف والتفكيك في الوطن العربي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعرقلة عملية التنمية والتكامل فيه، وتمنع الشعب العربي من تحقيق أهدافه، وهي ذات العوامل التي تساعد على تعقيد مشكلة المهاجرين وتقف حجر عثرة أمام عودتهم إلى وطنهم الأصلي، ولا يمكن لنا أن نغض الطرف عن مسؤولية وأهمية الدور الذي يمكن أن تضطلع به الأنظمة العربية كافة في سبيل الإسهام في حل مشكلة المهاجرين، وتسهيل عودتهم إلى وطنهم العربي، حتى يكونوا أعضاء فاعلين ومؤثرين في حركة التقدم ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بتوفير المناخ المناسب واللازم للديمقراطية الحقيقية وتمكين الشعب العربي من ثروته وتكريس الجهود للقضاء على أوضاع التجزئة التي تعاني منها الأمة العربية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغيرة القومية والإسلامية للحفاظ على الهوية الثقافية من منظور حضاري تنويري عند الدكتور: علي فهمي خشيم

أحمد الشايب*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـل نحار في تصنيف هـذا الكاتب المتدفق العطاء؟ إذ إنه لم يترك مجالاً مـن مجالات الحياة، ولا مجالاً من مجالات الفكر، إلا كتب فيه كتاباً أو أكثر، وقدم للقارئ العربي مؤلفات عظيمة القيمة، لتغنيه ويفيد منها.

لقـد كتـب في فكـر المعتزلة، والتصـوف الإسلامـي، واهتـم بالمسألة الأمازيغية، وألـف كتابين حول اللغة العربية ومقارنتهـا باللغات الأوروبية، وكتابين عن التاريخ العربي الليبي، والفرعوني المصري، وأحدث معجماً لغوياً

* باحث سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

بين اللغة العربية والبربرية، وألف كتاباً عن الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم، وكتب الرواية والمسرحية، وكتب في النقد بشكل عام، وترجم بعض كتب المستشرقين، ورد على بعض أفكار الشيخ الشعراوي، حتى إنه ألف كتاباً في الطعام والأطعمة، والمواد التي تتألف منها وأسمائها، ودافع عن عروبة أسماء بعض المأكولات التي يعدها البعض أسماء غير عربية، ويراها هو عربية محضة، فمثلاً يزعم الأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه /غرائب اللهجة اللبنانية السورية/ أن كثيراً من أسماء الأطعمة والأشياء المأخوذة عن التركية ويعدّ الدكتور خشيم هذا الزعم خاطئاً وأن الأتراك هم الذين أخذوا عن العربية، ويضرب أمثلة كثيرة على ذلك.

ونجده في كتاب /رحلة الكلمات الثانية/ يفنّد خطأ ارتكبه الباحث اللغوي محمود فهمي حجازي، صاحب كتاب /علم اللغة العربية/ حيث يرى حجازي أن كلمة /لغة/ ليست عربية أصيلة من أصل سامي، لكنها مأخوذة من كلمة /LOGOS/ اليونانية، ويدلل على ذلك بأن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة /لغة/واستعمل كلمة /لسان/ في قوله تعالى: /وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه/ إبراهيم: ٤

ينبري الدكتور علي فهمي خشيم، للدفاع عن اللغة وأصلها العربي، ويورد العديد من الاستشهادات التي وردت في القرآن الكريم، يقول: /لم ينتبه الأستاذ الباحث إلى أن كلمة (لغة) مشتقة من الجذر /لغا/ الذي ورد إحدى عشرة مرة في التنزيل العزيز بعدة اشتقاقات (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) فصّلت: ٢٦، ومنها (والذين هم عن اللغو معرضون) المؤمنون: ٣، ومنها (لا يسمعون فيها لاغية) الواقعة:٢٥.

مشكلة الأمة في الماضي:

أكثر ما اهتم به الدكتور علي فهمي خشيم، الشأن العربي والإسلامي، فكان كاتباً قومياً إسلامياً، يدافع في العديد من كتبه بشكل أو بآخر، عن الهوية القومية العربية والإسلامية.

– ركز على طبيعة اليهود منذ نشوء الإسلام في الجزيرة العربية، ومحاربتهم لدعوة الرسول محمد(ص) واستمرت واشتدت بعد وفاته لخشيتهم من امتداد هذه الثورة العملاقة، التي بدأت تقلب الكثير من القيم السائدة في ذلك الزمان، ولم يقبل اليهود الوقوف متفرجين، فبدؤوا يدبرون المكائد، والمفاسد، للجم الحركة الناشئة وتوقيف مدّها المتعاظم يوماً بعد يوم.

– وقبل ظهور الإسلام، كان لهم موقف من السيد المسيح عيسى عليه السلام،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واتهمـوه بأشنع التهـم، وسلمّوه إلى /بيلاطس/ وطلبـوا منه صلبه،لكن دعوة عيسى عليـه السلام انتشرت وضربت جذورهـا في الأرض،وكانوا يلجؤون إلى سلاح التخريب العقائدي والفكـري، إن كان في الإسلام أو المسيحية.

يقـول في خاتمة بحثه الأول من كتاب (التواصل دون انقطاع).

((إن مقارنـة بسيطـة جداً بين أدوار اليهـود في الصدر الأول للإسلام، وأدوارهـم في العصر الحديث، تظهر بجلاء حين ننظر إلى /المستشرقين/ وأغلبهم من اليهود. في القرن التاسع عشر، وبداية هذا القرن، نظـرة نقديـة، ونطلع على (جهودهـم) في مجـال الدراسـات الإسلامية في الغرب، وإن نظرة خاطفة إلى أسماء عدد من كبار مثقفي وقتنا الحاضر، المهتمين بالدراسات العربيـة والإسلامية لتبين أن المهمة هي هي لم تتغير، وإن ما قام به كعب الأحبار ووهب بن منبه، وابن سبأ، قام ويقوم بـه (غولدزيهـر) و(مارجليوث) و(برناردلويس) و(مكسيم رودنسون) وعشرات الأسماء الأخرى.

لكن هذا موضوع آخر طويل جداً، والغاية أن ننظر إلى الماضي في ضوء الحاضر، وأن نرى الحاضر بنور الماضي، فإن الأدوار لم تتغير، ألم يحن الوقت لكي نتغير نحن؟

الغزو الفكري:

إن ما حدث للإسلام على مرِّ العصور، يراه الدكتور خشيم، نوعاً من الغزو الفكري والثقافي، حيث كان الإسلام يمر بمراحل متنوعة من فترة نقية لا يدخل فيها ما هو غريب من القول أو التفسير، بسبب عدم وجود عنصر يهودي يستطيع التقرب أو

الوصول إلى رأس الحكم أو السلطة، وهذا يجعله حراً نقياً وموحداً، وفي حالة من الديناميكية المستمرة.

أما في فترات أخرى نجد الإسلام والمسلمين في حالة من الهبوط والفرقة والخلاف والجهل، وهذا ينشأ عند دخول عنصر غريب عن الإسلام إلى صفوف المسلمين بلا إيمان حقيقي في دعوة الإسلام الحضارية، وخاصة العنصر اليهودي، منذ الخليفة عمر بن الخطاب، ونرى حركة الإسلام في مدّ ونهضة واتساع، حين يدخلها العنصر الغريب عن العرب، لكنه مؤمن بما يدعو إليه الإسلام كحركة ثورية عالمية، ولا فرق بين فقيه أو طبيب أو فلكي أو جغرافي أو فيلسوف، أكان فارسياً أم عربياً أم إفريقياً أم تركياً، ويكفي أن يكون مسلماً صحيحاً.

إذن، فالهوية الخاصة بالحضارة الإسلامية موجودة في كل بلاد المسلمين، إلا في الفترات التي تسيطر على المسلمين الحالة /الستاتيكية/ بسبب الخمول المتأتي من سيطرة عنصر غير إسلامي، مما يؤدي إلى تخلف المسلمين اقتصادياً وعسكرياً وحضارياً، وتخلفهم فكرياً وعقائدياً (فتموت روح الخلق والإبداع، والإسهام في نمو الفكر الإنساني).

واجب الأمة:

ويرى الدكتور علي فهمي خشيم، أن من واجب الأمة العربية والإسلامية، مقاومة كل ما هو معاد، وكل ما هو دخيل يريد بها البقاء في ساحة التخلف والجهل والظلام، ويتساءل قائلاً: من المسؤول عن هذا الواجب؟..

بالطبع هو يعني الواجب في العمل الدؤوب، من أجل تحقيق الخطة أو البرنامج، برنامج ينهض بالأمة الإسلامية، وهو يضع الحل الذي يحقق الخطة أو البرنامج، على عاتق المسلمين عامة، ويقول: إن المسؤول، هم حكام المسلمين ومثقفو الأمة، فهم حاملو الأمانة، وهم المسؤولون عن الدعوة والتنفيذ معاً في جميع الأحوال.

ويصنف المثقفين من خلال نظرتهم إلى قضية الهوية الثقافية للأمة إلى قسمين، الأول: هم علماء الدين التقليديون الذين تعلموا في أحضان المعاهد الدينية التي تحمل ترسبات المذهبية، وتراكمات الماضي البعيد والقريب، وهؤلاء يمكن تسميتهم بـ /الفقهاء/ هذه الفئة التي تربت تربية دينية فقط حتى غرقت في الدين، وراحت تهتم بالحرفيات الضيقة والتفاصيل الدقيقة، مبتعدين عن وهج الحياة الصاخبة ومتغيراتها، منكرة كل ما يتصل بواقع الإنسان في العصر الحديث، ففقدت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تأثيرها في الحياة الثقافية، وأطلقت في حقه التسميات والصفات والنعوت /كالرجعي/ والمتخلف و/الماضوي/ و(السلفي).

ويرى الدكتور خشيم، أن لا سبيل أمام هؤلاء المثقفين من هذه الفئة إلا استعادة حضورهم الثقافي في تغيير نهج تفكيرهم، والتطلع إلى مشكلات العصر وتطوراته، والعمل على الاجتهاد بما يتطلبه المجتمع المسلم في العصر الحديث، بعيداً عن التزمت والانغلاق، وبعيداً عن الدعوات الدائمة إلى العودة إلى مجد الإسلام الأول، مما جعل المنهج المضاد والحداثي، يستطيع تجميد هذه الفئة عند نقطة واحدة، وسعدوا هم بثباتهم في هذه النقطة، وأقنعوا أنفسهم أنهم على حق، فيما يتعلق بأمور الدنيا وتطور الحياة، وظل خطابهم الثقافي هو نفسه الخطاب الديني الذي مضى عليه أكثر من ألف عام.

القسم الثاني: من المثقفين في أمتنا، هم الذين انسجموا مع الثقافة الغربية بكل ما فيها، ويسميهم الدكتور خشيم /المثقفين العصريين/ الذين تلقّوا علومهم في المدارس والجامعات الغربية، فكان فكرهم مصاغاً طبقاً للمنهج الغربي بكل ما يناقض المنهج الإسلامي، وهؤلاء المثقفون، استطاعوا أن يقودوا الثقافة في المجتمعات الإسلامية، فبثوا ثقافتهم، ثقافة الغرب بين صفوف الناشئة، واستمرت رسالة التغريب بعد انحسار المد الاستعماري، ووقع المجتمع الإسلامي بين ثقافة الانغلاق والفكر الماضوي، وبين ثقافة التغريب والتقليد البعيد عن روح وخصوصية الأمة، مما أدى إلى ظهور فريق ثالث، يراه الدكتور خشيم /معقد الأمل في تحقيق التوازن الثقافي في عالم الإسلام الجديد هو الفريق الذي تسلح بمعارف وعلوم العصر وتياراته الفكرية، لكنه ظل محافظاً على صلته بأسس العقيدة، وحافظ على أصول الثقافة الإسلامية، فأنتج لديه فكراً وثقافة متميزين بملاحقة الهوية بالمعرفة.

حلم الوحدة:

يطرح الدكتور علي فهمي خشيم، فكرة وحدة الأمة، ووحدة هويتها الثقافية وهذا لا يتم إلا بالرجوع إلى المصدر الأول والأوحد، والذي لا خلاف عليه أو فيه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾فصلت٤٢ هو القرآن الكريم، الذي يقرر ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾الأنعام١٥٩ ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾آل عمران١٠٥. ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾آل عمران١٠٣.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويرفض القرآن الكريم، المذهبية التي تؤدي إلى الفرقة والتناحر ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء٩٢. يتحدث الدكتور عن فكرة الحرية في الإسلام، ولا يجد ما يتفوق على ما جاء في القرآن الكريم من أفكار تدعم الحرية ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة٢٥٦ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف٢٩. وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر٣٨. ويؤكد أيضاً على مبدأ المساواة من خلال عدد من الآيات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات١٠. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ الحجرات١٣. ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ النساء٣٢. إنه يرى القرآن الكريم يحذرنا من البعد عن الثقافة الإسلامية، بحيث نعي أن الملّة هي الدين وهي العنصر الأساسي لتكوين الهوية الثقافية وتجنباً لأهواء الآخر.

محاربة التطبيع:

إذا كان في أمتنا من هم ضعاف النفوس، أو ما يسميهم البعض بالمتخاذلين والمطبعين، فإن كاتبنا الدكتور علي فهمي خشيم، أبعد المثقفين بل هو أبعد الخلق عن هوى الميل أو التطبيع مع عدو ما يزال يجثم على أرضنا، ويسلب حقوقنا، وينكل بنسائنا، ويقتل أطفالنا، ومن هنا لا يجد فرقاً بين ما يسمى بالصهيونية واليهودية، ويراهما لباساً لجسد لا غنى للواحد عن الآخر في شيء، وفي هذا الموضوع يبرز لنا الخلط والخطأ الذي يقع فيه كل من يرى فرقاً ويدافع عن اليهودية بعيداً عن ربيبتها أو لباسها وهي الصهيونية، فيذكر مثلاً كتاباً للدكتور سامي الجندي /عرب ويهود/.

يرى الدكتور سامي الجندي أن اليهود ليسوا أعداء لأنه كان له صديق في فرنسا يدرس معه، والجرسون اليهودي في مقهى في دمشق، الذي يصفه بالشيخ المسالم، بينما أولاده يقتلون أهلنا في الأرض المحتلة، ثم يتحدث عن الزعيم جمال الحسيني الذي استضاف (موسى شرتوك) في بيته لمدة عام خوفاً على حياته لكن الجندي نسي أنه بتبدل الأحوال صار (شرتوك) وزيراً للخارجية في كيان العدو باسم (موسى شاريت)، وأول من هاجم آل الحسيني وشردهم.

ويعيب على الدكتور الجندي أنه ذو نزعة إنسانية مبالغ فيها إلى أن تصل حد /الهندوكية/ فأي نوع من الضرب أو الدماء تجرح مشاعره المرهفة، وتخدش إحساسه الرقيق.

غير أن الدكتور خشيم لا يرفض السلام، لأن الإسلام في جوهره سلام بشرط رد العدوان، أو محو آثاره، واستعادة كل شبر محتل من الأرض العربية، ويستشهد بقوله تعالى /وإن جنحوا للسلم فأجنح لها/.

لكنه يرى أن اليهود هم الذين يحاربوننا، وهم الذين يقتلوننا بكل سلاح وفي كل ميدان، ويذكرنا في كتاب (الحركة والسكون) أن أول دبابة يهودية دخلت سيناء وهي تحمل نسخة من التوراة، وأعادوا الأسماء الدينية القديمة لكل مدينة وقرية احتلوها.

حلم المشروع الحضاري العربي:

لابد من مشروع حضاري عربي، يلم شمل العرب، يجمعهم على كلمة سواء لبناء اقتصاد تكاملي، ولديهم كل ما يؤكد وحدة هذا الوطن المقسم إلى أقطار، من لغة ودين وتاريخ وجغرافيا، وقوة العرب في وحدتهم ليقف الوطن قوياً في وجه كل ما يتهدده من أخطار تنال منه.

يحيلنا الدكتور علي فهمي خشيم إلى المشروع الحضاري الأوروبي، الذي نعده سبقاً لنا فنحتذي به، رغم أنه يتكون من شعوب وأمم شتى، قام على أساس مثال ماضي مجسد في حضارتين يونانية ولاتينية، حتى الدين المسيحي القادم إليهم من الشرق، حوّروه إلى ديانة أوروبية، وأدخلت عليه بعض العبادات اليونانية واللاتينية حتى صارت ديانة مسيحية غير الديانة المسيحية التي نشأت أصيلة في الشرق القديم.

استطاع الأوروبيون أن يجمعوا كل ما هو حرفي وصغير في تراث شعوبهم، وترجموه إلى اللغات الأوروبية المعاصرة، فشهد عصر النهضة الأوروبية، ازدهاراً لم يسبقه مثيل في مجال علم (الأركيولوجيا) علم الآثار، نبشوا في معالم المدن المطمورة، وفحصوا الرسوم، وبحثوا تحت طبقات الأرض، عن كل أثر يوناني أو لاتيني، وأخذوا عن العرب المسلمين شيئاً من العلم التطبيقي وصاغوه فيما يناسب ظروفهم.

ويؤكد الدكتور خشيم على بناء المشروع الحضاري العربي الجديد، ويرى أن الشعار الذي ينادي بضرورة الوحدة وحتميتها، يراه حقيقة ثابتة موضوعياً وعلمياً وبدون الوحدة لا يمكن الحديث عن أي مشروع حضاري عربي تكاملي وشمولي، ويرى أن جانباً آخر معادياً، يسعى لإجهاض هذا المشروع وبكل السبل.

لذلك هو يفضل الحديث عن المعطى الثقافي، الذي يبدو أمامه أقرب من أي معطى آخر (سياسياً واقتصادياً) أقرب إلى توحيد الفكر والثقافة، وبالتالي التأثير على أفراد المجتمع، بتوعيتهم، ثم التأثير على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحكم لتحقيق نوع من الوحدة العربية، يقول: (إنه الأمل في المستقبل دائماً... دون نسيان الماضي ولقد ظلت أمم أخرى تأمل مئات السنين... بل آلافاً... حتى حققت ما تريد).

هذا جانب هام من فكر الدكتور علي فهيم خشيم، وهو الجانب الذي يشغل بال كل من يريد لهذه الأمة، أن تكون أمة موحدة قوية قادرة على الوقوف صامدة في وجه الهجمات المتتالية، التي تسعى لتحطيمها وإضعافها لتظل دائماً غير قادرة على فعل أي شيء مهما كان حجمه، فتقف بالتالي كالعاجز عن اتخاذ حتى أبسط قرارات الرد، للحفاظ على الأقل على ماء الوجه أمام الأمم الأخرى.

من يقرأ للدكتور علي فهمي خشيم، يحس أنه قد وضع يده بيده ليسير معه في الدرب مهما كان طويلاً ومهما كان وعراً، للسعي لتحقيق الحلم الغائب الحاضر.

كتابته واضحة، لا تحتاج لعناء كبير لفهمها، سهلة، يستطيع أي متعلم للقراءة والكتابة أن يقرأه ويستمتع ويستفيد، ويجد راحة في متابعة الفكرة، لأنه يشده ويجعله يتعاطف أو يتضامن معه فيما يطرحه من أفكار ومواقف.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع

١- د.علي فهمي خشيم -كتاب الكلام على مائدة الطعام- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ص٦١.
٢- د.علي فهمي خشيم -كتاب رحلة الكلمات الثانية- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع -ص ١٩.
٣- د.علي فهمي خشيم -كتاب التواصل دون انقطاع- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ص٦٣.
٤- المرجع السابق ص ٦٤.
٥- د.علي فهمي خشيم -كتاب الحركة والسكون- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ص ٢٢٧.
٦- المرجع السابق ص٢٢٣.

بودلير.. شاعر الحداثة المعاكسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بقلم: دونالد هيز
ترجمة: رافع شاهين ✽

نصنع من بودلير شاعراً حداثياً بل نسميه كل يوم «أبا الحداثة» نسبة إلى عنوان مقالته عن كوستانتان غيز «رسام الحياة الحديثة» لكنه حداثي غريب هـذا الشاعر، حداثي على مضض، ومنقسـم على نفسه وشديد الحساسية تجـاه الحداثة، وربما هي حال كل حداثي حقيقي، ونجد حقيقة لديه، ومن بعد جوزيـف دوماتير وشاتوبريـان كل ملامح التقليد المضـاد للحداثة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

✽ مترجم سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

ولنبدأ بصورة تاريخية وفلسفية: الازدواجية حيال الثورة وعصر الأنوار، أقله رد الفعل الذي تفوق على الانصياع: «ثمة ما يبدو مهنياً ومقبولاً في آن مع كل تغيير، أو ما يتعلق بالخيانة أو بالانتقال من حال إلى أخرى، وهذا يكفي لشرح الثورة الفرنسية»، ونعرف أنه ما بعد حزيران ١٨٤٨، بدأ بودلير يأخذ حذره من الديمقراطية، من العدد، من الاقتراح العالمي الذي أعطى لاحقاً السلطة لنابليون الثالث المستقبلي، أما ضربة السلطة عام ١٨٥١ فقد تركته «يتخلى جسدياً عن السياسة» تماما كما كتب في آذار ١٨٥٢ في آنسيل، ومن ثم استخلص درساً كتبه في «قلبي المتعري»: «ما الذي من أفكار حيال الاقتراع وحق الانتخاب، حيال حقوق الإنسان (...) وليس من حكم عقلاني ومطمئن إلا الأرستقراطية».

الحكم الملكي أو الجمهوري اللذان يقومان على مبدأ الديمقراطية هما أيضاً «عبثيان وضعيفان» وفي «أزهار الشر» يقدم الشاعر ذاته غالباً وكأنه الملك المخلوع، أو المنقول من مملكته في قصيدة «طائر القطرس». وكثيرة هي الكلمات الجارحة التي أطلقها الشاعر ضد المساواة التي شكلت محطة في لغة القرن السياسية، هكذا، ومنذ «صالون ١٨٤٦» ومن دون استهزاء، «لم تعد للبدلة السوداء مع الجاكيت الطويلة من الخلف جمالها السياسي فقط، أي الذي يعبر عن المساواة في العالم، بل أيضاً جمالها الشعري المعبر عن الروحية الشعبية، تتابع هائل من حفاري القبور في السياسة والحب ومن حفاري القبور البرجوازيين». أما الثياب السوداء، «أو البدلة الجاهزة» فكانت تعني التساوي بين الأعداد مثل مجتمع النمل وانتصار للعدد الذي ترمز إليه المدنية العصرية، إنه التعاطي مع الحياة كمثل تجمهر النمل، إنه تجمهر المدينة وتعاطي بودلير مع ذلك تماما مثل التعبير الذي أطلقه في قصيدة: «الساعة الواحدة فجراً»: «إنها حياة مخيفة إنها مدينة مخيفة». ويعبر الشاعر عن سخريته في كل أحاديثه عن المساواة، في قصيدة «سوداوية باريس» يصف عراكاً في «لنضرب الفقراء»، «وينتهي بالكلام التالي: «سيدي، أنت تتساوى معي! تشرف بأن تقاسمني ثروتي!» وفي قصيدة «لعبة الفقير» وفي خط مغاير ومائل يكتب «ضحك الولدان وابتسما لبعضهما البعض بأخوة، وأظهرا أسناناً متساوية في بياضها»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أو في قصيدة «المرآة» الرجل المخيف الذي ينظر إلى نفسه في المرآة، فهو يعلن نفسه متساوياً مع الموازين الخالدة من عام ٨٩ التي تقر «أن كل الناس متساوون في الحقوق» ومنذ زمن، وفي إهدائه لـ«صالون ١٨٤٦» سخر بودلير مرة جديدة من البروجوازي بشكل عام بكلمات مستخدمة من قاموس باسكال: «أنتم الأكثرية» في العدد وفي الذكاء -إذاً أنتم القوة- التي هي «العدالة» والتصويت عبر العالم بدا وكأنه كاريكاتوري حيال الأمر ولم يغير شيئاً بعد العام ١٨٤٨. وفي رسالة إلى بوليه- مالاسيس كتبت عام ١٨٦٠، تناولت مشكلة ديون بودلير تعبير مشابه لمطلع «فلنصرع الفقراء» في المعنى جاء فيه: «حين تعثرون على رجل حر في السابعة عشرة من العمر، له ذوق متطرف في الملذات، هائم من دون عائلة ويدخل الحياة الأدبية مع مبلغ من المال قيمته ٣٠ ألف فرنك من الديون، وبعد عشرين عاماً، لا يزيد هذا المبلغ سوى بحدود ١٠ آلاف (..) أتمنى أن تعرفوني به لأني سأرى فيه شبيهي».

ومن دون شك، أن السمة المعاكسة للحداثة بقوة هي كرة التقدم أو «المشعل المطفأ» كما يسميه بودلير في «المعرض العالمي» عام ١٨٥٥ أو «ذاك الفانوس الحديث الذي يرسل الظلمات فوق كل أدوات المعرفة» وهو يقول كل هذا في «أسهم نارية»: وهل من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شيء أكثر عبثية من التقدم، ما دام الإنسان هو دائماً شبيها للإنسان بحالته البدائية المتوحشة، وهذا ما أثبتته الاختبارات (..) أليس هو الرجل الأبدي أي الحيوان الطريدة الكامل؟ وهنا ثمة رفض لفلسفة «عصر الأنوار» حيث يتم إلغاء أسطورة المتوحش الطيب بما أن الإنسان هو دائم الشبه مع الإنسان في الشر، وهنا ليس ضرورياً أن نتلو كل الأقاويل الخاصة ببودلير وهي ضد نظرية الحداثة: «الإيمان بالتقدم هو نظرية الكسول، أو نظرية «البلجيكيين». إنه الفرد الذي يتكل على جيرانه لإنجاز عمله». ويخلص بودلير إلى إعادة إحياء النظرية الدينية المتعلقة بالخطيئة الأصلية التي هي أساس تلخيص فكرة الشر في العالم وذلك ضد النظرة الميتافيزيقية الحديثة للتقدم، وأيضاً في «قلبي المتعري» كتب: «نظرية الحضارة الحقيقية ليست في الغاز أو في الماكينات البخارية ولا في الطاولات التي تدور آلياً. إنها في عملية تقليل آثار الخطيئة الأصلية». فكل الأوهام الحداثية تبتعد عن فهم الخطيئة الأصلية، والخطأ الذي ارتكب في القرن الثامن عشر هو في إعلان الطبيعة أساساً للجمال مع أنها الخطيئة

وهذا ما جاء في «رسام الحياة الحديثة»: كل الأخطاء المنسوبة للجمال تولد من نظرية القرن الثامن عشر المخطئة في انتسابها إلى الأخلاقيات. في ذلك الحين، اعتبرت الطبيعة أساساً واعتبرت النبع ومصدر كل جميل وكل خير، ولذا تمَّ التعتيم نهائياً في ذلك العصر على فكرة الخطيئة الأصلية، من ناحية ثانية «الطبيعة» كاملة تساهم في فكرة «الخطيئة الأصلية» وفكرة الإنسان الطيب بطبيعته هو نبع الأيديولوجيا بالتقدم ولكن الإنسان الطيب بطبيعته سوف يكون «وحشاً» أقصد «إله».

البؤساء

عام ١٨٦٢ ختم بودلير رأيه بكتاب «البؤساء» لفيكتور هوغو واعترف بعدم حبه وتعاطفه مع الإنسانية الفائضة في الكتاب الذي يعطيه رغبات قوية بالسادية، كذلك في قصيدة «السفر» التي يختتم بها ديوانه «أزهار الشر» كتب عام ١٨٦١ ما معناه أن المشهد المضجر للخطيئة الأبدية هو دائماً على صلة بظروف الإنسان: «هكذا هو البيان الأبدي للكرة الأرضية». أما من ناحية الأخلاقيات، فإن محاربة الحداثة تتسم بالتشاؤم. وكلمة التشاؤم لم تكن بعد

على الموضة في زمن بودلير لكنها انتشرت بعد ١٨٨٠، معلنة انتهاء القرن ومفاهيمه، لكن الكآبة والحزن يضربان كل أعمال بودلير: «أنا مثل ملك في بلاد ماطرة / غني لكني ضعيف، شاب ولكن عجوز». أو أيضاً في قصيدة «البجع» حيث يحاول الشاعر الصمود في وجه التغيير في العاصمة: «باريس تتبدل لكن ما من كآبتي تتحرك». كذلك في «أسهم نارية» من ضمن «كآبة باريس» يبدأ بالكلام التالي: «العالم سوف ينتهي والسبب الوحيد الذي يمكنه من الاستمرارية هو أنه موجود». وهكذا فالتشاؤم يقود الشاعر إلى رؤية القيامة في المستقبل حيث الفيلسوف والسياسي والمفكر والأخلاقي ورجل الدين سيلتقون.

وفي مكان آخر في كتاباته، نراه يثور على كلمة لسان – مارك جيرادان وهي: «لنكن حقيرين» إذ اعتبر أنها قمة الكراهية لترفعنا. وهنا، تبدو معاكسة الحداثة أو رفضها انغماساً في التأنق: «على المتأنق أن يطمح إلى الكمال والترفع ومن دون انقطاع، عليه أن يعيش وينام أمام المرآة». كذلك البحر مترفع في قصيدته «موسيتا آت ايرابوندا»: «البحر، البحر الواسع، يهدأ من عنائنا وجهدنا». لكنه يعود وينقلب على هذه النظرية في وصفه للمحيط في «هاجس»:

«أكرهك، أيها المحيط، قفزاتك وهيجانك

تلتقطها روحي فيك، وهذه الضحكة المرة

للرجل المهزوم، المليء بالبكاء والشتائم

اسمعه في ضحكة البحر الهائلة».

فالترفع هو قابلية الانقلاب، هو النشوة، ومن ناحية ثانية، فالشاعر يحس دائماً بالتهديد بفكرة الهاوية، إنها الهاوية التي تشبه هاوية باسكال «الهاوية المسطحة، الأفقية غير المحددة الخاصة بالقلق الوجودي». ويقول بودلير: «حوض هائل يحتوي البحر ولا نرى من أطرافه إلا القليل» في إحدى قصائده، كذلك يقول في قصيدة «العجائز»: «وروحي كانت ترقص وترقص كمركب صغير وقديم ومن دون سوارٍ فوق بحر مخيض وغير محدود ..».

ولنتذكر هنا «البجعة»، «المضحكة والمترفعة» على صورة «رجل أوفيد» الذي «يمثل الشاعر» حسب قول جان ستاروبنسكي أو «أبي محاربي الحداثة»: «فأنا متآكل برغبة

لا حدود لها ومهان بسبب السماء الساخرة والزرقاء إلى حد الإجرام». والوجه الأخير لمحاربة الحداثة يبدو في الكلام التالي: «أما بالنسبة لي وأنا أشعر أحياناً أنني أمتلك حس الفكاهة الخاص بالأنبياء..». يقولها في «أسهم نارية» كذلك في «كآبة باريس» فهو يفيض بالتهكم في أسلوبه. و«قلبي المتعري» يتلخص بمهاجمة متواصلة ضد العالم الحديث وسياسته وجماليته.

من هنا يمكن القول أن بودلير بشر بفكره المعادي للحداثة لفترة طويلة وفي كل توجهاته السياسية والفلسفية والدينية والأخلاقية والجمالية وحتى في كتاباته الحميمة، لكن الأدب وخاصة الشعر يستلزم حب العالم إلى حد ما، كما يستلزم نظرة إلى الأمام والأحاسيس المسبقة المرافقة وليس فقط النظر إلى الوراء في السنوات الغابرة التي تحتوي في طياتها على كل المرارات، فكتب بودلير ذات يوم:

«أفكر في البحارين المنسيين في جزيرة،
أفكر في المحتجزين، في الخاسرين!..
وبغيرهم أيضاً!».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهيكسوس في التاريخ

فايز مقدسي ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اسم «هيكسوس Hyksos» هو الصيغة اليونانية لعبارة «هيكا- خاسوت» باللغة المصرية القديمة.

وهو الاسم الذي أطلقه المؤرخ المصري الكاهن /مانيتون Manéthon/ من-تـن- دون تصويت/ من القرن الثالث ق.م. على الشعب المجهول الهوية الـذي دخـل إلى مصر من منتصف القرن السابع عشـر ق.م. وأسس سلالة ملكيـة حاكمة عرفت باسـم السلالة ١٥. وحكمت طرفـاً واسعاً من مصر

٭ باحث سوري. باريس.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

على مدى قرن من الزمن. ١٦٥٠- ١٥٣٩ق. م. وقد ذكر المؤرخ المصري السالف الذكر /الهيكسوس/ في كتابه الذي

وضعه باللغة اليونانية. وروى فيه تاريخ مصر الفرعونية معتمداً في ذلك على المدونات الهيروغليفية المصرية القديمة.

وذلك بطلب من ملك مصر الإغريقي، وأحد كبار قادة الإسكندر المقدوني، في القرن الثالث ق.م، /بطليموس/. وقد وضع /ماتينون/ تاريخه في أقسام شملت السلالات الثلاثين من الفراعنة التي تعاقبت على حكم مصر القديمة. وأطلق على كتابه هذا اسم /Aegytiaca/، أو تاريخ مصر. والكتاب هذا فُقد. ولم يتبق منه سوى بعض الفقرات التي نقلها عنه بعض المؤرخين اللاحقين الذين تعرضوا لتاريخ مصر القديم. وهو بذلك يكون قد قام بنفس العمل الذي قام به، وفي نفس الحقبة الزمنية، المؤرخ والكاهن البابلي /بيروس- Bérose/. الذي وضع بدوره، وباليونانية، كتاباً عن تاريخ ما بين النهرين بعنوان (بابل أو Babyloniaca) بطلب من الملك السلجوقي أحد قادة الإسكندر الكبير وملك سورية وما بين النهرين مطلع القرن الثالث ق.م.

وقد بدأ مؤرخنا المصري كتابه بذكر الملك الذي أطلق عليه اسم /نار-مير/ معتبراً إياه موحد مصر القديمة ومؤسس أول سلالة مالكة حكمت مصر في مطلع التاريخ. وجدير بالذكر أن ثمة وثيقة /حجر منحوت/ فرعونية، عليها صورة الفرعون /نار-مير/، وعلى رأسه التاج الملكي لمصر العليا. وينتهي الكتاب بدخول الإسكندر الكبير إلى مصر.

أما اسم /هيكسوس/ فهو مركب بالمصرية القديمة من كلمتين. الأولى / هيكا/ وتعني /ملك/. والثانية /خاسوت/ وتعني /غريب/. فيكون معنى الاسم كاملاً: الملوك الغرباء. أيّ، وبتعبير آخر، الذين ليسوا من المصريين. ولكن الاسم لا يعني /الملوك الرعاة/ كما ذكر /ماتينون/ في كتابه السالف الذكر. وجاراه في ذلك آخرون تحدثوا عن الموضوع. حيث بات واضحاً اليوم، أن اسم /هاسوت- أو خاسوت -ha kh-st/، يعني /الملوك أو الرؤساء الأجانب. أي : هيكا- خاسوت/. وليس /هيكا-شوسو Shosu/ أو /Shash/ الذي يعني /الملوك الرعاة/ كما ذكر /ماتينون/ بهدف الحط من شأنهم، وإظهارهم كقبائل بدوية تغير على المناطق المتحضرة للسرقة والنهب. وربما خلط المؤرخ المذكور متعمداً بين كلمة /شتو/ أو /شتا- Shata/ الكنعانية التي

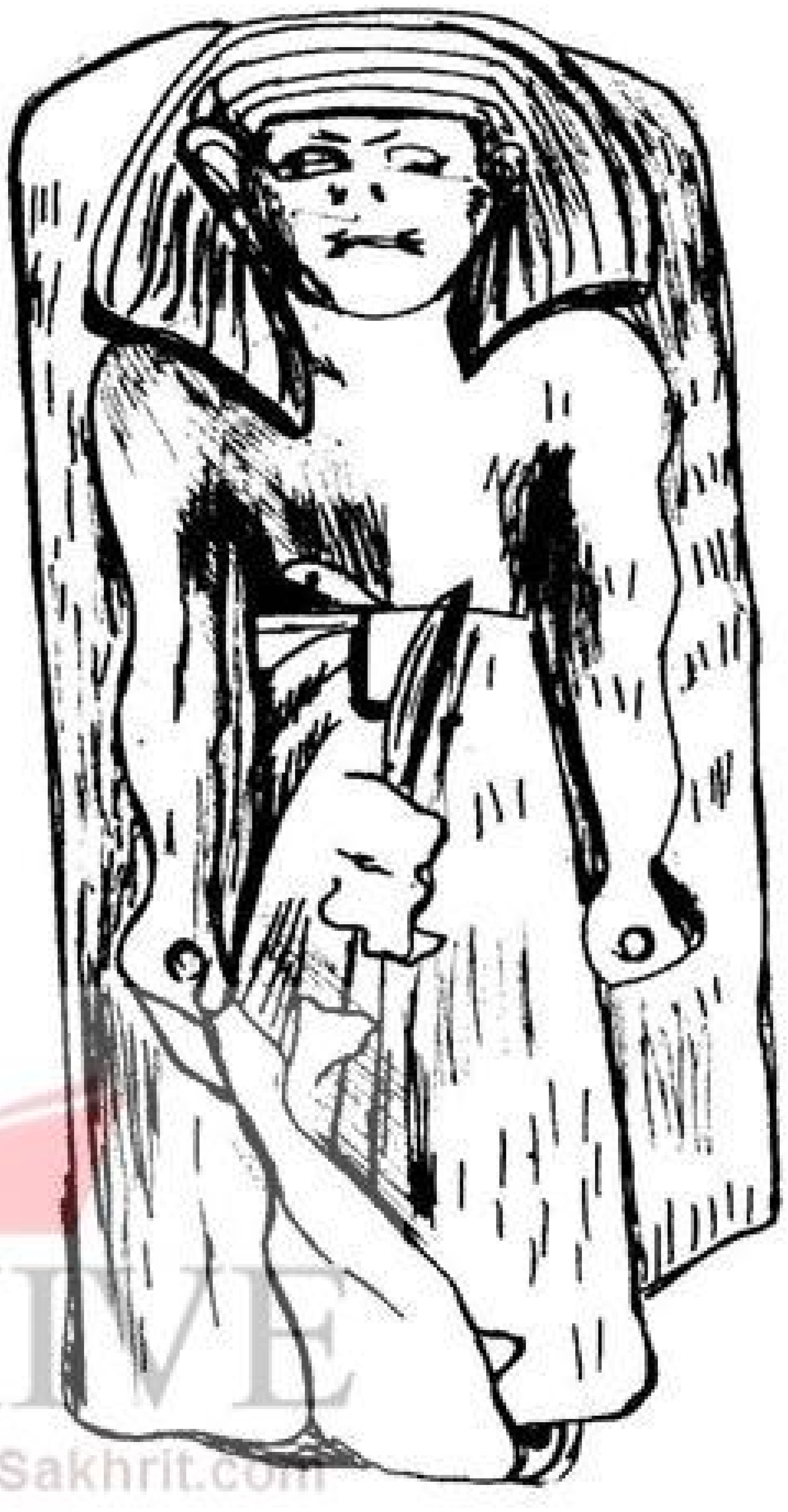

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تدل على البدو، وبين كلمة /ساس- Sas أو شاس/ الكنعانية أيضاً، وهي نفسها باللغة الحثية /ايش- ني- Iche-ni/، وبالبابلية القديمة /سيسو أو شيسو- Susu/، وتبدو في الأصل مقتبسة عن مقطع /انشي- سي- سي Anshi-si-si/ السومرية، والتي تدل على الحصان، ومن ثم، على الفارس الذي يسوسه/ أيّ، قائد الحصان.

والكلمة بقيت بهذا المعنى (سائس)، الذي يعتني بالحصان في العربية إلى اليوم.

وتدل الوثائق، وعلى نحو خاص، وثائق (إيبلا) و(أوغاريت. سورية) منتصف الألف الثالث ق.م. على أن الحصان كان معروفاً في الهلال الخصيب منذ منتصف الألف الثالث ق.م على الأقل. وكان الحوريون السوريون أول من استعمله.

ومن المحتمل أن الاسم دل بالنسبة إلى الهيكسوس /الفارس الذي يقود الحصان/، (وعندنا باللغة الحثية السورية لقب إيشا- Icha الذي يدل على السيادة. فإذا قربنا

منه اسم حصان وهو، كما سبق، /ايش/ أو اللفظة البابلية /شيسو/ فإننا نحصل على اسم الهيكسوس)، أو ربما دل الاسم على فرق الخيالة في الجيش. ولا ننسى، والأمر مهم جداً، أن /الهيكسوس/ هم الذين أدخلوا الحصان إلى مصر ولم يكن معروفاً فيها من قبلهم. غير أن هذا الاسم لا يظهر في الوثائق المصرية إلا على زمن الفرعون /توت-موسيس Tout-Mosis/ أواخر القرن الخامس عشرق.م. أي بزمن طويل بعد دخول /الهيكسوس/ إلى مصر. وهناك اسم آخر للهيكسوس يظهر في وثائق السلالة الثانية عشرة التي حكمت مصر، وهو /شيوخ عامو/ أي /شيوخ الشعوب/ أو رؤساء القوم. واسم /عامو/ اسم كنعاني-بابلي قديم يدل على الأصول وعلى الشعب أو الأمة أو المجموع البشري. ولكنه لا ينطبق على البدو الرحل الذين تدل عليهم بالكنعانية كلمة /شتو/ أو، بلفظ آخر /شتا/ كما سبق. والذين لم يعرفوا الحصان إلا في وقت متأخر زمنياً.

ولا نستغرب ورود ألفاظ وأسماء كنعانية- بابلية- حثية أثناء الحديث عن /الهيكسوس/. فهناك في أسماء أعلامهم الكثير من تلك الأسماء التي سوف ندرسها مفصلاً في ما يلي من صفحات هذا البحث.

ونكتفي هنا بذكر اسم ضريح قديم عثر عليه في منطقة /بني حسن/ في مصر يحمل اسم الشيخ /أبشة Abesh/. وهو اسم أموري- كنعاني- بابلي الصبغة لا شك فيه. ولو حللناه لوجدنا فيه معنى أي /أبو الحياة/ أو، وبتركيب أقرب إلى فهم القارئ اليوم، /أبو يحيى/. حيث أن /أب/ هي كما في العربية تعني الأب. وكلمة /أش/، أو / عش/، تعني /الحياة/ وبقيت فعل عاش-يعيش.

وقد رأينا الكلمة نفسها في اللغة الحثية /إيشا/ سيد أو إنسان أو حيّ. وهناك أيضاً ملك أموري حكم بابل من سنة ١٧١١- إلى سنة ١٦٨٤ق.م. وهو من سلالة / حمورابي/ ويحمل الاسم نفسه أي /أبيشو- Abishu/.

وهذا الاسم، وما يشتق منه من صفات، لا يدل على البداوة والتنقل، ولا على الصحراء. ولا علاقة له باسم /شتا/ السالف الذكر كما سوف نرى. بل يدل على الاستقرار والمجتمع الذي عرف النظام الاجتماعي والقوانين، وحتى قبل عهد / حمورابي الأموري/ كما نعرف من الوثائق والمستندات التي كشفت عنها الحفريات الأثرية.

اسم /هيكسوس/ يدل في الحقيقة على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجموع بشري جاء من المشرق. أي، المنطقة الجغرافية التي يطلق عليها جغرافياً اسم /الهلال الخصيب/، وهي تشمل العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن وجزيرة قبرص وجزيرة كريت كليكيا. وهي المنطقة التي كان المختصون يسمونها قديماً بـ/آسيا الصغرى/.

هذه الجماعات /الهيكسوس/ دخلتْ منطقة /دلتا النيل/ في شرق وشمال مصر في أواخر عهد الإمبراطورية المصرية الوسطى، حوالي منتصف الألف الثاني ق.م. ويبدو أن أحد رؤساء تلك الجماعات، ويبدو أنه كان الأقوى، تمكن من جمع شمل الجميع حوله، وأعلن نفسه ملكاً منهزاً ضعف السلالة الفرعونية آنذاك.. ثم احتل أنحاء مصر السفلى من المتوسط. وما لبث أن أنشأ جيشاً قوياً. وأسس عاصمة لملكه هي مدينة /أفاريس/- Avaris التي لا تبعد كثيراً عن شواطئ المتوسط. وقد تمَّ العثور في أنقاض هذه المدينة على مسلة نُقشتْ عليها عبارات فيها تكريم لملك اسمه /عفي- تريس- ايشه- نوبطي- Aapehtrisesh- Nubti. ونلمح في تركيب الاسم ظلال اسم /ابشه/ الذي سبق وتعرضنا له. كما يظهر فيه أيضاً لفظ /نبطي/. ولا يُخفى ما فيه من دلالة. ويذكر نص المسلة أيضاً تاريخ بناء معبد للرب المصري /سيت- Seth/، الذي تبناه الهيكسوس، وجعلوه معادلاً للرب الكنعاني /البعل/ أو /حدد/. وذلك من أجل إعلاء شأن العاصمة الجديدة /أفاريس/. ولقد بينت الآثار المكتشفة في منطقة الدلتا الشرقية أهمية الدور الذي قام به /الهيكسوس/ أثناء حكمهم مصر، وكيف أن تأثيرهم شمل المنطقة الممتدة من شمال شرق قناة السويس (اليوم)، حتى مدينة (هليوبوليس Heliopolis) في الجنوب من الدلتا. كما أنهم انتشروا حتى مدينة (ممفيس Memphis). والقريبة آثارها اليوم من القاهرة، ومن أهرامات الجيزة.

وبعض المحققين ينسب إلى بعض ملوك /الهيكسوس/ بناء النصب المعروف باسم /أبو الهول/.

غير أنه من المؤكد تاريخياً اليوم، أن زعيم الهيكسوس واسمه بالصيغة اليونانية /ساليتيس- Salitis/ ويمكن تصويت الاسم، بعد حذف اللاحقة اليونانية /س/ التي تلحق كل اسم علم مذكر، على شكل: سليط. فنحصل على جذر /سلط/ ومنه /متسلط/، أي /زعيم القوم/. وذلك في مطلع القرن ١٧ق.م. هو الذي أسس أسرة حاكمة من الهيكسوس. اعتبرها /ماتينون/ في تاريخه بمثابة السلالة الـ١٥ من بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السلالات التي حكمت مصر. وبعد ذلك، ولما اتسعت رقعة مملكة الهيكسوس فقد شكلوا السلالة الـ١٦ في تاريخ مصر. ويبدو أن / ساليتيس/ استغل الصراع الذي كان قائماً على العرش بين الأمراء ورثة الامبراطورية المصرية الوسطى وعاصمتهم مدينة /إيشت- Echet/، وبين أمراء مدينة /طيبة/ (الذين سينتصرون على /الهيكسوس/ بعد قرن من الزمن)، ليصل إلى السلطة. والاحتمال كبير أن يكون وصوله إلى العرش قد تم عن طريق انقلاب عسكري كما يرجح المؤرخون اليوم. وهذا الأمر الأخير يرجح احتمال أن يكون بعض زعماء /الهيكسوس/ قد دخلوا القصر الملكي الفرعوني كقادة عسكريين مما أتاح لهم فرصة السيطرة على الجيش..

على عكس الصورة السوداء التي رسمها /ماتينون/ للهيكسوس معتبراً إياهم بمثابة «غضب إلهي» نزل على مصر. وأنهم كانوا كـ«مرض الطاعون» وقد أدرك البلاد. فإن المؤرخين اليوم باتوا يميلون إلى الاعتقاد، وعلى ضوء المعطيات الأثرية المدونة القديمة، أن عصر /الهيكسوس/ لم يكن شنيعاً كما زعم /ماتينون/، وإنما كان عصراً مزدهراً في مصر في مجالات عديدة. فأولاً نلاحظ ازدهار الزراعة. ثم توفر الطرق التجارية للقوافل ما بين مصر وأنحاء سورية وفلسطين. كما أن الحياة الثقافية والفنية قد عرفتْ نهضة واسعة. وكثر الطلب على أرباب النحت والرسم لإقامة النصب والرسوم في المعابد والبيوت وعلى الأضرحة. وكذلك بدأ الكتبة ينسخون الأعمال الأدبية القديمة وسجلات علم الحساب والرياضيات من جديد حتى لا يدركها التلف. مما حفظ ثروة ثقافية مصرية عظيمة.

إضافة إلى ما سبق، فقد كان / الهيكسوس/ محاربين أشداء أدخلوا معهم إلى مصر العربة والحصان ولم تكن للمصريين معرفة بذلك. مما أعطاهم تفوقاً في المعارك. ولقد عُثر على أسنان أحصنة بين أنقاض المدن التي كانوا فيها. ومع أنهم احتفظوا بتقاليدهم ولغتهم وثقافتهم، فقد تبنوا الخط الهيروغليفي المصري القديم / Hiérogliphique/ في الكتابة. وتشبهوا بالفراعنة القدماء فيما يخص عادات وتقاليد القصر الملكي. (ونذكر هنا أن كلمة /فرعون -القديمة تعني البلاط الملكي). وأطلقوا على ملوكهم لقب /ابن-رع/، أي ابن الإله رع كبير الآلهة في الديانة المصرية القديمة. حيث كان الفرعون يُعتبر كابن إلهي التكوين. ولقد قاموا أيضاً بتطوير النظام الإداري. وخلفوا العديد من النصوص المدونة. ومما يلفت النظر أنهم أطلقوا على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ربهم /البعل/ اسماً مصرياً ودعوه /شيت/، كما سبق وأشرنا. واحتفظوا له بدوره كإله مطر وخصوبة كالبعل السوري تماماً. وربما فعلوا ذلك للتقرب من المصريين.

ولقد اقتبس المصريون عن /الهيكسوس/ ما لا بأس به من أمور في مجال الفنون والثقافة والدين بحيث أصبحت الربة الكنعانية السورية /عنات/ شهيرة في مصر، وانتشرت عبادتها وكذلك عبادة الربة /عشتار/ البابلية. أما في المجالات الأخرى فقد أشرنا إلى إدخال /الهيكسوس/ الحصان والعربات التي تجرها الخيول واسمها بكنعانية الهيكسوس /مركبة/ وهو الاسم نفسه الذي يرد في نصوص أوغاريت. ونشير هنا إلى شهرة /الحثيين/ السوريين في استخدام العربات في ساحة المعارك. إضافة إلى استعمال القوس. وأيضاً فقد جلبوا معهم إلى مصر معدن /البرونز/، وصناعة جرار الفخار، وصناعة النسيج. وهكذا ازدهرت الحياة بكل مناحيها في مصر على عهد /الهيكسوس/.

الجواب أنهم كانوا شعباً مزيجاً من كل الأجناس التي شكلت، عبر التاريخ والعيش المشترك، النسيج السوري الشهير بفرعيه الهندو-أوروبي والمشرقي. أي، أنهم كانوا جماعات من الأموريين- الكنعانيين (الفينيقيين)، والحثيين (الحوريين- الميتانيين)، والأراميين، والسومريين - الأكاديين (الأشوريين- البابليين). إضافة إلى بعض شعب جزيرة /كريت/. ويجب أن لا يستغرب القارئ ذلك. فواحدة من أهم ملاحم /أوغاريت- في سورية/ الشعرية المدونة بالأبجدية الكنعانية في منتصف الألف الثاني ق.م، تحمل اسم الملك /كرت/ أو /كريت/ مما يدل على اختلاط أهل تلك الجزيرة (اليونانية اليوم) بالمجموع السوري عبر التاريخ. مثلها في ذلك مثل جزيرة / قبرص. واسمها القديم هو /اليشا/. وعلى نحو خاص في العهد الفينيقي.

وكانت جزيرة /كريت/ الواقعة في شرق المتوسط مركزاً تجارياً هاماً في التعامل مع المشرق. وهي تُذكر في الوثائق الأوغاريتية الكنعانية وفي وثائق بابلية أقدم عهداً تعود للألف الثاني ق.م.

وبالمقابل، فقد تم العثور على وثائق بابلية و أوغاريتية في تلك الجزيرة. لذلك لا يُستبعد أن يكون بعض سكان هذه الجزيرة قد انضموا إلى المجموع البشري السوري الذي دخل مصر تحت اسم الهيكسوس.

ولقد مضى البعض بعيداً فقال ما معناه إن /الهيكسوس/ قد شكّلوا إمبراطورية امتدت من الفرات في سورية إلى بابل إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جزيرة كريت إلى نهر النيل حتى منطقة /النوبة/. وغير أننا نشير، وللأمر أهمية خاصة، إلى أن البحاثة عثروا في العراق على تمثال يعود إلى القرن السابع عشر ق.م، نُقش عليه اسم أحد كبار ملوك /الهيكسوس/ وهو الملك /كهيان Khyan الشهير في التاريخ. وربما كان هذا الاسم لقب الملك حيث سبق وأشرنا إلى أن الملوك الهيكسوس تشبهوا بالمصريين واعتبروا أنفسهم من صلب إلهي. حيث أن اسم الملك المذكور يشير كما لا يُخفى إلى لقب /كاهن/. وهو لقب حمله أكثر ملوك الهلال الخصيب القديم.

ولاشك أن الملك كان يعتبر نفسه كاهناً أعلى، إضافة إلى كونه الحاكم على الأرض. إضافة إلى ذلك فالملك نفسه، كغيره من ملوك /الهيكسوس، يحمل لقباً مصرياً، كما كانت عادة الفراعنة، وهو بالمصرية القديمة /سيو-سيره- رعseousereh-Ra./ ويعني اللقب /القوي كالإله رع/. والملك المذكور حكم من سنة ١٦٢١ إلى سنة ١٥٨١ق.م.

وهناك ملوك آخرون منهم الملك الشهير /ساليتيس/ الذي سبق ذكره. والذي حمل لقباً مصرياً هو: /سه-خا-ين-رع/. /-Se-kha-en-Ra/. والذي حكم من سنة ١٦٤٨ إلى سنة ١٦٣٣ق.م. وخلفه على العرش الملك /معطي -بري.Maati-bre/.

وهناك أيضاً الملك /أفوفيس الأول/ و/ أفوفيس الثاني/Apophis. وزوجة الملك / أفوفيس/ الأول اسمها /حوريه- Herit/. وهو الاسم نفسه الذي حملته الأميرة / حورية/ التي أصبحت زوجة الملك /كرت/ ملك أوغاريت. ثم الملك /يعقوب-حر-بعل Yaqoub.har.Baal//. ولا تُخفى كنعانية هذا الاسم. ولقبه المصري هو: ميرو-سيرMerou-ser/أي /رضي عنه رع/. وهناك أيضاً الملك /أمنيAmeny-/ القريب من اسم/أمين/، ولقبه المصري / أمون-Amon/أي /الإله القمر/. ونضيف إلى هذه القائمة اسم الملك /حامودي-Hamoudi/ وواضح أن جذر الاسم هو كلمة /حمد/.

ومن ثم فهناك أسماء ملوك هيكسوس تذكرهم وثائق /تل العمارنة/ نذكر منهم الملك /دنيانDenyen/ الذي يبدو اسمه كصيغة قريبة من اسم ملك أوغاريت الشهير /دانيل/ أو /الديان/.

وهناك أيضاً الملك /لوكو-Lukku/ مما يذكرنا باسم شهير في تاريخ المسيحية وهو /لوقا/ السوري أحد كتبة الأناجيل، والذي نظنه اسماً يونانياً. وتذكر النصوص أيضاً اسم داناين/. Danaeens الذي يُذكّر باسم /الدانيين /سكان/ كليكيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السورية/ كما بينت النصوص الفينيقية التي عُثر عليها في موقع /قره تيب/ Karatepe (اليوم في تركيا).

فـإذا نظرنا إلى كل هــذه الأسماء فإننا نرى بوضوح أنها سورية أو كنعانية التركيب والأصل. ولم يعد علماء اللغات القديمة اليوم يشكون في هذا الأمر. خاصة أن اسم كنعان كان معروفاً في مصـر منذ القدم في صيغة /كينا-خنـي/Kina-khni/ في رسائل / تـل العمارنة. وهو /كنن-Kn-n/ في اللغة المصرية القديمة.

أما السؤال: من أين أتى /الهيكسوس/؟ فالجـواب عليه أنهم دخلـوا مصر قادمين مـن سورية الطبيعية عن طريق فلسطين ثم عبروا صحـراء سيناء إلى مصر. ولعله لهذا السبـب اعتبرهم /ماتينون/ بدواً، أو سكان صحراء غـير مستقرين. غير أنه وكما سبق ونوهنـا، فإن أسماءهم لا تترك مجالاً للشك في أصولهـم الأثنية- الثقافية السورية التي أشرنا إليها.

في القـرن السادسـ عشـر ق.م. تمكن أمراء مدينة /طيبة/ المصرية، الذين تركهم /الهيكسوسـ/ يحكمـون تلـك المنطقة في مصر العليا القريبة من الحدود مع السودان، والذين شكلـوا السلالة الـ١٧، تمكنوا من محاربة /الهيكسوس/ والانتصار عليهم على يـد الفرعون /كاميسـKamis-/١٥٤١- ١٥٣٩ق.م.

أما خروج /الهيكسوس/ من مصر نهائياً، فقـد كان على يـد الفرعـون /اموسيس- Amosis/. وعلـى هـذا النحو تمكن هذا الفرعون من تحرير بلاده، وتأسيس السلالة الـ/١٨/ بعد احتلال عاصمة /الهيكسوس/ /أفاريس/ حيث انتهى حكم /الهيكسوس/ نهائياً.

مصادر البحث بالفرنسية:

1- Les civilizations Artiennes.

تأليف :M.Desti.

2- Legypte au temps des phraons.

تأليف:V.Koenig

3- Dictionnaire del'archeologie

تأليف:G.Rachet

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

4- Dictionnaire de la civilization egyptienne.

.Rachet: تأليف

5- Dictionnaire des biographies

.الجزء الأول. تأليف عدة مؤلفين

6- Pour comprendre l'Egypte antique.

. J.M.Thibaux:تأليف

7- L'eygpte ancienne

J.Vercoutter:تأليف

8- Lettres de tel Amarna- عدة محققين.

9- Dictionnaire des pharaons.

P.Vernus. J.Yoyotte: تأليف

10-Les desordres des siecles.

I.Velikoski:تأليف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أدب الأطفال

حسان القيسي ✲

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاهتمام بـأدب الأطفال هو جزء من الاهتمـام بالأطفال، وضرورة من ضـرورات تربيتهم وتنشئتهم بشكل صحيح. والاهتمام بأدب الطفل جزء من الاهتمـام بالأدب العربـي الذي يشمل جوانب الحيـاة ونشاطاتها المختلفة، الذي يوجه للناس كافة، ويسلـك أحسن السبل ليكون مؤثراً مفيداً. وإن من مسؤولية الأديـب إزاء أدب الأطفال أن يسهم بإبداعاته في الكتابة للأطفال علـى أسـس سليمة، وبأسلوب مناسـب، مع البحث الجاد عـن سمات هذا

✲ باحث سوري.

الأدب ومميزاته من خلال التجربة الفعلية، ومثل هــذه التجربة تستوجب معرفة نفسية الطفــل في المراحل كافة، معرفة قائمة على فهم الطبيعة الإنسانيــة، والفطرة البشرية التي جبل عليهــا الإنسان، ومعرفة سماتها، ونوازعهــا ودوافعها وغرائزهــا، والمؤثرات التي تترك بصماتهــا عليها، لتمده بمعرفة قويمــة تساعـده علــى اكتشــاف السبــل الصحيحــة للتعامل مع الطفــل من خلال الكلمة المبدعة.

يمكن أن نرصد في أدب الطفل ظاهرتين متميزتين، الأولى شعرية والثانية قصصية، وهــذان الجانبان الأدبيان لهمــا دور فعال في التربيــة والتعليم والتثقيــف، ولهما دور سلبي إذا أسيــئ استخدامهمــا، والقضية تتوقــف على مقــدرة الكاتب الــذي يكتب شعراً أو قصة للأطفال، فمن أبرز مميزات الكتابــة لهذا العالم الصغير أن يرسم الأديب للطفل علــى الورقة من وجهــة نظره كأنه يتقمص شخصية الطفل، ويستخدم الأشياء استخدامــاً مختلفاً عــن واقعها في عالم غير معقول ولكنه ممكــن من وجهة نظر الطفل ومنطقه.

فالكاتــب يحــدد العالم بمنطــق المتلقي في التفسـير والتعليـل والاستخــدام، ولا يخلق عالمــاً لا يتماشى مــع منطق الطفل، ويجــده الطفل عالماً غريباً وأحياناً يضحكه لسذاجته ويفهم أنه يخدعه، فلابد أن نحمل الأدب محمل الجــدّ، ونضعه سوية مع أدب الكبار القصصــي والشعري، فقاص الكبار ليس أرفع شأنــاً ومكانة من قاص الصغار، وأعلم بــأن القص للصغار لا يتأتى لكل من هبّ ودبّ، فالمضطلع بذلك ينبغي أن يعرف مراحل الطفولة وخصائصها ومراحل نموها العقلي والانفعالي والنفسي، والمعجم اللغوي الذي يستخدمــه في كل مرحلة من مراحل الطفل، فإذا كان كاتب الصغار يكتب بمنطق الكبــار، فإن مــا يكتبه لا يقــرأه الأطفال، فالطفل القارئ جــاد إذا وجد بين يديه ما يثير اهتمامه ويتعلق بمحيطه ويروي نزعاته ورغباتــه النفسية، فإقبالــه على القصص التي ينبغــي أن تتوافر فيها شروط قصص الأطفــال شكلاً ومضمونــاً، فالطفل يحتاج في كل مرحلــة عمريــة إلى قصص تختلف عن المراحل الأخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للأشعار والمسرحيات، ولكي نتحدث عن أدب الطفل ومميزاته في البلدان العربية لابد من إلقاء نظرة موجزة علــى خلفيته التاريخية عند الغرب وعند العرب.

فالبدايــة الأولى لهــذا الأدب كانت في فرنســا في القرن السابــع عشر حيث كانت السباقة في إخــراج كتب الأطفال فقد ألف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بـيرو أقاصيص وحكايـات الزمن الماضي، وكتـب بعده لبرنس دي بومـون عدداً كبيراً من القصص، ونشـر جان جاك روسو آراءه في تعليـم الأطفـال، وحدث الشـيء نفسه في انكلـترا فظهـر كتـاب أدب الأطفال في القرن السابـع عشر فأنشـأ نيويري مكتبة خاصة بالأطفال وألف توماس داي قصصاً للأطفـال وظهر بعدها ديفـو مؤلف قصة روبنسون كـروز، وتتابعت قصص الأفال في انكلـترا وفي غيرها من بلدان أوروبا وروسيا وأمريكا والشرق الأوسط.

وهـذا الفـن بشكلـه الأجنبـي لم يكن موجوداً في الساحة العربية بل وصل متأخراً بعد الاحتكاك بـالآداب الغربية شأنه شأن القصـة والمسرحية، وتأخر هـذا الفن إلى بداية القرن التاسع عشر وظهرت أول بادرة مترجمة على يد رفاعـة الطهطاوي، وتبعه محمد عثمان جلال وأحمد شوقي والهراوي وكامل الكيـلاني وسعيـد العريان وظهرت العديد من المجلات وكتب خاصة بالأطفال، فقد كتب أحمد شوقي ديوان شعر للأطفال فيه حكايات عن (الصياد والعصفور) وعن (الديك الهندي والدجاج البلدي) و(الثعلب الواعـظ) وغيرهـا فلأحمـد شوقي فضل المحاولـة الأولى وقد كان رائـداً في الكتابة للطفل، غير أنه كمـا يقول سليمان العيسى أنه كتـب للصغـار بلغة الكبـار ونسيجهم وتركيبهـم، أمـا كامل الكيـلاني فقد اهتم بالكتابـة للطفل في ميـدان القصة فأغنى مكتبته بعشرات القصص المؤلفة والمترجمة والمقتبسـة من شتـى الآداب العالمية، وعني بشكل خاصـ بتبسيط بعض الكتب العربية للشبـاب والأطفـال الناضجين مثل حي بن يقظـان، ورحلة ابن جبـير، وبعض قصص (ألف ليلـة وليلة)، وعني أيضـاً بشخصية (جحـا) لارتباطها بعالم الفكاهـة، ولم تكن الكتابة عنده عملاً عشوائياً بل كانت تخضع لدراية تامة بمراحل نمو الطفل، فكان يؤلف للطفل الصغير والمتوسط والكبير ووصل إلى درجـة من الكمال جعلته مثلاً للذين يكتبون للأطفال من بعده، وقد أخذ هذا الفن ينتزع اعتراف الهيئـات العلميـة والأدبية وسلك طرقه فاهتم به الكثير مـن الكتاب وخبراء التربية لدراسة قواعد تأليفه ورسم مناهجه وبيـان أجناسه كما ظهـرت العناية بدراسة قاموس الأطفال اللغوي، وحصرت الكلمات التي تناسبهم في مختلف مراحل العمر.

وهنـاك جملة مـن الكتـاب السوريين كتبـوا في الموضوع مثل سليمـان العيسى له مجلدات في القصـص والأناشيد والأغاني والمسرحيات، وكذلك زكريا تامر وعادل أبو شنب الذيـن لهم آراء قيمة حول هذا الفن،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فسليمان العيسى يقول: ثم تأتينا قصائد شوقي للأطفال فإذا هو يدق الباب الموصود ويدنو من العالم الذي أهمل حقباً ويلجه في كثير من المحبة والألفة، أن له فضل الريادة، فضل المحاولة الأولى، ولكن المحاولة تظل صلبة وعرة يسودها الجفاف في معظم الأحيان، لقد كتب شوقي للصغار ولكن بلغة الكبار وتعبيرهم، ولكن كان الرائد وتمضي الأيام ويأبى شعراؤنا المرموقون أن يترجلوا عن خيولهم الخشبية ليداعبوا طفلاً بأنشودة أو يضعوا على ثغره أغنية، ولابد من تسليح الأطفال بقيم جديدة منها الكلمة الحلوة والفكرة النبيلة والصورة الجميلة والموسيقى، ويحاول زكريا تامر أن تكون قصصه على مستوى فني يؤهلها لأن تصبح وسيلة تساعد الطفل على حب لغته العربية وتنمي قدراته على تذوق الأدب الذي يخاطب قلبه وعقله دون ترفع ودون إسفاف، ويحاول عادل أبو شنب كتابة قصص ومسرحيات تحض على التعاون وتقاوم الاتكالية، وكلهم يريدون توظيف الكلمة في خلق مناخات أخلاقية وقيم جديدة تبني الطفل العربي، ولعل الكلمة المأثورة (خاطبوا الناس بما يفهمون) خير ما ندخل به في الحديث عن لغة الطفل التي ينبغي أن تلائم عالمه ودرجة إدراكه ومحيط تخيله ودائرة معرفته، ومن هنا كانت الكتابة للطفل أصعب أنواع الكتابة لما تقتضيه من المعرفة الدقيقة لمعطيات التبليغ حتى يحصل التجاوب، ولعل الكاتب العربي لقصص الطفل يتوقف عند لغة أدب الطفل بسبب الانقسام الذي يعانيه المجتمع بين الفصحى والعامية.

ولابد في قصص الأطفال من عدد معيّن من الكلمات في الصفحة الواحدة حسب العمر وتشكيل الكلمات وكتابتها بحروف بارزة حتى يركز عليها الطفل، ويعوّد الطفل على خط ألفه في المدرسة يكتب به ويقرأه في المدرسة وفي القصص، وعن طريق تشكيل الكلمات يتعلم الطفل النطق السليم وتنمى ملكته اللغوية، فقد كان من المفروض أن لاينشر القصص حتى تمر على مصححين لغويين وتمر على لجنة السلامة الفكرية حتى لا نبقى في مرحلة التردي اللغوي، فالكتابة للطفل تتطلب دراية واسعة وجلداً وصبراً، وإنها محاولة لرصد الشخصية الإنسانية في مراحل نموها وتطورها وتكاملها، وهي تراعي مستويات الذكاء المختلفة، والأمر لا يتوقف على كتابة الشعر والقصة للأطفال بل هناك في المجلات يلاحظ تنوع في الموضوعات والأركان وتعدد أساليب التعبير، وهي تنحو منحى تعليمياً وترفيهياً وتحاول إقرار بعض القيم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كالأخلاق الحميدة والصدق وعمل الخير والتعاون والعطف على الضعيف وبإمكاننا أن نقف قليلاً مع بعض المجلات المخصصة للطفل والتي تنوّع في مواضيعها، فمجلة أسامة للصفوف الابتدائية من المجلات الرائعة غنية وثرية فيها عدة أركان: القصة القصيرة المشوقة، التعرف على شخصيات تاريخية عربية وعالمية -التعرف على مستحدثات الحضارة- الرسم والتلوين- بريد الأطفال- والتعرف على الأصدقاء- ضحكة وابتسامة- سؤال وجواب- نادي الموهوبين- المسابقة، إلى غير ذلك.

ومن القصص المترجمة سلسلة عالم ديزني العجيب، وتتكون هذه المجموعة من مغامرات وقصص مثيرة، من أبطالها: ميكي وبطوط ودامبو وغيرهم من شخصيات والت ديزني العجيبة، صدر منها: كلوب وثعلوب- المطحنة السحرية، روبين هود وعيد ميلاد الأرنب إسكيبي، بندق راعي بقر، ميكي في بلاد الأقزام، وكذلك الأمر هو في مجلة سلسلة ثورمان المترجمة، فالغلاف فيه لوحة ناطقة ومعبرة وجذابة ويتخلل قصة ثورمان المغامر الجبار استراحة بين كل اثنين أو ثلاثة صفحات تقدم فيها مثلاً ركن (أضف إلى معلوماتك- اختبارات الذكاء)، الإعلان عن قصص أخرى ومغامرات أكس ما وسبيدرمان مثلاً: كلام من ذهب (حكم)، نادي العلوم- حكايات عربية، كلمات متقاطعة، وهناك سلسلة دونالداك القصصية المترجمة منها: دونا الكسول- سارق البيتزا- مدينة البط- سباق الكلاب- الأميرة الذهبية.

فالتشخيص هو الأساس في هذه القصص فمثلاً قصة دونا الكسول الغلاف لوحة مرسومة بالألوان معبرة واللوحات الداخلية كثيرة في أعلى وأسفل الصفحات أو بجوار الكتابة، ويستطيع التلميذ أن يعيد سرد القصة من خلال هذه اللوحات، فهذه القصة تجعل البط بطلاً وتلك تجعل الذئب أو الثعلب أو السلحفاة، وأغلبها تؤكد على أن يكون الأبطال من عالم الحيوان، لأن قصص الأطفال فيها من الرمزية الشيء الكثير ومشكلاتنا كالحرية والوحدة والتعاون تعالج على لسان الحيوان في قصص الأطفال ونادراً ما ترى قصة أبطالها من البشر فهي مناسبة للكاتب يقول ما يشاء، وما لا يستطيع قوله في الواقع، وهناك بعض القصص الصادرة في لبنان كقصة الحمامة والنملة التي تجسد فكرة الإحسان ورد الجميل مع تشخيص النملة التي اسمها وفاء والحمامة اسمها حنان حيث أنقذت الحمامة النملة من الغرق وأنقذت النملة الحمامة من الصياد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإذا كنت قد ركزت في حديثي عن القصص على اللغة والخط واللوحات المرسومة والموضوع فهذا عن قصد لأن الإخراج الفني للقصص وجمال الغلاف يجذب الطفل إلى الكتاب فالغلاف لوحة فنية يحتاج إلى جهد ووقت وإبداع وهو أكثر فائدة للأطفال والأمر نفسه ينطبق على اللوحات الداخلية التي تقوم بمساعدة الطفل على القراءة لأنها تلخص جملة من المعاني عن طريق الخطوط والألوان وهذا ينبغي وضعها إلى جانب الرموز الكتابية وإلا فقدت تأثيرها في الطفل، وأحياناً يطغي التعبير بالرسم على التعبير بالكلمات بحيث تغدو اللوحة العامل الوحيد لفهم القصة وهذا النوع من اللوحات في الكثير من قصصنا مفقودة، أو أن مضمونها غالباً ما يكون بعيداً عن واقع الطفل، وصور الغلاف تساعد الطفل على الاحتفاظ بالقصة أو تبادلها أو إهدائها أو شرائها، فليس كل من «هبّ ودبّ» يكتب قصة للأطفال فتكون هزيلة المحتوى ويبتعد موضوعها عن واقعه وتطلعاته، وليس فيها ما يجذب به الطفل إليها، باهظة الثمن، ويرجع انصراف الطفل عن قراءتها إلا راجع إلى هذه الأسباب مجتمعة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجولان تاريخ لا يندثر

إياد فطين بدر ❁

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجـولان... هذه البقعة الحاضـرة دوماً.. بمختلف مراحلها وعصورها، في عالمهـا القـديم والحديث، تعاقبـت عليها حضارات وويـلات من غزو وحـروب واستعمار بكل أشكالـه ومراحله منذ القدم حتـى الآن، لما يتميز بـه موقعها الجغرافي وثرواتها وغنـى مياهها من بحيرات وأنهار وغابات... ولطالمـا كان الجولان محط أنظار الطامعين والغـزاة على مرِّ العصور حتى

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ابتلي بالاستعمار الصهيوني الإسرائيلي في وقتنا الحالي منذ احتلاله للجولان عام ١٩٦٧ م حيث احتلت «إسرائيل» ١٢٥٠كم٢، من مساحة الجولان (١٨٦٠ كم٢)، وذلك لما يمثل من أهمية استراتيجية من حيث الموقع الجيوسياسي للمشروع الصهيوني والقوى الاستعمارية الداعمة له للسيطرة على منطقتنا العربية، إضافة إلى غناه بالمياه التي من أجلها تدور الحروب الآن، وخاصة أن العالم بأسره يعيش أزمة مياه تهدد شعوباً ودولاً بأكملها والمضحك المبكي أن الدول العربية لا تتنبه لهذا الخطر الذي يجتاح العالم...! إضافة إلى المحاولات الإسرائيلية للسيطرة على منابع المياه في منطقتنا من دون رادع لها (محاولة السيطرة على المياه في جنوب لبنان، والأردن، ومصر، واستنزاف مياه الجولان وحرمان العرب من الاستفادة من مياههم.

المياه في الجولان

تتركز مياه الجولان في أطرافه الشمالية والغربية والجنوبية بسبب العوامل الجيولوجية والتضاريسية والمناخية، شكّلت المياه السطحية حوضين لتجمعها.

الأول: وهو الأوسع حوض نهر الأردن وبحيرة طبريا ومساحته (١٠٥٠كم٢) وتتجمع فيه مياه القسم الغربي من الجولان التي تنتهي في نهر الأردن وبحيرة طبريا

والثاني: حوض وادي الرقاد الذي يجمع مياه القسم الشرقي من الجولان ومساحته حوالي (٥٠٠كم٢) وينتهي جنوباً بنهر اليرموك الذي ينتهي بدوره في نهر الأردن غرباً.

الجريان السطحي: ويقصد به مجموعة الأنهار والأودية والسيول، والمجاري المائية الدائمة والموسمية.

من أنهار الجولان...

نهر بانياس: ينبع من المنحدرات الشمالية الغربية للجولان وينحدر في منطقة صخرية منعطفاً حول مدينة بانياس مسافة كيلومتر واحد وبغزارة تبلغ ٢,٥ م٣/ثا قبل أن يصب في نهر الأردن ويبلغ طوله /٩/كم منها /١/ كم في الأراضي السورية ويعتبر من أهم روافد نهر الأردن.

نهر الحاصباني: ينبع من شمال قرية حاصبيا في لبنان عند سفوح جبل الشيخ (عين الفوار) بغزارة (١٠م٣)/ثا، ويبلغ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تصريفه (١٥٧)/م.م٣ من نهر الوزاني الذي يرفده قبل خروجه من لبنان.

نهر الدان (القاضي): ينبع من تل القاضي من فلسطين، ويبلغ تصريفه /٢٥٨/م.م٣، وهي تعادل ٥٠٪ من مجموع المياه التي تصب في بحيرة طبريا التي يخرج منها نهر الأردن، ويلتقي بنهر بانياس ليرفدا نهر الحاصباني.

نهر الأردن: يعد من أهم الأنهار في المنطقة، وهو نهر دائم الجريان، يصل طوله إلى /٣٢٠/كم. تتغذى روافده الثلاث الرئيسية (بانياس، الدان، الحاصباني) من جبل الحرمون في منخفض الحولة، ويضاف إلى ذلك مياه بحيرة طبريا، كما يرفده نهر اليرموك، وتبلغ مساحة حوضه /١٨١٤٠/كم٢

نهر اليرموك: ينبع من المناطق الجنوبية في سورية من الجولان ويجري في الأردن مشكلاً حدودها مع سورية ليصب في نهر

الأردن على بعد٩كم جنوب بحيرة طبريا، تبلغ مساحة حوضه حوالي ٧٥٨٤ كم٢ منها ٥٥٠٠ كم٢ في سورية والباقي في الأردن، وطول النهر الإجمالي /٥٧/كم منها /٤٧/ كم في سورية و/١٠/ كم في الأردن وهناك مجموعة من الأودية الرافدة لنهر اليرموك، وهي: الرقاد، العلان، العرام.

وادي الرقاد: وادي سيلي يجري في الشتاء فقط ثم يجف في باقي فصول السنة،

يبلغ طوله تقريباً حوالي /٧٠/كم وتصريفه يتراوح من ٥- ١٠٠م٣ حسب الهطولات المطرية.

وادي الخشابي: يبدأ تشكله من ارتفاع ٢٠٠٠م شمال قرية مجدل شمس ويتجه إلى الجنوب الغربي ليرفده عدد من الأودية أهمها وادي الدفين، ثم ينتهي في نهر بانياس إذ يبلغ طوله حوالي /٧/كم.

وادي الفاجر: يتشكل قرب قرية المغير على ارتفاع /٨٥٠/م نهر دائم الجريان ويبلغ طوله حوالي /١٣/كم.

وادي النسرة: يبدأ من قرية عين الحجل ويتجه غرباً ثم ينتهي في سهل الحولة، وقد أقامت «إسرائيل» على هذا الوادي وروافده سد المنصورة غرب مدينة القنيطرة.

وادي حواء: يبدأ من الجنوب الغربي للقنيطرة على ارتفاع /٧٥٠/م وترفده مياه عين السمسم ونعران وتزداد غزارته ويتابع مجراه ليصب في بحيرة طبريا بعد أن يبلغ طوله /٢٦/كم.

وادي السمك: يبدأ من غرب قرية البجورية على ارتفاع /٤٣٠/م، ثم يلتقي بوادي الدفيلة على ارتفاع /٢٥/م وينحدر ليصب في بحيرة طبريا عند قرية الكرسي منخفضاً /٢١٢/م عن سطح البحر.

وادي السعار: يبدأ تشكله من سفوح جبل الشيخ حيث يبلغ طوله /١٢/ كم ويلتقي مع نهر بانياس ليرفد نهر الأردن. ومن أهم الأودية أيضاً :أودية (عين التينة، جليبينة، الدبوس، حميد، الناشف، حلاوة، دبورة، عين ربيعة، الزيتون، زيتة، زويتينان، جرمانا، بترا، المراوي، السمطات، شقيف، المندسة، الخيايطة، مسعود، عبده، خالد).

الينابيع: تقدر بحوالي /٨٠/ نبعاً وأغلب هذه الينابيع مياه حلوة صالحة للشرب.

المياه الجوفية: تعتبر مصدر هام للموارد المائية في منطقة الجولان، فهي عبارة عن كمية مياه الأمطار والثلوج المتسربة إلى التكوينات الجيولوجية في باطن الأرض، وتقدر نسبة الأمطار المتسربة بحوالي ٣٥٪ من إجمالي الأمطار الهاطلة، لتشكل حوض نهر الأردن وبحيرة طبريا وتبلغ مساحة هذا الحوض /١٨١٤٠/كم٢.

بحيرة طبريا: تقع في الجنوب الغربي من الجولان، تعتبر خزاناً طبيعياً للمياه، طول البحيرة /٢١/كم، وعرضها الأكبر /١٢/كم،

مساحتها /١٤٤/كم٢، وعمقها/٤٢-٤٨/ م، وتبلغ سعة تخزين البحيرة /٤,٢٣٦/ مليارات م٣. والمنسوب الطبيعي لمياه البحيرة /-٢٢٠/م عن سطح البحر.

بحيرة مسعدة: تقع بكاملها على فوهة بركان إلى الجانب الشرقي من قرية مسعدة في شمال الجولان، ويفصلها عن جبل الشيخ سهل (مرج اليعفوري)، وهي بحيرة متشكلة في فوهة بركان خامد، وتبلغ مساحتها حوالي /١,٥/كم مربع .ويتراوح عمقها من /٨-٩/ أمتار بتخزين /٦/م.م٣ وتقع على علو /٩٤٥/م فوق سطح البحر، تتغذى من مياه الأمطار والثلوج الذائبة وبعض الينابيع الصغيرة المحيطة بها ترتفع حوافها من /٤٠-٧٠/م فوق سطح البحيرة.

بحيرة الحولة: قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي في الفترة بين /١٩٥١-١٩٥٨/ بتجفيف بحيرة الحولة وأراضي المستنقعات المحيطة بها على الرغم من معارضة سورية للأمر كون جزء من تلك الأراضي يقع في المنطقة منزوعة السلاح. وقد أدى هذا إلى تغيير في النظام البيئي واختفاء الكثير من النباتات والحيوانات البرية التي كانت تعيش في المنطقة.

سرقة الاحتلال الإسرائيلي لمياه الجولان: كانت المياه السبب الرئيسي الذي دفع إسرائيل لشن الحرب في حزيران ١٩٦٧ على الدول العربية وبرزت ضائقة المياه بشكل واضح عام /١٩٧٩/ عندما صرح مائير بن مائير (مفوض المياه): (بأن إسرائيل تحتاج إلى احتياطي باطني استراتيجي يقدر بـ/٥/ مليارات م٣ من المياه الجوفية لتؤمن استهلاك (١,٦) مليار م٣ سنوياً، ولم يتوافر أكثر من نصف هذه الكمية لذا تعمل إسرائيل على استنزاف المياه العربية الجوفية والسطحية والسيطرة عليها) إن المشروع الصهيوني لإنشاء دولة إسرائيل يعتمد على ثلاثة محاور أساسية مترابطة ومن أهمها: الاستيلاء على المصادر المائية العربية التي تؤمن حاجات المستوطنين الصناعية والزراعية والمنزلية وغيرها. والقائمون على المشروع الصهيوني من بدايته يحلمون بأن تكون لهم دولة قومية تسيطر على مصادر المياه في جنوب لبنان وفلسطين والأردن وهضبة الجولان السورية إضافة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لهذه المطامع العامل الجيوسياسي من خلال عوامل ضغط على الطرف العربي بالسدود التي تقوم بها تركيا على نهري الفرات ودجلة بتمويل من أوساط لها علاقة مباشرة مع إسرائيل إذ وضع خبراء إسرائيليون مشروع الغاب الذي يقضي بإقامة ١٧ سداً تركياً على نهر الفرات وأربعة سدود على نهر دجلة بحيث يتدنى منسوب الفرات إلى ١٤ مليون متر مكعب يفترض أن تنساب إلى الأراضي السورية (مقابل ٢٨ مليون متر مكعب قبل المشروع).

* لم تغب قضايا المياه والأطماع الإسرائيلية عن الملفات المائية لكثير منها، ونوجز فيما يلي أهمها: **-الملف المائي الفلسطيني- الملف المائي الأردني- الملف المائي اللبناني- الملف المائي المصري والسوداني.**

الملف المائي لسورية والأطماع الإسرائيلية في مياه الجولان

تستغل إسرائيل معظم المياه في الجولان السوري المحتل وهي كميات ضخمة تعادل ضعفي كمية المياه السطحية التي تغذي بحيرة طبرية والتي من المتوقع أن تصل إلى مليار متر مكعب. وسنبحث فيما يلي فقط الأطماع الإسرائيلية في مياه الجولان لذا لا بد من التعريج على أهمية الجولان الجغرافية وغناه بالمصادر المائية لغنى الجولان بالمياه والينابيع الغزيرة والأنهار والهطولات المطرية في الجولان وسطياً تقدر بحوالي /١,٨,١/مليار م٣ سنوياً. ويعود تاريخ الأطماع الصهيونية في الجولان لأوائل القرن العشرين، وهو تاريخ بدء النشاط الملموس للحركة الصهيونية في إطار العمل على تجسيد مشروع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين ويعتبر احتلال الجولان حلم من الأحلام الإسرائيلية في الأراضي السورية وقد عبر عن ذلك رئيس وزراء الكيان الصهيوني /ديفيد بن غوريون/ في مذكرته للحكومة البريطانية عام ١٩٢٠ بقوله: (طالبنا دائماً أن تشمل أرض إسرائيل الضفة الجنوبية لنهر الليطاني وإقليم حوران من منبع اللجاه، «وأنهر إسرائيل» هي: الأردن والليطاني واليرموك وأن البلاد بحاجة إلى مياه تلك الأنهار)، وتحاول إسرائيل أيضاً التسلل يوماً بعد يوم إلى دول منابع دجلة والفرات والنيل وهما تركيا وأثيوبيا محاولة إشعال نار الفتن بينها وبين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدول العربية (سورية، العراق، السودان، مصر) ومنع تلك الدول من الاستفادة من مياه تلك الأنهار وهذا ما يؤدي لإضعافها اقتصادياً، كما أكد على أن (اليهود يخوضون اليوم مع العرب معركة المياه، وعلى مصير هذه المعركة يتوقف مصير «إسرائيل»، وإذا لم ننجح في هذه المعركة فإننا لن نكون في فلسطين) وقال الصهيوني هرتزل: (إن المؤسسين الحقيقيين للدولة اليهودية القديمة والحديثة هم مهندسو المياه) وقامت حكومات الكيان الصهيوني متعاقبة بتنظيم المسألة المائية ونقلها من المواضيع النظرية قبل قيام الكيان الصهيوني إلى التطبيق العملي وعملت على إصدار قانون لاستثمار المياه وهيأت الظروف المواتية لذلك بهدف أن يستفيد اليهود من أكبر كمية من المياه المتوافرة في فلسطين، ولذلك خصصت الإدارة الإسرائيلية لثلاث جهات أساسية مهمة الاهتمام بالمسألة المائية وهي:

١- **لجنة المياه**: تأسست عام ١٩٤٨ بعد قيام الكيان الصهيوني.

٢- **شركة تاهل**: تأسست عام ١٩٥٢، ومهمتها القيام بالتخطيط المائي ودراسة الجدوى الاقتصادية للمشاريع المائية المستقبلية، وتمول هذه المؤسسة من قبل الصندوق القومي اليهودي بنسبة ٢٤٪ والوكالة اليهودية العالمية بنسبة ٢٤٪ والحكومة الإسرائيلية بنسبة ٥٢٪.

٣- **مؤسسة /يكوروت/**: وتقوم بتنفيذ ومتابعة المشاريع المائية المخططة من قبل مؤسسة تاهل وتنظيم عملية استهلاك المياه، وتمول هذه المؤسسة من قبل الصندوق القومي اليهودي والوكالة اليهودية بنسبة ٣٣٪ لكل منهما والحكومة الإسرائيلية بنسبة ٣٤٪. ويرتبط عمل هذه المؤسسات مع عمل وزارات (الزراعة، المالية، الدفاع، معهد الدراسات الاستراتيجية اليهودية)، ولذلك كانت الاعتداءات الإسرائيلية على سورية بالعدوان الذي قامت به إسرائيل على العرب في حزيران ١٩٦٧ والذي كانت نتيجته احتلال الجولان السوري وشبه جزيرة سيناء المصرية وباقي الأراضي الفلسطينية. ولضمان فعالية سياسة الطرد والتهجير، وبتاريخ ١٩٦٨/٣/٢٤ أصدر قائد قوات الاحتلال الأمر العسكري رقم /١٢٠/ حدد هذا الأمر أعمال المياه التي قد تؤثر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على مصادر المياه كما يلي: (أعمال الحفر، تحويل المياه، استخراجها، ضخها، نقلها، تصريفها، إنشاء مشاريع المياه، إنشاء وبناء السدود والمنشآت الأخرى أو على مقربة منها، حفر القنوات، البحيرات، الخزانات، وسائر مجامع المياه، استعمال المياه للري، أو لأي غاية أخرى وكل عمل آخر قد يؤثر على مصادر المياه أو يغيرها). وبموجب هذا الأمر قام القائد العسكري لقوات الاحتلال بتعيين مسؤول، خولت له كافة الصلاحيات المتعلقة بأعمال المياه. ولضمان السيطرة على مصادر المياه الموجودة في الجولان المحتل جاء في الأمر رقم /١٢٠/: لا يجوز لأي شخص أن يقوم ولا أن يتسبب في القيام بأعمال المياه أو بأي منها إلا بموجب ترخيص جدي صادر عن المسؤول ووفقاً لشروط الترخيص.

- كل ساكن في المنطقة (الجولان المحتل) يستخرج المياه أو يوردها أو يستهلكها للشرب أو للاستعمال الزراعي، يحق له أن يستمر في استخراج أو توريد أو استهلاك الكميات نفسها من المياه وبالشروط نفسها، ما لم يأمر المسؤول بخلاف ذلك.

- يجري المسؤول كشفاً عن مصادر المياه، ويجوز له لهذا الغرض أن يلزم كل شخص تقع تحت حيازته أو ملكيته أية منشأة معدة لتنفيذ أعمال المياه أو أي منها بموافاته بالبيانات التي يطلبها المسؤول.

- تنفيذاً لهذا الأمر يجوز للمسؤول دخول أي مكان يقع فيه مصدرٌ أو توجد فيه منشأة لتنفيذ أعمال المياه أو تجري فيه أعمال المياه،وتخول له بهذا جميع الصلاحيات لاتخاذ أية وسيلة لتنفيذ أحكام هذا الأمر بما فيها استعمال القوة العسكرية.

ج- يجوز للمسؤول أن يلزم كل شخص في حدود منطقته التي تقع تحت حيازته منشأة معدة لضخ المياه أو لاستخراجها، بتشغيل المنشأة وبتوريد المياه لمن يأمر به المسؤول وبالشروط نفسها التي يحددها المسؤول. يتضح من النصوص في هذا الأمر العسكري أنه وضع لتسهيل مهمة سلطات الاحتلال في ممارسة سياستها التوسعية الموجهة للسيطرة المطلقة على كافة مصادر المياه الموجودة في الجولان.كما قامت إسرائيل بتنفيذ أكثر من /٢١/ تجمعاً مائياً لاستنزاف واستثمار مياه الجولان لصالحها موزعة هذه التجمعات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في منطقة شمال غرب بحيرة طبريا ومنطقة غـرب قرية جويـزة ومنطقـة جنوب شرق بحـيرة طبريـا، والموقع الآخـر في المنطقة الشمالية الغربية من الجولان وآخرها موقع سد لتجميع مياه القنيطرة والذي تمَّ تنفيذه علـى مسيل القنيطرة المغذي لوادي الرقاد، وبذلـك تمَّ حرمان المواطنـين السوريين في القسم المحرر من الجولان من الاستفادة من هـذه المياه، كما أن موقـع السد فنياً يشكل خطراً على المنازل في مدينة القنيطرة كونه مقـام ضمـن المدينة.كما نفـذت إسرائيل مجموعـة مـن السدود الصغيرة في وسط الجـولان: سد على مسيل أبي قطيف وعلى وادي عين حبيب في موقع عين جريب غرب بلـدة جويزة- سد علـى وادي الغسانية في موقع عين الحاكم جنوب غرب عين عيشة- سـد على مسيل الطاحونـة في موقع خربة الطاحونـة جنـوب تل يوسف جنـوب بلدة خويخـة- سد قيد التنفيذ في الجزء المحتل من مدينة القنيطـرة في موقع بركة الزبدة على مسيل القنيطرة.

وقامت إسرائيل بحفر العديد من الآبار الارتوازية في جميـع أنحاء الجولان المحتل لتحصل علـى ملايين الأمتـار المكعبة من المياه الجوفية وتحويلهـا للمستوطنين وإلى داخل إسرائيل.وقد ذكر الفلاحون السوريون المقيمون علـى مقربة من خط وقف إطلاق النار في الجانب السـوري أن غزارة آبارهم تزداد فجـأة بعضـ الأحيان أثنـاء عطلة الإسرائيليين يـوم السبت، مـا يثبت سرقة إسرائيـل ليس لمياه الجـولان المحتل فقط، وإنما للمناطق القريبـة منه أيضاً. تعمدت إسرائيل تحويل مياه فيضانات سد المنصورة وتمرير غـزارات كبيرة إلى السدود السورية المقامة في الجـزء المحرر من الجولان شرق خط وقـف إطلاق النار بغرضـ تخريبها، كما عمدت إلى استنزاف بحيرة طبرية ونقل المياه عن طريق عدة محطات ضخ وخطوط دفع (الناقل الوطني كما يسمونه) إلى داخل فلسطين المحتلة ومنطقة النقب، وأدى الضخ الجائر لميـاه البحيرة إلى انخفاض منسوبها الطبيعـي، كمـا أن تحويل مجاري بعض الأنهـار المغذيـة للبحيرة من قبـل سلطات الاحتلال أدى إلى استنـزاف مياهها بشكل واضح وانخفاض كبير في المياه المغذية للبحر الميت من بحيرة طبريـا. إضافة لاستيلائها

على المصادر الطبيعيــة للمياه، فقد قامت إسرائيــل ببناء أكثر من ٢٠ بركة اصطناعية في استطاعتهــا استيعاب حوالي /٦٠/م.م٣ من مياه الأمطــار والينابيع والوديان، حيث تتــم تعبئتها في فصل الشتاء وتستخدم لري الأراضــي الزراعيــة التابعــة للمستوطنين طيلــة فصل الصيف ونقل الباقي إلى داخل إسرائيل في الوقت الذي قامت فيه إسرائيل بمنــع الســكان العرب السوريــين من حفر الآبار الارتوازية وتشييد البرك الاصطناعية لدرجة حرمانهم من تجميع السيول والينابيع التي تجري خلال فصل الشتاء لاستخدامها في ري الأراضــي الزراعية التابعة لهم. كما عمدت إلى تجفيف برك المياه التي يستفيد منها المواطنون العرب والناجمة عن تجميع الأمطــار والثلــوج والتــي كان عددها نحو /٤٠٠/ بركة. كما بدأت إسرائيل في الأشهر الماضيــة بإنشاء مجمع مياه كبير في الجولان لتحويل مجرى المياه من روافد وادي الرقاد وإبقائهــا في القســم المحتل مــن الجولان وذلــك تحت أنظار قوة الأمم المتحدة وقرب موقع الوحدة البولونية التابعة لقوات الأمم المتحدة من هذا الموقع خلافاً للقانون الدولي وقــرارات الأمم المتحدة التي تعتبر الجولان أرضاً محتلة.مما تقدم تتبين الأهمية الكبرى لمنطقــة الجولان بقسميهــا المحرر والمحتل والأطماع الإسرائيلية القديمة والحديثة به.

الآثار في الجولان السوري

تعتــبر محافظــة القنيطــرة مــن أغنى المحافظــات السورية بالآثــار المنقولة وغير المنقولــة والتي تتحدث عــن أرض الجولان منــذ فجــر التاريخ حتى هــذا اليوم وهذه الآثار تتحدث عــن فعاليات سكان الجولان على مر العصور التاريخية المتعاقبة فكانت عمارة الحصون والقلاع.و إبداع روائع الفن في جميــع المجالات في النحت و الفسيفساء والآثــار الزجاجيــة والفخاريــة والمعدنية والعاجيــة والحليّ والنسيــج وصك النقود وبناء الأقنية وحفر الآبار وأحواض المياه وما يتبــع ذلك من علاقات دوليــة آنذاك الأمر الــذي جعل من منطقة الجولان متقدمة في جميع المجالات العمرانية والثقافية والمدنية على مــر العصور وهذا من خــلال دراسة الآثار المادية في الجــولان، والتي دلت على وجود الإنسان منذ أقدم العصور حيث كان فيها مختلــف الفعاليــات الحضارية كونها

عقدة مواصلات هامة ما بين العمق السوري والدول المجاورة، لبنان وفلسطين وسواحل البحر الأبيض المتوسط وشبه الجزيرة العربية وتجارة اليمن السعيد والتي شهدت في عصور العرب الآموريين والكنعانيين والآراميين والأنباط والغساسنة والعرب المسلمين، كما شهد الجولان تسلسلاً حضارياً مما ينم عن إبداع حضاري متواصل تتابعت مسيرته منذ العصور الحجرية وعن غناه بآثاره التي تدل على وجوده من خلال آثار ما قبل التاريخ، والآثار الكنعانية والآرامية والنبطية والغسانية والإسلامية ودورها الحضاري البارز في مسيرة الجولان الخالدة عبر العصور التاريخية المتعاقبة ولابد من الإشارة إلى أن أرض الجولان تكاد تضم في كل شبر فيها أثر يدل على عروبتها وتمسك الإنسان العربي بها منذ أقدم العصور ومن خلال دراسة أجراها المستشرق الألماني «شومخر» تبين وجود عدة مواقع أثرية ودراسته كانت للمنطقة الوسطى والجنوبية من أرض الجولان وتوزيع هذه المواقع حسب العصور التاريخية يأتي على الشكل التالي:

١٥ موقعاً أثرياً من العصور الحجرية.

- ١٢ موقعاً أثرياً من عصري النحاس والبرونز القديم ٤٠٠٠-٢٠٠٠ ق.م
- ٢٤ موقعاً أثرياً من عصر البرونز الوسيط ٢٠٠٠-١٥٠٠ ق.م
- ٦ ستة مواقع أثرية من البرونز الحديث ١٥٠٠-١٢٠٠ ق.م
- ٩٨ موقعاً أثرياً من العصور الرومانية والبيزنطية من ١٠٠ ق.م حتى ٤٠٠م. ومن ٤٠٠م حتى القرن ٧٠٠م.

.٧٢ موقعاً أثرياً من العهود الإسلامية المتلاحقة من القرن ٧م. حتى القرن ١٩م

وقد استرعت منطقة الجولان المكتشفين الأوروبيين في القرن ١٩وفي النصف الأول من القرن العشرين ومن أبرز الرحالة الذين زاروا الجولان: زيتزون في عام ١٨٠٦م- بوركهارت- الشيخ إبراهيم عام ١٨١٠م. بوكنغهام عام ١٨١٦م- أليفانت عام ١٨٧٩م، فسجلوا انطباعاتهم ووثقوا بعض الآثار الثابتة والظاهرة للعيان المنتشرة في كثير من مراكز السكن في الجولان والمسح الأول للمناطق الأثرية في الجولان أجراه المهندس الألماني شومخر في الأعوام ١٨٨٣-١٨٨٥. وألف كتاباً يحمل اسم الجولان (The

GOLAN) لم يتطرق فيه إلى المنطقة الشمالية الغربية في الجولان لعدم تمكنه من زيارتها ويبلغ عدد المواقع التاريخية والأثرية التي عثر عليها في «الجولان» ٢٠٩ مواقع مسجلة بموجب القرار ١٤٦/أ تاريخ ١٩٨٣/٩/٣ الصادر عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية. تُقسّم المواقع التاريخية والأثرية في «الجولان» إلى أربع مراحل زمنية لسهولة التعرف عليها وهي مواقع عصور ما قبل التاريخ: ومن أهم هذه المواقع الأثرية «منطقة الحمة- بركة رام- حوضة القنيطرة- وادي السمك». وقد عُثر في هذه المواقع على فؤوس يدوية ومقاحف وأدوات ميكوكية وموستيرية ولفلوازية.

مواقع عصر البرونز والحديد: ومن أهم مواقع هذا الفترة رجم الهري- اللاوية- تل القاضي- وادي الرقاد - تل الجوخدار.

مواقع العصر الكلاسيكي: ومن أهمها «بانياس- جسر بنات يعقوب- فيق- خسفين- الرفيد- دير سراس.

مواقع العصور العربية والإسلامية: ومن هذه المواقع: «القنيطرة- جباتا الزيت- جباتا الخشب- الخشنية- صيدا- دبورة- السنابر- كفر حارب». أما أهم القلاع والحصون المنتشرة في «الجولان» فهي قلعة «الصبيبة» الأثرية التابعة لبلدة «بانياس الجولان»، وقلعة «الحصن» الواقعة إلى الغرب من مدينة «فيق»، وبعد وقوع الجولان تحت الاحتلال الإسرائيلي تعرضت معظم الآثار والمواقع التاريخية للتخريب والسلب والسرقة من قبل سلطات الاحتلال. وتجميع آثار الجولان في متحف «كتسارين» المبني على أنقاض قرية «قصرين» العربية وبعد الاحتلال الإسرائيلي للجولان عام ١٩٦٧ بثلاثة أيام بدأ بتقيب غير شرعي في أراضي الجولان وأعلنت وسائل إعلامه أنه باشر بالكشف عن الكنوز الأثرية في بانياس والحمة وفيق ورجم فيق والعال وخسفين والجرينة وغيرها من المواقع والتلول الأثرية وبعد أقل من عام نشرت الصحف والمجلات العالمية ومنها جريدة (الفيغارو الباريسية) عن القطع والكنوز الأثرية المهداة من سلطات الاحتلال إلى روتشيلد وروكفلر وغيرهم ممن يساند إسرائيل في عدوانها، كما تحدثت عن المجموعات الأثرية القديمة المعروضة في بيوت دايان ويادين وغيرهم من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متنفذي جيش الاحتلال الإسرائيلي. إضافة لسرقة إيلي شارون لآثار في منطقة بانياس والآثار القليلة التي تمت لليهود في الجولان وهي ذات طابع ديني، وتؤكد عروبة الجولان وعراقته.

خاتمة

من خلال ما تقدم في هذا البحث تجتاحني صرخات الأنين ودموع القهر بين طيات الكلمات ونشوة الصمود، وتراودني الصيحات والأفكار من كل حدب وصوب.... وأستذكر حديث عمي (أ. فهيم بدر) عندما يحدثني دائماً عن الجولان وعن قريتنا (زعورة) أدركت بعمق غصّاته وبوح القهر في كلماته كانت الصيحات والزفرات والصرخات نفسها... نعم هذا الجولان.. هذا معنى الأرض الذي يتغلغل فينا لتصبح أعمارنا بعمر أرضنا التي ستعود، الأرض التي سنشرب من مائها ونأكل من خيراتها.. وليسمع أول وآخر صهيوني ومستوطن أننا سنعود بهذه الدموع والأنات والصرخات لنعانق أمجادنا من جديد.

مصادر البحث

- كتاب (الجولان تاريخ وجذور) أحمد محمود حسن.
- الآثار في الجولان: الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب /وزارة الثقافة/.
- مجلة الفكر السياسي.
- مواقع إلكترونية: مركز الجولان للإعلام والنشر.
- موقع الجولان.
- مجموعة مقالات (الجولان في القلب)/ جريدة الثورة
- دليل المواقع الأثرية في الجولان: الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب /وزارة الثقافة/.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حوار العدد

صالح هواري:
١٦ مجموعة شعرية

إعداد: عادل أبو شنب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بوهـج المقولة القائلة «شدة القرب مجـاب» كنت أرى هذا الشاعر يومياً، في الشارع أو في المقهى لكنني لم أنتبه إلى أنه شاعر متمكن، له ١٦ مجموعة شعرية، وكإلهام انتابني تمثل أمامي شاعراً معطاءً وكبيراً، وعلمت، بعد أن فاتحته بالأمر، أنه يكتب القصائد التي تغنى.

إنـه الشاعر الفلسطيني صالح هـواري الذي التجأ مع أسرتـه إلى سورية، درس وتخرج من جامعة دمشق، وعندما قام العدوان الثلاثي على مصر تفجرت

○○ أديب وقاص سوري

موهبته الشعرية فألف قصيدة، ومن عجب أنه عندما عرضها للـوزن، وجد أنها نظمت على وزن البسيط، دون أن يعرف العروض بعد.

يسعـدني أن أحاور صاحب الـ١٦ مجموعة الشعرية في هذا العدد من «المعرفة».

• • •

لجأ إلى سورية

- المولد والنشأة والدراسة؟

• ولـدت على شاطـئ بحـيرة طبرية في بلـدة «سمخ» عام ١٩٣٨، ودرست في مدرستها الابتدائيـة.. وعندما حدثت نكبـة فلسطين السوداء عام ١٩٤٨ لجأت مع أسرتي إلى سورية وسكنا في منطقة «الحمة» السورية لقربها من بلدتـي إلا أننا نزحنا عنها علـى أمل العودة القريبة التي وُعدنا بها من قبل الزعماء العرب آنذاك. وهكذا امتـدَّت سنوات النفي والغربة حتـى الآن.. ومن «الحمة» ذهبنا إلى درعا ثم بعدها إلى حماة، ثم إلى دمشق، حيث استقرَّت أسرتي فيها.. وأذكر أني سكنت في الخيام التي نصبت لنا في شارع الأمين القريب من منطقة الشاغـور. ومن هذه الخيمة انطلقت مسيرتي الحياتية فتابعت دراستـي في معهد فلسطين الـذي كان يُسمّى بـ«الأليانس» وهو معهد تابع لوكالـة غوث للاجئـين الفلسطينيـين. وفيه نلت الشهادة المتوسطـة عام ١٩٥٦، ثم تابعت دراستـي الثانوية ونلـت البكالوريا من الكلية العلمية الوطنيـة بدمشق عام ١٩٦٠. انتسبت إلى جامعة دمشق وفيها تخرَّجت ونلت إجازتين الأولى في اللغة العربية والثانية في الحقوق..

وخلال دراستي الجامعية اشتغلت في سلك التربية والتعليم بوكالة الغوث عام ١٩٦٢ حتى عام ١٩٩٠..

العدوان الثلاثي..

- أنت معروف كشاعر كبير في سورية.. فكيف نشأت موهبة الشعر لديك..؟

• في أتون الغربة القاسية والمكابدة المريرة مع الحياة والعيش في الخيام تفتَّحت موهبتي الشعريـة في سن مبكـرة ولم أجد أمامي سوى ريشتي المغمّسة بحـبر الألم والمعاناة لتعبِّر عما يجيش في أعماقي مـن مشاعـر.. وعندما حدث العـدوان الثلاثي على بـور سعيد عام ١٩٥٦ كنـت في الصف التاسـع. وقد تفاعلت مـع نضال شعبنـا العربـي في مصر ونظمت قصيدة «بور سعيـد» متسلحاً بمشاعر وطنية متدفقة. وعندما كتبت هذه القصيدة صدقني أنني لم أكن أعرف أوزان الشعر أبداً.. وعندما درسـت العروض في المرحلـة الثانوية قطّعت أبيات القصيدة فإذا بها على البحر البسيط: «مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن» وكانت هذه القصيدة المفتاح الذهبـي لمسيرتي الشعرية.. وأذكر من هذه القصيدة:

رُدِّي فلولَ العدى في حالكِ النُّوَبِ
بالنصرِ واستبشري يا قلعة العربِ

يا بورُسعيدُ، وأنت اليوم غايتنا
الفجرُ لاح على شطيك فارتقبي
اللاذقية أهدتْ للعُلا بطلاً
ضحًى، فخلَّده التاريخ في الكتبِ
«بورُ السعيدِ» التي لم تستكن أبداً
صاغت بيارقها بالورد واللهبِ

١٦ مجموعة شعرية

- كم مجموعة شعرية أصدرت حتى الآن؟ عددها لي.. وما هو جديدك؟

• كما ذكرت لك، بدأت مسيرتي الشعرية منذ عام ١٩٥٦م بقصيدة «بور سعيد» وبعدها بدأ ينبوع موهبتي بالتدفق تحت سقف الشباب المتوثب، وبدأت أكتب وأنشر في الجرائد والمجلات. نشرت في جريدة الأيام آنذاك، وجريدة (النقّاد) والطالب العربي.

وفي عام ١٩٧٢ انتسبت إلى اتحاد الكتاب العرب عضواً في جمعية الشعر وأصدرت ديواني الأول بعنوان «الدم يورق زيتوناً». أما المجموعات الشعرية التي أصدرتها حتى الآن فهي:

١- الدم يورق زيتوناً: ١٩٧٢
٢- المطر يبدأ العزف: ١٩٧٧.
٣- الموت على صدر البرتقال: ١٩٨٣.
٤- بطيئاً يمرُّ الدُّخان: ١٩٩٠.
٥- أم أحمد لا تبيع مواويلها: ١٩٩٤.
٦- أغاني أيوب الكنعاني: ١٩٩٤.
٧- مرايا الياسمين: ١٩٩٨.
٨- ومن فرح بكينا: خاص على حسابي ٢٠٠٠.
٩- ما قاله الغيم للشجر: ٢٠٠٠.
١٠- طويتُ عليكَ جناحي: عن وزارة الثقافة السورية ٢٠٠٦.
١١- لا تكسري الناي: ٢٠٠٦.

قصائد للأطفال:

١- عصافير بلادي (شعر): ١٩٨١.
٢- قتلوا الحمام «ثلاث مسرحيات شعرية للأطفال» عن وزارة الثقافة السورية ١٩٨٤.
٣- بلادنا: الإمارات العربية المتحدة (أبو ظبي): ٢٠٠٠.
٤- هديل الحمام: ٢٠٠٨.

كاتب قصائد تغنى

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

- سمعت أنك إلى جانب شاعريتك تؤلف أغنيات، فكم أغنية ألفت، وما هي آخر أغنية كتبتها؟

• الذي دفعني إلى كتابة الأغنية القصيدة هو تلك الغنائية الدفاقة التي تطاردني خيوطها في كل نص أكتبه. وهي غنائية نابعة من إيقاعات التفعيلات العروضية المعروفة ملتقيةً في سياقها مع إيقاعات الوجدان.. وأذكر أنني في سنّ الشباب كنت أتردد إلى بيت الفنان السوري المطرب الراحل «رفيق شكري» وكان يعجب بقصائدي التي أكتبها، حيث لحّن

لي ثلاث قصائد وسجّلها في إذاعة دمشق في الستينيات، وهي:

١- عتاب.

٢- شارع التمنّي.

٣- أبيات من قصيدة (الفحمة والماسة).

وإليك أبيات من قصيدة عتاب:

عتبتُ عليكَ ولولا احتراقي
بحبّك ما جئتُ كي أعتبا
تمرُّ على الحيِّ لا نظرةٌ
تجود عليَّ ولا مرحبا
كأنّكَ تجهلُ دربَ هوانا
وكانت قديماً لنا ملعبا
ألا عُدْ لرشدِكَ يا طيّبا
أثاب الهوى قلبك الطيّبا

الأغاني بالفصحى

- هل تكتب الأغاني بالعامية أو بالفصحى؟ وأيّهما أسهل؟

• طبعاً أكتب الأغنية باللغة الفصحى المبسطة لأنني لا أجيد الكتابة بالعامية.. ومنذ الستينيات حتى اليوم كتبتُ أكثر من ثلاثمئة أغنية بالفصحى ومن الأغاني المشهورة لي نشيد (كلّ شيء للوطن):

كلُّ شيءٍ للوطن
كلُّ شيءٍ للقضيّه
ليس للروح ثمنْ
فهو للأرض الأبيّه
للوطنْ.. كل شيء للوطن

وهو بصوت المطرب العربي الفلسطيني الراحل «فتحي صبح».

ولي نشيد مشهور أيضاً هو «الزحف الكبير» الذي يذاع يومياً كشارة لبرنامج صوت القوات المسلحة، وهو بصوت المجموعة، أقول فيه:

بالعزم، بالإصرار، بالثَّباتْ
بقوة الإيمان، بالسلاحْ
من موتنا ستولدُ الحياةْ
من دمنا سيورق الصَّباحْ

ومن المطربات اللّواتي غنين من كلماتي المطربة «فاتن حناوي» شقيقة المطربة «ميادة».. غنت لي قصيدة «وبعد الصبر» وهي من ألحان الموسيقي المبدع «أمين خياط»، أقول فيها:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد الصبر يا دنيا التقينا
تعانقنا.. ومن فرحٍ بكينا
تناسينا الخصامَ وما عتبنا
ووِدَّ عنا الملامَ وما اشتكينا

مهداة لسورية الحبيبة

أما آخر أغنية ألفتها حتى الآن فهي قصيدة (عين الله تحميها) مهداة إلى سورية الحبيبة التي احتضنتني طفلاً منذ نزحت عن وطني الغالي فلسطين.. أقول فيها:

هُبُّوا إليها بروح الروح نفديها
سوريةُ الحبّ عينُ اللهِ تحميها
عروسةٌ في وشاح النّور طالعةً
أساور الوردِ تحلو في أياديها
الله ألقى عليها من عباءتِه
خيوطَ نورٍ تجلّى نوره فيها

وهي من ألحان الموسيقي «يوسف العلي» رئيس دائرة الموسيقى في إذاعة دمشق وغناء المطرب «خلدون حناوي».

النصوص الجميلة..

- لمن تقرأ من معاصريك من الشعراء المحليين، والمعاصرين من الشعراء العالميين، وما رأيك بمسيرة الشعر في العالم؟

• لا أخفيك سراً أنني أقرأ لأي شاعرٍ يكتب نصاً جميلاً، فإذا لفت انتباهي أتابع قطف محاره لكشف أسرار اللآلئ فيها.. وما يهمني هو أن أعثر فيما أقرأ على ومضات إبداعية مبتكرة..

وطبعاً أقرأ كثيراً لقمر فلسطين «محمود درويش» ولقمة شعراء الحداثة «أدونيس».

ومن الشعراء المعاصرين العالميين أقرأ للشعراء الإيرانيين الشباب ولدى البعض منهم إبداعات شعرية عالية تغري بالقراءة.. وهي مترجمة إلى العربية.

ومن الشعراء الإنجليز أقرأ للشاعر شهيد الأنفة وصريع الفاقة (توماس تشاترتون) الذي ضاق ذرعاً بجحود الناس وريائهم فآثر أن ينتحر قبل أن يتمّ عامه الثامن عشر فتجرّع السمَّ وهو على عتبة الحياة لأنه فضّل أن يموت كريماً على أن يصانع الظروف.

كما أنني أقرأ أيضاً للشعراء: (وليم بت) ولـ أندريه شيفيه ومالارميه وت.س إليوت وغيرهم..

أما رأيي في مسيرة الشعر في العالم العربي اليوم فأستطيع أن أقول: إنها مسيرة وئيدة الخطا لم تستطع أن تواكب الأحداث وتؤثّر فيها كما ينبغي، ذلك أن الشعر لم يعد قادراً على الصمود أمام مطارق السياسة العالمية المسلّحة بالقوة الضاغطة، لذا فقد تراجع فاقداً قدرته على الفعل... وأما المهرجانات الشعرية العالمية فتمرُّ مرور السحاب الذي يرى أمامه الأشجار العطشى ولا يستطيع أن يجود عليها بقطرة ماء لكونها مكبّلة بقيودٍ ثقيلة.. وضعها الإمبرياليون في معاصمها لتقف ضدّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأشجار المضطهدة في عالم لا يسوده إلا الظلم والظلام.

- من المشاهد أن الشعر الحديث قد جنح إلى الاستسهال بالقافية وحتى بالوزن.. واعتمد على الموسيقى فقط، فما رأيك بهذا الاستسهال في نظم الشعر؟

لا قافية ولا وزن

• أقول لك بصراحة: إنَّ بعض الشعراء الذين جنحوا إلى كتابة الشعر الحديث قد استسهلوا فعلاً كتابته لكونه متحللاً من الوزن والقافية. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على عجزهم الفني في كتابة القصيدة العربية الأصيلة. وفي اعتقادهم أنَّ كتابة القصيدة الحديثة أسهل بكثير. وهذا التوهّم أوقعهم في شرك التخبط في ساحة القصيدة، فالقصيدة الحديثة تحتاج لكتابتها إلى قدرة فنية فائقة لأنها تتكئ على عناصر فنية لا بد منها لاكتمالها كالرمز الشفيف، والتكثيف، والموسيقى و.. وقليلون هم الذين يجيدون كتابة النص الفني الحديث، ومخطئ من يظنّ أن كتابته سهلة..

برامج إذاعية..

- من المعروف أنك تنشط في مجال الإذاعة والتلفزيون.. فهل أنت تعمل فيهما؟ ما نوع عملك؟

• منذ الستينيات وأنا أعمل في مضمار الإذاعة ككاتب نصوص ومعدّ لبعض البرامج الثقافية كبرنامج (شعاع من المعرفة) الذي بقيت متابعاً لكتابته أكثر من ثلاثين عاماً. وفيه أردُّ على المزاعم الإسرائيلية وادعاءاتها المزيفة بحقها في أرض فلسطين. وفي هذا البرنامج أقدّم الرد التاريخي المدعوم بالوثائق والشواهد التي تثبت حقنا نحن في فلسطين التي اغتصبت عنوة.. كذلك عملت في لجنة مراقبة النصوص الغنائية، ومراقبة الأغاني المصورة.. وأعدّ الآن زاوية لغوية جديدة عنوانها «بستان اللغة».. وأتابع مسيرة عملي في مضمار الإذاعة والتلفزيون بحريّة تامة معتمداً على مكنونات موهبتي الأدبية.

ولادات إبداعية

- أي مجموعة شعرية من مجموعاتك الصادرة أحبُّ اليك؟ ولماذا؟ هل بسبب قصيدة فيها؟ أم بسبب عاطفي مثلاً؟

• كل ما لدي من إبداعات شعرية هي ولادات فنية كابدت من خلالها حلو التجارب ومُرَّها. وفي حين كل مجموعة أصدرتها تلمع بعض القصائد التي أعتزُّ بها. ومن أحب المجموعات الشعرية لديّ مجموعة: «أم أحمد لا تبيع مواويلها» للغزاة.. لكونها تجسيداً لبطولات أهلنا في الأرض المحتلة وتمجيداً لتضحيات أطفال الحجارة وصمودهم المشرف أمام آلة القمع الإسرائيلية. وهناك مجموعة أحبها كثيراً وهي «لا تكسري الناي» وفيها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جرأة في الطرح، وبلاغة عالية في التعامل مع اللغة الشعرية.

آخر قصيدة

- هلا أعطيتني جديدك في الشعر الآن؛ أريد آخر قصيدة لك..

- آخر قصيدة جديدة هي قصيدة (كرهت الحقيبة).

قطار وراء قطار

كرهت المحطات لا تنتهي

وكرهت الحقيبة..

- هل أنت تختار المطرب أو الملحن الذي تعطيه نصّ أغنيتك؟

• طبعاً لي رأي في اختيار الملحن والمطرب لتنفيذ النص الذي أكتبه، وأغلب هؤلاء محليون.. ويكون الاختيار حسب ملاءمة صوت المطرب لكلمات النص، وبما أنني أكتب الأغنية بالفصحى فأختار الملحن الذي تمرّس في تلحين الشعر.

الكتابة للأطفال..

- علمت أنك تكتب للأطفال أيضاً؟ فهل الكتابة للأطفال سهلة أو تحتاج إلى ممارسة وقدرة فنية واستيعاب لعالم الأطفال؟

• نعم.. إلى جانب كتابتي للكبار.. لي تجربة واضحة في الكتابة الشعرية للأطفال.. وقد صدرت لي مجموعات شعرية عدة في هذا المجال لما جاء في إجابة سابقة .. والكتابة للأطفال ليست سهلة كما يتوهم بعضهم. ذلك أنها تحتاج إلى قلم أدبي واع ومدرك تماماً لعالم الأطفال وقادر على التعامل مع اللغة الطفلية. ومن مقومات قصيدة الطفل الغنائية التي تعتمد على البحور الشعرية القصيرة التي تسهّل على الطفل حفظ النص وغنائه.. أمّا الصورة الشعرية التي يلجأ إليها الشاعر في قصيدة الطفل فينبغي أن تبنى على الواقع الذي يدركه الطفل لا أن تكون صورة وهمية تنأى بالطفل عن محيطه..

محطات من حياة الشاعر

صالح هواري

كان عمره ١٠ سنوات عندما ترك فلسطين، ولجأ إلى سورية.

أول قصيدة نظمها بسبب مشاعره وقت العدوان الثلاثي ومن عجب أنه لم يكن يعرف الأوزان وقتها، لكن القصيدة خرجت على الوزن البسيط دون أن يدري.

كتب للأطفال أيضاً.

يعمل في الإذاعة مراقباً للنصوص الغنائية.

آخر قصيدة ألفها: «كرهت الحقيبة»، وفيها يقول:

إلى الياسمينة في ضيعتي اشتقت

أشرب في ظلها قهوتي..

في الصباح الآخر..

كأني أرى الآن نافورة الماء

يسبح فيها الحمام..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

● صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

● أدباء على الطريق — إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

● مسيرة الحوار الوطني — رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب في مهرجان «حرر خيالك»:

شارك أكثر من ٣٠ كاتباً من ١٥ دولة عربية وأجنبية في المهرجان الدولي الثقافي الرابع للأدب وكتاب الشباب الذي افتتح في الجزائر تحت شعار «حرر خيالك».

وقالت إدارة المهرجان في بيان لها: إن المشاركين ناقشوا قضايا منها «الأدب بلون إفريقي» و«الرواية تكتب التاريخ» و«الإنترنت نص العال/

٭ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

و«الثـورة والكتابة بوصفهمـا حياة جديدة للأدب» و«أصوات محمومة مسارات هادئة» و«كتاب يقرأ.. كتاب يناقش».

وأضاف البيـان أن مدينتـي قسنطينة وتلمسان شهدتا جانباً من أنشطة المهرجان التـي تضمنـت قـراءات أدبيـة ومعرضاً للكتـاب وورشاً تدريبية على تقنيات الكتابة تهدف إلى «تحبيـب القراءة للقارئ الصغير واعتبارها محركاً للحلم وكائناً حياً مهماً في حياته» ومن أجل ذلك دعي للمهرجان «هذه السنة وبشكل استثنائي مشاهير وشخصيات وطنية من عـالم السينمـا والرياضة والفن للمساهمة معنا في لعبة القراءة».

ومـن الأدبـاء المشاركيـن في المهرجان الأفغـانـي عتيـق رحيمي والإيراني موسى بيدج والفرنسـي فرناسو بـون والمكسيكي جورج فولبيـه والكولومبي أنطـوان أنوقار ومـن أوروجـواي كارلوس ليسكانـو ومن هايتـي رودنيـه سـان إيلوا ومـن الكونغو جبريال أوكونجـي ومن العـرب اللبنانيون هدى بـركات ويوسف بزي وبيار أبي صعب والفلسطينيـة نتالي حنظل والسورية خلات أحمد والمصريان خالد البري وسعد القرش والتونسيـان خالـد النجار ووليـد سليمان والبحريني قاسم حداد.

ومن الجزائريين مـراد جيبال وفضيلة مرابط وبـن عودة لابـادي وكوثر عظيمي وواسيني لعرج وسليمى رحال وياسين تملالي وزهـور ونيسي وميلود حكيم ورابح بلطرش وسعيـد بوطاجـين ومحمد مقـاني وسمير قسيمي ووهيبة شـاوي وإبراهيم قرصاص وياسين بن عبيد وسمية محنش وأسماء مطر ومريم معوج وخالد بوعلي.(١)

العين تنضم إلى تراث اليونسكو:

أعلن المجلس الوطنـي للسياحة والآثار وهيئـة أبوظبي للثقافة والـتراث عن إدراج مدينـة العين في دولـة الإمـارات العربية المتحـدة كأول موقـع إماراتـي على قائمة التراث العالمي للبشرية، وذلك لفرادة وتميّز المواقـع الثقافيـة في العـين وبشكل خاص الأهمية الجيولوجية والأثريـة والتاريخية لجبل حفيـت، حضـارة هيلي، بـدع بنت سعـود، ومناطق الواحات ونظـام الأفلاج، والتي تعطيها الكمالية والتنوع التي يصعب وجودهـا في مواقع أخرى من هذا النوع في العالم.

جـاء ذلك خلال الاجتمـاع الـ٣٥ للجنة التراث العالمي باليونسكو، الذي عقد بباريس، بمشاركـة كافة وفود دول العالم الأعضاء في اللجنة، والذين أجمعوا علـى أحقية إدراج اليونسكو لهذه المدينة العريقة التي حافظت على مستوى عالٍ من الأصالة والكمال، على

الرغم من خطوات التطور السريعة التي تشهدها دولة الإمارات العربية المتحدة.

- وحول مبررات القيمة العالمية البارزة التي حازتها مدينة العين، والمعايير التي تمت تلبيتها لاعتماد المدينة بشكل نهائي كأول موقع على اللائحة العالمية للتراث في دولة الإمارات، أوضح الدكتور سامي المصري نائب المدير العام لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أن هذه المعايير تشمل:

١- تطوير نظام «الفلج» كعمل هندسي بارع. وبالإضافة إلى كونه وسيلة لنقل المياه أتاح تطور المحاضر والقرى المأهولة، فإنه يعتبر أيضاً نظاماً رائداً لإدارة المياه وتوزيعها بشكل مدروس.

٢- حضارة الهيلي مع نظامها المتطور لإدارة المياه، ومبانيها السكنية المحصّنة، وعادات الدفن فيها.

٣- موقع جبل حفيت الثقافي مع مواقع الدفن التي تعود إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد، ونظام «الفلج» الذي يعود إلى العصر الإسلامي، ومستوطنات الواحات فيه.

٤- واحات العين المتنوعة مع مساجدها ومزارعها ومبانيها التاريخية الأخرى، مهد الحضارة البدوية الإماراتية ورمز حياة الماضي وقدرة الإنسان على الاستقرار والتكيف مع البيئة الصحراوية القاسية، مع تطوير نمط التنقل من عُمق الصحراء إلى مناطق الواحات والمناطق الساحلية.

٥- ازدهار ممارسة الصقارة «الصيد بالصقور» وتجارة الهجن وسباقاتها.

٦- الكثبان الرملية الحمراء في صحراء العين، والتراث الطبيعي لجبل حفيت «لأهمية النباتات والحيوانات الموجودة فيه» إضافة إلى مناطق الواحات.

٧- جبل حفيت لأهميته الإيحائية. يمتد هذا الجبل على طول الجانب الغربي لجبال الحجر، ويتميز ببنيته الصخرية الكلسية الرائعة التي تبرز بشكل مفاجئ من قلب السهول الصحراوية المحيطة والمنبسطة نسبياً. وتعود بعض الأحافير التي وجدت في جبل حفيت إلى العصر الطباشيري.

٨- جبل حفيت لقيمته الاستثنائية النابعة من أهميته الجيولوجية والأثرية والتاريخية، وكذلك من أهميته البيولوجية والطبيعية حيث أنه يحوي على ٧٠٪ من مجمل التنوع الحيواني في إمارة أبوظبي. يبلغ ارتفاع هذا الجبل ١٢٠٠ متر، ويمتد لمسافة ١٣ كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب، ويُعتقد أنه تشكل منذ حوالي ٢٥ مليون سنة، ولكن الأحافير البحرية التي عُثر عليها في هذا الموقع أقدم من ذلك بكثير، حيث تعود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى ١٣٥ - ٧٠ مليون سنة مضت. وتشير الدراسات إلى أن جبل حفيت موطن لحوالي ١١٨ نوعاً من النباتات و١٨ نوعاً من الثديّات «ومنها الطهر العربي - ماعز بري مهدد بالانقراض - وبعض الكائنات الحية التي ربما تنفرد بها ممرات الكهوف القديمة في جبل حفيت»، إضافة إلى ١٤٠ نوعاً من الطيور «ومنها الرخمة المصرية المهددة بالانقراض» وأكثر من ١٠ أنواع مختلفة من الزواحف.

- وبهذه المناسبة أكد الشيخ سلطان بن طحنون آل نهيان رئيس هيئة أبوظبي للثقافة والتراث أن مدينة العين ما زالت تحافظ على صفاتها المحلية من المنظور العمراني، ويعود الفضل الأول في ذلك إلى رؤية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة، والذي أصدر مجموعة من القوانين واللوائح التي تضمن محافظة المدينة على أصالتها وكمالها وسحرها التراثي.

من جانبه أوضح محمد خلف المزروعي مستشار الثقافة والتراث في ديوان ولي عهد أبوظبي مدير عام هيئة أبوظبي للثقافة والتراث أن المواقع الأثرية والمباني التاريخية والمناطق الطبيعية في مدينة العين لا تزال تحافظ على قيمتها الثقافية وكمالها ومحيطها ونسيجها العمراني الأصلي، ومنذ تأسيس هيئة أبوظبي للثقافة والتراث في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٥ فقد تمّ جرد المواقع الثقافية والمحافظة عليها وترميمها من خلال استراتيجية تعتمد أحدث المنهجيات ووسائل التكنولوجيا المعتمدة دولياً، وأشار إلى تواصل أعمال المحافظة على العديد من الحصون والأماكن التاريخية، ومنها مسجد وقلعة الجاهلي وبيت بن هادي في واحة هيلي والعشرات غيرها من المواقع الأثرية والمباني التاريخية. كما وتجري أعمال إعادة إحياء الاستخدامات الأصلية للمباني وتخصيصها للأغراض التي أنشأت لها أساساً «مثل السوق التقليدي القديم في القطارة»، وفي الوقت نفسه استخدامها لأغراض جديدة بهدف دمج هذه المباني في البنية الحية للمدينة وبالتالي ضمان المحافظة عليها لزمن طويل.

ويذكر أن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «اليونسكو» تسعى لحثّ دول العالم على تحديد المواقع التراثية الثقافية والطبيعية في كل منها، وحمايتها والحفاظ عليها نظراً لكونها تمثل قيمة كبيرة للبشرية، وقد تجسد ذلك في معاهدة دولية أطلق عليها اسم «اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي» والتي تبنتها اليونسكو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في العام ١٩٧٢، وتضم قائمة التراث العالمي المسجلة لدى اليونسكو ٩١١ ملكية تُعد ذات «قيمة عالمية استثنائية»، بينها ٧٠٤ مواقع ثقافية، و١٨٠ طبيعية، و٢٧ موقعًا مختلطًا تعود لـ١٥١ بلدًا من الدول الأطراف فيها. وقد وقعت إلى تاريخه ١٨٧ دولة على اتفاقية التراث العالمي.(٢)

مستقبل التراث العالمي:

استضافت اليونسكو في مقرها بالعاصمة الفرنسية باريس أعمال الدورة الخامسة والثلاثين للجنة التراث العالمي، التي ركزت كلمات المشاركين فيها على مستقبل اتفاقية التراث العالمي والتحديات المتنامية في مجال صون المواقع التراثية.

وأشارت إيرينا بوكوفا المديرة العامة لليونسكو إلى التحديات المتعلقة بمصداقية اتفاقية التراث العالمي والمتمثلة في «العلاقة بين اتفاقية التراث العالمي والاتفاقات الدولية الأخرى، والتوازن بين أنواع وفئات الممتلكات المدرجة في قائمة التراث العالمي، وتدعيم القدرات، والدور الحاسم للمجتمعات المحلية، وزيادة الوعي، وتعزيز مبادئ الاتفاقية».

كما أكدت من جانبها مي بنت محمد آل خليفة وزيرة الثقافة البحرينية التي ترأس الدورة الخامسة والثلاثين أن مستقبل الاتفاقية يعد موضوعاً أساسياً لمواصلة الجهود التي بذلت على مدى ٤٠ عاماً تقريباً لحماية تراث البشرية.

ودرست لجنة التراث العالمي حالياً وحتى نهاية الدورة حالة صون ١٦٩ موقعاً من مواقع التراث العالمي، بما فيها ٣٤ موقعاً مدرجاً في قائمة التراث العالمي المعرض للخطر، كما تعمل اللجنة أيضاً على دراسة ملفات ٣٧ موقعاً جرى اقتراح إدراجها في القائمة، ومنها صيد اللؤلؤ، شاهد على اقتصاد جزيرة «البحرين»، المواقع الأثرية في جزيرة مروي «السودان»، الحديقة الفارسية «إيران»، حفيت وهيلي وبدع بنت سعود ومناطق الواحات «الإمارات العربية المتحدة»، المساكن المعلقة على ركائز والتي تعود إلى ما قبل التاريخ في جبال الألب «سويسرا والنمسا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وسلوفينيا»؛ القرى القديمة في شمال سورية؛ جامع السليمية ومجمعه الاجتماعي «تركيا»؛ مسكن بوكوفينيان ومناطق دالماتيا الحضرية «أوكرانيا»، كما تمَّ اقتراح إدراج ثلاثة ممتلكات كمواقع «مختلطة طبيعية وثقافية» في آن واحد، وفقاً للمعايير الخاصة بالمواقع الطبيعية والثقافية، وتتمثل هذه المواقع في حديقة جبال بلو وجون كرو الوطنية «جامايكا»؛ وادي رم «الأردن»؛ ودلتا سلوم «السنغال».(٣)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

معلوف في الأكاديمية الفرنسية:

انتخب الكاتب اللبناني- الفرنسي أمين معلوف عضواً في الأكاديمية الفرنسية بعد محاولتين كان من نصيبيهما الإخفاق في عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٧.

وبهذه المناسبة قال معلوف: «إن انتخابي إلى الأكاديمية الفرنسية رمز بالغ الأهمية للبنان، ولحظة أعيشها بملء جوارحي وقد تعاملت معها بلادي بما يليق بها»، وأضاف في هذه المؤسسة الذائعة الصيت التي تأسست في عام ١٦٣٥م وتسهر على احترام اللغة الفرنسية وتكوين قاموسها، «منذ انصرفت إلى الأدب، كانت الأكاديمية تنطوي على معنى في نظري. لم أفكر آنذاك في دخولها لكن هذه الفكرة ترسخت في ذهني رويداً رويداً».

وقد انتخب أمين معلوف الذي فاز بجائزة غونكور في عام ١٩٩٣ عن روايته «صخرة طانيوس»، للمقعد ٢٩ في الدورة الأولى من الانتخاب بحصوله على ١٧ من ٢٤ صوتاً في مقابل ثلاثة أصوات للفيلسوف إيف ميشو، وهو بذلك يخلف عالم الإناسة كلود ليفي- ستروس الذي توفي في تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٩ عن ١٠١ سنة وقد انتخب في عام ١٩٧٣ في مقعد هنري مونترلان.. وقال أمين معلوف: «إنه مقعد عظيم، مخيف ومحفز، واقترب منه بتواضع وفرح كبير».

وقبل أمين معلوف المنفتح على الثقافتين العربية والفرنسية، استقبلت الأكاديمية في عام ٢٠٠٦ الروائية الجزائرية آسيا جبار التي كانت أول شخصية من المغرب العربي تنتخب إلى هذه الأكاديمية.(٤)

قصائد جديدة لأمل دنقل:

كشف أنس دنقل شقيق الشاعر الراحل أمل دنقل عن أنه يعتزم نشر قصائد جديدة لأمير شعراء الرفض في الأشهر القليلة القادمة من العام الجاري، ولفت إلى أن هذه القصائد تتراوح بين العاطفية والسياسية.

وأوضح أنس دنقل أنه يمتلك نحو ٢٥ قصيدة لأمل دنقل، لم يتم تجميعها من قبل في أي ديوان، منها حوالي ١٥ أو ١٦ قصيدة جديدة لم يسبق أن نشرت، مضيفاً أن اعتراض أرملة شقيقه الكاتبة الصحفية عبلة الرويني على نشر هذه القصائد هو ما عطل خروجها إلى القراء، مشيراً إلى أن هذه القصائد كتبها دنقل على مدار ١٦ عاماً من العام ١٩٦٢ حتى ١٩٧٨.

وقال أنس دنقل: إن هذه القصائد تتراوح بين العاطفية والسياسية، حيث تتناول حبه الأول، وحرب اليمن، والحكم العسكري، وأنه لم يتح له نشرها لأنه كان ينتظر تجميعها في

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ديوان.. في حين كشف أن هناك دراسة لأمل دنقل عن قبيلة قريش لم تنشر في مصر من قبل، وسوف يقوم بنشرها قريباً.

وقال الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي إن شعر دنقل يواكب الأزمنة المختلفة، مشيراً إلى أن دنقل يستحق لقب «شاعر المستقبل»، لأنه صدق في شعره، وصدق كإنسان مع من عرفوه.

من جانبه، قال الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة إن أمل دنقل لديه قدرة غير عادية على مجابهة الأزمات، وهو ما ظهر جلياً في تجربة مرضه، إذ أصر على مواصلة الإبداع، واتخذ من هذه التجربة منطلقاً لذلك، فخرج علينا بتجربة «أوراق الغرفة ٨»، لتعكس قدرته على استخلاص الشعر من الأزمات.

يذكر أن أمل دنقل من مواليد العام ١٩٤٠ في محافظة قنا، ورحل إلى القاهرة بعد أن أنهى دراسته الثانوية. والتحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة، لكنه انقطع عن الدراسة منذ العام الأول بحثاً عن مصدر رزق، وعمل موظفاً في محكمة قنا وجمارك السويس والإسكندرية، ثم في منظمة التضامن الأفرو- آسيوي برعاية الأديب يوسف السباعي.

وصدرت لدنقل ست مجموعات شعرية هي: «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة»، و«تعليق على ما حدث»، و«مقتل القمر»، و«العهد الآتي»، و«أقوال جديدة عن حرب بسوس»، و«أوراق الغرفة ٨» الذي كتبه في غرفة المعهد القومي للأورام، حيث كان يتلقى العلاج لقرابة أربع سنوات قبل رحيله.(٥)

«مشاهد من مصر» في متحف اللوفر:

استضاف متحف اللوفر معرضاً عن مصر بعنوان «مشاهد من مصر» ضم مقتنيات المستشرق الفرنسي بريس دافين الذي أطلق على نفسه اسم «إدريس أفندي» بعد أن ارتدى الملابس العربية وانصهر داخل المجتمع المصري لمدة ٢٠ عاماً معظمها في الفترة من ١٨٢٧ إلى ١٨٦٠.

وضم المعرض مقتنيات ثمينة من كتاب «ورقة بردي بريس» الذي يحمل اسم المستشرق ويعد بمثابة واحد من أطول الكتب القديمة في العالم إن لم يكن أطولها على الإطلاق.

ويتضمن هذا الكتاب البالغ طوله ٧ أمتار من ورق البردي الذي يعود تاريخه إلى ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد العديد من فنون قيادة الشعوب لاسيما تلك النصيحة التي تطالب الحاكم بالحصول على رضا شعبه عند اتخاذ القرارات من خلال تقديم حلول

تتواءم مع أوضاع المحكومين حتى يتقبلوا هذه القرارات بصدر رحب.

ولم يقتصر المعرض بما يخص التاريخ الفرعوني مثل صور «تحتمس الثالث» بل ضم إلى جانب ذلك أيضاً مشاهد عن مصر الحديثة التي بناها محمد علي.. إلى جانب العديد من الوثائق واللوحات المرسومة بالألوان المائية والصور الفوتوغرافية لاسيما عن نظام الري في مصر وحياة الفلاحين بما فيها من بؤس وشقاء ومحاولات محمد علي الحثيثة للنهوض بالزراعة المصرية.[6]

بوشكين في مكتبة الإسكندرية:

في إطار الفعاليات والنشاطات التي أقيمت في العديد من بلدان العالم احتفاء بيوم ولادته، أزاحت مكتبة الإسكندرية الستار عن تمثال للشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين، أهداه لها النحات الروسي غريغوري بوتوتسكي، الذي أبدع التمثال، وقام بنقله على نفقته الخاصة إلى مدينة الإسكندرية ومكتبتها العريقة.

وقال بوتوتسكي: إنه عندما قام بتصميم تمثال بوشكين لمكتبة الإسكندرية لم يغفل التقاليد المصرية، مشيراً إلى أن رأس التمثال متجه بحدة إلى اليمين كأغلب التماثيل المصرية، موضحاً أنه صمم تماثيل أخرى لبوشكين أقيمت في صربيا والصين والولايات المتحدة وألمانيا وكندا وتركيا واليونان والفيليبين ناهيك عن الكثير من المدن الروسية.

من جانبها قالت رئيسة قسم العلاقات الدولية بمكتبة الإسكندرية هاجر الإسلامبولي بهذه المناسبة: «من المهم جداً بالنسبة لنا أن نحصل على هذا التمثال العظيم.. إنه هدية رائعة لمكتبتنا».

ووضع التمثال البرونزي الذي يبلغ ارتفاعه ١,٨٠ متراً في مكان بارز في بهو المكتبة. وأصبح افتتاح النصب رسمياً إحدى الفعاليات المهمة في برنامج الثقافة الروسية في الإسكندرية في الفترة من ١٢ وحتى ١٦ حزيران/يونيو الحالي.

وبهذه المناسبة شهدت مكتبة الإسكندرية فعاليات ثقافية روسية بما فيها ندوات بمشاركة الكاتبين الروسيين دينيس غوتسكو وغيرمان سادولايف، ومعارض صور إضافة إلى مهرجان سينمائي ومعرض للكتب «روسيا ومصر».

يذكر أن ألكسندر بوشكين يعد من كبارشعراء العالم ومن أعظم الشعراء الروس في القرن التاسع عشر، ولقب بأمير الشعراء، توفي في مبارزة ولم يتجاوز الـ ٣٨ عاماً، وقدم العديد من المؤلفات منها «زنجي بطرس الأكبر»، «روسلان ولودميلا»،

«أسير القفقاس»، و«نافورة باختشي سراي» و«الغجر» وغيرها العديد من الأعمال الأخرى.(٧)

بيكاسو في فلسطين:

أتاحت «الأكاديمية الدولية للفنون فلسطين» للجمهور الفلسطيني للمرة الأولى مشاهدة لوحة أصلية للفنان العالمي بابلو بيكاسو في رام الله بعد عمل استمر عامين من أجل ذلك ضمن مشروع «بيكاسو في فلسطين».

وقال الفنان التشكيلي خالد الحوراني المدير الفني للأكاديمية: بعد أن تمَّ إخراج اللوحة الأصلية من صندوق مخصص لها نقلت فيه من هولندا إلى فلسطين «لقد استمرينا على مدار عامين دون كلل أو ملل وفي كثير من الأحيان كنا نعود للمربع الأول في العمل لاستعارة لوحة من لوحات الفنان بيكاسو من متحف (فان ابه) في هولندا لعرضها في رام الله».

وأضاف «المشروع بالنسبة لنا كان فنياً بامتياز ولكن السياسة تفرض نفسها كما أن دور الفن «هو» الحديث عن السياسة فكانت كل خطوة من خطوات نقل هذه اللوحة من هولندا إلى فلسطين تعكس واقعاً سياسياً صعباً فعندما يتم استعارة لوحة من متحف إلى آخر تكون الرحلة من المتحف إلى المطار إلى المتحف ولكن الوضع هنا مختلف بسبب إجراءات الاحتلال وتعقيداته».

وعمل موظفان من متحف «فان ابه» على إخراج اللوحة من الصندوق بعناية فائقة داخل غرفة متحف صغيرة تبلغ مساحتها ١٦ متراً مربعاً صممها المهندس أسامة حمدان وفق المواصفات العالمية من حيث وجود أجهزة قياس درجات الحرارة والرطوبة وكاميرات التصوير الخاصة من أجل عرض هذه اللوحة وهي عبارة عن صورة امرأة.

وأوضح بيان صادر عن الأكاديمية «أن هذه اللوحة «صورة امرأة ١٩٤٣» إحدى أبرز الأعمال التي تعبر عن الفترة التعبيرية التي رسم فيها الفنان العالمي بيكاسو وهي الفترة التي رسم فيها متأثراً بالحرب الأهلية في إسبانيا».

ويرى الحوراني وهو صاحب فكرة المشروع الذي يتم توثيقه في فيلم وثائقي يعده المخرج الفلسطيني رشيد مشهراوي سيعرض لاحقاً «أن وجود اللوحة في فلسطين يضع أمام الفن العالمي أسئلة أكاديمية حول علاقة الفن بالسياسة والجغرافيا وبهذا ستكون أول رحلة للوحة بيكاسو التي تمَّ اختيارها من قبل طلبة الأكاديمية من بين مجموعة

من لوحاته رحلة بحث في الأنظمة التي تحكم حياتنا ومسيرتنا في التنقل والعلم.

ونقل بيان صادر عن الأكاديمية الدولية للفنون عن تشارلز ايشه مدير متحف (فان ابه) قوله إن:مشروع بيكاسو في فلسطين جزء من تطور مداه أكثر اتساعاً ففيه يترافق الفن التقليدي الحديث مع التغييرات الثقافية والاجتماعية الجارية من حولنا، وأضاف أن لوحتنا ستتغير برحلتها إلى رام الله وستأخذ معنى إضافياً وستبقى القصة جزءاً من تاريخ هذه اللوحة حتى اللحظة إذ نشعر بأننا نصنع تاريخاً جديداً في هذا المشروع بالبناء على سابق تاريخ اللوحة

ورافق افتتاح هذا المعرض معرضان توثيقيان لرحلة اللوحة من هولندا إلى فلسطين والمراسلات التي تمت من أجل استعارة اللوحة وصور لعملية النقل من هولندا إلى فلسطين في القدس وغزة.[٨]

إيقاعات إفريقية في مهرجان كناوة:

احتضنت مدينة الصويرة المغربية مؤخراً فعاليات الدورة الرابعة عشرة لمهرجان كناوة وموسيقى العالم، حيث عرفت هذه الدورة استمرار التعريف بهذا اللون الموسيقي التراثي، المستمد من الأصول الإفريقية للمملكة المغربية.

وتميزت فعاليات هذه الدورة بغنى وتنوع نشاطاتها التي شملت إقامة ٣٤ حفلاً موسيقياً، في منصتين كبيرتين من بينها ساحة مولاي الحسن، و٣ منصات أخرى صغيرة، فضلاً عن العديد من الزوايا الموزعة عبر مختلف أحياء مدينة موكادور من بينها: زاوية سيدي بلال، أحياها حوالي ٢٨٠ فناناً ومعلماً كناوياً.

ومن بين فعاليات هذه الدورة: إقامة «شجرة الكلمات»، الخاصة بالتعريف بالتقاليد الكناوية، وكذا إبراز مجموعة من المواهب الجديدة في هذه الموسيقى، ضمن سياسة المهرجان، التي ترمي إلى إبراز مواهب جديدة في هذا التراث المغربي الإفريقي إضافة إلى فرق كناوية نسائية متميزة. وشارك في هذه الدورة، نخبة من معلمي الموسيقى الكناوية، من بينهم: محمد كويو، ومصطفى باقبو، وعبد الكبير مرشان، وحميد القصري، ومحمود غينيا، وعلال السوداني.

من جهة أخرى، تعرف هذه الدورة، حفلات استثنائية، مع نخبة من الفنانين، من بينهم المعلم عبد النبي الكدري، من مدينة الدار البيضاء، ومجموعة «رباب فيزيون» من مدينة الصويرة، وفرقة «بنات كناوة» من مكناس، والمعلم عبد النبي المكناسي، فضلاً عن مشاركة الفنان الهندي تريلوك كورتو،

والفنان المالي سليف كاتيا، والفنان الأمريكي كنان، والثنائي الأفغاني الإيراني بيتوين وورلدز، مجموعة «ضركة» الشبابية. تجدر الإشارة إلى أن المهرجان، جرى تصنيفه أخيراً، ضمن الشبكة الدولية للمهرجانات الموسيقية «دو كونسير»، التي ضمت إلى جانبه ٢٣ مهرجانا من القارة الأوروبية، تتميز بعراقتها وأصالتها.(٩)

اكتشاف آثار إسلامية بالأقصر:

كشفت البعثة المصرية العاملة بحفائر منطقة طريق الكباش بمنطقة معبد الأقصر عن بقايا آثار إسلامية وقبطية، تضم كنائس ومآذن ومنارات وقباب قديمة.

وصرح الأثري عبد الجواد عبد الفتاح الحجاجي بأنه بهذا الكشف تصبح منطقة معبد الأقصر تجمعاً فريداً للحضارات والديانات المصرية القديمة والقبطية والإسلامية، مشيراً إلى أنه خلال أعمال الحفائر بطريق الكباش، وهو طريق الاحتفالات والمواكب الدينية المعروف بطريق الكباش، تمَّ العثور على العديد من الآثار القبطية والإسلامية المتمثلة في العتب الأصلي لمسجد المقشقش، وبقايا كنيسة أثرية تعود للقرن الخامس الميلادي، مبنية بكتل حجرية خاصة بمعابد قديمة ترجع للعصر البطلي، وقد تميزت الكنيسة باتباع بعض التقاليد السائدة في العمارة المصرية القديمة مثل الكورنيش الحجري وأعمدة المقاصيد والقبوات وغيرها.

وأسفرت الحفائر عن الكشف عن مقياس للنيل في القطاع الرابع من طريق الكباش من الحجر الرملي موضحاً أن أغلب الظن أن هذا المقياس يعود للعصر القبطي وهو على شكل دائري يحتوي على سلم حلزوني قطره سبع أمتار، وعثر أثناء الحفائر على إناء كان يستخدم في الطقوس الدينية المسيحية يسمى اللقان وهو عبارة عن إناء برميلي مسكور فوهته حتى منتصفه، وعلى معصرتين للزيوت، وتيجان أعمدة وأوانٍ فخارية بعضها مزخرف وبعضها خالٍ من الزخرفة وبعض جدران المنازل المبنية اغلبها من الطوب وترجع إلى أواخر العصر القبطي وأوائل العصر الإسلامي ومن أهم الآثار الإسلامية التي تم العثور عليها بالموقع العتب الأصلي لأحد المساجد وهو مسجد المقشقش كما عثر على مئذنة مسجد يعرف باسم أبو الحجاج والقبة التي تسمى بالاسم نفس ومنارة قديمة ومئذنة مسجد أحمد النجم.

على صعيد آخر، كشف الباحث في علم المصريات الدكتور بسّام الشمّاع النقاب عن أن منطقة «نباتا بلابا» التي تقع بصحراء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النوبة أقصى جنوب غرب مصر، هي مكان انطلاق الحضارة المصرية القديمة ذات المجتمع المنظم والتفكير المبتكر، وقال: إن«نباتا بلابا» كانت مكتظة بالسكان المصريين الأوائل منذ ١٢٠٠٠ عام إلى ٧٣٠٠ عام، أي قبل نشأة الحضارة الفرعونية.

وأوضح الشماع أن هذه المجموعة من المصريين الأوائل تركوا أثراً فريداً هو «دائرة التقويم السنوي» التي هي عبارة عن دائرة من الأحجار تحيط بعدد من الأحجار داخلها تم وضعهما بطريقة فلكية جغرافية دقيقة تنم عن علم دراسة دقيقة لاتجاهات الأرض الأربعة الأصلية، مضيفاً أن «دائرة التقويم السنوي» كشفت من خلال طريقة وضع الأحجار بداخلها أن المصريين الأوائل عرفوا ظاهرة الانقلاب الشمسي وحددوا بداية موسم الأمطار.(١٠)

المكتبة البريطانية تنشر كتباً قديمة:

تعتزم المكتبة الوطنية البريطانية «بريتيش لايبراري» نشر حوالي ٢٥٠ ألف كتاب تعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كانت قد نشرت تحديداً بين العام ١٧٠٠ والعام ١٨٧٠ على موقعها الإلكتروني مجاناً، وذلك في إطار شراكة مع «جوجل» كشف عنها الإثنين ٢٠-٦-٢٠١١.

وذكر أن من بين الأعمال الأولى التي ستصبح متاحة أمام متصفحي الإنترنت، كتيب عن الملكة ماري أنطوانيت إلى جانب مخططات للمخترع الإسباني نارسيسو مونتوريول الذي رسم واحدة من أقدم الغواصات تعود للعام ١٨٥٨.

وكانت «بريتيش لايبراري» هي التي اختارت الأعمال التي سيُعمل على ترقيمها، وقد كتبت هذه الأعمال بكل اللغات الأوروبية، ويمكن الاطلاع عليها على موقع المكتبة الإلكتروني أو على موقع «جوجل بوكز»، حسب ما أوضحت المكتبة البريطانية في بيان صادر بهذا الخصوص، وستقوم جوجل بدفع نفقات رقمنة هذه الأعمال التي تقع في ٤٠ مليون صفحة.

وكان عملاق الإنترنت الأمريكي قد أبرم شراكات من هذا النوع مع أكثر من ٤٠ مكتبة حول العالم، خصوصاً مكتبات جامعتي ستانفورد وهارفرد في الولايات المتحدة وجامعات هولندا وروما وفلورنسا والنمسا في أوروبة.

وتشكل هذه الأعمال البالغ عددها ٢٥٠ ألفا «عينة كبيرة من الكتب والكتيبات والنشرات التي تغطي حقبة شهدت الثورة الفرنسية والثورة الصناعية ومعركة طرف الغار وحرب القرم واختراع سكة الحديد والتلغراف... ونهاية الرق»، حسبما أوضحت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المكتبة البريطانية التي اختارت تمييز الأعمال التي هي غير متاحة حتى الساعة على الشبكة، وما إن تتم رقمنتها، حتى تصبح هذه الكتب جاهزة للقراءة والتحميل والبحث، وقد خزنت في سجلات المكتبة.

وذكرت «بريتيش لايبراري» أن «الباحثين والطلاب والمستخدمين الآخرين بإمكانهم الاطلاع على مضامين هذه الوثائق التاريخية... ونسخها وتشاطرها والتصرف فيها لغايات غير تجارية».(١١)

اكتشاف حي سكني في سبأ الأثيوبية:

قام فريق علمي تحت إشراف الجيوفيزيائي الألماني يورغ فاسبيندر في جامعة لودفيج ماكسيميليان في ميونخ وباول فولف من معهد الآثار الألماني في برلين باكتشاف آثار تجمع سكني في الهضبة الأثيوبية يرجح أنه هو الأقدم في سبأ الاثيوبية.

وذكرت الخارجية الألمانية في تقرير لها أن اكتشاف آثار وجود هذا التجمع تم بوساطة مقياس مغناطيسي محمول، والذي سمح بتسجيل أقل الحركات في المجال المغناطيسي للأرض، حيث يسجل كل موضع في هيئة شبكة متداخلة دقيقة وبمنتهى الحساسية.

وقد أوضح مدير الحفريات في المنطقة قائلاً: إن «الأبحاث كانت مكللة بالنجاح. وما إن بدأنا بالحفائر التجريبية اصطدمنا بجدران حجرية محطمة، ورفات موتى وبقايا نار إضافة إلى مخلفات حي سكني مثل عظام حيوانات وقطع من الخزف تنتمي لعصور زمنية مختلفة» حسب تعبيره.

وعُثر أيضاً على شقف تعود طبقاً لمواصفاتها المميزة إلى الأعوام الألف الأولى قبل الميلاد. وفي هذا الوقت كان مكان الاكتشاف ينتمي إلى مملكة لم تحظَ حتى الآن بدراسة وافية وهي مملكة «ديامات» السبئية التي صاغت ثقافة القرن الأفريقي الشمالي صياغة فاصلة.

أماكن كثيرة مكتشفة ومن ضمنها معابد تنتمي لهذا العصر معروفة ويقوم باحثون من المعهد الألماني للآثار بدراستها، أما الحي السكني المكتشف الآن يمكن أن يمدنا ببقايا قرية سكنية عادية، وبالتالي تعطينا تصوراً عن الحياة اليومية للناس، أو هكذا يتمنى الأثريون.

إن آثار حضارة سبأ ليست موجودة فقط في القرن الأفريقي، إنما أيضاً في جنوب شرق الجزيرة العربية في اليمن حالياً، صنع السبئيون هناك حضارة متقدمة يستند رخاؤها قبل أي شيء على سيطرتها على طريق التوابل، بدأ الازدهار في القرن التاسع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبل الميلاد، وبدأ في الاندثار مع دخول الإسلام في القرن السابع بعد الميلاد.[12]

رحيل كريستين نوبلكور:

بعد حياة حافلة بالعطاء وروح الاكتشاف المغامرة رحلت عالمة المصريات الفرنسية الشهيرة كريستين ديروش نوبلكور عن عمر يناهز الـ٩٧ عاماً ببلدة سيزان الفرنسية حسبما ذكر ناشر أعمالها.

وقد ساهمت نوبلكور خلال مسيرة حياتها الطويلة في إنقاذ معابد النوبة من اجتياح مياه سد أسوان وبحيرة السد العالي، بجنوب مصر، وبمساعدة المثقف الفرنسي الكبير أندريه مالرو، وزير الثقافة في عهد الجنرال شارل ديغول في حقبة الستينيات من القرن الماضي.

وقد أطلقت نوبلكور عبر منظمة اليونسكو، حملة عالمية لجمع الأموال الكفيلة بحماية آثار النوبة، ونجح المشروع في نقل ١٤ معبداً من المواقع التي غمرتها المياه، إلى أماكن آمنة.

يذكر أن نوبلكور تعد أول امرأة تشغل منصب المقيم في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، كما كانت أول امرأة تقود فريقاً للتنقيب عن الآثار، عام ١٩٣٨، وعملت الراحلة محافظة لقسم الآثار الفرعونية في متحف «اللوفر»، المنصب الذي كان يشغله العالم الفذ شامبليون، ونشرت الكثير من الدراسات والكتب المصورة عن معابد مصر ومومياءاتها والكنوز المكتشفة تحت الأهرام أو تلك التي ما زالت مطمورة في الأقبية وتحت التراب.

كما ساهمت مؤلفات نوبلكور ومحاضراتها في نشر ما بات يوصف بالهوس الفرنسي بآثار مصر وتشجيع السياحة إلى أسوان والأقصر، إضافة إلى القاهرة والإسكندرية، كما شاركت نوبلكور في الحفاظ على مومياء الفرعون المصري رمسيس الثاني، ونظراً لجهودها الكبيرة منحت كريستين ديروش نوبلكور العديد من الجوائز حيث منحها الرئيس السابق جاك شيراك عام ٢٠٠٥ «وسام الشرف الفرنسي» بمرتبة ضابط كبير.[13]

إحالات

١- وكالة الأنباء الجزائرية

WWW.APS.DZ.

٢- وكالة أنباء الخليج

WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣- شبكة المعلومات العربية المحيط

WWW.MOHEET.COM

٤- موقع البوابة

WWW.ALBAWABA.COM

٥- موقع القناة

WWW.ALQANAT.COM

٦- موقع العرب أونلاين

WW.ARABONLINE.CO

٧- موقع إيلاف

WWW.ELAPH.COM

٨- وكالة رويترز

WWW.REUTERS.COM

٩- وكالة المغرب العربي للأنباء

WWW.MAP.CO.MA

١٠- وكالة أنباء الشرق الأوسط

WWW.MENA.ORG.EG

١١- موقع نسيج

WWW.NASEEJ.COM

١٢- موقع آكي

WWW.ADNKRONOS.COM/AKI/ARABIC

١٣- أخبار مصر

WWW. NEWS.EGYPT.COM

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب الشهر

الرؤية المنظوماتية للعالم

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتاب مثار التقديم في هذا العدد، يتمحور حول قضية علمية غاية في الأهمية تدور في تلك «الرؤية المنظوماتية للعالم» بوصفها نظرة كلانية إلى عصرنا. الكتاب من تأليف العالم: «أرفين لاشلو». قام بترجمته إلى اللغة العربية الأستاذ المتخصص في مجال العلوم والباحث والمدرس لها «معن رومية». الكتاب صادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب في وزارة الثقافة السورية، ويقع في /١٢٧/ صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

✿ باحث سوري.

تقديم..

إذا أردت تغيير العالم، فينبغي عليك فهم طبيعة هذا العالم. وإذا أردت فهمه فعليك أن تفسر ما تَخْبَر وتعرف عنه مستخدماً بعض الفرضيات المعقولة. ثمة كثير من هذه المفاهيم التجريبية، يزودنا الحس المشترك المعتاد بتنوع من المفاهيم التجريبية، وهذا يتغير بحسب الحساسيات الفكرية والانفعالية للشخص وبحسب دوره الاجتماعي. لكن المفهوم عن العالم التجريبي والوحيد الذي يخضع باستمرار للاختبار والبناء النقدي يأتي من العلوم التجريبية المعاصرة. وإذا أردنا فهم العالم الذي حولنا، فإن أفضل خيار لنا هو التوجه نحو العلوم المعاصرة من أجل الوضوح. والمشكلة التي تواجه كلاً من العلم ومجتمعات الأشخاص المعنيين تكمن في شرح وتوضيح الرؤية الضمنية وتسديدها إلى القضايا التي تهيمن حالياً على عقولنا والتي سوف تقرر مستقبلنا. دعونا لا نتخلف عن القيام بأفضل ما يمكننا من أجل الوصول إلى فهم واضح لهذه الرؤية.

❁ ❁ ❁

الرؤية الذرانية والرؤية المنظوماتية.

تشكل العالم المعاصر بوساطة نمط من التفكير وضع المعرفة المحصلة المفصلة والمضبوطة فوق الجميع. وهو فكر مؤسس على ما هو اعتقادي أصلاً، والذي يؤسس لقدرة العقل البشري على التخزين ومعالجة المعلومة. فالأفراد يستطيعون العمل في فريق، وما يعرفه الفرد يكمله الآخر. هذا هو مثال التخصص الذي قاد إلى خطوات في العلوم والتقانات العاملة في معرفة الأجيال الحالية.

يفرض موضوع الاختصاص الوحدة العملية في العمل ضمن التخصص الواحد. مما يعني ربط المسابر مع بعضها وإحراز نوع من البصيرة المستقلة لكل ما هو موجود.

فإذا كان مثل المعلومات الدقيقة قد ذرَّر فهمنا إلا أنه منحنا تقديراً سليماً لمعرفة المخْبَرة ولسنا براغبين على الصبر على النظريات التي ترتق فجوات المعرفة بالنية أو الخيال. وهي ليست الطريقة الوحيدة لإحراز رؤية للعالم متكاملة ومتماسكة. فنحن نملك حالياً أسس مثل هذه الرؤية للعالم. وهي الفلسفة الأولى أو المنهجية للعلوم المعاصرة. فثمة نموذج إرشادي صاعد تمتلكه لتطوير المعلومات. وهي على صعيد المستقبل المنظور.

❁ ❁ ❁

ما هي المنظومة؟

في تاريخ العلوم الأوروبية تناوبت طريقتا التفكير الذرانية والكلانية. وتشهد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليوم انزياحاً آخر في طرق التفكير نحو نظريات دقيقة لكنها كلانية رغم ذلك. ويمنحنا التفكير المنظوماتي منظوراً كلانياً لرؤية العالم من حولنا. إنها طريقة في التنظيم تستخدم لغة المنظومات والخصائص المنظوماتية والعلاقات بين المنظومات. إذ الأنواع الجديدة الناشئة من المنظومات، من قبيل منظومات الحاسوب التي تشمل عتاداً وبرمجيات ليست مجرد تصاميم هذه المنظومات. إن التحدث عن المنظومات هو بالطبع تبسيط لكنه ليس اختزالاً. لكن هذه العلوم لا تعتقد الاختزال بحذف كل ما هو أساسي بالضبط: تنظيم المواد في كليات وظيفية متنوعة. العلم المعاصر يركز على التنظيم: على كيف تتبنى مجموعات من الأحداث؟ وكيف تعمل بالعلاقة مع بيئتها، على نحو مماثل لبنائها في المكان والزمان؟

هذه هي ثوابت السيرورة المرتبطة بمنظومة العالم الواقعي. هناك ثوابت ذات درجات مختلفة من العمومية توافق أي شيء نواجهه في تجربتنا. إن مفاهيم (الحياة) و(المادة) قد فقدت الكثير من جدواها كمقولات معرفية نهائية للأشياء في ضوء ثوابت التنظيم. إن مفهوم المنظومة الطبيعية رحب وواسع. والكائن البشري منظومة طبيعية. كلما ازدادت عمومية المفهوم امتد

أكثر الثابت الذي يصفه يخبرنا أقل حول الخصوصيات الفردية للشيء وما يشترك به مع أشياء أخرى. هذا هو منهج التعريف بالتوصيف. يتضح منه أن التفصيل والتعميم مترابطان عكسياً. إننا منظومة طبيعية أولاً، وكائنات حية ثانياً، وكائنات بشرية ثالثاً. وأعضاء في مجتمع وثقافة رابعاً، وأفراد معنيون خامساً.

٭ ٭ ٭

الرؤية المنظوماتية للطبيعة.

ما هي الخصائص التي يجب أن يحوزها أي شيء ملاحظ إذا كنا سوف نعده منظومة طبيعية؟ إن الفائدة الكبرى لهذا المنهج تتمثل في فعاليته: فقد لا تكون على صواب لكننا نعرف ما نبحث عنه. إذن،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ماذا يجب أن تكون خصائص الموضوع إذا أردنا اعتباره منظومة طبيعية؟ إن انبثاق نظريات التشاكل Ismorphic والمفاهيم الموازية في علوم طبيعية واجتماعية متنوعة يتيح لنا صوغ الثوابت التنظيمية المطلوبة. تتخلل هذه الثوابت مجالات الظواهر الاجتماعية والبيولوجية والفيزيائية وتطبق على المنظومات ذات التعقيد المنظم، أينما وجدت، ومهما كان أصلها. لدينا أربع قضايا مترابطة كل منها تقبض على ثابت تنظيمي، وتشكل مجتمعة الخصائص الأساسية للكيانات الفيزيائية والبيولوجية والاجتماعية في ضوء ما يمكن لكل كيان فيها اعتباره منظومة طبيعية، وهي:

١- المنظومات الطبيعية كليات ذات خصائص غير قابلة للاختزال.

٢- المنظومات الطبيعية تحفظ ذاتها في بيئة متغيرة.

٣- المنظومات الطبيعية تخلق ذاتها استجابة للخلق الذاتي في المنظومات الأخرى.

٤- المنظومات الطبيعية بنيات تنسيقية في تراتبية الطبيعية.

* * *

الرؤية المنظوماتية لذواتنا.

نظر علماء وفلاسفة العصور القديمة إلى ظاهرة الإنسان في سياق كوني ورأوا أنه لفهم البشر يجب على المرء فهم عالمهم. وعلى عكس المذهبين الذري والسلوكي، تربط الرؤية المنظوماتية من جديد الكائن البشري بالعالم الذي يعيش فيه، طالما أنه ينبثق في ذلك العالم ويعكس سمته العامة. وفي الفكر المنظوماتي المعاصر ليس الكائن البشري ظاهرة فريدة، بل موجود طبيعي ومقيم في عوالم متعددة مترابطة. وهو أصلاً متعضٍ بيولوجي، ومن حيث العمل حامل لدوراً اجتماعي، ومن حيث الشخصية الواعية رابطة تتوجه بدئياً لمعاملة وتنسيق العوالم البيولوجية والاجتماعية. فالكائن البشري بنية منسقة في التراتبية المتعددة المستويات للطبيعة. الكائن البشري إحدى اللوحات في البنية المتعددة المستويات التي انبثقت عن وجه الأرض كنتيجة لميل الطبيعة نحو البناء التدريجي في مكان ما تفككه في أماكن أخرى. وإن الكائن البشري جزء من بناء فخم ذي تفاصيل هائلة ومعقلنة. كل الأشياء الجزئية تعبر عن خاصية الكل. ومع ذلك ليست كل الأجزاء بالشيء ذاته. هذا هو المفهوم المنظوماتي للطبيعة وهو شرط مسبق للوصول إلى معرفة ذواتنا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

[redacted]

قطوف سامقة

رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تزخر كتب التراث العربي شواهد لا تعد ولا تحصى عن سمات إنسانية تميزت بها حضارتنا العربية في عصورها وعهودها العديدة ومن يقارن بين هذه الشواهد والنصوص التي يعود تاريخها في كثير من الأحيان إلى ما قبل الإسلام بقرون، يجدها ما زالت صالحة لعصرنا ولعصور قادمة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على عظمة الإنسان العربي الذي صنع حضارات وطوّر مفاهيم وأبدع إنجازات سامقة حتى يومنا هذا..

* * *

دخل الأحنف بن قيس على الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد بين يديه ينظر إليه بإعجاب، فقال معاوية: يا أبا بحر، ماذا تقول في الولد؟ فعلم الأحنف ما أراد فقال: هم عماد ظهورنا، وثمر قلوبنا، وقرّة أعيننا، بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منّا لمن بعدنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماء ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم، لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك. فقال معاوية: لله درك يا أبا بحر، هم كما وصفت.

* * *

شهد رجل عند ابن سوّار القاضي بالرصافة ببغداد، فقال له: ما صناعتك؟ قال: مؤدب. قال: فإنا لا نجيز شهادتك!! قال: ولِمَ؟ قال: لأنك تأخذ على تعليم القرآن أجرة! قال: وأنت تأخذ على القضاء بين الناس أجرة!! قال: إني أكرهت على القضاء. قال: أفأكرهت على أخذ الرزق؟! قال: هلمّ شهادتك، وأجازها.

* * *

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان سليمان بن عبد الملك يخطب على المنبر، فناداه رجل: أبا سليمان أبا سليمان، اذكر يوم الأذان، فنزل عن المنبر ودعا الرجل فقال: أنا سليمان فما يوم الأذان؟ فقال: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» -سورة الأعراف ٤٤- قال: فما مظلمتك؟ قال: أرضي وأرض آبائي اغتصبنيها وكيلك بموضع كذا وكذا. فقال سليمان لكاتبه: أكتب إلى وكيلنا يرد عليه ضيعته وضيعتنا إلى ضيعته.

* * *

كتب عامل حمص إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز: «إن مدينة حمص قد تهدّم حصنها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه» فكتب إليه عمر: «أما بعد فحصّنها بالعدل والسلام».

* * *

أحضر هارون الرشيد رجلاً ليوليه القضاء فقال له: إني لا أحسن القضاء، ولا أنا فقيه!. فقال الرشيد: فيك ثلاث خصال، لك شرف، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة، ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلّ خطؤه، وأنت رجل تشاور في أمرك، ومن شاور في أمره كثر صوابه. وأنا الفقيه فسينضم إليك من التفقه به.. فولي، فما وجدوا فيه مطعناً.

• • •

دخل الأشعث بن قيس على شريح القاضي في مجلس الحكومة، فقال له شريح: مرحباً وأهلاً بشيخنا وسيدنا وأجلسه معه، وبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم على الأشعث، فقال شريح للأشعث: قم فاجلس في مجلس الخصم وكلّم صاحبك. قال: بل أكلمه في مجلسي. قال شريح: لتقومن أو لآمرن من يقيمك. قال الأشعث لشد ما ارتفعت! قال شريح: فهل رأيت ذلك ضرّك؟ قال: لا. قال فأراك تعرف نعمة الله على غيرك، وتجهلها على نفسك.

• • •

قيل لهارون الرشيد: إن عبد الملك بن صالح يُعد كلامه، ويفكّر فيه فكذلك بانت بلاغته! فأنكر الرشيد ذلك وقال: بل هو طبع فيه، ثم أمسك حتى جلس يوماً ودخل عبد الملك. فقال الرشيد للفضل بن الربيع، إذا قرب من سريري فقل له: ولِد لأمير المؤمنين هذه الليلة ابن ومات ابن!! ففعل الفضل ذلك، فدنا عبد الملك فقال: «يا أمير المؤمنين سرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بواحدة، ثواب الشاكر، وأجر الصابر.

فلما خرج قال الرشيد: هذا الذي زعموا أنه يتصنع الكلام ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة!